رؤىً على أشرعة الفجر

حين الكلمات التهبت وتوهّج الكفاح

الدكتورة نجاح العطّار

رؤىً على أشرعة الفجر

حين الكلمات التهبت وتوهّج الكفاح

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

رؤىً على أشرعة الفجر / حين الكلمات التهبت وتوهج الكفاح /
نجاح العطّار .– دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب ، ٢٠١٧ .–
ص ؛ ٢٤ سم

١ -   ٢ - العنوان   ٣ - العطّار

مكتبة الأسد

تقديـم

الثقافة هي الحاجة العليا للبشرية(*)

إذا تجاوزنا عن قصد له ما يبرره، اللفظة الشعرية، في بحث كنا نريده نثراً شعرياً، فمرد ذلك إلى أننا، في موضوع الثقافة، نسعى إلى تقرير وقائع، نبحث لها عن المعنى المعبر، قبل النغمة المموسقة، ولا خلاف في ذلك، مع ان الكلام على الأشـياء، مـن خـلال وظائفهـا المعرفيـة، يـسمح باقتنـاص فراشـات حقـائق، لا فراشـات ورود، ونحن إلى الأولى أحوج. لهذا فإن الأمر يتطلـب دخـولاً مبـاشراً في الموضوع، اختصاراً للوقت، وتكثيفاً للجملة الدلالية.

من هنا أقول، ببساطة تعطي ذاتها، إنّه ليست اللقمة وحـدها، بل الكلمة معها، هما الركيزتان الأساسيتان لنشوء البشرية وتطورها

(*) رأيت، إنصافاً للراحل الكبير الرئيس حافظ الأسد أن أجعل مـن هـذه المحـاضرة التي ألقيتها في جامعة دمشق عام ١٩٨٥، حين كنت وزيرة للثقافـة، مقدمـة لهـذا الكتاب، لتكون أيضاً شهادة عـلى مـا تمكنـا مـن تقديمـه للحيـاة الثقافيـة امتثـالاً لتوجيهاته التي جعلت من الثقافة حاجة عليا، ولم تضنّ بتوفير كل مـا يمكـن مـن دعم للعمل الثقافي.

عبر العصور التي لا حد لارتدادها في الزمن، ولا حد لامتدادها غير المعروف إلا جيولوجياً، ومن خلال تقدير العلماء لعمر الأرض، وعمر الإنسانية التي عاشت عليها. ذلك أن التفاعل والتبادل، بين الكلمة واللقمة، قد كانا وجوداً، وسيبقيان وجوداً، ودونهما لا يمكن أن يستقيم عيش في دنيانا التي تزدهي، في قرننا العشرين هذا، بكل هذه المنجزات التي حققتها.

ففي اللقمة، أو في الخبز كما جاء في تعبير السيد المسيح، قوام الجسد، وفي الكلمة التي بها يحيا الإنسان أيضاً، يتمثل قوام الروح التي يصوغها العقل المدبر للإنسان، بما هو معرفة تتمثل في صناعة الخبز، من استنبات حبة الحنطة في التربة، إلى حصادها وتذريتها وطحنها وعجنها وإنضاجها، ويعود الخبز، بما هو مادة، ليكون أساساً في ديمومة الحياة، مبدعة العقل الذي منه المعرفة، وعلى هذا النحو كان التفاعل، وهو كائن كل يوم، بين المعرفة التي هي وعي، وبين المادة التي هي نتاج هذا الوعي حين يكون واقعاً عنه يتخلق الفكر، وعلى مهاده ينشأ.

ولن أدخل في نقاش فلسفي عن أسبقية الفكر على الوجود، أو أسبقية الوجود على الفكر، فالفلسفة أساساً، هي، في الجوهر، معرفة الوجود، ومسألتها، بكل ضخامتها، هي الوجود أيضاً، وعلاقة الفلسفة به، وقد طال النقاش، كما تعملون، بين المثالية والمادية، حول أولوية الفكر على الواقع، أو أولوية الواقع على الفكر، لكن الفلسفة اليونانية نفسها، قالت إنه لا شيء يخرج من

لا شيء، وهكذا فإن الفكر لا يمكن أن ينشأ من عدم، ولا بدَّ له من واقع، أصل، معطى، وفي هذه النقطة تفقد المثالية ركيزتها، وتصبح سابحة في الفضاء، وتأتي المادية، لا بصفتها الميكانيكية، الكتلوية، بل باعتبارها واقعاً كان الشيء الأول، ثم نشأت عنه الأشياء الأخرى، في صياغتها الفلسفية التي احتلت مكانتها الوطيدة، من هيغل إلى ماركس، ومن بعدهما الفلاسفة الذين أسسوا على المادية، بما هي كائن، كل نظرياتهم التي منها الاشتراكية.

إذن فإن اللقمة التي هي بدء، قد اقترنت، وتفاعلت، مع الكلمة التي هي بدء أيضاً، وانقسم الوجود إلى حاجة دنيا وحاجة عليا، تتواصلان، تتفاعلان، وينتج عن تواصلهما، وتفاعلهما، ما يسمى في علم الاقتصاد السياسي اليوم، البنية التحتية، والبنية الفوقية، وهاتان البنيتان، المجتمعتان والمفترقتان، تشكلان سبب الوجود الإنساني على الأرض، وهما وحدة في ذاتهما، لكنهما متضادتان في قلب وحدتهما، بمعنى أن البنية التحتية، الاقتصاد، تلتحم بالبنية الفوقية، المعرفة، وتنفصلان في كونهما مستقلتين، لأنه لا اقتصاد، ولا علم، ولا مادة، دون معرفة، ولا معرفة دون اقتصاد وعلم ومادة، وتظل الأسبقية، في النظرة غير المثالية، للبنية التحتية التي تنتج، عبر العمل، البنية الفوقية، أي المعطى الأعلى، ومن هنا كانت الثقافة هي الحاجة العليا للبشرية، باعتبارها هذا المعطى، ومن هنا كان الرئيس حافظ الأسد، علمياً، نظرياً، في مقولته الصائبة، التي تحدد الثقافة بأنها الحاجة العليا، الفوقية، التي تعود

فتعطي تأثيرها على الحاجة التحتية، وفتح لنا المجال، من هذا المنطلق، لنبحث في الثقافة، وما تتطلبه من عمل لتكون بناء فوقياً، معرفياً، يفعل ويتفاعل مع البناء التحتي، الاقتصادي، بحيث ترتبط الثقافة بالتنمية ارتباطاً وثيقاً، بما تقدمه من معارف ضرورية وهامة، للعاملين التنمويين، وبما تؤهل من ملاكات، تأهيلاً نظرياً وعملياً، للقيام بالتنمية، التي غدت في عصرنا تخطيطاً وبرمجة، ممارسة وتطبيقاً في شتى حقولها، وسائر ميادينها، كي تعود، هي ذاتها، فتنتج معارف تغني الثقافة، وتساعدها على التفتح والازدهار.

إن هذه العملية المعقدة، والمركبة، للبناءين التحتي والفوقي، تحتاج إلى وعي كبير، ومعرفة واسعة، وعلوم في شتى الفروع، فليس يصح في عصرنا، ان نترك القاعدة الاقتصادية، أو البناء الاقتصادي، أو التنمية التي هي كلاهما، للتطور التلقائي، أو العمل النمطي الذي يكرر نفسه، أو المعارف المكتسبة من التجارب، أو الخبرات الناتجة أو المتوارثة، بل لا بدَّ من سباق مع الشوط الحضاري، في اكتساب العلوم، وإجراء الاختبارات، والإفادة من الاختصاصات، وفوقها اختصاصات الاختصاصات، كما هي الحال في الهندسة أو الطب أو الكيمياء أو الفيزياء أو الإلكترون، وكذلك في التخطيط، والإدارة والتنفيذ. وهذا كله يتطلب معرفة، والمعرفة هي الثقافة، هي الحاجة العليا، التي تنمو وتتطور وتتفتح، وتتشقق، وتتفرع، وتغتني بجهدنا، وبعمل متواصل، مضن، دؤوب، منا، بدءاً من التربية والتعليم، والتحصيل بكل درجاته

وفروعه، وانتهاء بالثقافة في كل نشاطاتها، وكل عمليتها الحية، التي تنتج وسائل المعارف اللازمة والضرورية للبحث العلمي، والاختصاص النوعي.

إن البناء الفوقي، بهذا المعيار، ينبغي العمل على بنائه أيضاً، لذلك علينا أن نحدد، بدقة كبيرة، أسلوبنا في العمل الثقافي، كوسائل إنتاجه، وفروعه، وميادينه، ومبادئ التوجيه فيه، والنقد والمناقشة والدعم، والسماح بما هو نافع، وحجب ما هو ضار، هذه الفعاليات التي تتيح فسحة للمناقشات الجارية، أو التي ستجري، ضمن ورشات الإبداع، ومن منابر الرأي، وفي وسائل الإعلام، وبكل الطرق الممكنة والمتوفرة، لدراسة وتمحيص عمليتنا الثقافية إنتاجاً واستهلاكاً، تواجداً وانتشاراً. وبمثل هذا الأسلوب المنفتح، المطروح للنقاش، القابل للنقد، والمستفيد منه، حين يكون بناء، يمكن أن يتطور العمل الثقافي، وأن تتسع، آفاقه، وأن يتمدد ليشمل القطر كله، ويعود بالفائدة المتوخاة منه.

ولا يكفي أن نقرر تلك العلاقة الحقيقية، غير القابلة للانفصام، بين السياسة والثقافة. نحن نعترف انها علاقة وثيقة، فالسياسة، دائماً، في القيادة، وهي تقود الثقافة، لكن الثقافة، بدورها، تجلو الآفاق أمام السياسة، وتقدم لها المعطيات، وتكون، في نتاجاتها المختلفة، بمثابة مرايا تنعكس فيها القضايا والمشاكل والهموم التي تشغل الناس، وتستحوذ على تفكيرهم، وتثير شجونهم، وفي هذه المرايا العاكسة يمكن للسياسة أن ترى نفسها،

وتطالع أهدافها، وتتعرف إلى نواقصها، وتـتفهم قـضايا ومـشاكل الشعب، على نحو أفضل، وتعمل، تبعاً لذلك، بشكل أفضل. غـير أن العلاقـة، بـين الـسياسة والثقافـة، مهـما تكـن وثيقـة، ليـست ميكانيكية، فللميدان الثقافي، بالضرورة، بعـض الـسمات الخاصـة، التي علينـا أن نراعيهـا، وأن نتعهـدها، ونأخـذها في حـسابنا، ولا نقسرها على ما نريد، لأن الإكراه يمكن في كل شيء، وله قابليـة في كل ميدان، إلا ميدان الثقافة الإبداعية، التي تقـوم بمهمـة جليلـة، مركزية، هي تربية كل ما هو جمالي في الإنسان، عبر وسائل الإعلام، وبواسطة المؤسسات الثقافية.

وهذه التربية التي كثيراً ما تحدثنا عنها، والتي تـشمل المـواطن والوطن، وترسخ في الإنسان العربي، حـب الـوطن، حـب الأمـة، واجب المسئولية، واجب بناء الوطن اقتصادياً واجتماعياً وعـسكرياً وثقافياً، وتنقل إليه، لا الوعي بضرورة الوحدة العربية هدفاً أسمى فقط، بل بحتمية قيامها، إذا ما أراد العرب إنهاء التجزئـة القائمـة، والتي تجعل من الأقطار العربية جزراً متفرقة، متباعـدة، متنـاحرة، ممزقة الأوصال، وذلـك في سـبيل بنـاء الدولـة العربيـة الواحـدة، العصرية، القوية، ذات المكانة العالمية الكبيرة، التي يرهب الأعـداء جانبها، وتتوصل، عن طريـق وحـدتها، إلى التكامـل الاقتـصادي، وتوحيد الـسياسات الخارجيـة والدفاعيـة، وتبنـي وطنـاً عربيـاً ذا إمكانات وطاقات لاحدّ لسعتها وقدراتها وفعالياتها. وهذه الوحدة السياسية التي نتحدث عنها، والتي كانت، وستبقى، الهدف الكبير،

والخطير، بالنسبة للأمة العربية، تلعب الثقافة دوراً بارزاً وممهداً لها، عن طريق الوحدة الثقافية العربية، ونشر المعرفة والوعي، حول قضية من هذا النوع، هي ثقافية وسياسية في آن، في عصر تتكتل فيه الدول، وتقوم الوحدات الدولية، وفي زمن الأمم التي تنبعث من رماد العدم إلى يقظة الحياة، وامتلاك مقوماتها الفعلية.

ونحن نعرف، من تاريخ الأمم، ووحداتها في التاريخ، أنّ الثقافة كانت عاملاً أساسياً في قيامها، بما نشرت من وعي حول أهميتها وضرورتها، وبما أسهمت فيه من جهد فكري تنويري، كان أرضية قامت عليها وحدة الأمة وسيادتها وقوتها.

لهذا فإن الثقافة هي الحاجة العليا للبشرية، وبالتالي الحاجة العليا للأمم، وهي حاجة شديدة الخصوصية، حتمية الصيرورة، لازبة الضرورة، في نشوء الأمم، ووحدتها، وفي صنع فكرها الوطني القومي، وتحقيق انطلاقتها، عبر العلوم بكل فروعها، والاختصاصات بكافة مجالاتها، في تحقيق قيام نهضة صناعية زراعية عصرية، مؤسسة على العلم والمعرفة والثقافة، بما تشتمل عليه من أدب وفن.

إن الفن يتفاعل بشكل وثيق وخلّاق مع الوعي. والعلاقة بينهما جدلية، فالفن ينشئ وعياً، والوعي يعطي معرفة، أي وعياً، وكل المسألة تكمن في طبيعة هذا الوعي، والهدف الذي يخدمه، وفي مثل وضعنا، فإن هذا الوعي يخدم هدف وحدتنا السياسية، ووحدتنا الثقافية، وقبل ذلك، ومعه أيضاً، مسألة تحررنا الوطني

وتقدمنا الاجتماعي، والمساعدة على تنفيذ التنمية، التي وحدها تخلق القاعدة المادية للاشتراكية.

ثم إنّ هذا الوعي، بما يبني من معرفة، وما ينتج من ثقافة، هو أصل في الاكتشافات الفنية، التي تؤدي بدورها، مهمة عنصر فعال وبارز ومساعد في التنوير العقلي، وتتأكد، في الواقع، كمهمة ذات دور عظيم واستثنائي في التحفيز على خلق الفكر النظري، هذا الذي نحتاجه فلسفياً، وعلمياً، وثقافياً، وثورياً، لأنه لا ثورة دون نظرية ثورية، كما هو معروف، ولا فلسفة، أو علم، أو اقتصاد، أو اجتماع، أو أدب، أو فن، دون فكر نظري يسبقه، وينفعل به، ويتفاعل معه.

فإذا كانت لنا نظرية ثقافية، تشمل حقول المعرفة والأدب والفن، فإننا ملزمون، عندئذٍ، أن نميز بين ثقافة وثقافة، وأن نأخذ بالثقافة التي تخدم قضيتنا، تخدم فننا، والمعيار الرئيسي لتقييم الأهمية الاجتماعية لأي عمل فني كان، وما يزال، اتجاهه الإيديولوجي، أي نسقه الفكري، تاريخياً واقتصادياً واجتماعياً، مادامت الإيديولوجيا كأنساق فكرية، تنقسم أيضاً إلى إيديولوجية ثورية، تقدمية، تحررية، وإيديولوجيات معادية للثورة، رجعية، تخدم أعداء التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي.

على هذا فإن الإيديولوجيا، بنسقها الفكري، تدخل، وتنبث، وتصبح نسيجاً في كل عمل فني، وهذه الإيدلوجيا، في العمل الفني، ذات مضمون معرفي، تنتج، وتعيد إنتاج المعرفة، وكل معرفة

ذات نظـرة إلى العـالم، والفـن، محكومـاً بهـذا الـشرط، يحمـل إيديولوجيته، لكن فحواها، مؤداها التوجيهي، لا يحمل بالـضرورة رسالة سياسية مباشرة، وإلا كان فناً مباشراً، موجهاً، فظاً، وانتفت منه الإبداعية التي هي نظـرة متكاملـة، نظـرة تحتـوي خطابهـا مـن خلالها، وبدلالة حدثها.

في هـذه النقطـة، ينبغـي التفكـير الجـدي، فالـسياسة تتـصل بالثقافة لكن لكل منهما خطابه الخاص، وعلى السياسة ألا تفـرض، وهي لا تستطيع أن تفرض، وإلا فـشلت، خطابهـا الـسياسي عـلى الثقافة بما هي فن، لأن للفن خطابه الخاص، وهذا التمايـز ضروري أقصى الضرورة، ومدعاة للتفريق بين الجودة والرداءة، لأن قـصيدة ما، أو قصة، أو رواية، أو مسرحية أو لوحـة، أو فـيلماً، أو لحنـاً، أو أغنية، تحمل دلالة سياسـية، غـير أنهـا تمتلـك خطابهـا الفنـي غـير السياسي، وإلا فإنها فقـدت جودتهـا، أصـالتها، وسـويتها الفنيـة، وغدت كلامـاً مبـاشراً، وشـعاراً تخدمـه المقالـة، بـأكثر ممـا تخدمـه القصيدة، أو قولاً ذا طابع إعلامي، مباشر، أكثـر ممـا هـو روايـة أو قصة أو مسرحية، الخ.. وقد كان النقد الأدبي، قديماً وحديثاً، متفقاً على هذه النقطة، ولعله في أيامنا هـذه، بـما تـوفر لعلـم الجـمال مـن نظريات، يتشدد، ويفرق، ويطرح كل عمل فني لا يمتلـك خطابـه الخاص، أو ذاتيته الخاصـة. ومـن يـسقط الأفكـار، اعتـسافاً، عـلى الأجناس الأدبية أو الفنية، فإنه يـصنع أي شيء إلا الأدب والفـن، ويفتقر لا إلى الموهبة وحدها، ولا إلى العبقرية العظيمة بمجدها، بل

تنعدم لديه الذات الإبداعية نفسها، ويخرج عمله من دائـرة الثقافـة الحقيقية، ويفقد تأثيره على الناس، بل يظل خارج عتبات النفـاذ إلى النفـوس، والانـسراب إلى المخـيلات، في المـدى الـذي يتيحـه لهـا الإبداع، لتصبح مخيلات غنية، وخصبة بدورها.

إن الأديب، أو الفنان، في هذه الحال، لا يرى بعيني نفسه، ولا يعتمد معاناته، وعملية الانعكاس التي تحمل قيمـة فائقـة الأهميـة، تكون سطحية، ميكانيكية لديه، وما عاشه ورآه، لم يدخل ذاتـه ولا نضج فيها، أو صـدر عنهـا، ويكـون الانعكـاس، في هـذه الحـال، محاكاة، تقليداً، إفرازاً خارجياً، لا يلامـس الـروح، ولا يتركـب في قاعها، وتصبح العملية الانعكاسية تلقيـاً ظاهريـاً، عارضـاً، تفقـد نسغها التركيبي، ومعلميتها، وتصدر عن ظاهر الشعور لا الـشعور ذاته، بما هو إحساس انفعالي، مؤسس على المعاناة، وعلى المـشاهدة، والمعايشة والتجربة والتمرس.

لقد كان غرامشي على حق عنـدما قـال إنّ الكاتـب أو الفنـان يرى ويدرك العالم، إلى حد كبير، من خلال ذاتيته، هذه الذاتية التي هي أحـد القـوانين الأساسـية للتعبـير الفنـي. وأضـيف إلى كـلام غرامشي أن الذاتية المبدعة التي عناها، هي التي يندمج فيها الخاص بالعام، ويتحول كل منهما إلى الآخر، في تبادل خلّاق، يصنع أُكسيره السحري الذي ننتشي به، ونحن نطالع الأثر الفني، دون تفريق بين ما هو خاص، وما هو عـام، لأنهـما، في الـذات الإبداعيـة أصـبحا وحدة، الفنان فقط، وبدرجة موهبتـه، وقـوة معلميتـه، قـادر عـلى

صنعها، وأدائها، من قلب الحدث الذي يتجلى في جنس أدبي أو فني ما، جنس أدبي هو أحد عناصر الثقافة التي ينتجها المبدعون، كما الفن أحد عناصرها الأخرى، ومن جملة هذه العناصر، متضافرة، تتخلق الثقافة التي هي حاجة عليا، أو بناء فوقي، تحتاجه البشرية، كما أسلفت، حاجتها لكل ما يقيم أود الإنسان، وتعمل له، في مضمار ما يفتأ يتسع، ويتطلب في اتساعه المزيد من الثقافة، نظراً للحاجة المتسعة إلى الخدمات الثقافية المعرفية.

ومن نافلة القول إن للثقافة دوراً متميزاً، أساسياً، مادياً، روحياً في آن، يتمثل في واقع أن الإنسان الذي هو الحياة، يخلق ومعه الحاجة إلى قوامها المعرفي، ويمتلئ بشعور كامل متميز، بالثقافة التي هي أدب وفن وعلم وتربية، ثم هي، فوق ذلك كله، مدرسة أو ورشة للعمل والوعي الذاتي الاجتماعي، به يتشكل المواطن، وينضج فكرياً نضجاً كاملاً. وفي سبيل إنتاج هذه الثقافة، نحتاج إلى المثقفين، الذين هم دعائم الثقافة وصانعوها، وهؤلاء، أصحاب المواهب الحقيقية، وكل من يتمتع منهم بقيمة فنية، لا بدَّ، بل ينبغي أن يكون له دور، في إنتاج العملية الثقافية ونشرها، وأن يكون له مكان في ثقافتنا الوطنية والقومية.

وعلى هذه الثقافة أن توضح، من خلال نشاطاتها، في ميادينها المختلفة، كيف نحيا وكيف نفكر، وكيف نصنع الحاضر، وكيف نعد للغد، ونحلم به، ونتطلع إلى مستقبل تتجلى فيه تطلعات الناس وأهدافهم، خاصة في بلد كبلدنا، يسعى إلى العدالة الاجتماعية،

ويولي تطلعات العمال والفلاحين والمثقفين كل عناية، لأن هؤلاء هم ركائز مجتمع التقدم والاشتراكية الذي صاغه قائدنا ورئيسنا حافظ الأسد.

ونحن دولة تنظر إلى الثقافة لا كترف، بل كضرورة، وفي هذه النقطة الجوهرية، الانعطافية، يقوم المفترق بين نظرتين للثقافة، سادتا حياتنا، قبل الحركة التصحيحية وبعدها، فقد كانت النظرة إلى الثقافة، قبل هذه الحركة، منذ مطلع هذا القرن، وربما منذ النهضة العربية الحديثة، وإلى مسافة أبعد في الزمن، أن الثقافة ترف، يشتغل بها أناس صناعتهم الكلمة، وهواياتهم الشعر والقصة والرواية والمسرحية، وإن هذا الترف مجد، شهرة، مكانة اجتماعية، يسعى إليها من يريد، أو من يكون له فضل من وقت لعمل ترفي كهذا، ثم صارت الثقافة بعد الحركة التصحيحية، ضرورة، نظرياً وعملياً، والعمل فيها جزء من العمل في حقل المعرفة، وأساس في النهوض الاجتماعي، وعامل بارز في التنمية، وصار العاملون في الثقافة عمالاً في حقل المعرفة، جنوداً على ساحة الفكر، وعملهم ليس لهواً، ولا زينة، ولا طلباً لمجد أو شهرة، بل واجب وطني اجتماعي قومي من الدرجة الأولى، وصارت وزارة الثقافة،كالمؤسسات الثقافية الأخرى، تبحث عن هؤلاء المثقفين، وتأخذ بيدهم، وتتعهدهم، وترعاهم، لأنهم أعمدة الثقافة، وعناصر تشكلها، وبناة صرحها، وبذلك، ووفقاً للنظرة الجديدة للثقافة، والحاجة الملحة إلى جمع المثقفين، وتوفير إمكانات الإبداع لهم، وتكريمهم، وتثمين عملهم، ومكافأته، أخذنا في إنشاء الجسور بين المؤسسات الثقافية وبينهم،

لأنه أصبحت لنا مصلحة حقيقية، حيوية، مشتركة، في أن يسهم الذين يعملون في حقل الثقافة، ويكرسون وقتهم لها، إسهاماً نشيطاً في بنائنا الوطني، اقتصادياً واجتماعياً ودفاعياً، وفي مجال التربية، والتعليم، والبحث العلمي، وفي التنمية التي نخطط لها، ونضع برامجها الخمسية، ونوليها، في المجتمع العربي الموحد، كل اهتمام، وهي تتطلب، في التنفيذ، جهود المثقفين، بما يخلقون من ملاكات مؤهلة للتعامل مع الآلة، في الصناعة والزراعة وسائر ورش البناء ومؤسساته العمرانية، وفي الإفادة من طاقتها في نسب تتصاعد إلى الأعلى دائماً. وحين يسهم المثقفون في كل هذا، فإنهم يسهمون، وبنشاط، في كفاحنا الوطني التحرري، وفي تقدمنا الاجتماعي، وهذا الإسهام هو كفاح، وكفاح دؤوب، عنيد، يتطلب جهوداً فكرية كبيرة، وإنتاجات ثقافية، تزداد الحاجة إليها باطراد، بازدياد مجالات انتشار الخدمات الثقافية واستهلاكها، ليس كعامل معرفي فحسب، بل كعمل بنائي، في كل مجالات البناء أيضاً.

وفي تعاملنا مع المثقفين، عبر كل مؤسساتنا الثقافية، نؤكد، ونعيد التأكيد، على أننا نريد، من حيث الجوهر، أن نوقظ عند الأدباء، والفنانين، والمنتجين الثقافيين، في مكاتبهم، ومشاغلهم، والمؤسسات التي يعملون فيها، ثقافية كانت أم إعلامية، الإدراك الصحيح، العميق، بوحدة الحرية والمسئولية وعدم انفصالهما.

لقد أطلق الرئيس الأسد شعار «لا رقابة على الفكر سوى رقابة الضمير» وشعار «الحرية المسئولة»، وفي وحدة الحرية والمسئولية حصراً، تتم العملية الجدلية لخلق رأي عام وطني،

قـومي، تقـدمي، اشـتراكي، رأي عـام مـسلح بالمعرفـة، مـزود بالاختصاص، مؤهل بالتربية، يقدم شرطه الإبداعي، ويقوم بدوره المعرفي، ويؤدي قسطه الذي يرتبه عليه واجبه الوطني والاجتماعـي والإنساني، في بناء الوطن، بناءً كاملاً شاملاً، لتكون نهضتنا كاملـة شـاملة، تـسير بتوافـق، واتـساق، وأشـواط متـساوية الـوتيرة، في الاندفاع إلى أمام.

ولقد تكلمنا على الثقافة التي نريد، ونعيد الكلام عليها اليـوم أيضاً، ليستقر في الأذهان أن هناك ثقافة وثقافة، وأنّ ما نريده نحن، ونعمل له، ونبذل جهدنا في سبيله، هو إنتـاج ثقافـة عربيـة وطنيـة قومية تقدمية جادة نافعة، وأننا نقاوم الثقافـة الأخـرى، الرجعيـة، المعاديـة، المتحللـة القائمـة عـلى التبعيـة للفكـر المـضاد للثـورة وللديموقراطية الاشتراكية، ثقافة الجريمة والإرهاب والتنصل من المسئولية، وإهمال واجب المواطنـة، ونـضيف إلى ذلـك أنّنـا نعمـل لثقافـة ميـسرة لكـل الـشعب، لكـل الأمـة، ونـرفض النظريـة البورجوازية المضللة، حول نوعي الثقافـة: ثقافـة النخبـة، وثقافـة الجماهير. إن ثقافتنا جماهيرية مضموناً وشكلاً، إنتاجـاً واسـتهلاكاً، ومعروف الشعار الذي رفعته الدولة والقائل «الثقافة للجميـع وفي خدمة الجميع»، وهذا الشعار مرفوع، وموضوع، للعمل لا للزينـة، وينطوي في ذاته على رفض ثقافة النخبـة، فهـي ثقافـة بورجوازيـة معادية لمصالح الشعب وتوعيته، وهي ضـارة لأنهـا تحتكـر الثقافـة وتخصها بطبقة تلاشت مع العهد الإقطـاعي، وحليفـه الاسـتعمار،

ومثلما نرفض ثقافة النخبة، الاحتكارية، المتعالية، المفرغة من المضمون الاجتماعي الجماهيري، كذلك نرفض ثقافة التسلية الرخيصة، السيئة، التهريجية، الفاسدة والمضللة، ونعمل للحيلولة بينها وبين أن تتاح لها الفرصة لإفساد الحياة الثقافية، وإفساد أذواق الجماهير، وفق ما نراه في الغرب الرأسمالي. فإفساد الذوق هناك يجري تنفيذه بصورة منظمة، هدفها الأول جني الأرباح. وقد أدت ثقافة التسلية المائعة المدمرة، إلى تخريب أذواق فئات واسعة من الجماهير، وجلبت ضرراً بليغاً انتشر على نطاق واسع، حتى إن القوى التقدمية في الغرب نفسه، تحتج على ذلك، وفي هذا لنا عبرة، تدفعنا إلى تلبية طلبات القراء والمشاهدين، بتقديم تسلية بريئة، مفيدة، لا تفسح المجال للخضوع إلى الأذواق المتدنية، الأذواق التي تنحدر بالمفاهيم إلى مستويات متعفنة، بما تتشكل عليه من انحطاط، ونزعة بهيمية.

وبعيد عن الذهن أنّنا نريد الانغلاق لثقافتنا. هذا ادعاء، إذا وجد من يقول به، فهو باطل بطلاناً شديداً. لقد كانت حضارتنا، منذ عهد الأسلاف، حضارة منفتحة، فاعلة، متفاعلة، وثقافتنا اليوم هي كذلك، وبصورة منهجية، لكننا، في بنياننا الثقافي، نريد التحرر من التبعية، من الصنمية، من التقليد والمحاكاة، ومن الارتهان لأيما ثقافة تعمل لتأبيد تبعيتنا لها. وفي هذا السبيل نقوم بأوسع تبادل ثقافي تسمح به الطاقة، عبر المهرجانات والندوات والمحاضرات، والأفلام، والمعارض، والآثار، ونعتبر تصديرنا لهذه

الثقافة علامة تلاقح وتواصل للتجارب والخبرات، ونستورد، في المقابل، وبكل الأشكال التي ذكرتها، ثقافة نظيفة، رفيعة، مؤاتية. وهذه نشاطاتنا الثقافية كلها، تدل، بالشواهد، على انفتاحنا هذا، وعلى أننا، مقابل مقاومة الثقافة المعادية، نستورد ثقافة جيدة، ومن كل مكان، شرقاً وغرباً، كما في مهرجان بصرى الدولي مثلاً، وكما في معارض الفنون التشكيلية، والفرق الفنية، والإبداعات الفولكلورية، لكن هذا لا ينفي، بل يوجب وجيبة كاملة، أن ننتقي فيما يرد إلينا، ما هو جيد بحق، وأن يكون هذا الوارد الثقافي أعمالاً فنية، إبداعية، جادة، لا أعمالاً تافهة تتنكر للقيم الإنسانية، والمشاعر الوطنية والقومية، والتقاليد الجيدة، وتهاجمها، وتهبط بالروح المعنوية، وتنحط بالهمم، وتعمم اليأس، وتشكل نتاجات مبتذلة، مفبركة للتصدير والإفساد، وهذه المهمة، في التعامل مع الثقافات الأخرى، خاصة مع بعض الثقافات الرأسمالية، مهمة دقيقة، تتطلب اختياراً ذكياً ومدروساً.

إن أهدافنا الوطنية والقومية والاجتماعية واضحة محددة، ويجري التعبير عنها، من خلال الثقافة، بأرقى أشكال الأدب والفن، وأكثرها أصالة وجدية ومعلمية، وبأنشطة واسعة ما تزال تتسع كل يوم، وبحرص على أداء جيد أصيل. والسبب في ذلك أن الفكرة الجيدة تحتاج إلى شكل جيد، وأداء جيد، وإخراج جيد، لتعطي دلالتها من ذاتها، في الأثر التوجيهي، غير المباشر، غير المسقط أو المتعسف، بل عن طريق طرح المشاكل طرحاً صحيحاً كما

قال تشيكوف، وبتوجيه الناس، عبر الطرح الـصحيح، إلى الحلـول الصائبة، دون افتعال أو صراخ، لأن الأدب والفن لا يقتلهما سـوى أمثال هذه الآفات، فالأداة التعبيرية، إلى أي جنس أدبي انتمـت، لا بدَّ أن تتوفر لها السوية الفنية الخاصة بها، لتغدو أداة فنية، وإلا كـان الفكر إسقاطاً، تبسيطاً، وتسطيحاً، ينفر القراء والمشاهدين، ويثقـل الروح، ويعطي ردود فعل مغايرة لما نريد، أي كان فكراً غثـاً بـارداً كما قال الشاعر إلياس أبو شبكة.

لقد طرحت الحركة التصحيحية، في نظرتهـا الجديـة للثقافـة، وفي اعتبارها ضرورة تكتسب الأهمية القصوى، مهمة إنتاج ونـشر الثقافة على أوسع نطاق، وقـدمت لـذلك الإمكانـات اللازمـة، في حدود طاقتها كدولة مواجهة، وكان علينا، نحن العاملين في حقـل الثقافة، أن ندرك أهميتها، ونحدد معناهـا، ونقـدر قيمتهـا، كثـروة وطنية قومية باقية، وكأسـاس في كـل بنـاء فـوقي ، يتنـاول الفكـر والعقل والنفس معاً، ويتفاعل، ويتبادل النمو مـع البنـاء التحتـي، الاقتصادي والاجتماعي. ووفقاً للتعريف الثقافي الذي ناولـه هـذا البحث، أصبح نشر الثقافة الجماهيرية، أي الثقافة الرفيعـة المعممـة على الجمهور، مهمة رئيسية مـن مهـمات البنـاء الـوطني، وأصـبح العمل لبلوغ الجماهير فحوى هذه الثقافة، بكـل ألوانهـا، واجبـاً في رأس الواجبات التي تنهض بها الدولة، فالفكر الاشتراكي يرى «أن الفـن للـشعب»، ويـضيف: «كـي يـستطيع الفـن أن يقـترب مـن الشعب، ويستطيع الشعب أن يقترب من الفن، يجب علينا، قبل كل

شيء، أن نرفع مستوى التعليم والثقافة»، ونحن نعمل، في كل المؤسسات الثقافية في القطر، على رفع سوية الثقافة، وتعميمها، وتقديمها أنشطة خدماتية إلى أوسع الفئات، كما نعمل على زيادة دوائر التعليم، بكل درجاته، ورفع مستواه، وفي وزارة الثقافة بالذات، نسعى لتطبيق عملية تعميم الثقافة تعميماً مطرداً.

وهذا التعميم الثقافي فيه مراعاة للعمق والسعة، للانتشار الأفقي، والتجذر العمودي، أو بمعنى آخر، نقوم بأنشطة ثقافية متعددة، متنوعة، حية، غنية، نراعي فيها أن تبلغ الجمهور الواسع، كما نراعي فيها أن تشبع حاجة المثقفين من كل الفئات، ونحن نتجذر في التراث، بمقدار ما نطل على الحداثة، وفي كتبنا التي تصدرها الوزارة، نحرص على نشر التأليف الجيد، والترجمة المنتقاة، وتتناول هذه الكتب جميع معطيات الفكر التراثي والمعاصر، وتشمل كل المجالات، الأدبية والفنية، الاقتصادية والاجتماعية، الفلسفة والعلوم الإنسانية، الفكر الأدبي في أحدث إنجازاته، ومختلف مدارسه وتياراته، وكذلك الفكر الفني، في كل بحوثه الكلاسيكية والرومانتيكية والرمزية والتعبيرية والبنيوية، وبكلمة: كل جديد في الحداثة، لنكون على اطلاع دائم، ومطلات متواصلة على آخر وأحدث ما أنتجه الفكر الإنساني، في وطننا العربي، والعالم بقاراته الخمس.

والغاية من ذلك واضحة، محددة، هي أن يكون القارئ على معرفة بتراثه، عن طريق تحقيق الكتب التراثية الكاملة ونشرها،

وعن طريق المختار منها الذي خصصنا له سلسلة صدر منها حتى الآن عشرات الكتب القيمة، ومن الأمهات. أما الفكر المعاصر فإنه يتوازى مع التراث من حيث الأهمية والضرورة، ففي الدنيا جديد كل يوم، وعلينا، في الرغبة المؤكدة، أن نطلع على هذا الجديد، ونفيد منه، وبذلك يتم التواصل الذي نحرص عليه، كيلا نقطع مع التراث، ولا نصنع منه شرنقة نغلقها على أنفسنا، وبذلك تفوتنا المدارس الفكرية والأدبية والفنية الحديثة، في عالم اليوم الذي يحث الخطا إلى أمام.

إننا بهذا التقدير للتراث، نبني الصلة بين ما كان وما هو كائن، وفي حرصنا على الجديد، نمد الصلة إلى ما سوف يكون، وبهذا نجمع بين الأصالة والحداثة، إيماناً منا بضرورة التواصل والتفاعل مع النتاج العالمي، وعلينا أن نكون على قناعة تامة، بأن ثمة، في الدنيا من حولنا، وكذلك في العالم الغربي نفسه، أشياء كثيرة يمكن الإفادة منها في مجال الإنتاج الثقافي، في شقيه الأدبي والفني، ونجد من الخطأ أن نغمض أعيننا عن المنجزات التي يشهدها التطور الفكري، وما تقدمه المدارس الأدبية والفنية، مثل الاستبطان، والمنولوج الداخلي، والتداعي، والتخييل، وكسر الزمن، والتشكيلات المركبة، والأبحاث في دواخل الإنسان، والصور المركبة، واللغة المتجددة في تراكيبها وتشبيهاتها ورؤاها، وهذه كلها حقائق لا بدَّ من الإفادة منها، وهي أكثر من صرعات أتى بها الأدب الغربي، رغم معرفتنا بأن ثمة صرعات كثيرة في الغرب،

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، لكن ذلك لا يحول بيننا وبين أن نقيم ثقافة يتحد فيها ويتسق التراث القومي بالتراث الإنساني.

إن هذا كله ينعكس في كتبنا التي نصدرها بأسعار رمزية، وتتجاوز المئة كتاب في العام، وتلقى الحفاوة والإقبال داخلياً وعربياً، وتعمر بها مكتبات مراكزنا الثقافية المنتشرة في كل أنحاء القطر، وبعض العواصم العربية والدولية، إضافة إلى المسرح والمتاحف والآثار والسينما والمعاهد الموسيقية والمسرحية، والفرق الفنية، والفنون التشكيلية، والمجلات المتخصصة، والمهرجانات، وكل القائمة الطويلة، المتسعة، لنشاطاتنا الثقافية التي ليس هذا مجال التفصيل فيها، مع أنه من الضروري الإشارة إليها، كمنجزات تحققت على أرض الواقع، وأصبحت لها مواعيد وتقاليد وقنوات نشر وتوصيل، وشبكة ذات أقنية تتفرع لتغطي البلاد في جهاتها الأربع.

غير أن أكبر إنجاز ثقافي تحقق في السنوات الخمس عشرة الماضية، هو التعاون بين وزارة الثقافة والمثقفين، وقيام اتحاد الكتاب العرب، ورعاية الأدباء والفنانين، باعتبارهم منتجي الثقافة وأعمدتها، وقد وعينا، عن إيمان راسخ، أهمية الحرية الفكرية، وأوليناها كبير الاهتمام والعناية، وتحدث إلي كثير من مسئولي دور النشر العربية خارج القطر، بأنهم يلاحظون بإعجاب أن سورية لا تمنع كتاباً صادراً في الخارج من الدخول، إلا نادراً جداً، وهذا وضع يتفرد فيه قطرنا العربي السوري، ويعطي برهاناً ناصعاً على حرية الفكر.

ثم إنّنا نرحب بكل إنتاج أدبي وفني جيد، يحمل قيمة فكرية، ويكون جاداً ومفيداً، ونشجع الأدباء والفنانين بطبع كتبهم وشراء لوحاتهم، وبذل كل مساعدة ممكنة لهم.

وأنتم ترون أن كل هذه المعطيات تشرح ذاتها لمن يريد، وهي شهادة حول حقيقة نظرتنا إلى ضرورة الثقافة، واعتبارها الحاجة العليا للبشرية، ونحن في سبيلنا إلى المزيد من الجهد، والتنظيم، والدفع، لتطوير العمل الثقافي، ورفع سويته الفنية.

ومع أن التنمية الاقتصادية تثير الحاجة إلى ثقافة عصرية، في كل ميادين الحياة، بإلحاح متزايد، فإنه من المناسب أن نلاحظ أن تطور الثقافة لا تترتب عليه تلقائياً، ومباشرة، تغييرات في القاعدة الاقتصادية، ونحن نعرف أننا لا نسبق، ولا نريد أن نسبق، في اقتناء الكماليات من كل نوع، لكننا سبقنا بعض بلدان العالم الثالث في الغنى الإنساني للتعليم والثقافة، وتجاوزنا غيرنا في إقامة العلاقات بين الفن والجماهير الواسعة، والنتائج التي تحققت على جميع الصعد ذات مستوى عالٍ.

لكنه لا بدَّ من ملاحظة هنا، هي أنّه من غير الممكن تحقيق اتساع سريع في ميدان الثقافة بالاستعجال، بالوعظ، بالنقد الجارح، وسيكون تبجحاً أن ندعي أن التقدم في مجال الإنتاج الثقافي يتحقق بسرعة الصاروخ، فنحن نعمل لهذا التقدم، لكن العملية الثقافية تحتاج إلى نضج، وإلى مقومات، وإلى مبدعين، ونحن نرحب بما هو جيد، ونساعده على الارتقاء، لأن ذلك هو الطريق الرشيدة لإنتاج

ثقافة جيدة ومطلوبة جماهيرياً، وفي هـذا الـصدد نؤكـد أن الثقافـة، بالنسبة إلينا، هي عمل يومي، وجهد دؤوب.

إن علاقة الثقافة بالإنسان علاقة معقـدة، وتتـشكل مـن كـل الوظائف المعرفية، وهي الوسيلة لنقل المعرفة حول العـالم، وحـول الذات، ووسيلة للاتصال الجمالي، ومصدر للمتعة والسعادة، وكـما يقول المنظرون الثقافيون، إنّ الثقافة عامل هام مـن عوامـل التـأثير الفكري، التطبيقي على الواقع، بهـدف تغيـيره إلى أفـضل، وإكمالـه وتشميله.

في رسالة كتبها غوركي عام ١٩٢٦، قال: «هـل تـصدقون أن الناس عندنا، حين تتوفر لهم اللقمة ستكون حياتهم أكثر بـساطة؟» ويجيب على سؤاله هذا قائلاً: «في اللحظة التـي يتـوفر فيهـا ذلـك، سيسألون أنفسهم: لمـاذا نعـيش؟ ويومهـا يكـون علينـا أن نعطـي الجواب للناس، وهذا الجواب هو الثقافة التي هي غذاء الروح، كما اللقمة هي غذاء الجسد».

هذا يظهر، كما قلت في مطلع هذا الحديث، أن هنـاك ارتباطـاً دائماً بين اللقمة والكلمة، وأنّ الحاجة دائمة، ومتـسعة، إلـيهما، وأن علينا أن نوفر الحياة الكريمة لجماهيرنا، والثقافة النافعة لها، في وقت واحد، وهذه هي توجيهات الرئيس القائد، وهي توجيهات، كما بدا وتأكد من خلال هذا العـرض، تحمـل طـابع النظريـة المتكاملـة في الثقافة، كما تحمل توجيهاتـه الأخـرى، طـابع النظريـة المتكاملـة في البناء والاقتـصاد والتنميـة والـدفاع، وفي مجـالي التحريـر الـوطني

والتقدم الاجتماعي، هذين العنصرين الثابتين البارزين في سياستنا، وفي تطبيقاتنا، وفي موقفنا الصامد، الذي يعود الفضل في صلابته، وديمومته، إلى حكمة الرئيس وشجاعته، حتى غدت سورية، في عهده، تتبوأ مكانة عربية ودولية رفيعة، وطيدة إلى درجة ألا شيء يمكن أن يتقرر في منطقتنا العربية، دون أن يكون لسورية فيه دور بارز وكلمة حاسمة.

لقد أصبحت الكلمة القيمة التي كتبها السيد الرئيس في سجل مكتبة الأسد عند تدشينها مرشداً ثقافياً لنا، وهذا الشعار الذي كان كلمات بين سطورها، والقائل إنّ الثقافة هي الحاجة العليا للبشرية، يعطي من ذاته مجالاً لدراسة موسعة، معمقة مكثفة، وقد فكرت فيه عند القيام باتخاذه عنواناً لبحثي هذا، وأعترف أنني تهيبت، لأن الآفاق التي يفتحها للبحث تتطلب أكثر من محاضرة، وكان علي، لولا الوقت المحدد، أن أعالج جوانب أخرى تتعلق بموضوعنا الثقافي هذا، لكنني آثرت أن ادع ذلك لبحث آخر، في مناسبة أخرى.

أذكر أنني قلت في تقديمي لمجموعة «لك القوافي» الشعرية: «إن الكلمة، نثرية كانت أم شعرية، تكون بحجم المثال الذي تتصدى للكلام عليه»، وقد استعدت هذه الفكرة الآن، ووجدت أن حقيقتها تزداد رسوخاً في نظري وضميري، حتى أنّني في الطواف بالشعار الذي رفعه سيادته، لم أفعل سوى ملامسة الزهرة التي فتحها، فكان قصارى الجهد أن أرسم بعض ملامحها، بعض

عطرها، ولونها، دون النفاذ إلى جوهرها، لأن ذلك فوق طاقة كلماتي هذه، مهما حاولت أن تقول ذاتها.

* * *

وإنصافاً للرئيس البشار علي أن أذكر، وأنا أضم لهذا الكتاب بعض الأوراق التي كنت أظن أن الزمن قد تجاوزها أو عفّى عليها، وأننا انتصرنا على وقائعها، والتي تشكل جزءاً من تاريخنا النضالي والقومي، عليَّ أن اذكر دأبه المتواصل لإغناء الحياة الثقافية والسياسية، وعقد المؤتمرات العربية ذات الخصوصية، بطابعها الفكري العروبي، بدءاً من مؤتمرنا الذي حمل عنوان «تجديد الفكر القومي»، ليكون خطوة نحو المستقبل، ومقدمة لمؤتمرات أخرى كان ثانيها حول العلاقات السورية اللبنانية، وثالثها حول العروبة والمستقبل، وأما الرابع فقد أعددنا كل شيء ليكون عنوانه «فلسطين، أمس واليوم وغداً» وأردنا أن يكون أهم مؤتمر، وأشمل مؤتمر عن فلسطين وكل ما يرتبط بها، وكنت أعتبره حلم حياتنا الأكبر..

غير أن الظروف شاءت أن نتوقف، فقد بدأت معالم المؤامرة الكبرى، بعد أن وصلت الدعوات إلى الكتّاب والمفكرين في الوطن العربي، في مصر وتونس ولبنان، وغيرها من الأقطار العربية..

كان لا بدَّ من أن نتوقف وننتظر..

واستطال الزمن، وطال أمد هذا الفجور الذي انتشر على أرضنا، ولم نتمكن من عقد هذا المؤتمر الذي كان يمكن أن يكون

حدثاً فريداً بالنسبة لكل المؤمنين بقضايا أمتهم، وما نتطلع إليه بشأن فلسطين..

* * *

في هذا الكتاب أوراق منسية تراوح بين السياسة والثقافة والأدب والتعليم، والدفاع عن أمتنا وعروبتنا، والتواصل العربي، ويعود أحدها إلى ستينات القرن الماضي، وقد رأيت أنه يحسن أن نطّلع عليها، ومنها، على الخصوص، ما يرتبط بالقضية الفلسطينية، لأنها تجسّد تصوراتنا في مراحل سبقت، كانت شاقة وأليمة، غير أنها، إلى ذلك، كانت تحمل الكثير من الآمال والرؤى وآفاق المستقبل، وبعضاً من أحلام العروبة، والعلاقات مع الأقطار العربية التي بدلت الأيام بعضها الآن تبديلاً، والأجنبية كذلك..

لم أشأ أن أسقط أو أبدّل في بعض ما كتبت، لأنه كان صادقاً في حينه، وواعداً، وإن كان ما جرى فيها بعد رهيباً مؤسفاً وحزيناً، حين أعقب خلف سيء سلفاً متميزاً له مواقفه في ساح النضال..

لقد كتبت هذه الأوراق في مراحل مختلفة، كما ذكرت، وبعد أن أزحتها جانباً وجدت أنها تربط الماضي بالحاضر، وتعطي معنى لهذا الترابط الزمني، بما يشفّ عن جوانب من اهتماماتنا، ومن أوضاعنا، كيف كنا، وكيف رسمنا خطوط كفاحنا، في ميادين الحياة، وكيف غدونا، وكيف تغيرنا وتبدلنا، لما تغيّر المحيط العربي

والإقليمي والدولي من حولنا، ولماذا دعونـا منـذ قريـب إلى تجديـد الفكر القـومي ضرورة، وإلى العمـل عـلى إغنـاء مفـاهيم حياتنـا، وإيقاظ ضمائرنا، قبل أن تنأى بنا الحياة إلى آفاق المجهول اللا وطني واللا منتمي.

رسالة منصفة (*)

سيدتي الدكتورة نجاح العطّار، وزيرة الثقافة،

لم تعد الحركة التصحيحية حدثاً يعني سورية وحدها.

بات حدثاً يعني العرب، حين الكرامة ضميرٌ وجبين.

والرئيس القائد حافظ الأسد جبينٌ للعروبة، وضميرٌ للشعب العربي.

في الذكرى الثامنة والعشرين، أتقدم منك بالتهنئة، ومن الشعب السوري بالصلاة كي يحفظ الله، ولنا، وللكرامة العربية، الرئيس التاريخي حافظ الأسد.

مع احترامي الدائم وتحيتي الأخوية

هنري زغيب

(*) تلقيت هذه الرسالة المنصفة عام ١٩٩٨، بعد مرور حقبة من الزمن كانت كافية لتحمل مصداقيتها على ضوء الواقع المشرق لسياسة عربية وطنية قومية مثالية للرئيس الكبير الراحل حافظ الأسد، وقد رأيت أن أربطها بالتقديم.

الحركة التصحيحية

وسياسة سورية الخارجية(*)

هل كنا بحاجة إلى انتظار سقوط كارتر في الانتخابات الأمريكية، كي نقول إنه سقط قبلها في سياسته الشرق أوسطية؟

وهل كان سقوطه هناك إلا بسبب سقوطه هنا؟

وهل كان سقوطه هنا، في اتفاقات كامب ديفيد أولاً، وفي مواجهة الثورة الإيرانية ثانياً، إلا بسبب نضال الشعب الإيراني من جهة، والصمود العربي الذي كانت سورية، بقيادة الرئيس الأسد، على رأسه، من جهة ثانية؟

ولو افترضنا أن كارتر قد نجح، بعد كامب ديفيد، في فرض تسويته الاستسلامية على العرب، وهيمنت أمريكا بعدها على المنطقة، هل كانت تتراجع في مواجهة الثورة الشعبية الإيرانية، عن استخدام القوة العسكرية التي لم تستطع، قبل ترتيب وضعها في المنطقة، أن تستخدمها؟

(*) كتب هذا المقال حين كانت تلك الأيام فياضة بأحلام المستقبل بالرغم من كل الأحداث المريرة التي تعاقبت منذ مطالع الثمانينات.

وهل كان الشاه، وهو الديكتاتور الدامي، يعجز عن استخدام أفظع أنواع البطش، لو أن أمريكا، حليفته، قد سيطرت على المنطقة العربية؟

لقد راهن كارتر على مصر..

كان رهانه أشبه بضربة الرصيد في المقامرة.

وكان يعرف أنه سيربح مصر، فالمخابرات المركزية الأمريكية، منذ السبعينات، دفعت السادات إلى الحلبة، وكانت تعرف أنه «حصانه» الذي تراهن عليه.

وكان كيسنجر، في هذا الوقت، يركب هذا «الحصان»، ويهمزه إلى الدرجة التي يريد.

وجاء بعده بريجنسكي، واعتلى ظهر السادات، ودفع به إلى نهاية الشوط.

وكانت التقديرات، السياسية والعسكرية، تقوم في حساب الاحتمالات، على أن سقوط النقطة الأقوى، تؤدي بالضرورة إلى سقوط النقاط الأضعف، وأنه في حال خضوع مصر، فإن الوطن العربي سيخضع كله بالتالي.

وليس هذا الحساب بالمبتكر تاريخياً.

عنترة كان في الجاهلية يتقنه. سئل عن سبب انتصاراته، فقال: أضرب القوي فينخلع قلب الضعيف.

لكن عنترة كان يعرف، بالفراسة العربية أن يميز القوي من الضعيف. أما كارتر فلم تكن له هذه الفراسة..

ظنّ، بعد عبد الناصر، ألا عبد الناصر آخر في العرب..

وأخطأ في هذا الظن خطأً كبيراً،

فحين توارى عبد الناصر في القاهرة، قام حافظ الأسد في دمشق..

ذلك أن الحياة كانت أرحم بالعرب من أن تتركهم بلا قائد..

وكانت الحياة، في كرمها العظيم، تدرك أي نجم توارى بغياب عبد الناصر، فمنحت هذه الأمة نجماً مماثلاً.. أما القلب الشجاع الذي توقف، فقد خلفه في العام نفسه قلب شجاع ينبض..

ومن هنا كانت المراهنة على السادات قاصرة النظر..

كانت مبنية على حساب الكم وحده.. على الرقم المجرد.. وقد قال السادات في تبجح لفظي: «الحرب تبدأ من مصر والسلام يبدأ من مصر». وكان هذا حقاً أُريد به باطل، فمصر العظيمة أم الدنيا، أم العرب، لكن مصر النظام إذا سقطت، مؤقتاً، فالعرب لا يسقطون.. إنهم يتابعون المسيرة.. وسورية الصغيرة في حساب الكم، كبيرة في حساب الكيف، ويعرف الناس جميعاً أنها كذلك، بتاريخها، بكفاحها، بتقاليدها الوطنية والقومية. وقد عرفوها بعد ١٩٧٠، بقائدها الأسد الذي قال للاستسلام: لا، فكانت لاؤه وقفة «من تحت أخمصها الحشر»، وتبين في السنوات التالية، أن الحرب تبدأ من مصر حين تكون عادلة، وأن السلام يبدأ من مصر حين يكون عادلاً، وإلا فإن في العرب من «يمشي على جرحه

ويقاوم»، وفي العرب من يستطيع أن يردم الهـوة المفتوحـة، ويفـتح أخرى غيرها تحت أقدام الأعداء..

أقول كل هذا في البداية، وكان موضعه في الختام..

أقوله كي أوضح أن وقفة سورية، بهذه العزيمة وهـذا الإصرار، نابعة من مبدأ، وكل المواقف المبدئية، تجد تفسيرها في النتائج.

والنتيجة التي حصلنا عليها الآن، تؤكد أن موقفنـا كـان عـلى حق.. فنحن لا نرجم بالغيب، لكننا نقرأ المستقبل.

وقبلنا، قادة كبار، قرؤوا المستقبل أيضاً، ونجحوا في مواقفهم لأنهم قرؤوه.

وقد قرأت في مذكرات جوكوف، القائد السوفييتي الشهير في الحرب العالمية الثانيـة، مـا مـؤداه: «لـولا تـصنيعنا الثقيـل في عـام ١٩٣٣، ما كان انتصارنا على ألمانيا الهتلرية في عام ١٩٤٥».

وأنا أقول: لولا الحركة التصحيحية في عـام ١٩٧٠، مـا كـان انتصارنا في تشرين ١٩٧٣.

ولـولا سياسـتنا الخارجيـة، المبدئيـة، التـي وضـعتها الحركـة التصحيحية في عام ١٩٧٠، لما وقفنا وقفة الصمود المشهورة في عام ١٩٧٧، ولما وصلت سياسة كامب ديفيد إلى الطريق المسدود في عام ١٩٨٠.

ولـولا انفتاحنـا عربيـاً بفـضل الحركـة التـصحيحية في عـام ١٩٧٠، لما استطعنا خلال عشر سنوات، أن نعمل للتضامن العربي

ما عملنا، وأن نحافظ على هذا التضامن بمعناه الكفاحي كما حافظنا، ولما بلغنا أن نقيم الوحدة السورية-الليبية التي أقمنا.

ولولا البعد النظري الذي دعانا إلى تقوية الصداقة مع الأصدقاء بفضل الحركة التصحيحية في عام ١٩٧٠، لما وصلنا إلى عقد معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٨٠.

ذلك أن السياسة علم، والنضال الوطني علم، والكفاح الاجتماعي علم..

ونحن لا نزعم أن الحركة التصحيحية كانت مالكة هذه العلوم منذ قيامها، لكننا نؤكد أن هذه العلوم صارت لها بالممارسة، فالحياة هي الجامعة الكبرى، ومن الحياة، ومن مفهومها الجدلي، تعلمنا أن كل أشياء الوجود مترابطة، وأن العلة والمعلول، مقولة أجدادنا، تبقى صحيحة، وأن انتصاراتنا، داخلياً وعربياً ودولياً، في السبعينات، كانت ثمرة انتصارنا في الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠، ثم في إكمال خطاها، حتى بلغت أشدها الآن.

لقد عملت هذه الحركة، ومنذ أيامها الأولى، على إنهاء التقوقع والانكماش كليهما، وانفتحت على الأشقاء العرب، فأنهت عهد القطيعة مع بعض أقطارهم، وعززت صداقتنا مع الأصدقاء، ورسخت مجابهتها للأعداء، وعملت جاهدة لحرب تشرين، هذه التي كان قرارها التاريخي أحد أهم الإنجازات التاريخية لقيادة الرئيس الأسد.

وقد تسنى لي مؤخراً أن أقرأ خطب الرئيس عبد الناصر بعد حرب حزيران، أي منذ ١٩٦٧ إلى وفاته في عام ١٩٧٠، واستوقفني فيها أنه كان يدرك، بعمق بالغ، ما ألخصه في النقاط التالية:

- إن إسرائيل ليست إلا وليدة أمريكا، سياسياً وعسكرياً، وإنه لا يجوز، ولا يمكن، النضال ضد إسرائيل دون النضال ضد أمريكا.
- وإن العمل السياسي مطلوب، لكن العمل السياسي لا ينبغي أن ينسينا العمل العسكري، أو ما يسميه بالقوة العسكرية التي يجب أن نحصل عليها.
- إن إزالة آثار العدوان الإسرائيلي الذي وقع في عام ١٩٦٧، لا تتم بغير حرب يجب أن نستعد لها بإصلاح الخلل الذي وقع في الميزان العسكري بيننا وبين إسرائيل.

إن هذا الفهم السياسي والعسكري الذي تحرك على أساسه الرئيس عبد الناصر، تحركت سورية على أساس منه أيضاً بعد حركتها التصحيحية، وكان العمل السياسي الذي بدأناه، يتواكب مع العمل العسكري، ثم كانت التدريبات الشاقة والاستعداد الطويل، إلى أن كان تشرين ١٩٧٣، وكانت الحرب التحريرية التي أحدثت تغييرات عميقة، نفسية وسياسية وعسكرية، وكانت نتائجها التي عملت أمريكا، بمساعدة السادات، على امتصاصها طوال الأعوام التي تلت.

ولا أحتاج إلى كبير شرح لتبيان أو توكيد أهمية حرب تشرين، فهذه الأهمية صارت من أشياء التاريخ والعلم العسكري، وصارت بالنسبة للعرب أنصع صفحة عسكرية في تاريخهم الحديث..

وليست تشرين إلا وليدة تشرين، فالحرب سياسة بطريقة أخرى، والحركة التصحيحية، في سياستها المبدئية، هي التي صنعت هذه الحرب، وهي التي حققت الانتصار فيها، فلما أوقف إطلاق النار، بسبب إصرار السادات على ذلك، بقيت سورية وحيدة في المعركة، فتابعت القتال في حرب الجولان، ثم تابعت المعركة السياسية، ولم تتراجع عن الشرطين الأساسيين اللذين من أجلهما كانت الحرب، وهما تحرير الأراضي العربية المحتلة، واستعادة حقوق الشعب الفلسطيني المغتصبة، بما فيها حقه في إقامة دولته الوطنية على أرضه.

ورغم اتفاقية الكيلو متر ١٠١ واتفاقية سيناء الأولى والثانية، ورغم الضغوط والمؤامرات والحرب الأهلية في لبنان، تمسكت سورية بموقفها المبدئي الثابت. وبعد زيارة السادات للقدس المحتلة، عملت على إنشاء جبهة الصمود والتصدي، وكانت قاعدتها وطليعتها. وهكذا ظلت سورية صامدة، وانتقلت في صمودها إلى مرحلة أعلى، وفي عملها القومي الوحدوي إلى مرحلة أكبر، وظلت سياستها النابعة من حركتها التصحيحية هي البوصلة التي تهتدي بها.

إن الحلقة الرئيسية التي عرفت سورية كيف تكتشفها وتتمسك بها، هي أن أمريكا وإسرائيل والسادات يريدون، من وراء اتفاقات كامب ديفيد، تصفية القضية الفلسطينية، والجواب على هذه الاتفاقات يكون في إبقاء هذه القضية حية، ورفض أي محاولة لتسويتها إلا على أساس تحرير الأراضي العربية المحتلة واستعادة الحقوق الفلسطينية المغتصبة، هذين المبدأين للسياسة السورية، اللذين هما، في وقت واحد، مبدآن لسياسة منظمة التحرير الفلسطينية، ولدول الصمود والتصدي، ولكل القوى الوطنية في الوطن العربي.

هكذا صارت سورية، وهي دولة المواجهة، تتحمل عبئين ثقيلين في وقت واحد: مواجهة إسرائيل، والتصدي لاتفاقات كامب ديفيد، وأمام تساؤلات المراقبين، عما إذا كان بإمكانها أن تمضي في هذا الكفاح الشاق، أعطت جوابها بالإيجاب. برهنت أن دولة عربية صغيرة، حين تحزم أمرها، وتوطد وحدتها الداخلية، وتجري تحولات في وضعها الاقتصادي والاجتماعي، وتقيم تحالفاً مع القوى العربية الصامدة ومع الأصدقاء في العالم، وفوق كل ذلك، تكون لها قيادة مجربة حكيمة مثل قيادة الرئيس الأسد، تستطيع أن تمضي في الكفاح الوطني، وأن تنتصر فيه، وتسد الطريق على الهجمة الأمريكية الصهيونية على المنطقة، وتقف صخرة في وجه اتفاقات كامب ديفيد، وتجعلها تدور على محور ذاتها منذ ثلاث سنوات.

في ضوء هذا الواقع نفهم لماذا عمدت أمريكا وإسرائيل والرجعية العربية إلى تكثيف جهودها في اتجاه واحد، هو إركاع سورية أو إسقاط نظامها. ولأن سورية لا تركع، فقد قرر هؤلاء الأعداء أخذها خارجياً من لبنان، وتفتيت وحدتها الوطنية داخلياً عن طريق الإرهاب، وممارسة ضغوط شديدة، لا عن طريق إسرائيل وحدها، بل عن طريق أنظمة عربية محيطة بها، ويمكن القول، دون مبالغة، إن حجم المؤامرة الأمريكية الإسرائيلية الرجعية على سورية، كانت كافية، لولا وحدة الشعب العربي السوري وصلابته، ولولا قيادته الشجاعة، أن تقضي على نظامه، لأنها مؤامرة بحجم دولة أكبر من سورية بكثير، وهي مؤامرة خبيثة ومسلحة ومدعومة عربياً ودولياً.

وحين اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية، ظن أصحاب المؤامرة أنه قضي على النظام في سورية، وحين قامت اضطرابات في آذار الماضي، في بعض المدن السورية، خيل لأصحاب المؤامرة أن سورية قد انتهت. لكن سورية الأسد لا تنتهي، وكما أنها لا تركع فهي لا تسقط، وكما أنها تجيد المواجهة الخارجية، فهي تجيد المواجهة الداخلية، والقضية العربية التي تقبض عليها بيدين جبارتين، لا يمكن لأحد أن يصفيها، فما دامت سورية قائمة، فالقضية العربية حية، وستبقى حية حتى تنتصر.

هكذا جرت الرياح بغير ما تشتهي اتفاقات كامب ديفيد.

وجرت الرياح بغير ما تشتهي أمريكا وإسرائيل والسادات.

وجرت أيضاً بغير ما تشتهي الرجعية.

وبدا نظام السادات في ورطة، وبدت مفاوضات الحكم الإداري الذاتي حول الضفة الغربية وقطاع غزة في ورطة أكبر.

وجاءت الثورة الإيرانية، قبيل ذلك، لتهدم القاعدة العسكرية الأمريكية الأضخم في المنطقة، وتنزل بالنفوذ الامبريالي الأمريكي ضربة قاصمة، وتخرج إيران من دائرة النفوذ المعادي للعرب، إلى دائرة الصداقة العربية، فجن جنون واشنطن وتل أبيب.

ثم جاء احتجاز الرهائن، فمرغ هيبة الامبريالية الأمريكية تمريغاً، بحيث قارن المعلقون بين هزيمتها المادية في فيتنام، وهزيمتها المعنوية في إيران، وكانت هذه التطورات كافية لإخراج أمريكا عن طورها، فغامرت بعملية صحراء لوط الفاشلة، وكان فشلها نكسة جديدة مرعبة للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط كلـه.

لكن أمريكا لا تستسلم لفشلها، ففي الوقت الذي كانت تواجه فيه انسداد الطريق أمام اتفاقات كامب ديفيد، وعجزها عن إسقاط النظام الثوري في إيران، كانت تعد البدائل، فإذا بصدام حسين في العراق، يقوم مقام الشاه المخلوع في إيران، وإذا به يصبح دركياً مكانه في الخليج العربي.

ومنذ انتصار الثورة الإيرانية في عام ١٩٨٠، شرعت أمريكا بلعبة التعويض في الخليج. أرسلت قطعها البحرية، الواحدة تلو الأخرى إلى المحيط الهندي، وأوعزت لحاملات طائراتها بالتحرك

نحو المنطقة، وأنشأت قوة التدخل السريع، وعثرت على رجلها الذي تنفذ بواسطته مخططاتها، وكتبت الصحف الغربية منذ وقت مبكر أن صدام حسين لا السادات هو رجل أمريكا القوي في المنطقة، وزاد هذا اليقين حتى أصبح قناعة من خلال كل التحركات اللاحقة، التي قام بها النظام العراقي في السنتين الماضيتين، ضد الشعب العربي في العراق، وضد سورية، وضد الثورة الإيرانية.

وتحت عنوان «لماذا يريد العراق أن يكون شرطي الخليج» قالت الغارديان (١٢/٢/١٩٨٠): «رجل الثمانينات» هذا ما وصفت به مجلة «الوطن العربي» الأسبوعية الصادرة في باريس والتي يمولها العراق، صدام حسين التكريتي رئيس جمهورية العراق، ولم يعد هناك أي شك أن صدام حسين يريد أن يقدم نظامه، إن لم يكن شرطياً أمريكياً في الخليج، فإنه الضامن لأمريكا الاستقرار في هذه المنطقة الغنية بالنفط.

أضافت الغارديان: «إن التحول الواضح نحو الغرب، بالنسبة للنظام العراقي الذي مازال رسمياً يسمي نفسه «نظاماً تقدمياً»، وما يزال من الناحية النظرية، ملتزماً باتفاقية صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفييتي، إن هذا التحول، قد خطا خطوة أخرى بالميثاق الوطني، الذي ينظم العلاقات بين دول الشرق الأوسط كلها والعالم الخارجي، وهو يغلف هذا الميثاق بمبدأ الاعتماد على الذات وعدم الانحياز، غير أنه، بمضمونه، يتوجه

بشكل واضح إلى الغرب وليس إلى الاتحاد السوفييتي.. فقد أبدى صدام حسين أكثر من مرة، حرصه على أن يكون ذا فائدة لأمريكا، وعلى الرغم من ادعاءاته «التقدمية» كلها فإنه يسعى كي يحل محل الشاه كشرطي للخليج».

والنظام العراقي، في هذه الممارسة لدور الشرطي، كان يريد، تحت شعارات «رافضة»، أن يخدع الرأي العام العربي. إنه يجد صعوبة في إعلان نفسه صديقاً وحليفاً لأمريكا، ولذر الرماد في العيون، استمر في قطع علاقاته معها، وفي الوقت نفسه تقديم الترضيات لها، عارضاً بذلك صيغة مناسبة لمنافسة السادات، هذا الذي كشف عن وجهه بأكثر مما ينبغي، وصار معزولاً ومكروهاً، وأصبح مقعد الشرطي شاغراً، فتقدم صدام حسين وشغله.

وماذا تريد أمريكا ممن يشغل هذا المنصب؟ إن الوضع الداخلي في العراق، صار أسوأ من الوضع الداخلي في نظام السادات نفسه، وعلى الجبهة العربية الخليجية، شنّ العرّاب هجوماً سياسياً على اليمن الديمقراطية، وفي المجال العربي ساق التهم نحو سورية، ثم جعل من أرضه مجالاً لتدريب وتسليح وتمويل حملة الإرهاب الموجهة إليها، وعلى هذا النحو أثبت «كفاءته» أكثر من السادات، وحاز تماماً على رضى واشنطن، وأصبح جديراً بالمهمة التي تريدها، وهي محاربة الثورة الإيرانية نيابة عنها.

إن أحداً، قبل شهور، لم يكن يصدق أن ما حدث سوف يحدث، غير أن أمريكا وإسرائيل، وهما تعرفان أهمية إعادة إيران إلى

الحظيرة الأمريكية، وإلى حلفها السابق مع تل أبيب، كانتا تخططان لهذه الحرب، وقد زينتا للنظام العراقي أن النصر على إيران لا يحتاج إلا لبضعة أيام، فما إن تتحرك القوات العراقية نحو الحدود، حتى يحدث الانقلاب في طهران.

ربما تكون المخابرات الأمريكية - الإسرائيلية قد أخطأت هنا، كما أخطأت في أمور أخرى سابقة، لكن واشنطن كانت تعرف أنها ستجني فوائدها من هذه الحرب، سواء قصُرت وسقط نظام الخميني، أم طالت وتهدمت إيران والعراق معاً. إن الصفقة رابحة على الحالين، وهي، بالنسبة للوضع العربي، كامب ديفيد ثانية، فإذا كانت الأولى قد أخرجت السادات من المواجهة مع إسرائيل، فالثانية ستخرج العراق من هذه المواجهة أيضاً.

إضافة إلى ذلك هناك فوائد أخرى جلّى، منها تغطية مفاوضات السادات وأزمة اتفاقاته الراهنة، وإرجاع قضية فلسطين عن صدارة المسرح في الشرق الأوسط، وتهديم اقتصاد كل من العراق وإيران، وإعطاء أمريكا الحجة لتتواجد بكثافة عسكرية في الخليج، بغية التدخل المسلح فيه عند اللزوم، والإسهام في زيادة انقسام الصف العربي، وتهديم منشآت النفط الإيراني، وفتح صفحة عداء بين إيران والعرب، وتعطيل الدور الإيراني في دعم الثورة الفلسطينية، الذي برز غداة انتصار الثورة الإيرانية.

كتبت «الميدل إيست» (عدد تشرين الثاني) تقول: «لقد تراجع الصراع العربي الإسرائيلي الآن إلى الصف الثاني، وما من أحد أشد

سروراً بهذا الموضوع من إسرائيل». وأيدت الصحف الإنكليزية، من زوايا مختلفة ولكن متقاربة هذا الرأي، وقالت إن الكسب الأول الإسرائيلي من الحرب العراقية الإيرانية هو «تأجيل الخطر الذي كانت تشكله عليها الجبهة الشرقية» و«يتوجب على إسرائيل الآن أن تحول مصادرها المالية من الحلبة العسكرية إلى الإصلاحات الداخلية»، «غير أن العسكريين الإسرائيليين يعترضون على ذلك».

وقالت «الإيكونوميست» البريطانية (٢٥/ ١٠/ ١٩٨٠): «إن موقف أمريكا عززته الحرب العراقية الإيرانية، وهذا أمر معترف به في واشنطن»، وقالت «اللوموند» (٣/ ١٠/ ١٩٨٠): «من أجل تبرير الحرب العراقية ضد إيران، نقض صدام حسين اتفاق الجزائر لعام ١٩٧٥، واعتبره غير شرعي، بينما كان شاه إيران وصدام حسين نفسه قد اعتبراه اتفاقاً عادلاً في حينه. والحال أن هذا الاتفاق ينص على سلسلة من التدابير والإجراءات يمكن الرجوع إليها لتسوية الخلافات التي قد تنشأ بين البلدين».

لقد فضل النظام العراقي «صراع الحدود على صراع الوجود» كما قال الرئيس الأسد، ودون أن يتشاور مع أي دولة عربية، ودون أن يدخل في أي مفاوضات مع إيران، دفع جنوده إلى الحدود الإيرانية، تنفيذاً لخطة أمريكا في إسقاط نظام الخميني أو تفتيته.

لكن حساب السوق لا ينطبق على الصندوق دائماً. ومجلة «تايم» تعترف (١٠/ ١١/ ١٩٨٠) قائلة: «لقد أخطأ العراقيون في تقدير استطاعة إيران على المقاومة، لذا أعدوا عدتهم لمجرد حرب

خاطفة. كذلك اخطؤوا عندما ظنوا أن نظام الخميني سينهار في أول هجوم عراقي على إيران، بسبب الانشقاقات الداخلية».

وهناك خطأ ثالث وقع فيه نظام صدام حسين، حين حسب أن بإمكانه إعطاء اسم القومية العربية لحربه نيابة عن أمريكا. إن العرب قد تخطوا مرحلة الطفولة السياسية، وكما كشفوا زيف ادعاءات السادات من وراء سلمه الاستسلامي، كشفوا، وبسرعة، زيف ادعاء نظام العراق أن حربه باسم القومية العربية ولمصلحتها، وأن الطريق إلى الحدود الإيرانية، يمكن أن يكون بديلاً للطريق باتجاه فلسطين.

وكان للسياسة السورية، ولسياسة دول جبهة الصمود والتصدي، الفضل في هذا الكشف، وفي التأكيد، كما قال الرئيس الأسد، أن القضية لو كانت تتعلق بالعراق الشقيق وبالشعب العراقي العزيز، لكنا إلى جانبها، لكن الحرب التي شنها نظام صدام حسين هي لمصلحة أمريكا، وضد العراق والشعب العراقي معاً.

وفي هذا الوضع الخطير في المنطقة، وأمام خروج العراق بعد خروج مصر من المواجهة، ونجاح ريغان الأشد خطراً من كارتر، بالنسبة للشرق الأوسط ودعم إسرائيل، ونتيجة لاختلال الميزان الاستراتيجي مع العدو، وقيام أمريكا بإحاطة المنطقة بقواعدها العسكرية، وتواجد هذه القواعد مع القوات الأمريكية للتدخل السريع في مصر والخليج، كان لا بدَّ لسورية من العمل، لامتلاك القوة اللازمة والرادعة.

لقد قال الرئيس عبد الناصر بعد حرب حزيران: «إن الولايات المتحدة هي التي تقف أمامنا على سلم التصاعد العسكري»، وقال في خطابه بتاريخ ٢٩/٤/١٩٦٨: «علينا أن نواجه إسرائيل بقوات أقوى، وعلينا أن نواجه أي تفوق إسرائيلي بتفوق أكبر».

وقال في صدر بيان آذار (مارس) ١٩٦٨: «إننا نستطيع إعادة بناء القوات المسلحة، وكانت تلك ضرورة، وبغير بديل، إذا كنا نريد حقاً أن نصحح آثار العدوان. وبغير إعادة بناء القوات المسلحة، لم يكن أمامنا غير تقبل الهزيمة، مهما كانت آمالنا، ومهما كان إيماننا. إن الحق بغير القوة ضائع، وإن أمل السلام، بغير إمكانية الدفاع عنه، استسلام، وإن المبادئ بغير مقدرة على حمايتها، أحلام مثالية».

ونحن في سورية، فعلنا ما فعلته مصر الناصرية. وأنا لا أدري إذا كان الرئيس الأسد قد قال ما قاله عبد الناصر بشأن امتلاك القوة العسكرية، غير أنني واثقة من أنه تصرف من وحي قناعة مماثلة، حين عقد معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتي، هذه المعاهدة التي هي في صالح العرب مثلما هي في صالح سورية، وهي تواجه التفوق الإسرائيلي بتفوق سوري، وتعيد التوازن العسكري الذي اختل بخروج مصر، وزاد اختلالاً بخروج العراق الآن.

ومن هذا المنطلق، في اكتساب القوة، كانت الوحدة مع ليبيا أيضاً، فليس كالتجزئة من ضعف تريده إسرائيل للعرب، وليس

كالوحدة من قوة قادرة على تحرير الأرض واستعادة الحقوق، وجبه أطماع إسرائيل التوسعية.

إن هـذا الاسـتعراض للـسياسة الخارجيـة الـسورية، وهـذه البراهين على سدادها، وهـذا الكـلام عـلى إنجازاتهـا، ديبلوماسـياً وعسكرياً، يصبح ضروريـاً في وقتنـا الـراهن، هـذا الوقـت الـذي نحتفل فيه بالذكرى العاشرة لقيام الحركة التصحيحية.

وفي حين يتخبط غيرنا بسياساته، تبدو سياساتنا صحيحة كل الصحة، ومن موقع القوة، من موقع الثقة، من موقع العزم، نعمـل للتضامن العربي الكفاحي، ونـدعو لـه، ونتـابع خطانـا عـلى درب المستقبل.

لقد منحتنا الحياة، كما قلـت، قيـادة فـذة هـي قيـادة الـرئيس الأسد، وأضيف، إن الحياة منحـت هـذه القيـادة الكبـيرة للعـرب كلهم، وللوطن العربي الكبير كله.

قراءة في مفكرات أدباء الأرض المحتلة (*)

أخيراً اشتعلت الكلمات في الأرض العربية المحتلة

صارت نيراناً في جسم الاحتلال الإسرائيلي

صارت انتفاضة تحولت إلى ثورة، فعمّ اللهب وأضاء بنور الحق والغضب ظلمات تكاثفت على جبين فلسطين المحتلة،

وهكذا تحول الدفاع عن الأرض ضد الصهاينة المحتلين، إلى ثورة ضد الاحتلال نفسه، وانتفضت مدن وقرى عربية، احتلت منذ النكبة في عام ١٩٤٨ لتثبت أن العروبة فيها أصل، وما استخدم من أساليب التهويد هو زيف، وأن هذه المدن والقرى مازالت تتشبث بأرضها، وترفع الشارة العربية على صدرها، وتتحدى جلاديها، وتهزأ بسياطهم وسجونهم وكل ما ابتدعوه من فنون التعذيب، وتنضم إلى أخواتها، مدن وقرى الضفة الغربية، في الانتفاضة التي هزت كيان الاحتلال، إذ هزت ضمير العالم، وجعلته يفتح العيون على المأساة من دهش، وعلى العنصرية الصهيونية الهمجية من استنكار، وإدانة.

(*) كتبت هذه الدراسة عام ١٩٧٩.

ولأن الكلمات اشتعلت، فقد تأججت ثمة نار، ولو تساءلنا وسألنا التاريخ، من مدّ لهذه النار، أكان الجواب غير ما هو كائن، وهو أن الأدباء والشعراء كانوا الوقّادين الذين أضرموا الشرارة في السهل، وكانوا الحطابين الذين رموا بالجذوع إلى الشرارات فاشتعلت الحرائق في غابات الاحتلال؟

إنما الكلمات شرارات

وإنما الكلمات، حين تندلع الشرارات، وقود حرائق.

وحملة الكلمة في صياغة أفكار الذين ينتفضون ويثورون ويشعلون نيران الثورة، هم صاغة الفكر، وهؤلاء في ارتباطهم بأرضهم وشعبهم، يعبرون عن نجوى هذه الأرض، وشكوى هذا الشعب، ويتحملون في سبيل ذلك الألم بشجاعة ورجولة.

غير أن الألم الكبير على قدر القضية الكبيرة يكون، ونحن بحاجة إلى هذا الألم الكبير، لأجل قضيتنا الكبيرة.

لقد قال أحد الكتاب يوماً إننا لا نعرف أن نتألم بما يكفي، فهل كان قصده من ذلك ما أراده الشاعر الفرنسي دوميسيه ببيته الشهير «لا شيء يجعلنا عظماء كالألم العظيم»؟ إن الجواب، في الدلالة على معنى الألم، يأتي مساعفاً على اكتشاف المغزى، فإن يكن هذا الألم، في النشدان الرومانتيكي له، مساعداً على الخروج من حالة التألم لأجل الذات إلى التألم لأجل الغير، فإنه ألم مبدع.. وأقول لكم: تبارك الألم المبدع، تبارك الألم المبدع، تبارك الألم المبدع.

أقولها ثلاثاً، لأن من يتألم في ذاته ولغير ذاته، لأجل الآخـرين، المواطنين والـوطن والأرض والـشعب والأمـة، فإنـه يـسمو بألمـه ليعانق به كفاحـه، وعنـد هـذه النقطـة، مـن التـصاعد في الـشوق النضالي، تتبدى القـدرة الخارقـة عـلى التـضحية التـي هـي أسـمى مراتب الشرف.

غير أن التضحية عبر الألم تكون كبيرة بمقـدار الهـدف الـذي كانت من أجله، فمصادر الألم الشخصي في الحياة كثيرة وكبيرة، ولا أنتقص واحداً منها، ولكن ثمة فرقـاً بـين أن نتـألم في سـبيل أشـياء خاصة، وأن نتألم في سبيل قضايا عامة، هي أعظم بما لا يقاس.

إن فراق حبيب يسبب ألماً، وموت عزيـز يـسبب ألمـاً، وخيبـة أمل تسبب ألماً، وبلوغ الأهداف، من التحصيل الدراسي، إلى العمل اليومي، إلى تنشئة الأسرة، إلى ضمان المستقبل، يسبب ألماً، وربما كان بعضها يدفع في مواجهة الصعاب إلى ذلك النوع من مقابلة الشدائد بالابتسام للارتفاع عليها، وهذا كله مفهوم، ومأخوذ بالتقدير الذي يستحقه، لكنه يظل ألماً خاصـاً، يـدخل في الحـساب الخـاص، أمـا تجاوزه إلى ما هو عام، إلى الألم في سبيل وطن محتل، وحق مغتصب، وشعب مشرد، وأرض مستباحة، وبيت مهدوم، ومواطنة محتجزة، ومعاملة عنصرية فاشية تحت وطأة احتلال بغيض، فإنه ألم مقدس، والتضحية التي يستلزمها ويتفجر عنها، ويرفعها شعاراً يوميـاً هـو على الحد بين الموت والحياة، إن ذلك التجاوز حين يكـون، ويتحـد فيه ما هو خاص بـما هـو عـام، وتـصبح قـضية الفـرد هـي قـضية

الشعب، فإن ذلك الألم الخلّاق الذي يدفع إلى هذه المأثرة المجيدة هو الذي أنحني له احتراماً، وأدعوكم معي إلى انحناءة احترام له أيضاً.

لقد حقق كتاب وشعراء الأرض المحتلة، في فلسطيننا الحبيبة، هذه المعادلة الصعبة التي كنا نقرأ عنها لدى الشعوب الأخرى، فنمتلئ بالحماسة والفخر، في تلك الصلة الإنسانية التي تربط بين مصائر الناس والشعوب. وكانت حماستنا إلى بطولات سوانا، نوعاً من الطموح إلى بطولات مماثلة على أرضنا، ولم يكن يراودنا يأس من أنفسنا، لكننا في المقابل لم نكن على كبير ثقة بهذه الأنفس، إلى أن انبثقت البطولة في أرضنا، عملاقة بأشد مما كنا نتوقع، على أيدي المقاومة الفلسطينية التي عمرها أحد عشر عاماً حتى الآن.

يقول ناظم حكمت، لم يعد يكفينا سماع الأغاني، نريد أن نغني الأغاني، نريد أن نصنع البطولات فبها وحدها، في التضحية المقترنة بها، يكون التحرر والتقدم، وبلوغ الأهداف جميعاً. لقد كانت الرصاصات، منذ أحد عشر عاماً، كلمات أغنياتنا، وقبلها، ولم نكن نعلم، كانت النضالات في الأرض المحتلة، كلمات أغانٍ ملحمية يصوغها اليراع إبداعات ملحمية أيضاً، وعن هذه الكلمات أريد أن أتكلم دونما ميل إلى الوقوف عند الخارق منها فقط، لأن الضخم في الأشياء يدخل في صميم نسيجه المتواضع في الأشياء أيضاً، وهتفة لا في وجه محتل، في مكانها وزمانها المناسبين، تساوي رصاصة في صدر المحتل في المكان والزمان المناسبين، لأن الذي لا يعرف أن يرفض الاحتلال والإذلال لا يعرف بالتالي أن يقاومها.

ولقد رفض شعبنا في الأرض المحتلة العدو الإسرائيلي وقاومه. لم يدخر وسعاً في ذلك، ولم يؤثر عافية ولا سلامة، وبذل الكثير وضحى بالكثير، وشهر قبضاته في مظاهرات دامية، وإضرابات واسعة في وجه المحتل، وأرغمه على أن يعيش حالة من القلق والعذاب والاستنفار المستمر، لمواجهة هذه المقاومة المستمرة.

وقام الكتاب والشعراء، ضمير هذا الشعب، ضميرنا جميعاً، بلملمة أجزاء هذه الصور للمقاومة، ليصنعوا منها على صعيد الإبداع لوحة للمقاومة، ستكون بدورها مادة مقاومة على جبهة الفكر والفن ذات تأثير بالغ في الأرض المحتلة وخارجها.

وخلال ذلك، خلال العمل والنضال والإبداع، دوّن أدباؤنا في الأرض المحتلة خواطرهم على شكل مفكرات أو مذكرات، من المفيد أن نقوم بقراءة فيها لإلقاء الضوء على بعض خطوطها، وجوانب العظمة فيها، ولنتبين كيف رفضوا عنصرية العدو الصهيوني، وكشفوا قناع ديموقراطيته المزيفة، وعرّوا نازيته الجديدة ونبهوا الأذهان إلى ضرورة المقاومة وإمكانها، وصاغوا بكلماتهم وجدان هؤلاء المقاومين الذين انتفضوا وثاروا مؤخراً.

إن أول ما يلاحظ على هذه المفكرات روح الغضب على الاحتلال التي تنبض فيها، وروح التفاؤل في النصر عليه التي تنطوي عليها. وليس ذلك تفاؤلاً أحمق بغير رصيد، أو تفاؤلاً يراد له أن يكون نقيضاً للتشاؤم في عملية استبدال قسرية، كمن يجبر نفسه على الابتسام وفي داخله حزن. إن غضب هؤلاء الكتاب

صادق ومعافى، وتفاؤلهم صادق ومعافى، وهو صورة من تفاؤل الجماهير العربية التي تؤمن أن مقاومتها، مهما يطل الزمن، بالغة هدفها في طرد المحتلين، وتحرير الأرض العربية المدنسة بأقدامهم الرصاصية.

ويرتكز هذا التفاؤل على معطيات الواقع، فحركات المقاومة والمظاهرات والإضرابات التي تقوم بها هذه الجماهير تتوالى وتنداح دوائرها لتكتسب كل يوم مواقع جديدة. إنها تعابير ذات أشكال مختلفة لمسمى واحد هو المقاومة، تتشقق عنها الأرض هنا وهناك وهنالك، في كل بقعة من الأرض العربية المحتلة، كما تتشقق الأرض عن براكين متفرقة، يجمعها اندفاع واحد نحو غاية واحدة، هي الانبجاس والتحقق.

وكما أن البراكين لا تندفع إلى ظاهر الأرض دون أن تكون قد استوفت عناصرها، فإن مقاومة العرب في الأرض المحتلة لا تنفجر قبل أن تكون عناصر هذا الانفجار مستوفاة، وهي تتشكل أصلاً من ممارسات الظلم والاضطهاد والقمع والتشريد والقتل والسجن التي يطبقها المحتلون الصهاينة، ويحس بها السكان العرب، ويأتي الكتاب والشعراء ليجعلوا هذا الإحساس علنياً يعي نفسه، وينهض للدفاع عن نفسه، في ذلك الصراع الدامي بين الذين هم أصحاب الأرض والدار، وبين الذين جاؤوا لاغتصاب الأرض والدار وكل ما يستتبع ذلك من سلب للحقوق.

مهمة كتاب وشعراء الأرض المحتلة هي التحريض إذن. جعل الإحساس بالظلم علنياً، وجعل التعبير في مناهضة هذا الظلم تعبيراً علنياً أيضاً، ورسم صور الاضطهاد والمضطهدين ليروا فيها أنفسهم، ولينهضوا في كل مكان لمقاومة هذا الاضطهاد بكل الوسائل التي في أيديهم، من الكلمة والفعل البسيطين، إلى الكلمة الداوية والفعل الذي يهز كيان العدو في الانتفاضات الكبيرة كالتي حدثت مؤخراً.

ولا يسلك هؤلاء الكتّاب طريقاً واحداً إلى غاياتهم، فمع التحريض الثوري المباشر على المقاومة، هناك إنبات دائم وذكي لبذورها، وإنماء للنبت حتى يستوي شجرا. والوسائل إلى ذلك كثيرة، من رسم لوحات عن حياة السكان العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي، إلى تقديم صور عن ذكريات هؤلاء السكان في الماضي، وآمالهم في الحاضر والمستقبل، إلى السخرية بالمحتلين، إلى وضع قصص عن الحياة اليومية للعرب والقهر الذي يلقونه على أيدي الإسرائيليين، إلى تصوير مشاهد عن المقاومة التي يبديها المواطنون في كل مكان، إلى استخدام التاريخ والتراث والقصص المحلية والعالمية التي تحكي عن صراع الخير والشر، وانتصار الخير على الشر، وتجسيم الفساد، والحض على اجتثاثه، وتغذية الآمال بالتحرر والانعتاق، والإيماء الدائم إلى وجود عالم آخر، أبهى وأحلى وأكثر عدلاً واستقامة، وإلى أن هذا العالم ممكن التحقق، وأن طريقه هو التحرر والتقدم والنضال في جبهة متلاحمة مع مناضلي العالم الذين يعملون للأهداف نفسها.

تقول مجلة «الطريق» اللبنانية في تقديمها لصفحات من مفكرة الكاتب العربي الفلسطيني إميل حبيبي: «إن الذين يتابعون مختلف كتابات الشعراء والكتاب الثوريين العرب داخل إسرائيل يلمسون كيف أن مختلف ألوان هذه الكتابات وأنواعها ينبع من معركة الشعب الفلسطيني ويصب في هذه المعركة، سواء كانت هذه الكتابات تتناول التاريخ القديم أم أحداث السنوات الأخيرة، وسواء تناولت الأدب القديم أم ذكريات كاتب ما، أم الحديث المباشر عن أحداث حاضرة، فضلاً عن الشعر الذي يشكل هو نفسه جزءاً من معركة هذا الشعب المعذب، الصابر الثائر».

فماذا يقول إميل حبيبي في مفكرته؟ إنه كمناضل متمرس يمتلك الوعي والتجربة، ويعرف الظروف التي يعيش فيها تحت ظل الاحتلال، لا يعمد إلى تدوين خواطره السياسية بشكل مكشوف. يقول إن صديقه محمود درويش -وكان آنذاك في الأرض المحتلة- طلب منه أن ينتف له صفحات من مفكرته لنشرها، فتذكر اميل تشبيهاً للكاتب القاص يوسف إدريس يقول فيه إن الإنسان أشبه بالسفينة التي لا يظهر منها فوق السطح سوى أقلها، وهو، إميل حبيبي، يرى أن مفكرته أشبه بهذه السفينة، وعليه أن لا يتيح لأحد أن يطلع على ما فيها، وأنه لن ينشر إلا القليل الذي يظهر، مثل السفينة، على سطح الماء، كيلا يدع لعين العدو أن تقع على ما لا يريد كشفه من أسرار، وهذا هو المبتدأ الصارم للنضال، وهو من ناحية أخرى يظهر كم هي شديدة ملاحقة الصهاينة الدائمة للعرب

الموجودين في الأرض المحتلة، بحيث لا يأمن أحدهم أن يضع في جيبه ورقة أو رسالة أو مفكرة فيها ما يضر القضية إذا ما وقعت في أيدي العدو.

«أنا أعقل - يقول اميل حبيبي بأسلوبه الظريف الساخر - من أن أحشو مفكرتي، إذا ما وجدت، بالآراء السياسية التي هي قواويش النوتية ومقاصير الركاب وقاعة الطعام، والظهر المكشوف وغرفة القبطان والداخون والصواري، وخشبة العلم، وزوارق المطاط، في سفينة حياتي»، أي إن الآراء السياسية هي كل وجوده، كما أن هذه الأشياء التي عدّدها هي كل وجود السفينة، فهل يجعل من مفكرته معرضاً لهذه الآراء؟ وماذا عندئذٍ يتبقى منها في السر، أو تحت الماء كما يريد أن يقول؟

ولكن إذا لم تكن مفكرته تحتوي على آرائه السياسية، فعلى أية آراء تحتوي؟ إن الكاتب هنا يلجأ إلى التورية. يورد أفكاره السياسية تحت غطاء جيد التمويه بحيث لا تخفى على القارئ، ولا تعد مستمسكاً ضده، تماماً كما فعل في رائعتيه المعروفتين: «سداسية الأيام الستة»، و«سعيد بن النحس المتشائل»، ويقول في ذلك: «إنني أتعشق صيد السمك، وقراءة الأدب الساخر، والحديث وأخبار المحبين الخالدين. فهذا الأدب يطمئن على مستقبل الإنسان، وعلى أنه أقوى من قيود مجتمعه المتوارثة. إن الإنسان شجاع، فهو طيب، ونستطيع أن نطمئن على مستقبله».

يختار بعد ذلك ثلاث صفحات من مفكرته التي تحت السطح، عن ثلاثة كتب قرأها هي «كنديد أو المتفائل» لفولتير، و«رسالة الغفران» للمعري، و«مصارع العشاق» للشيخ أبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج، الذي لم يسمع به إلا بعد أن انفتحت الضفة، يقصد الضفة الغربية.

أما عن «كنديد» لفولتير فيقول: «كنت قد قرأت هذه القصة بترجمتها الإنكليزية قبل أكثر من خمسة وعشرين عاماً، فكتبت في دفتري: متى سيجرؤ أول أديب عربي على ترجمتها إلى اللغة العربية؟ ورغبت في أن أقدم على ذلك فلم أجرؤ عليه.. تستطيع أن تتصور دهشتي ومبلغ تفاؤلي بمستقبل القيم الإنسانية العربية حين وجدت «كنديد» بعد أن انفتحت الضفة، معروضاً في دور الكتب في نابلس، وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ عادل زعيتر، وصدر كتاباً عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٥».

إنه يريد، بالإشارة إلى هذه الحادثة، أن يظهر مدى التقدم الذي يتم في الوطن العربي دون أن نفطن جيداً إليه، ودون أن نتوقعه. إن ترجمة «كنديد» -رغم ما في هذا الكتاب من روح ثورية ومن سخرية بالأوضاع القائمة، ليس شيئاً يذكر بالقياس إلى الترجمات التي صدرت للكتب الثورية، وهذا يعني أن الحجر الذي كان مفروضاً على ترجمة الآثار الثورية إلى اللغة العربية قد زال، وكان زواله أسرع مما كان يتوقع بعضنا، وهذا دليل على تغير

الأوضاع والعقليات، وعلى امتلاك الأدباء للشجاعة التي يريدون بها ألا يكونوا شهوداً على العالم، بل عوامل تغيير لهذا العالم.

في قصة «كنديد» يطوف أبطال فولتير في أقطار الدنيا فيكشفون عن عالم فاسد في معتقداته وأحكامه وفيما تواضعوا عليه، لا أمان لإنسان، ولا احترام لكرامة، عالم حروب وفظائع، يقتل فيه الإنسان أخاه الإنسان، إلا في بلاد الأحلام التي يسميها «ألدورادو».

ويتساءل اميل حبيبي: «أين هو التفاؤل في «كنديد» إذن؟ إنه في شجاعة فولتير، هذا الفيلسوف الساخر، الذي تكاد تتوهم أنه بلغ حضيض التشاؤم، لكنه يجعلك تغرق في الضحك من هذا العالم الأبله، ومن مفاهيمه الفاسدة، حتى لتشعر بأن الإنسان، ولو كان وحيداً، وهو ليس بوحيد، أقوى من محاكم التفتيش ومن الأصنام البلهاء، وهو قادر على أن يشق طريقه حتماً إلى بر الأمان.

هل اختار الكاتب قصة «كنديد» اعتباطاً؟ كلا طبعاً. لقد فعل ذلك لأنه وجد شبهاً كبيراً بين عالم «كنديد» وبين عالمنا الحاضر، بما فيه من عدوان وبقر للبطون في الفييتنام، وما فيه من احتلال إسرائيلي وقتل للسكان العرب في فلسطين المحتلة، وما يجري في أحياء الزنوج في أمريكا، ومن تمييز عنصري في روديسيا وجنوب أفريقيا، ومن تدخل في إيرلندا وأماكن أخرى. غير أن هذا كله لا يحجب حقيقة كبيرة هي أن «ألدورادو» -هذه الدنيا الفاضلة- قد أصبحت حقيقة في ثلث عالمنا، نتطلع إليها بتفاؤل كنديدي.

يروي بعد ذلك اميل حبيبي قصة الغلام الساذج كنديد، ومعلمه الفيلسوف بنغلوس، وتشردهما وما يلاقيان من صنوف العذاب، ومع ذلك يظل بنغلوس على اعتقاده بأن كل شيء في هذا العالم يسير على أحسن ما يكون، إلى أن يلتقي بفيلسوف آخر هو جاك الذي لا يؤمن بأن «كل شيء جعل على أحسن ما يكون» لأنه «لا بد من أن يكون الناس قد أفسدوا الطبيعة قليلاً. وذلك لأنهم لم يولدوا ذئاباً فصاروا ذئاباً، ولم يعطهم الرب حراباً، فصنعوا مدافع وحراباً ليبيد بعضهم بعضاً».

وأخيراً يصل «كنديد» إلى بلد الأحلام «ألدورادو» حيث خيرات الأرض مشاع بين الناس جميعاً، والذهب مثل الحصى يلعب به الأطفال، ولا حقد ولا ضغينة، ويرى كنديد، أنه من المرجح أن يكون كل شيء في هذا البلد على ما يرام، وذلك لضرورة وجود بلد من هذا الطراز حتماً.

ويعلق إميل حبيبي على كلام كنديد فولتير هذا قائلاً: ما أروع هذه النبوءة وهذا الأمل، ذلك أنه في قلب ذلك العالم الفاسد كله، استطاعت الرؤية النفاذة لفولتير أن تكتشف العالم الآتي، العالم الذي تتحقق فيه أحلام الحرية والتحرر والتقدم والمساواة، العالم الذي حلم به أفلاطون في جمهوريته، والفارابي في مدينته الفاضلة.

وبعد أن يطوف كنديد في البلدان، ويرى استعباد العمال في أمريكا، والتآمر في بلاطات الملوك، وصمت الدراويش على الفساد في تركيا، يصل إلى مزارع لا يهتم بأخبار الدنيا والتآمر بين الملوك

والوزراء، ويقول ببساطة: «أنا مزارع لا أملك أكثر من عشرين فداناً، أزرعها مع أولادي، فالعمل يدفع عنا ثلاثة شرور كبيرة: السأم والرذيلة والعوز.»

ويعود كنديد إلى مزرعته التي أنشأها قرب الاستانة، ويقوم بتأملات حول كلام المزارع التركي ويقول لبنغلوس: «يبدو لي أن ذلك المزارع اختار لنفسه نصيباً أفضل من نصيب الملوك الستة الذين كان لي شرف العشاء معهم. فيبدأ بنغلوس موعظة جديدة لا أول لها ولا آخر، مؤكداً أن كل شيء هو على أحسن ما يكون، فيجيبه كنديد: «هذا قول حسن.. ولكن يجب أن نزرع حديقتنا».

«هذا قول حسن ولكن يجب أن نزرع حديقتنا» تلك هي حكمة فولتير الصائبة.

إن الفلسفة حول شئون العالم شيء حسن، ولكن الأحسن أن نعمل من أجل تغيير هذا العالم، ولن يتم ذلك إلا بالعمل، وبأن يزرع كل فرد، وكل شعب، حديقته، كي تنبت وتورق وتزهر وتؤتي أكلها.

والمطلوب بالنسبة لحديقة فلسطين هو العمل لتحرير فلسطين، واستعادة حقوق شعبها، ومنها حق تقرير المصير وبناء الدولة الفلسطينية على غرار دولة «ألدورادو» التي أشار إليها فولتير.

إن مفكرة إميل حبيبي، في الملخصات التي أوردها حول كنديد ورسالة الغفران ومصارع العشاق تنطوي على معاني كبيرة، وقراءتها على وجه تحليلي تحتاج إلى دراسة بذاتها، لهذا أكتفي بهذا

القدر منها حول كنديد، وأنتقل إلى مفكرة سميح القاسم التي يسميها حديقته «الوحشية»، والتي هي كما يقول غير مرتبة حسب ايتكيت الروزنامة.

إنه يتحدث عن يوم من العمل، وعن التأخر في الذهاب إلى مكتب الجريدة، ثم سهرة مع بعض الأصدقاء والصديقات، حيث طاب له أن ينشد:

هنا ميسلون، فعوجوا جميعاً نحيي ثرى ميسلون
هنا استبسل العرب ضد الغزاة، هنا استشهد الباسلون
وكان لجيش الغزاة انتصار ونير علينا وطيد
وكان على العرب إما الخضوع وإما النضال العنيد
وبتنا نقاتل ليلاً نهاراً إلى أن بلغنا الأرب
ولن نترك السيف أو نسترد جميع حقوق العرب
هنا ميسلون..

ولكن جارة سميح، السيدة ليفي، لم يرق لها هذا الإنشاد، فاتصلت بالشرطة الإسرائيلية التي سارعت إلى البيت، وبعد تحقيق قصير انصرفوا دون استدعاء الشباب العرب إلى المحكمة كالعادة في مثل هذه الظروف.

في اليوم التالي يبدأ سميح البحث عن بيت، ويسير هو ومحمود درويش من مكتب عقاري إلى آخر فيرحبون بهما في البداية، وحين يكتشفون هويتهما يتغير الموقف منهما، وأخيراً يقرأ سميح في

الجريدة إعلاناً عن بيت أجرته مئتا ليرة إسرائيلية، لكن صاحب البيت، عندما يعرف أنه عربي يرفع الأجرة إلى ٢٥٠ ليرة، وهكذا يتبدى التمييز العنصري الذي يعلمه الإسرائيليون لأولادهم في المدارس، ولأبنائهم في البيوت، ولشبابهم في منظماتهم، ثم يطبقونه جميعاً ضد العرب بقسوة ووحشية.

في يوم آخر رأى سميح شاباً مصاباً بالشلل جالساً في كرسي ذي عجلتين، وقد مر به عشرات الإسرائيليين دون اكتراث، فدنا منه وسأله عما إذا كان يحتاج إلى مساعدة فقال له:

- أكون شاكراً لو ساعدتني بدفع الكرسي إلى شارع الأنبياء.

وفعل سميح ذلك بطيبة خاطر وإنسانية كريمة، لكن الشاب قال له:

- شكراً لك يا سيدي.. شكراً جزيلاً.. حقاً إنك يهودي جيد.

وهنا تبرز العنصرية الصهيونية ثانية، فمن يقدم على معروف كهذا لا بدَّ أن يكون يهودياً، أما الآخرون، من القوميات الأخرى، فلا يمتلكون مثل هذه العواطف الإنسانية.

أليست هذه عرقية مريضة؟

ويرن جرس الهاتف في مكتب سميح بجريدة «الاتحاد» العربية.. ماذا؟ ضابط شرطة إسرائيلي على الخط، وتهمة كبيرة ضد سميح. في مركز البوليس يستجوبونه حول ديوانه الأخير الذي صادروه، وحول ملفه الكبير المفتوح، ويسألونه أين كان في يوم

كذا؟ وماذا عمل من تاريخ كذا إلى تاريخ كذا؟ ويتهمونه بأنه اشترك مع آخرين في نسف منشأة النفط في ميناء كيشون على خليج حيفا، وينفي الشاعر هذه التهمة المختلقة، لكنهم يوقفونه رغم ذلك، ويدفعونه إلى السجن الذي أصبح يعرف غرفه عن ظهر قلب.

إنه الإرهاب.. لا يهم أن تكون التهمة صحيحة أو ملفقة، المهم أن يخترعوا تهمة ليسجنوا العربي إمعاناً في النقمة والاضطهاد.

وفي اليوم التالي يساق الشاعر سميح القاسم إلى سجن الجلة، ويكون شريكه في القيد هذه المرة رجل لص وحشاش معروف جيداً في أوساط العالم السفلي -حسب تعبيره- ويبدأ التحقيق مع سميح من جديد بتهمة الاتصال بمنظمة فتح وتشكيل مجموعات مقاتلة داخل إسرائيل.

يقول المحقق لسميح:

- أنت تعرف مدى خطورة التهمة الموجهة لك.

ويقول سميح:

- أجل أعرف.. وأعرف أن التهمة باطلة من أساسها.

وتنهال الأسئلة، ويتعاقب عليه المحققون، ويقول الثالث منهم:

- أنا أكرهك..

- أعرف أنك تكرهني

- هل رأيت لغماً وعبوات ناسفة؟

- نعم رأيت

وتنبهت جميع حواس المحقق فصرخ:

- أين؟

وقال سميح بهدوء:

- في السينما

ويعاد سميح إلى السجن، هذا الذي يقول عنه، في مفكرة اليوم العاشر، «في السجن تكتسب الأشياء قيمة خاصة. السيكارة من النوع الرديء يعتبرها السجين كنزاً ثميناً، وعود الكبريت يجدر به ألا يفرط فيه.»

«اليوم -يضيف سميح- حمل إلي سجين عربي شاب من إحدى قرى الجليل منشفة وفرشاة أسنان وأنبوب معجون، وحمل إلي سجين من هضبة الجولان المحتلة سلة من الفاكهة، وحمل سجين آخر مشطاً وصابونة. إن منقولاتي في السجن تزداد، وثروتي تتضخم، ومستوى معيشتي يرتفع. ويصر سجين على أن يقرأ عليه سميح بعض أشعاره، فيقرأ له مقطوعة من خاتمة الحوار مع سجان:

من كوة زنزانتي الصغرى

أبصر أشجاراً تبسم لي

وسطوحاً يملؤها أهلي

ونوافذ تبكي وتصلي

من أجلي..
من كـــوة زنزانتي الصغرى
أبصـر زنـزانتك الكبرى،

وفي مفكرة اليوم الثاني عشر، يقول سميح: «في ساعة مبكرة من هذا اليوم تذكرت أفراد أسرتي واحداً واحداً، وشعرت برغبة في الاعتذار إليهم عن المتاعب التي يشاركونني إياها، سواء شاؤوا أم أبوا.. تذكرت ابن أخي الصغير وهو يرفض بعصبية قطعة النقود الصغيرة ويصر على قطعة كبيرة ليشتري الحلوى له ولأخته، وتذكرت رفاقاً من الناصرة وحيفا فابتسمت راضياً مرضيّاً.

قرأت قصة أمريكية من «أدب» الغرب المتوحش، عمقت هذه القصة كراهيتي لرسل الانعزالية وشريعة الغاب الذين يبشرون بالذاتية المنفصمة عما يحيط بها، والمؤمنة جداً بمبدأ: «إذا شئت أن تعيش سعيداً فلا بد من إتعاس الآخرين».

ويطلق أخيراً سراح سميح القاسم بعد ثلاثة عشر يوماً من التوقيف، وبعد أن أقلق رفاقه الشرطة بالاستفسار عنه، وهو يعلق على ذلك قائلاً: «حسن أن تشعر وأنت في السجن بأنك لست وحيداً في المعركة».

على أن سميح إذا خرج من الزنزانة الصغيرة فهو ما يزال يضطرب في الزنزانة الكبيرة التي يسجن داخلها كل العرب في الأرض المحتلة، وهو يطلب تصريحاً لزيارة قريته الرامة فيرفض

طلبه، ويقرأ في إحدى المجلات نبأ موته، فيواصل الحياة ضاحكاً من كل قلبه.

ثم هو يترجم في يوم آخر أغنية سوفيتية عن الإنكليزية تدور حول الوطن ويقول: «كادت الدموع تطفر من عيني وأنا أترجمها.. لماذا لا أحس بروعة الوطن في أغاني مطربينا العرب؟

كتبت اليوم قصيدة:

أعيش بالدين وبالتقسيط

أموت يا مولاي

ألفظ أنفاسي

وللقصائد التحنيط.

في المفكرة التاسعة عشرة يقلق سميح لأخبار الموت الكثيرة التي تنشرها الصحف، وهو يلاحظ أن «غلة الموت أكبر من غلتنا» وأن «كل جلبة الإبحار إلى القمر لا تثير فيّ غير التقزز، فزنوج أمريكا لم «يبحروا» إلى منازل أفضل، واللاجئون العرب لم يبحروا «إلى وطنهم.. لا بدَّ من التطور التكنولوجي والإنجازات العلمية، لكنني أريد أن أعيش حتى أتمتع بها حقاً».

مرة أخرى، في المفكرة الواحدة والعشرين، يكتب قصيدة:

لن تهوني

لن تهوني أبداً يا مجدلية

لم أزل أغسل رجليك بدمعي

ودمي.. يا مجدلية

من قرون الهمجية

لقرون الهمجية

فاسلمي، سلطانة العشق،

اسلمي لي، واقبليني

سادنا في حضرة الحب المدمى

لن تهوني..

لن تهوني أبداً يا مجدلية!

إن مجدلية سميح القاسم هي فلسطين، وهو يخاطبها بهذه الكلمات التي لا تصوغ وجدان عاشق فقط، بل وجدان مقاتل في سبيل عشقه وحبيبه، وهو يعلم أن مجدليته قد سلمت من قرون همجية لقرون همجية، من نير الأتراك إلى نير الإنكليز إلى نير الإسرائيليين، لكنه يعلم أن مجدليته فلسطين، لن تهون، ولن تركع أمام محتليها.

وفي الختام يطلع سميح على الدنيا بهذا الحب الغامر للحياة فيقول في يومية تتألف من سطرين اثنين فقط: «لا أعلم إذا كان الشهر الأخير ثلاثين يوماً أم واحداً وثلاثين يوماً، ولكنني أعلم أنني راغب في الحياة.. راغب فيها حتى اليوم الثاني والثلاثين من الشهر».

ولأنه ليس ثمة اثنان وثلاثون يوماً في أي شهر، فإن سميح يعلن بهذا الرمز عن رغبته في أن يعيش الحياة كلها، رغم ما يعانيه في

الأرض المحتلة من ظلم وكبت وسجن. إن العافية النفسية، العافية النضالية، التي يتمتع بها، تجعله يسمو على عذابات سجانيه، ويعذبهم بها، وهذا في قاموس النضال هو معنى الانتصار في الظلم على الظلم، وفي السجن على السجان.

ولئن كانت إسرائيل، في حملة التضليل الإعلامية، تحاول الظهور بمظهر الدولة الديموقراطية، فإن الشاعر سالم جبران يفضح هذه الديموقراطية المزيفة في أوراق مفكرته. يقول إن لكلمة الأمن في إسرائيل مفعولاً أقوى من كشرة قضاة محاكم التفتيش في القرون الوسطى. فحين عاد جبران من الاتحاد السوفييتي اصطدم فوراً «بالأمن» و«بالديموقراطية» الإسرائيليين، وأبلغ أن عليه ألا ينزل من قريته في الجليل إلى حيفا إلا بتصريح، وقال له البوليس بعد أخذ ورد واحتجاج:

- نعطيك تصريحاً إلى حيفا، ولكن دون نوم.

قال سالم جبران:

- وإذا بقيت ساهراً طوال الليل؟

لكن الإسرائيليين لا يفهمون المزاح، وخاصة في معاملة العرب، ولهذا كان عليه أن يعود إلى قريته، فأخذ صديقين، وحمل في سيارة كل أثاثه الذي هو كتب ومجلات وملابس وتخت وخزانة تغني وترقص، وسلك طريق القرية.

وهو يعلق على ذلك قائلاً: «أنا غير نادم وغير غاضب لأن الشرطة اتخذت هذا القرار. ففي البيت آكل وأشرب وأغسل

ملابسي بلا تكاليف، بلا مؤاخذة. وأهم من هذا فإن الصلة الحميمة اليومية، الاندماج بمشاكل أهل بلدي، كانت قد خفت في السنوات الماضية، بينما كنت خلال هذا أرتبط أكثر فأكثر بحيفا. وأنا من الذين يعتقدون أن الصلة بمسقط الرأس، وبالناس البسطاء، وبالنبع، أمر لا غنى عنه. بل لقد تطرفت حتى قلت للأصدقاء ان سلطات الاضطهاد الإسرائيلية تحب لو تركزنا كلنا، نحن الذين نكتب، في حيفا، لتقطع صلتنا بالجليل والناصرة والمثلث. هذه السلطة تقول: تريدون أن تكتبوا؟ اكتبوا، ولكن المهم ألا تتصلوا بالناس، بالشعب، ايها المحرضون.

في قريتي «البقيعة» ألتقي بالكهول الذين حفر الزمن والصراع من أجل اللقمة أخاديد في جباههم، وألتقي بالشباب الشجاع المتفتح الواعي الصامد الذي لا تزيده الغطرسة الصهيونية العنصرية إلا اشتعالاً، يخيل إلي انني هنا أكثر نفعاً لشعبي».

ويروي سالم جبران كيف يفتش البوليس الإسرائيلي السيارات، ولأنه أسمر البشرة فإن هذا البوليس يوقفه، ويطلب هويته وهو ينظر بكره إلى لون بشرته، وعندما تأفف سالم من هذه المعاملة، قال له أحد الركاب: لماذا تتأفف؟ قال سالم ساخراً: أبداً، إنني سعيد جداً لأن وضعنا، نحن عرب فلسطين المحتلة، لا يزال أفضل من وضع السود في أفريقيا، وحتى أحسن من وضع الزنوج في «أمنا» أمريكا..

وعندما ضجت صحف إسرائيل بخبر هرب الكاتب السوفييتي كوزنتسوف إلى بريطانيا، نشرت إحداها أن الكاتب أمضى طوال اليوم الثاني لوصوله في نادي عراة نهاري، وعندما زهق من هذا طلب من مرافقه أن يزور بيتاً من بيوت الليل، ويعلق سالم جبران على ذلك بقوله: «إن الكاتب حين يترك طريق استخدام الكلمة لتغيير هذا العالم، لا يسقط في مسرح التاريخ ككاتب فقط، بل ينحل إنسانياً أيضاً».

ويقول في مكان آخر، تعليقاً على مقال حول «الاستنكافية» لماركس، «إن الموقف الانتقادي الذاتي أمر هام جداً، في الحياة عموماً، ولكنه ضروري، خصوصاً، بين المثقفين، هذه الفئة الرجراجة كالزئبق، المتأرجحة كغصن في مهب الريح، الذاتية الفردية في عظمها ونخاعها».

ثم يقول، بعد أن حضر أحد الاجتماعات الانتخابية العربية: «من المفرح فعلاً أن شبيبتنا، الجيل الذي سيرث الغد، متفائلة، ومعنوياتها عالية. إن ضربة حزيران لم تفشل فقط في قهر الشعوب العربية، بل هي أيضاً لم تستطع أن تذل شبيبتنا»، «وقد استمعت بكل انتباه إلى أحد العمال فوجدت أنه قادر على أن يجعل من توزيع منشور قضية هامة كالأكل وشراء الدواء لابنه المريض. إن العامل واقعي يتجه إلى القضايا بشكل ملموس. ليس فيلسوفاً غبياً، بل هو واقعي يعرف هدفه دائماً».

«مرة أخرى: ما أحوج المثقفين إلى أن يتعلموا من العمال الثبات والصبر وطول النفس والتنظيم.. فليس بالفكر الحالم وحده يتغير العالم».

ويقول في مكان آخر من مفكرته: «إن واجب الأدب يتركز في نقطتين:

- أن يساعد الإنسان على كشف أسرار العالم في ذلك المجتمع.
- أن يعطي الإنسان الغبطة، خلال عمله لتغيير العالم إلى الأحسن والأجمل، من هنا سر أن الأدب الحقيقي يعطي الغبطة الداخلية للقارئ حتى وهو يعالج المآسي».

من الواضح أن هذه الأوراق من مفكرات هؤلاء الكتاب والشعراء، تشير إلى زمنها، وهو بعد حرب حزيران وقبل حرب تشرين، وفي هذا الصدد كتبت فدوى طوقان في يومياتها قائلة: «خسرنا الحرب. أحزاننا لا تطاق. أصبحنا محتلين من قبل الجيش الإسرائيلي. أخرجتني الصدمة عن حدود الواقع. حزينة أنا حتى الموت».

«سأكتب، سأكتب كثيراً. أحس أنني أعيش كل دقيقة من زمان المسرحية، ويهزني كل فصل من فصولها، فإذا بي أنا نفسي قصيدة ملتاعة، كئيبة، آملة، أتطلع إلى ما وراء الأفق.

«الجو العام في البلاد العربية ينذر بالشر. لا أشعر بأي استقرار أو بأي طمأنينة.

«ما أجمل بلادي! كيف يمكن أن أموت على غير أرضها؟ آه أيها اللاجئون الأحباب، ما أقسى أن يموت المرء غريباً في غير أرضه. في أرض الأجداد فقط يحس المرء نمواً في إنسانيته، وتوافقاً بينه وبين الحياة من حوله.

«في هذه الأيام يستيقظ حسي السياسي من غفوته بشكل عجيب».

ويقول محمود درويش: «الرفض وحده لا يشكل شعر مقاومة. المهم خلق الأبعاد المأسوية في الحدث، والإمساك باللحظة الشعرية. إن ثورية الشاعر يحددها نشاطه داخل حركة الفعل، داخل الجماهير، بواسطة الشعر، هذا النشاط الذي يؤثر على نشاطه داخل الشعر نفسه، وإنّ علينا أن نكون ثوريين في الحياة وفي الشعر معاً».

وهذا الخط في السلوك هو جوهر الرؤية الصحيحة للعملية النضالية على جبهة الفكر، العملية الرائعة التي تتجلى في التلازم الثوري بين الحياة والفكر، وتشكل واحداً من أبرز الأسس في أدب المقاومة.

إن الاستقراء المتأني لمفكرات أدباء الأرض المحتلة ومذكراتهم وآرائهم، يكشف أفضل ما يكون الكشف عن نبضها الثوري الذي يعلو على معنى الصراخ ليبرز في الحروف المشتعلة نيراناً وقرابين فداء لأجل الخلاص. إنه نبض عزم على التشبث بالأرض، ونبض إصرار على المقاومة لتحريرها، ونبض تضحية لا حدود لها في سبيل

استرداد الحقوق المغتصبة. وهـذا النـبض يـصنع معجزتـه الثوريـة بالكلمة الثورية والفعل الثوري على السواء، ولكنـه يـصنعهما مـن منطلـق الإدراك العلمـي لعمليـة النـضال، ومـن منطلـق الفهـم الصحيح لصياغة الوجدان وإعداده للمقاومة.

هكذا تكون درجة الرؤية في الارتفاع الذي يؤهلهـا لامـتلاك مفاتيح مخاطبة العقول، والتغلغل في مطاوي الـضمائر، والـصيرورة إلى محرضات ثورية على أرض الواقع، فالثورة تحتاج إلى إرهاصات، وإلى مفاداة وتضحيات، والأدب الذي يصنع كل ذلك لا بدَّ لـه أن يمتلك لغة خاصة شديدة الإثـارة، شـديدة الإيحـاء، قويـة التـأثير، عميقة التجذر.

إن الأدب الثوري في حقيقته وأصالته، ليس أن نحـشو كتابـاً بالكلمات الضخمة والـشعارات الزاعقـة، بـل أن نمتلـك مفهومـاً ثورياً عن العالم، ونعرف كيف نصوغ منه، وفي ضوئه، نسيجاً أدبيـاً ثورياً، يشعل النار في غابات عـدونا، ويجتـث ظلمـه وطغيانـه مـن الأرض التي يعيث فيها فساداً.

وهؤلاء الأدباء الذين قرأنا سطوراً مـن مفكـراتهم، يملكـون مثل هذه الرؤية، ويصنعون مثل هذا الأدب، وهم يناضلون بـوعي لنشر الوعي، ويستنبتون الأمـل في تربـة يعمـل محتلوهـا لإغراقهـا باليأس، وبأصابعهم يحفرون في صخر المصاعب كي يشقوا للتفاؤل بالمستقبل درباً صاعداً، عبر كفاح مرير، يعرفون أنه الطريق الوحيد لتحرير الأرض واستعادة الحقوق.

وإذا كان الصراخ يقتل الفن، فإن نبرتهم التحريضية المتقدة حماسة وإيماناً هي نبرة ثورية، قوتها تنبع من أصالتها لا من جعجعتها. إن تعابيرهم ترق حتى بلوغ النجوى، وتزمجر حتى تصير رعوداً، لكنهم في كل ذلك لا يقرعون طبول الألفاظ من الخارج، بل يدعون للشحنات المكهربة في شعرهم أن تبرق فتتكشف لها الآفاق، وتتجاوب في هزيم يرجّ الأرض تحت أقدام المحتلين.

وحتى سخريتهم في لذعها ومرارتها، وتورياتهم في دقتها ومغزاها، واقتباساتهم واستعمالاتها للفولكلور والأمثال والحكايا الشعبية، موظفة كلها توظيفاً جيداً في خدمة الهدف الكبير الذي يناضلون من أجله.

هؤلاء هم أدباؤنا في الأرض المحتلة، وهذه هي بعض ملامحهم من خلال مفكراتهم، وهي ملامح صلبة، زاهية وماجدة، فيها كل الألق الوضاح الذي لوجوه المناضلين الألقة والوضاحة، بنور كفاحها، وثقتها وإيمانها بالنصر.

المسرحيــة . . والممثلون . . (*)

لنتكلم بصراحة..

على خشبة المسرح، في الوطن العربي، تمثل مسرحية تختلط فيها المأساة بالملهاة..

مسرحية فاقت في حياكتها المتقنة ما حاكه أداكوف وبيرانـدلو وبيكيت..

والممثلون «عرب أقحاح».. بدليل اللهجة، واللحية، وخيـام الشعر، والرطانة الإنكليزية والفرنسية..

ولم يكن الإخراج مشكلة.. فالذين درسوا في جامعة «جـورج تاون» على استعداد لذلك.

والتلقين لا نزاع عليه.. إنـه مـن نـصيب المـستر «أندرسـون» القابع سعيداً في أحد أجنحة البيت الأبيض.

وما عدا ذلك تتكفل به الجوقة الإعلامية «الناطقـة بالعربيـة» لكن السؤال يبقى: هل يستطيع هذا «الحـبر البـترولي» الـذي يـراق على جوانب «الشرف الرفيع» لعرب أمريكا، إنقاذه من الأذى؟

(*) كتبت في مطالع الثمانينات.

بمعنىً آخر: هذا الكلام الذي يستهلك الأطنان من الورق، في محاولة لإظهار أمريكا بأنها مخدوعة بإسرائيل، هل يخدع أحداً بعد اليوم؟

إنهم يبدؤون، كما لو أنهم اكتشفوا العدو الحقيقي للأمة العربية. يقولون أمريكا ما تزال حتى الآن -انتبه إلى هذه «الحتى الآن» - تعادي العرب، ويفصلون أنواع هذه المعاداة، ثم يخلصون إلى نتيجة «باهرة»، هي أن أمريكا لا تعرف مصالحها، أو أن أمريكا واقعة تحت سيطرة اللوبي اليهودي في بلادها، أو أنها في صراعها مع الاتحاد السوفييتي، مازالت تجد إسرائيل أكثر نفعاً لها.. ويستمرون في نبش هذه الأضاليل من تحت جلودهم.. والغاية معروفة، هي التوهيم بأن أمريكا يمكن أن تعود مستقبلاً عن معاداة العرب، أو أن أمريكا، إذا نشط اللوبي العربي في بلادها، يمكن أن يخلصها من سيطرة اللوبي اليهودي عليها، أو أنها، إذا ما دخل العرب - كما يدعو أبو غزالة في مصر - في حلف استراتيجي معها ضد الاتحاد السوفييتي، يمكن أن تجدهم نافعين لها بنفس درجة نفع إسرائيل أو أكثر، وعندئذٍ تتحول واشنطن عن تل أبيب باتجاه العواصم العربية..

هذا كله يصير الآن، كما كان منذ عشرات السنين، مع فارق واحد، هو تغير الأساليب، فقد اختفت نغمة «تحييد أمريكا»، واختفت نغمة وجود ٩٩% من الأوراق بيديها، ولم يعد أحد يقول بأن أمريكا، قبل انتخابات الرئاسة فيها، أو بعدها، يمكن أن تقف

موقفاً جديداً.. الأحداث أتت على كل هذه المزاعم، فراحوا يخترعون مزاعم جديدة.. عن جهل الإدارة الأمريكية بحقيقة مصالحها في الشرق الأوسط..

الحقيقة أن أمريكا دولة رأسمالية، احتكارية، والصهيونية هي شريكة كاملة في هذه «الرأسمالية الاحتكارية».

وأمريكا دولة استعمارية، بل هي رأس الاستعمار العالمي، وإسرائيل هي فرع استيطاني من هذا الاستعمار..

وأمريكا عدوة حركة التحرر الوطني العربية، وإسرائيل هي القوة الضاربة، المعتدية، ضد هذه الحركة..

وأمريكا عدوة الشعب العربي الفلسطيني، وإسرائيل وسيلتها في هذا العدوان، فقد شردت، وذبحت الشعب العربي الفلسطيني، واستولت على أراضيه، واغتصبت حقوقه، وما تزال..

وأمريكا عدوة حركة التحرر الوطني العالمية، ونحن من فصائلها، والصهيونية عدوة هذه الحركة، في القارات الثلاث، لذلك فهي عدوة تحررنا في الشرق الأوسط..

وأمريكا عدوة الاتحاد السوفييتي الذي يناصر ويحالف حركة التحرر الوطني العالمية العربية، والصهيونية هي عدوة هذا الصديق في كل مكان، وتريدنا أن نكون معها ضده، أي ضد أنفسنا، ضد صديقنا، ضد حليفنا، كي نبقى عزلاً، مجردين من القدرة على المقاومة والتحرر..

بحكم هذا، فإن أمريكا والصهيونية هما عدوتان لنا بالطبيعة، والمصالح، والأهداف جميعاً، ولن يتبدل موقفهما لا اليوم ولا غداً، وهذه هي الحقيقة التي يجب أن تقال وتنشر وترسخ في الصدور والشعور.. وكل ما عداها كذب كذب، وهذا الكذب يروج له في أجهزة الإعلام العربية، مقروءة ومسموعة ومرئية، وهي أجهزة ضخمة، يمولها البترول، وكل يوم يفتح لها «دكاناً» جديداً، في الوطن العربي وقبرص وباريس ولندن وروما..

إذن المعركة طويلة بيننا وبين أمريكا وإسرائيل..

والمعركة طويلة بيننا وبين الأوروبيين المؤيدين لأمريكا وإسرائيل..

والمعركة طويلة كذلك بيننا وبين «عرب أمريكا»، وستشتد وتزداد اتساعاً وعمقاً..

ونحن نعرف الحلقة الرئيسة، والحلقات الثانوية في الصراع بيننا وبين أمريكا وإسرائيل و«عرب أمريكا» في المنطقة وفي العالم.. ونعمل، استراتيجياً وتكتيكياً، بنفس طويل، مادامت المعركة تتطلب ذلك.

إن الحلقة الرئيسة التي نمسك بها هي أن تبقى القضية حية.. وهذا الكلام قلناه منذ أن قلنا إننا ثابتون في مواقفنا المبدئية.

ولأجل أن تبقى القضية حية فإننا رفضنا تصفيتها تحت أي اسم كان، من مشروع روجرز، إلى كامب ديفيد، ووقفنا ضد هذه

التصفية صامدين، رغم المؤامرات الداخلية والخارجية.. لم يفزعنا الإرهاب ولا السيارات المفخخة، ولا التهديد بضرب صواريخنا في البقاع، ولا المعارك المفتعلة، أو التفجيرات الأمنية، أو التهديدات باجتياح جنوب لبنان، أو الحصار الاقتصادي المضروب علينا.. إننا صامدون وسنبقى كذلك، ونعرف مقومات الصمود، ونملكها، ونمارسها، ولا نخشى، في معركتنا القومية، أي قوة، أو أي عدو في هذا الكون..

لكن أعداءنا لا يأتوننا وجهاً لوجه، ولا من الطريق المستقيم، ولا على خيول «الفرسان» كما في الزمن الماضي. إنهم يتسربون من قنوات ذات طلاء عربي، وماركة عربية، ومنشأ عربي أيضاً، وهم في ذلك يخاتلون، يمكرون، ونحن نعرف مكرهم، وأن «الله خير الماكرين..».

يخاتلون حين يزعمون أنهم يريدون عودة مصر إلى الصف العربي.. ونحن لسنا ضد هذه العودة، ونقدر دور مصر الريادي الوطني، ودورها العربي، ومكانة شعبها في القلوب وفي النفوس، لكن القضية تبقى: كيف تعود مصر إلينا؟ أو كيف نعود نحن إليها؟ وهذا هو الجوهر.. فإذا كانت مصر ستعود إلينا دون كامب ديفيد، وبغير اتفاقية الصلح مع إسرائيل، وعلى أساس التخلي عن سياسات السادات، فأهلاً ومرحباً بها، وفي هذه الحال، وإذا «تحررت» من كامب ديفيد فنحن نعود إليها، فاتحي الأذرع، حاملين مهجنا على راحاتنا، لكن مصر، حتى الآن، وفي ظل الحكم

القائم فيها، لم تفعل هذا الذي نطلبه، وهذا الذي طالبنا به، وقضينا السنوات في الكفاح ضده..

لقد قال ريغان بصراحة: إننا سنعود إلى العمل بمذكرة التعاون الاستراتيجي مع إسرائيل، دون أن تتخلى إسرائيل عن ضم الجولان، وهذا يفسر أن تعليق العمل بهذه المذكرة عند قيام الضم كان خدعة..

ويضيف ريغان: «إن ما نحاول أن نفعله مع البلدان العربية الأكثر اعتدالاً هو أن تصبح مصر أخرى (!!!) وإذا استطعنا إقناعها بحق إسرائيل في الوجود كأمة، ودخول المفاوضات في إطار كامب ديفيد على غرار مصر فسيكون ذلك أكبر شيء نستطيعه».

إنهم، في هذا المجال، يريدون شيئين: الأول «العثور على مصر أخرى» وهذه وجدوها في مملكة حسين و«جمهورية» صدام، والثاني إقامة الحلف الاستراتيجي الموجه ضد الاتحاد السوفييتي، والعاملون لذلك، إضافة إلى إسرائيل، هم: أبو غزالة مصر، وحسين الأردن، وصدام العراق في العلن، وكل «عرب أمريكا» في السر.

هذا هو السهم الأمريكي الطويل على خريطة المنطقة، أما السهم الآخر، الذي يرغبون في مده بصورة موازية، فهو إثارة مخاوف دول الخليج، من «الخطر الإيراني»، وهنا يلعبون لعبة ذكية، فمن جهة يريدون حمل الدول الخليجية على التسليم بأن لمصر مسئولية في ضمان سلامة الخليج، وهذا يعني، كما تقول الصحف

الغربية والعربية، عودة مصر إلى الصف العربي، ومعها كامب ديفيد من باب المفاوضات الخليجية، ولذلك يعلن أبو غزالة، أن مصر ستحارب إيران إلى جانب العراق، ويعلن صدام، على المكشوف، أنه يستمد العون السلاحي والعسكري من مصر، ومن جهة أخرى، يمهدون لتدخل أمريكي إلى جانب صدام، وبذلك تصبح قضية الخليج دولية، ويتاح لأمريكا أن تحتل المنطقة الخليجية عسكرياً.

الكسندر هيغ، هذا الجنرال الشرس، يمهد لذلك، بالقدر نفسه الذي يمهد له نظام العراق. إنه يثير المخاوف الخليجية بشكل صارخ، قائلاً لوزراء خارجية الحلف الأطلسي في لوكسمبورغ «إن المكاسب التي حققتها إيران في حربها مع العراق زادت هذه المخاوف، مع ما يترتب على ذلك من آثار بالنسبة إلى المصالح القريبة».

من هذا «الباب الخلفي» يريدون إدخال أمريكا عسكرياً إلى منطقة الخليج..

وفي سبيل تنفيذ هذا الهدف، يعملون لإيقاف سورية اقتصادياً، بضرب حصار حولها، ولإتعابها عسكرياً في لبنان، بدفع قادة إسرائيل إلى حشد الحشود على حدود لبنان، وخاصة في جنوبه، وتكتب النهار علانية «إن التصورات المطروحة للاعتبارات المصلحية الأمريكية في منطقة الخليج لا تترك لبنان خارج دائرتها، فقد يكون من المطلوب إلهاء سورية في حرب مع إسرائيل تأخذ

مجراها في جنوب لبنان، إنما تتجاوز الخطوط الحمراء، وذلك بغرض استدراج دمشق إلى معركة تفرض عليها تخفيفاً للضغط على الحدود العراقية والأردنية، بحيث يتمكن العراق مع الأردن من تخصيص القسم الأعظم من جيشهما لمواجهة التحدي الإيراني».

طبعاً دمشق لا تضغط على الحدود العراقية أو الأردنية، بل إن الأردن والعراق بتدريبهما للإرهابيين، وتسويقهما للسلاح إليهم في سورية، وتسريبهما العناصر الإرهابية والسيارات المفخخة إلى داخلها، هما اللذان يضغطان على سورية، وهما اللذان يريدان مشاغلتها وإتعابها وإرباكها أمام إسرائيل.. ولا يستبعد أن يصل التواطؤ الأردني العراقي الأمريكي إلى دفع إسرائيل لفرض هذه المعركة التي يعلن «صقورها» أنها أصبحت مرهونة بساعة الصفر فقط..

وتأتي زيارة الملك الحسن إلى أمريكا في هذا المخطط، وكذلك تصريحاته وتلميحاته عن استعداد «العرب المعتدلين» للاعتراف بإسرائيل.

في ضوء هذا كله، تتخذ التطورات على الجبهة العراقية الإيرانية صفة الترقب بالنسبة للجميع.. وتوقيت ساعة الصفر الإسرائيلية رهن بذلك، وعلينا أن ننتبه، وأن نستعد..

إن جولة الرئيس حافظ الأسد تدخل في إطار هذا الاستعداد، بالنسبة لإثارة المخاوف الخليجية، وإيجاد المبرّر للتدخل العسكري الأمريكي في الخليج..

وفي هذا الإطار، تأتي اجتماعات قادة الثورة الفلسطينية في دمشق، والمشاورات بين دول جبهة الصمود والتصدي..

وفي قلب هذا العجيج والضجيج الأمريكي الإسرائيلي «العربي»، يستمر الصمت حول صمود أهلنا في الجولان وما يتعرضون له من قمع وبطش، وحول انتفاضة إخوتنا العرب في الضفة والقطاع، حيث تعمد إسرائيل إلى كل أساليب القتل والتنكيل، ولا يسلم من شرها حتى الأطفال العرب، الذين تعمل إسرائيل، وفق خطة سرية، إلى إرسالهم إلى السويد وبعض مناطق النفوذ الأمريكي، كما كشف المؤتمر الدولي الأول للتبني في إيلات، واستيراد أطفال من كولومبيا ليتبناهم اليهود في فلسطين، بعد أن قلّت الهجرة اليهودية وتزايدت الهجرة المعاكسة..

كذلك فإن إسرائيل تقتل النساء وتعتقلهم، لكن كل ذلك لا يفيدها في شيء، ولا ينهي الانتفاضة أو الإضراب، وقد أعلن راديو العدو أن سلطات الاحتلال فرضت منع التجول في مخيم بلاطة، وأغلقت مخيم الدهيشة قرب بيت لحم، وأن فتاتين عربيتين هاجمتا مجموعة من المستوطنات الصهيونيات المسلحات في منطقة جيلات بمدينة بئر السبع، وأطلقتا النيران عليهن، مما أدى إلى جرح ست مستوطنات إسرائيليات، ودفع بالعدو إلى اعتقال الفتاتين العربيتين.

هكذا تكون النساء العربيات أشجع من «بعض الرجال العرب».. ويكون الذين تحت الاحتلال أقدر على النضال من بعض الجالسين على براميل البترول..

ويكون على الذين يعلنون التأييد والاستنكار من الإذاعات فقط، ويتنازلون عن الحقوق العربية حقاً بعد آخر، أن يكفوا عن هذا التهريج، فالناس يعرفون ماذا يقولون وماذا يفعلون..

يعرفون أن عدوتنا هي أمريكا وإسرائيل، وأن دماء العرب تصبغ ثيابهما، كما تصبغ أظافر العرب الذين، باسم الاعتدال، يستعيضون بهذا الدم عن «المينكور»،

ويعرفون أن عدوتنا ليست إيران الثورة، بل الذين يضرمون نار الحرب ضدها، ويستغلون هذه الحرب للتسرب كامب ديفيدياً وأمريكياً..

ويعرفون أن الجماهير العربية في واد، في خط، في خندق، وأن «حكامها المتواطئين» في واد، وخط، وخندق آخر..

وما تريده أمريكا وإسرائيل هو المواجهة بين الخندقين.. لتقسيم العرب، ولتحويل رقم الـ ٢١ دولة عربية إلى ٢١ صفراً عربياً إذا أمكن..

وتلك هي المأساة الملهاة في زمننا الصعب هذا..

وتلك هي مسئوليتنا في منعها، وفضح الذين يمثلون أدوارها على الخشبة العربية حالياً..

معركتنا مع الاستعمار
ما تزال قائمة (*)

أيها السيدات والسادة - أيتها الأخوات

ما نزال من أفراح الوحدة في عيد، وحق ذلك لنا، فالوحدة هي الحلم الذي عشنا عليه، والمطلب الذي ناضلنا من أجله.. حتى رأينا بدايته المشرقة في الجمهورية العربية المتحدة..

لقد كانت الوحدة عندنا قائمة بالقوة فقامت الآن بالفعل، وكانت حقيقة نفسية فاستحالت بالجمهورية حقيقة سياسية..

إننا لم نعترف قط بفواصل قامت بيننا، ولا بتجزئة فرضها الاستعمار علينا وكنّا..

إذا ألمّت بوادي النيل نازلة　　　باتت لها راسيات الشّام تضطربُ

وكان شاعر النيل إذا زار بردى لم يجد في المرابع إلا أهله، ولا في الأيدي الممتدة إلا يده فأنشد:

(*) كلمات ألقيت في تجهيز البنات الثانية، في حفل رسمي، أواخر عهد الوحدة، عام ١٩٦١.

هـذي يـدي عـن بنـي مـصرٍ فصافحوها تصافحْ نفْسَها العربُ

فالوحدة بين سورية ومصر تقرير رسمي لهذه الحقيقة، وخطوة هامة في سبيل الوحدة الكبرى..

وإنه ليجب علينا أن نذكر دائماً وألا ننسى أبداً، أن وحدة سورية ومصر بداية لا نهاية، وخطوة في طريق الوحدة الأكمل، والتحرر الأشمل، والعمل الأصيل..

إن معركتنا مع الاستعمار ما تزال قائمة، يواجهنا الاستعمار الغاشم فيها بوجهه السافر الكالح، أو وراء قناع الحكام الخاضعين لنفوذه، العاملين بوحيه.. الاستعمار يحتل بلاداً من بلادنا، ويسرق بترولنا وجهودنا، ويمتص حياتنا وخيراتنا، ويسومنا الخضوع والهوان..

ويجثم بقواعده الآن في بعض مناطقنا، ويصبّ النار والدمار على أرضنا، وعلى مدننا، وعلى أطفالنا ونسائنا ورجالنا، في الجزائر وسواها.. بل إن الاستعمار ليتربع الآن في قلب بلادنا، في أرضنا المباركة المقدسة فلسطين.. أخرجنا منها.. طردنا من بيوتنا ومزارعنا.. لنهيم في كل أرض، وتحت كل كوكب، ونعيش في الخيام مشردين، نموت من الحسرة، ونموت من العار، ونموت من الجوع، ونموت من البرد، ونمد أيدينا إلى فتات الصدقات من هيئة الأمم، ونتطلع عبر الأفق إلى بيوتنا.. إلى مزارعنا.. إلى سماء بيت المقدس، فلا نرى علم صلاح الدين، ولكن علم بن غوريون، ولا نشاهد على الأرض المقدسة العرب، ولكن نشاهد اليهود..

إن معركتنا مع الاستعمار ما تزال قائمة، ويجب أن تستمر بكل قوة.. وإن معركتنا من أجل الوحدة ما تزال قائمة، ويجب أيضاً أن تستمر.. فوطننا الحقيقي أوسع كثيراً من سورية ومصر.. إنه يمتد كما نعلن من المحيط إلى الخليج، ويجب أن يتوحد من المحيط إلى الخليج.

وكل خطوة نخطوها إلى الوحدة، تقترب بنا من ذاتنا الأصيلة، وتزيد في إمكاناتنا وفي قدرتنا على تحقيق أهدافنا..

لقد مرت بنا فترات جهلنا فيها حقيقتنا، وأنكرنا فيها أنفسنا، وعشنا حياة غيرنا لا حياتنا، نقلد في تفكيرنا، ونقلد في مظاهرنا، وتشغلنا اللذات عن الواجبات، والصغائر عن الكبائر، وتقودنا الأهواء ولا يقودنا المثل الأعلى..

وقد آن لنا - بعد أن جمعت الوحدة بعض شتاتنا، وأزالت من مركب النقص عندنا - أن نرتد إلى حقيقة ذاتنا، ونتعرف إلى شخصيتنا المتميزة، ونتبيّن مهمتنا الجليلة.. فنحن قوم اختارنا الله لنحمل إلى الدنيا رسالة الحق والأخوة والحرية والعدالة والخير.. فمكاننا في التاريخ هو مكان الهداة، ومحلنا في الحضارة هو موضع الصدر، وإنه علينا أن ننهض من كبوتنا، وأن نضاعف من جهدنا، وأن نتقدم بعزيمتنا، وأن نحمل بأيماننا المشعل مرة أخرى لنضيء للسارين في الظلمات، التائهين في المجاهل، الطريق الموصلة إلى المثل الأعلى، وإلى الحياة الإنسانية الكريمة.

والوحدة تزيد من إمكاناتنا وقدرتنا، وتساعدنا على تحقيق أهدافنا، كما قدمت.. وهي بذلك تزيد في مسئوليتنا. إن علينا واجبات كباراً تفرض أن نبني حياتنا من جديد، وأن نحرر جمهوريتنا العربية المتحدة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وأخلاقياً وفكرياً، وليكون بإمكانها أن تنهض بدورها المأمول، وتؤدي رسالتها المنتظرة..

إن العبيد لا يستطيعون أبداً أن يحملوا رسالة الحرية..

والمرضى لا يستطيعون أبداً أن يقوموا بأعباء البناء..

والجهلة لا يستطيعون أبداً أن يتبينوا السبيل.. وعلينا أن نشعر بمسئوليات الوحدة وواجباتها كما نشعر بمسراتها وأفراحها.

أيها السادة والسيدات والأخوات

إنني لأرجو أن تعاودنا الأعياد.. أعياد الوحدة،كل سنة، أكثر بهجة وتألقاً، وأن تجدد الأفراح عزيمتنا وتضاعف قوتنا على متابعة المسير.

فنحن - كما قلت - في البداية لا النهاية.

إن حملنا لثقيل، وإن طريقنا لطويل، والشاعر العربي هو الذي يقول:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

فتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

« السـمكة » . . والتمـاسـيح (*)

كل شيء يتوقف على قرار إيران، وإيران، بعد خرمشهر، تأخذ نفساً، وتفكر.. وبعد التفكير تتطلب كل خطوة مسافتها، وتحتاج إلى دراسة من نوعها نفسه.

قبل كل شيء، هناك تأكيد إيراني يقول: لا تجاوز للحدود الدولية، وهذا جيد جداً.. إيران، بذلك، تظل تكسب كثيراً لقضيتها، عربياً وإسلامياً ودولياً، لقد شن صدام حربه العدوانية عليها، هذا صار معروفاً ومسلماً به، وهي حاربت، ورفضت كل الضغوط، كل الوساطات، قبل أن تحرر أراضيها، أي قبل أن تخرج القوات العراقية، إلى ما بعد الحدود الدولية، وهذا صار الآن، لذلك فإن الخطوة المقبلة، هي الخطوة التاريخية في هذه الحرب كلها.

إيران تعرف ذلك، لهذا فإنها تتأنى، قبل أن تخطو.. لكنها، في كل الأحوال، وسواء تجاوزت الحدود، أو ظلت إلى ما وراءها، فإن لها شروطاً ثلاثة لإنهاء الحرب، هي التعويض، الاعتراف بأن صدام كان معتدياً، وإسقاط النظام الصدامي. فإذا لم تنفذ شروطها، فإنها

(*) كتب هذا النص في مطالع الحرب العراقية الإيرانية.

ستحارب، ولا تقول، حتى الآن، كيف ستحارب، ومن هنا هـذه الحملة الهوجاء، كي يـتم إنقـاذ النظـام، وتقـف الحـرب في حـدها المحدود: دخلنا فخرجنا وانتهى الأمر.

أمريكا تريد هذا، فقد وصلت الأمـور إلى اللحظـة الحاسـمة، وفي هذه اللحظة تنامت مخاوف دول الخليج، بما غرست واشـنطن، وما أطلعت من مخاوف، جعلت الدول الخليجية، في نشدان الأمن، تفتش عن أي مظلة، وهذه المظلة، في حساب أمريكا، جاهزة، وهي المظلة الاستراتيجية التي طالما بحثت لها عن مبررات، وطالما دفعت إلى الحرب العراقية -ا لإيراينة لإيجادها، وقد عـبر عـن ذلـك هيـغ تعبيراً صريحاً، في توجيهاته الـشرق أوسـطية، وفي التهديـد المـبطن الذي ينطوي عليه بيان مجلس التعاون الخليجـي، الـذي حـاول أن يكون توفيقياً، تفاهميـاً، مـساوماً، لكنـه، إلى جانـب ذلـك، وإذا لم تتوقف الحرب، فإنه يهدد باللجوء إلى مواقف أخرى، حين يقـول: «إن العامل الهام لتجنب التدخل الخارجي هو وضع نهاية للحـرب المـستمرة» وهـذا التهديـد الخليجـي معـروف، فـإن التحـذير مـن التدخل الخارجي، والتلويح بهـذا التـدخل معـاً، كـان دائـماً سـيفاً مصلتاً بين الدول الخليجية.

والمظلة الاستراتيجية الأمريكية، عدا عن اسـتثمارها اللحظـة الحاسمة في التدخل العسكري، وهو أمنية أمريكا للتواجد في منطقة الخليج، ولاستلاب استقلالات دولـه، وتهديـد الثـورة الإيرانيـة، وإبقاء النظام الصدامي في خدمة مشاريعها، فإنها، أي هذه المظلـة،

لها ثمن عربي، هو إدخال هذه الدول في كامب ديفيد، أو جلب مصر ومعها كامب ديفيد إليها، لاصطياد «العصافير» الخليجية المذعورة، و«عرب أمريكا» المرتعدين، والسماسرة الخبثاء في المغرب، واحتوائهم جميعاً في مصيدة واحدة، هي الهيمنة الأمريكية، والصلح مع إسرائيل، والحلف الاستراتيجي، وتصفية القضية الفلسطينية، ومحاصرة سورية ودول جبهة الصمود والتصدي.

إن أمريكا تقوم بهجمة كاسحة الآن، من الخليج العربي إلى الجنوب الأطلسي، ودول أوروبا صاحبة الامبرياليات القديمة، التي استيقظت على دوي المدافع البريطانية في جزر فوكلاند، تتحشد وراء أمريكا، على أمل أن تستعيد بعضاً من هيبتها، وبعضاً من نفوذها، ويكون لها، عند اقتسام غنائم الشرق الأوسط، نصيب ما، أو يكون لقواتها، في التواجد العسكري الأمريكي في الخليج، موقع ما، بحيث يظل البترول، وهو عصب الصناعة إلى خمسين عاماً، تحت رحمة الأخطبوط الإمبريالي بزعامة أمريكا.

ولقد كان لتأييد أمريكا تأييداً مطلقاً لبريطانيا في حربها الاستعمارية ضد الأرجنتين، معنى يتجاوز المساعدة المعنوية والمادية. إنه تأييد موجه إلى مصر ودول الخليج، وإقطاعية الأردن، ومنطقة المغرب الحرة، مؤداه أن أمريكا لا تتخلى عن حلفائها، ولا تتأخر قوات تدخلها السريع عن نجدة أصدقائها، وأنكم، يا معشر الخليجيين، والمستعمرين الأمريكيين، وأصحاب البرانس والتيجان، تستطيعون الاعتماد علينا، لأننا جاهزون للسفر إليكم،

واحتلال أراضيكم، و«حماية» بترولكم، ونهبه وبلعه وقضم جميع البترودولارات الفائضة عن بيعه.

إذن منطقة الخليج هي في اللحظة الراهنة الآن..

ومنطقة الخليج هي في دوامة الترهيب والترغيب الأمريكي الأوروبي.

وهي في نهاية حرب وبداية حرب، وفي النقطة التي صارت فيها «السمكة» محاصرة، وكل التماسيح تحيط بها وتحاول افتراسها.

إنما، مع استمرار القتال، فللطرف الآخر، الأمريكي الصدامي الخليجي، حسابه أيضاً، وهذا الحساب، كما يقول المعلقون، وكما يتبدى من وقائع المعارك، يقوم على الفرضية التالية: إيران لا تستطيع تخطي الحدود العراقية، وما يبقى هو قصف المدافع، عن جانبي الشط، وغارات الطيران المتبادلة، وفي هذا المجال، مازال النظام الصدامي يقوى على إرسال بضع طائرات لضرب طهران وعبدان وجزيرة الخرج، وفائدة ذلك هي إظهار صدام بمظهر القادر على الاستمرار في الحرب، القوي رغم انسحابه، القابض على زمام الأمور في الداخل، والذي يوفر، بمناوراته الطيرانية، الفرصة لأمريكا في اتجاهين:

الأول: مواصلة تخويف دول الخليج حتى تستسلم وتطلب الحماية الأمريكية، أو تقبل بالذهاب إلى كامب ديفيد، أو إحضار كامب ديفيد إليها.

الثاني: تحريك عناصر الثورة المضادة في إيران، عسى أن يسقط نظام الخميني، أو تتهدم الثورة الإسلامية، وبذلك تنحل المشكلة من الداخل، فينجو صدام عراقياً، وتعود أمريكا إلى قواعدها إيرانياً.

لكن اللعبة هنا لا تبدو مستوفية الشروط. إيران لن تبقى، إلى ما شاء الله، في موقف المراوحة. لا بدَّ أن تتخذ قرارها، وسيكون قرارها، سواء في تخطي الحدود، أم مواصلة حرب الاستنزاف، مبنياً على حساباتها الخاصة، الداخلية، والخليجية، والعربية، والإسلامية، والدولية. ذلك أن طهران رغم اعتمادها على قواها الذاتية، لا تجهل أن واشنطن ليست كل شيء، وأن هناك دولاً لم تقل كلمتها بعد، ولا تستطيع أمريكا أن تتجاهلها.

إننا نكتفي بالإشارة إلى الجانب الدولي هذا، وندعه إلى ما يخصنا من الموضوع، لا بسبب أن سورية دولة عربية، ولها كلمتها في الشؤون العربية، ولا بسبب أنها دولة صديقة للثورة الإيرانية التي كانت، ومازالت، صديقة للقضية العربية، ولا لأن سورية لها وزنها في الموقف من الحرب الإيرانية العراقية، أو لأنها دولة مواجهة، تتحمل عبء مجابهة إسرائيل، على حدودها والحدود اللبنانية، بل أيضاً لأنها من جبهة الصمود والتصدي، وهي طليعة هذه الجبهة وقاعدتها، وهي الصخرة التي سدت الطريق على اتفاقات كامب ديفيد، وستظل تسدها وتحول دون سريانها اليوم وغداً.

لقد بذل صدام حسين، وعرب أمريكا، كل جهودهم لتعريب الحرب العراقية الإيرانية. أرادوا إلباسها الكوفية والعقال، ووضع شارة القومية العربية على صدرها، وتزيين كواحلها بالخلاخيل، وأذنيها بالأقراط، وعملوا المستحيل في سبيل أن يرفعوا فوقها يافطة التضامن العربي، ويحملوا أمامها «سنجق» الحملة العربية، ويحيطونها بنجدة حسين ومبارك، وبدعاء الملك الحسن، وكل صياغات البلاغة العربية، لكن سورية قالت: لا، هذه حرب أمريكية، وتبين أنها حرب أمريكية، ولم يستطيعوا تعريبها، ولن يستطيعوا تعريبها..

ماذا يعني هذا؟ يعني أن سورية حين تقول لا (وهي تقولها صائبة دائماً) فليس في وسع الآخرين أن يقولوا نعم، أو أن تمر نعمهم هذه أو يقبضها الناس أو تنخدع بها الجماهير، ومهما تكاثرت الأصباغ، فإن للحقيقة أظافر تكشطها، ومهما يزوّر التاريخ، فإن التاريخ الصحيح يفرض نفسه، وهكذا ظهرت حقيقة حرب صدام، وظهر أن موقف سورية وحده، كان قادراً على إظهار هذه الحقيقة، وفضح كل الادعاءات والحملات الإعلامية.

وقد تحملت سورية، في سبيل موقفها الوطني والقومي هذا، عداء ملك الأردن، وتآمر صدام العراق، وخلال سنتين ظلت تقاوم، وتصد، وتدحر موجات الإرهاب المتتالية التي ساقاها إليها، تساعدهما إسرائيل، وسعد حداد، والكتائب، ومن فوق الجميع أمريكا، بكل ضخامة و«عراقة» مخابراتها المركزية..

الآن أيضاً، سورية تقول: لا لتعريب الحرب العراقية الإيرانية، لا لتدويلها، لا لاتفاقات كامب ديفيد، ولا للتدخل العسكري الأمريكي، وهي تعرف قيمة هذه الـ «لا» ومتى تقولها، وكيف تقولها، وما هي القوى الذاتية التي تسندها، وقوى جبهة الصمود التي تدعمها، وقوى الأصدقاء الذين يؤيدونها.. ومن الخير، كل الخير، لدول الخليج، ألا تقع في الشرك الأمريكي، ولا يستثيرها الطنين المصطنع للمخاوف التي يثيرونها، فالثورة الإيرانية الإسلامية لا تريد شراً بالخليج ودوله، ولا تريد شراً بالعراق وأهله، ولا بالعرب وقضيتهم، وكل ما تطلبه هو التعويض عن خسائرها، وإسقاط صدام، وقيام نظام قومي تقدمي في العراق، يضمن حسن الجوار، ولا يكون لأزلام الشاه وأمريكا ممراً أو مستقراً.

طبعاً أمريكا ستظل تراهن على إمكان ضم دول عربية جديدة إلى كامب ديفيد، وريغان كان صريحاً في تأكيد رهانه في هذا الميدان، والملك حسين يفاوض علناً، وغيره يفاوض سراً، والشغل لهذا الضم قائم على قدم وساق، والبدعة الجديدة هي استدعاء مصر مبارك لنجدة عراق صدام، ولحماية الخليج، والعالم يسمع «نمر» السودان وهو يدعو إلى قمة عربية للمعتدلين وحدهم، ويسمع تصريحات مبارك ومبعوثيه إلى بيغن، لكن هؤلاء السادة جميعاً يعرفون أن الأمر ليس بهذه السهولة، وأن التضامن العربي لن يعير جبته للعدوان، ووحدة الصف العربي لن تخلع «طرحتها» على

الحروب المضادة لمصلحة القومية العربية والقضية الفلسطينية، وأن الميدان الأساسي بالنسبة إلينا كعرب، هو الجبهة مع إسرائيل، هـذه التي تحتل أراضينا وتغتـصب حقوقنـا وتـشرد شـعبنا، فمـن شـاء فليتفضل والذي يريد أن ينصر القومية العربية فـإن معركتهـا عـلى تخوم فلسطين لا تخوم إيران.

كل أصـحاب «الـسلام الأمريكـي» يريـدون الآن، وبـسرعة وقف الحرب العراقية الإيرانية.

وكل «عرب أمريكا» يريدون وضع نهاية لهـا تـضمن سـلامة النظام الصدامي.

وكل الغيورين على السلام العالمي، والأمن الدولي، من حسين إلى الحسن، إلى صدام، ومن ميتران إلى ريغان، إلى هيغ، صاروا مـن «الحملان» ومن «المسالمين» ومن الـذين تـدمى قلـوبهم وأكبـادهم «رحمة» بالمتحاربين..

لقد استيقظ «ضميرهم» فجأة، واستيقظت مصالحهم فجأة، واستيقظت مخاوفهم فجأة،

وتـذكروا الآن، والآن فقـط، أن هـذه الحـرب «كارثـة» وأن انتصار إيران «كارثة»، وأن الاستمرار في التدمير «كارثة»..

حسناً، سورية أيضاً تريد وقف هذه الحـرب المـدمرة للعـراق وإيران كليهما، الحرب التي كانت ضد مصلحة البلدين منذ البـدء، وقد عارضتها سـورية، وفـضحتها، منطلقـة في هـذا مـن موقفهـا

القومي الثابت الذي عبر عنه الرئيس حافظ الأسد تعبيراً واضحاً في كل خطبه وتصريحاته، وطبقه في سياسات سورية على نحو رائع، وبسببه تجري محاصرتها اقتصادياً، ومحاربتها إسرائيلياً عن طريق لبنان، بهذه التهديدات، وهذه الغارات الوحشية التي شنها الطيران الإسرائيلي على المناطق السكنية في بيروت وغيرها في الأيام الأخيرة.

أقول: سورية تريد وقف هذه الحرب، لأن كبدها تتمزق وهي ترى الشعب العراقي الباسل، المناضل وطنياً وقومياً، يقتل أبناؤه، وتدمر منشآته، ويتخرب اقتصاده، ويلوى به عن نهجه الصحيح، لكن سورية لن تقع في فخ الدعوات المشبوهة للتضامن العربي، وحين تقف سورية هذا الموقف فليس من أحد يستطيع المزايدة عليها في التضامن العربي، وهي مؤسسته، ولا في تقدير دور مصر وشعبها الذي نعتز بمكانته.

إن المسألة لا تطرح بهذا الشكل الساعي لإنقاذ صدام، ليبقى العراق تحت حكمه، ضد القضية العربية، وضد المصالح القومية، فالحرب مطلوب إنهاؤها، وبسرعة أيضاً، غير أن السؤال يبقى:

وقف الحرب نعم.. ولكن كيف؟

على اسم المدينة المحررة
البندقية سلاح والكلمة سلاح (*)

أن يكون المهرجان بمناسبتها، تلك التي في الثامن من آذار كانت ثورة ربيع، مبدأ وأملاً، وكانت ثورة شعب، وجوداً ومستقبلاً، وكانت ثورة حسم بين ما كان قديماً، وما صار جديداً، وما غيّر من علاقات ومفاهيم، وما بدّل من أسس في حياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على حد سواء،

وأن يكون المهرجان، على اسم المدينة المحررة، التي ترفع من بين أنقاضها أصابع الاتهام ضد الصهيونية العنصرية، وضد النازية الجديدة، وضد عدوانية إسرائيل على كل ما هو حق وحضارة وقيم،

وأن يكون المهرجان ثقافياً، فيه هذه الألوان من النشاطات، وفيه هذه الباقة من الإبداعات، وفيه هذا العطاء الكريم من فنون متعددة، متنوعة،

(*) في افتتاح مركز القنيطرة الثقافي الجديد. القنيطرة عام ١٩٨١.

فذلك يعني أننا في الموقع الصح من النضال، حيث البندقية سلاح، والكلمة سلاح، والفن سلاح، وكل هذه الأسلحة تتقاطع فوق الأرض العربية تحريراً، وفوق الحق الفلسطيني استعادة، وفوق التاريخ القومي استئنافاً لمسيرة المجد التي بدأها أجدادنا الأول.

ونزهو! فقل للوطن العربي الكبير، بنا تصير وطناً عربياً أكبر.

وقل للأمة، ونحن من أخلص أبنائها، إن من الإخلاص ما يرفع الأمم إلى الذرى الشم.

وقل للغد، والركب يغذ السير نحوه، إن المستقبل لنا، مادام الكفاح سبيلنا،

وقل للذين تساقطوا، أو يتساقطون على جنبات الطريق، إن القافلة تمضي إلى غايتها، ولن يوقفها تخاذل شلو، أو ردة فعل خائن، أو استسلام جبان..

وتهتف بنا القنيطرة المحررة، في شوق العودة إلى الأصل، يوم العلم يرتفع على سارية، ويخفق في أضلع، ويتضوأ بشمس لا تغيب.

ونهتف بها، ها قد جئنا، وسنبقى، ولن نسمح للغزاة أن يدنسوا طهرك ثانية.

ونعني كل ما نقول وأكثر، ثقة بالنفس، وبالله، وبالحق، وبالقوة التي تحمي هذا الحق.

وثقة، فوق ذلك، مطلقة، بأن مسيرة على رأسها حافظ الأسد، هي مسيرة إلى الظفر، لأن حد الحد فيها النصر أو الموت.

وإذا كانت المهرجانات، كل المهرجانات، ذات طابع عام، فمهرجان القنيطرة ذو طابع خاص، لأن القنيطرة مدينة خاصة بين مدننا، عرفنا معنى الغياب عنها، وعرفنا معنى اللقاء بها.

إنما الثقافة معرفة، وإنما المعرفة وعي، وبهما معاً نقدم إسهامنا الحضاري، وبهما معاً نلحق بركب العصر، ونتبوأ المكانة اللائقة بنا بين الأمم.

ولقد انطلقنا من آذار، وجددنا الانطلاقة من تشرين، وعلى اسمهما، وبفضل منجزاتهما، نبني هذا الوطن، إنساناً ومجتمعاً وشعباً وأمة،

وحين يبني البناة، تصير الأعالي بهم درباً إلى النجوم.. تصير مرقاة إلى سدرة المنتهى!

سورية والمقاومة

جسد واحد وقبضة واحدة(*)

سيدة فلسطينية مناضلة، لم تمارس النضال بأخويها اللذين تطوعا للعمل الفدائي وهما بعد يافعان فحسب، بل مارسته بنفسها أيضاً خلال مراحل عصيبة، تقول لي منذ أيام: صار أمراً طبيعياً بالنسبة إلينا نحن الفلسطينيين أن نعيش أحزان الكفاح إلى أقصى آمادها، وصرنا معذورين حين ترد في حديثنا كلمات كثيرة من قاموس الآلام، لأن ورودها وحده هو الأمر الطبيعي المعبر عن الواقع الذي نعيش. غير أنه يبدو لي أحياناً أنها بدأت تفقد دلالاتها لكثرة ما اعتصرت النكبات التي أصابتنا هذه الدلالات..

لو قلت لك مثلاً المأساة الكبيرة هي كذا أو كيت، فهل تحمل لك هذه الكلمة بعدها النفسي المقصود، أم أن التكرار والاستخدام الدائم قد أبلياها؟

مع ذلك أنا مضطرة إلى العودة لاستخدام مثل هذه الألفاظ، وبكل الصدق النفسي الذي ينبعث من عالمها، وإلا كيف أعبر عن

(*) نشرت هذه الكلمة عام ١٩٨٢.

مشاعرنا خلال المرحلة الماضية، حين حدثت البلبلة بين بعض فصائل المقاومة وبين سورية، في المجزرة الدائرة في لبنان؟ لقد كان ما حدث أمراً قاصماً، صدقيني. فجأة شعرنا أننا لا نقف على أرض صلبة، وأننا نوشك أن نقتلع من جذورنا، ونفصم عن الذين لم نشعر قط في يوم من الأيام بأنهم مختلفون عنا، والذين معهم وحدهم لم نكن فلسطينيين ولم يكونوا سوريين، بل كنا عرباً في موقع نضالي وفدائي واحد.

آنذاك كانت المأساة فوق ما تصورت وفوق ما أحتمل. إن سورية حصننا، وليس سهلاً أن نسمح للعابثين بالمساس بهذا الحصن، وهي ونحن في خندق واحد، ولن تستطيع قوة أن تنصب بيننا سوراً، أو تفتح غوراً في هذا الخندق، هكذا كنت أقول لنفسي، وكنت أعايش حالتين من الأمل واليأس، تنوء بهما أعصاب المناضلين مهما كانت صلبة.

الاتفاق الأخير رد إلينا الروح. أعاد الأشياء إلى مواقعها وطبيعتها، التلاحم الذي بيننا ليس عابراً، ليس خارجياً أو مرحلياً، وليس لقاء بين طرفين. نحن طرف واحد، ألا توافقينني؟

لقد جعلني الاتفاق الأخير استشعر توقد الجذوة من جديد في أعماقي، وأستعيد إيماني بأن الأصابع القذرة لن تتمكن أبداً من العبث بقدس الأقداس، بتر اليد عن الجسم، وفصم الوليد عن الأم؟ هذه الأم الكبيرة القلب، السخية اليد، الصادقة العزم في مساعدتنا ودعمنا والعمل على نصرة قضيتنا وجعلها جوهر القضية العربية.

إن الذين هاجموا الاتفاق السوري الفلسطيني باسم محبة المقاومة هم من أشرس أعدائها، لأنهم لا يريدون من مهاجمتهم إلا إبقاء الخلاف بين سورية والمقاومة، لإسقاط المقاومة في الفراغ، وزلزلة الأرض تحت أقدامها، وهؤلاء نعرفهم جميعاً، لأنهم بمواقفهم واتفاقياتهم المشئومة، قد وجهوا طعنة غادرة إلى المقاومة.. والمهم أن الأمور عادت الآن إلى مجاريها، وأن البلبلة ستكون وبالاً على محدثيها، وقد تجاوزناها بالوعي الحاسم والمحبة الصادقة التي لا يخالطها زيف..

لقد كان الاتفاق السوري الفلسطيني بشارة خير على درب النضال، وآه كم كتب علينا أن نعاني على درب النضال هذا من نكسات، ثم يستقيم الطريق ونتابع السير.

وسألتها: تعبت؟

فأجابت: لا أكتمك أنني تعبت تعباً موقتاً.. أما الآن بعد الاتفاق، فقد بدأت أشعر بالاسترخاء واستعادة العزم على مواصلة الكفاح.

كانت صديقتي تتحدث والذاكرة تشدني إلى مشهد بعيد من حياتها أذهلني في حينه.. فقد كانت عائدة من قطر عربي شقيق تعمل فيه، وجاءت تزورني. لم أكد أعرفها حين رأيتها. ثوب قديم وعينان متعبتان، وحركات عصبية وسجائر متتابعة من نوع رخيص جداً. وقلت لها مازحة: ما الذي فعل بك كل ذلك؟ لو لم تكوني جميلة لارتدت عنك العين متأذية.. راتبك الكبير أما كان يسمح لك

بثوب أفضل، بسجائر أفضل، وبحياة أفضل، أنت التي كنت من أوائل الخريجات في الجامعة الأمريكية، ومن أذكاهن وأجملهن؟ فماذا جرى لك؟

ابتسمت بعصبية وتابعت التدخين وقالت: لا أعرف، يبدو أنني لست ذكية كما يقولون، بل يبدو أنني غبية. تصوري أنني ضننت على نفسي بكل شيء، وظللت طوال هذه المدة أبعث بمعظم راتبي إلى «فلان» المسئول في «.....» وتصورت أنني أفعل شيئاً هاماً، وأسهم في دعم رفاقي المناضلين، وقبل أن أصل دمشق حطت بي الطائرة في مدينة عربية شقيقة، وأحببت أن أطمئن على سير الأمور، فماذا وجدت؟ هذا «الفلان» غارق في الترف، يعيش في بيت فخم، وعلى بابه سيارتان فارهتان، وحين جلسنا نتحدث تساءلت عما إذا كانت الحال التي هو عليها هي حال مناضلين، فأجابني مبرراً تصرفه، ناعتاً تضحياتي بأنها ضريبة الفكر الذي أحمل..

قلت للصديقة: تذكرين صاحبك القديم الذي كنت ترسلين إليه معظم راتبك؟ إن اسمه ما يزال لامعاً، وبين حين وآخر يجري الإعلان عن مواقفه بطريقة مثيرة! يبدو أنه لم يتبدل.

قالت: هذه حقيقة. صعب أن يتبدل الإنسان فجأة وأن يستحيل إلى مناضل ينسى ذاته في قضيته، وتغيب عواطفه الخاصة في المشاعر العامة. إن مواقعنا اليوم متناقضة، هو يبدو أكثر ثورية من كثيرين ولكن واقعه لم يتبدل، ويومه مثل أمسه، وسيكون مثل

غده. المهم ألا نتأثر نحن بانحراف المنحـرفين وألا يـدفعنا سـقوط المناضلين على الـدرب إلى أي نـوع مـن اليـأس. يجـب أن نواصـل الكفاح في كل الظروف وأن تظل مواقعنا مبدئية.

قلت: والآن؟

قالت: بعد الاتفاق بين منظمة التحرير الفلـسطينية وسـورية أصبح الواجب الأول والأهم هو العمـل بكـل دأب ونـشاط عـلى تنفيذ هذا الاتفاق، رغم الأصوات التي مازالـت ترتفـع ضـده، وقـد يكون بينها صوت أو أصوات من إخواننا ما كنا نريد لهم هذا الموقف.

ولقد فكرت بما قالته هذه الصديقة، حـول الاتفـاق الـسوري الفلسطيني، فوجدت أنها تتكلم من مواقع نضالية متمرسـة، ذلـك أن قيمة هذا الاتفاق لا يمكن تقديرها بشكل صحيح إلا من خلال الهجمة الشرسة التي شنها النظام المصري، صاحب اتفاقية سـيناء، عليها، فقد اتضح الآن أنه ليس ثمة ما يرعب الأعداء مثل تلاحـم المقاومة وسورية، وليس ما يبهج الأعداء مثل الشقاق بينهما.

هذا هو الدرس العظيم من فترة الخلاف السابقة، وهـو درس يفرض علينا جميعاً أن نجعل الوحدة الـسورية - الفلـسطينية واجبـاً وطنياً في رأس الواجبات، والحرص على تنفيذ الاتفاق الذي تم بين سورية والمقاومة خطاً استراتيجياً نجند كل قوانا لتطبيقه، مهما تكن العقبات والصعوبات، ففي ذلك وحده وقـف للاقتتـال في لبنـان، وصون للمقاومة، وحشد للطاقات في المعركة ضد العدو.

* * *

حين ودعت محدثتي كنت أرى توقـد الجـذوة القديمـة فيهـا، وسطوع الأمل ورسوخه في نظراتها. لقد تعلمنا كلنا من أيام المحنة أن سورية والمقاومة جسد واحد، ويد واحدة، وقبضة واحدة أيضاً.

وستظل أبداً حصن المناضلين ونصيرهم الأكيد.

عندمـا تنتفـض الأرض !

لترتفع راية المقاومة خفاقة إلى أبد الدهر . .(*)

«السيف أصدق إنباءً من الكتب»،
والسيف، في يد أهلنا، حجارة،
ويفتح العالم عينيه من دهش: حجر ودبابة؟
من ذا الذي قال: العين لا تقاوم المخرز؟
إسرائيل! يا إسرائيل! يا بؤرة العدوان، هـل جـاءك جوابنـا؟
أنت رهن إرادتنا!
كنت، وما زلت، وستبقين،
وإرادتنا إلى تصلب، وبقاؤك إلى زوال،
نقولها، وليسجل التاريخ قولتنا..
ما بني على فاسد فهو فاسد..
وتلك حكمة الدهور..
تلك خلاصة التجربة..

* * *

(*) جريدة البعث - ١٩٨٢.

«السيف أصدق إنباءً من الكتب»

وإطارات السيارات على دروب النضال، حواجز تشتعل.. وأهلنا، هناك يضرمونها، وأنت عاجزة.. وفي وسع شارون أن ينتحر، لكنه لا يستطيع إخماد نار بالزيت..

مكتوب أن الإرادة أقوى، وحب الوطن أقوى، وحب الأرض أقوى، وما عداها هباء..

وقد كتب على المحتل أن تلعنه الأرض، والبشر، والشجر، و«باصقات اللهب»

فأين المستقر، أين المستقر، أين المستقر؟

ثلاثون ونيف من الأعوام.. وأربع حروب، ودماء، وسجون، ومعتقلات.. ثم ماذا؟ كأننا في البداية، والبداية تصنع النهاية.. وقل «إن الباطل كان زهوقا.. إن الباطل كان زهوقا».

من الحدود يطلعون، ومن داخل الحدود يطلعون، من المدن، والقرى، والمخيمات.. وماذا تصنع الفانتوم، والمستوطنات، وجنودها المستترون؟ بل ماذا تصنع آلة الحرب، حيث لا حرب، بل شعب ينتفض: لا نريدك يا إسرائيل! لا نريدك يا إسرائيل!»

وإسرائيل تكابر.. تريدها على الحدود، ويريدونها داخل الحدود، في عقر الدار، فالحذر يؤتى من مأمنه، وإسرائيل حذرة، وما نفع الحذر؟ تقتل مليوناً؟ يشب مليون.. تقطع بيارة؟ تقوم بيارات.. تحرق زيتونة؟ العرب أصحاب الزواتين.. تنبح؟ مع ذلك فالقافلة تسير.. قافلة التاريخ تسير.

وتهدر مدرعات إسرائيل.. وتئز المقاليع في أيدي العرب..
مدرعة ومقلاع؟ وعود على بدء؟
ما بني على فاسد فهو فاسد
وتلك حكمة الدهور
تلك خلاصة التجربة..

* * *

«السيف أصدق أنباء من الكتب»
وما كنا لنصدق..
وما كان العالم ليصدق..
فهل علمتم، يا أهلنا هناك، ماذا فعلتم؟
كنتم صدقاً على صدق، كما الله نور على نور،
كنتم العهد، وكان العهد مسؤولاً..
وكنتم جنون الشجاعة، حين الشجاعة جنون، يقولون،
وكنتم الكتاب والمتــن والعنوان..
وقرأت الدنيا..
أما نحن فنحفظ كل شيء عن غيب: الكفاح ولا شيء سواه!
نقسم: الكفاح ولا شيء سواه..
والضحايا، في ذراك يا جبل الجليل، منارات..
فمتى تهتدي «السفن العربية»، متى تهتدي «السفن العربية»؟

متى تعرف أن «الحجارة» في الأيدي المؤمنة، «صواعق»..

وأن التحرير وقفة إيمان، دونها يرخص المال والبنون؟

متى؟ متى؟ متى؟

* * *

«السيف أصدق أنباء من الكتب..»

ومن حجارتنا سيوف.. ومن سيوفنا رماح، ومن رماحنا شواظ.. لنا القوة والإيمان، في يدنا القوة وفي صدورنا الإيمان..لكن «بعضنا لا يؤمن»، وتلك كبرى الكبريات..

قلت لا يؤمن، أكثر صحة، لا يريد.. لماذا أيها الجاحدون أهلنا لا تريدون؟

ونعلم ولا نقول:

ندع الوقائع تتكلم..

وها هي، في الضفة، في القطاع، في الجولان، تتكلم..

أنصتوا.. ألا تسمعون؟

نسمع.. يقولون..

يكذبون، يكذبون، يكذبون.

إنما هذا وقت الفعل، إنما هذا وقت الفعل، إنما هذا وقت الفعل..

بعد فواته لا شيء..

يخزى النفط..

يخزى المال..

وتخزى «المروءات»..

آه لو وجدت مروءات.. آه لو وجدت مروءات..

*　　*　　*

ولن أبكي..

في عيني دمع ولن أبكي..

وفي عيونكم دمع ولن تبكوا..

ما هذا وقت البكاء..

الرصاص هناك، رصاص من هنا، في أجسادنا، في صدورنا، في أفئدتنا..

نموت مع شبابنا في الأرض السليبة،

ونُجرُّ في الشوارع مع إخواننا في الأرض الحبيبة،

وتقلع شعورنا كما تقلع شعورهم،

وأمام شاشات التلفزة نتسمر..

«وامعتصماه» ، كانوا ينادون، في الزمن الصعب..

«وامعتصمين» صرنا نادي، في الزمن الصعب..

يا أهلنا، هناك، لكم نداؤنا، وفيكم رجاؤنا، ونحن معكم.. نحن معكم.. نحن معكم..

ولقد تقال الكلمات، لكنكم خبرتم أن أقوالنا أفعال..

فحين تقول دمشق، تفعل دمشق، وحين تقول الثورة الفلسطينية، تفعل الثورة.

وقد قالت دمشق، وفعلت دمشق، وقالت الثورة الفلسطينية، وفعلت الثورة الفلسطينية.. ثقوا، ثقوا، ثقوا..

* * *

حرب شارون، يا حرب شارون.. على العزّل تشهرين؟

والعزّل صامدون، من تشارين وهم صامدون.. فماذا بعد؟

«الإدارة المحلية» مرفوضة، «الهوية الإسرائيلية» مرفوضة، «روابط القرى» مرفوضة، ومن كان له أذنان للسمع فليسمع..

بيغن لم يسمع.. شارون لم يسمع.. وأمريكا من ورائهما، لم تسمع ايضاً.. بلى، سمعت كما سمعنا.. لكنها شجعت: صعّدوا القمع والإرهاب قالت.. وأعطت الضوء الأخضر..

حسناً! لتكن حرباً خامسة قال شارون..

حسناً! لتكن حرب إبادة قال بيغن..

حسناً! لتكن حرباً قذرة قال «صقور إسرائيل» ودارت رحى الحرب..

أغلقوا جامعة بيرزيت..

منعوا تداول الكتب والأقلام..

منعوا الصلوات وتلاوة القرآن..

فرضوا منع التجول وأقاموا الحواجز..
حاصروا المدن والمخيمات..
أشهروا البنادق مصوبة إلى الصدور..
وقامت الإضرابات، وتدفقت المظاهرات، وأعلنت الانتفاضة..
رصاص، رصاص، رصاص.. وقتلى وجرحى وملاحقات..
على من تطلق رصاصك يا شارون؟
جاء دورنا لنسألك..
وجاء دور الذين ظنوا أنهم يهدمون جدران الحقد، كي يروا كيف تبنى جدران الأحقاد.. وبأيديهم لا أيدينا..
جاء دور الذين ظنوا المستعمرات للمدنيين، فإذا بسكانها، ساعة المعركة، يتكشفون عن جنود احتلال..
وحلوا المجالس البلدية.. من البيرة إلى نابلس إلى الخليل..
أقالوا مجالس منتخبة في وضح النهار، وطرح بيغن الثقة، وخذل، لكنه لم يستقل..
هذا زمان افتضاح الشعارات: أين الديموقراطية يا تل أبيب؟
نحن لا نسأل، نحن نعرف.. بقي أن يسأل الغرب، ويعرف الغرب، ويصدق..
القتلة ليسوا رجال دولة..
المحتلون ليسوا بناة نظام..
المغتصبون ليسوا دعاة سلام..

الصهاينة عنصريون ولا شيء غير ذلك، فهل جاءك حديثهم الآن يا رئيس فرنسا؟

هل ساءلت، وأنت على أبواب عكا التي طلبت زيارتها، عن ثورة فرنسا أم عن عدوان إسرائيل؟

مهما يكن.. فالأسود لا يغدو أبيض لمجرد أنك جئت، وأنك تكلمت.. وأنك ناصرت.

الأسود لا يغدو أبيض لأنك زوقت الكلام، فذاك له اسم، وهذا له اسم..

وهذه الحرب على الضفة والقطاع والجولان، كانت عقبى زيارتك، وكانت رجع كلماتك، وكانت جواباً على ما أثرت من أسئلة أثناء الزيارة..

هذه الحرب، ومن الداخل هذه المرة، كانت فضيحة لإسرائيل، كانت خزياً، وكانت عجزاً.. وبعدها فلتسأل إسرائيل عن أمنها الداخلي، قبل أن تسأل عن أمنها الحدودي..

وبعدها فليستصرخ الحجر الضمير، وليستصرخ الدم الوجدان، وليستصرخ الشباب «الشيوخ العقلاء»..

لتستصرخ وقفة العز التي وقفها أهلنا هناك، قعدة الذل التي يقعدها بعض «أهلنا» هنا..

وليشهد التاريخ على وفاء الأوفياء، وخيانة الأدعياء.

ولترتفع راية المقاومة، خفّاقة إلى أبد الدهر.

إنهـم يقتلـون الأطفـال . .(*)

«إنهم يقتلـون الخيـول» قـالوا، فـسمعنا، واسـتنكرنا. كانـت الفعلة شنيعة، إلى درجة أن الصيحة بلغت آذان العالم، عبر الكلمـة والصورة، فاستفزّت مشاعر الـذين يحبـون هـذا الحيـوان الأليـف الأصيل..

لقد كان القتلة في درك أسفل من الدناءة، كانوا نازيين، كـانوا وحوشاً.

ماذا نقول نحن؟ «إنهم يقتلون الأطفال» عندنا .. فهل سـمع العالم؟ وهل وعى حقيقة الإسرائيليين الـذين تجـاوزوا في الهمجيـة قتل الخيل، وعقر الشجر، وتهجير البشر، وهدم البيوت، وتعـذيب الأسرى، إلى تصويب بنادقهم إلى صدور الأطفال، وهم على مقاعد الدراسة؟

إنهم قتلـة فـاقوا النـازيين دنـاءة ووحـشية، وهـم كالنـازيين سيدفعون ثمن جرائمهم من أعناقهم وأكبادهم أيضاً.

(*) صحيفة البعث - ١٩٨٢.

وحين نقول الفرس ونقول الطفل، تبقى ثمة مسافة. فالحيوان، في آخر الأمر، يبقى حيواناً، وقد قبل الناس، ولو بحكم العادة، أن يقنصوا الحيوان، من النمر، سيد الغابة، إلى الغزال، سيد المرج، واتخذوا من جلدهما، ولحمهما، شواء وزينة، لكن أحداً، في كوننا هذا، لم يخطر في باله، أن يقنص الطفل، ولا أن يسلخه ويشويه، وأكلة لحوم البشر، في المجاهل الافريقية، ظلوا أكلة لحوم بشر، ظلوا وحوشاً، وفي مستوى الوحوش أيضاً..

الإسرائيليون يقنصون الأطفال العرب الآن.. يدخلون عليهم مدارسهم، وفي تصميم حاقد يطلقون، ثم لا يبالون أن يتساقط الأطفال كالعصافير، وأن تجري دماؤهم فتروي التربة التي رواها دم آبائهم من قبل، وسيرويها دم أطفالهم من بعد، مادامت المعركة مستمرة..

والإسرائيليون لا يسلخون هؤلاء الأطفال الآن، ولا يتخذون من لحومهم شواء، ومن جلودهم زينة، ولكن من يدري إلى أين يؤدي الحقد بهم، وهم في سعار العداء، يتخذون من إبادة العرب شعاراً ونهجاً وطقساً، ويفعلون كل ذلك علناً، أما ما تبقى، الأكثر همجية، فيفعلونه سراً، والله أعلم ماذا يفعلون في السر..

وحين يقتلون طفلاً صغيراً، بريئاً، كل ذنبه أنه هتف ضدهم، وأشهر الدفتر في وجوههم، أو صوب قلماً أو حجراً باتجاههم، فماذا يبقى؟ أن يمثلوا بالجثة؟ «ما لجرح بميت إيلام»، وبعد الذبح لا يهم

السلخ والتقطيع، المهم أنهم قتلوا، ومازالوا يقتلون، ولم يوفروا حتى الأطفال، وتلك جريمة لم يعرفها التاريخ بعد..

أمامي الصحف العربية والأجنبية.. تفاصيل ولا أكثر.. ليست هذه وصفاً، ولا إنشاء خيال. إنها تحمل الأسماء والأرقام، وتقول في أي مدرسة، في أي مخيم، وكيف قتل الأطفال، ومن الذي قتلهم، والطريقة التي تم بها القتل أيضاً.

ففي قرية عيسان الكبيرة، قرب خان يونس دخل الجنود الإسرائيليون مدرسة ثانوية وأطلقوا النار باتجاه كل من فيها، فاستشهدت طالبة فلسطينية في السابعة عشرة من عمرها، اسمها إحسان خليل أبو دراز، وأصيبت خمس أخريات، حالة إحداهن خطيرة.

وروى شهود عيان أن إطلاق النار وقع داخل إحدى غرف الدرس، وأن الطالبة إحسان أصيبت بالرصاص في رئتها وكبدها، وأن الطالبة صباح أبو اسماعيل أصيبت في ساقها اليسرى فتفتت عظم الساق، وأغمي على بعض الطالبات، والباقيات أصبن بانهيار من جراء قنابل الغاز الغزيرة التي أطلقها الجنود داخل حرم المدرسة.

وفي مخيم جباليا استشهد طفل فلسطيني عمره أحد عشر عاماً يدعى جلال محمد أحمد عفان برصاص دورية إسرائيلية، وأصيب طفل آخر عمره سبع سنوات يدعى أحمد فتحي عيد، بحروق في رأسه وشظايا في وجهه، من جراء انفجار قنبلة إسرائيلية.

وفي بيت ساحور، وفي مخيم عائدة، وفي جنوب مدينة القدس، دخل جنود إسرائيليون إلى المدارس، وأطلقوا النار على التلامذة، فقتلوا وجرحوا بعضهم..

هذه حصيلة يوم من القتل، ولم أذكر من الضحايا سوى الأطفال، أما الرجال والنساء، أما الشباب والشابات، وحتى الشيوخ والعجز، فإنهم يتساقطون ولا تكفي سجلات لتدوين أسمائهم، وأما السجون والمعتقلات، فإن لوائحها صارت طويلة، لو مدت لكانت بطول أرض فلسطين، من صفد إلى غزة..

وماذا تريد إسرائيل من هذه الجرائم كلها؟ أن تبيد الشعب العربي الفلسطيني كله؟ أن تضع قيداً في كل يد، وجنزيراً في كل رجل، وكمامة على كل فم؟ .. أن تحرق البيارات والكروم وهضاب الزيتون، أن تهدم البيوت والمساجد والكنائس، ألا تترك للعرب مدماكاً ولا شجرة أو أثراً؟

يستطيع المحتل أن يحتل، يستطيع أن يقتل، أن يشنق، أن يعتقل، وفي وسعه أن يحرق الأرض وينسف المنازل، لكن إرادة الشعب لا سبيل له إليها.. تلك، في عصرنا، رابعة المستحيلات، وهذه الإرادة تصرخ في وجهه: اخرج، ويضطر، عندئذٍ أن يخرج، لأنه لا مناص، فالتاريخ قال كلمته، وكلمة التاريخ، منذ الحرب العالمية الثانية، لم تعد مفردة، صارت ملحمة، ومن كل أوروبا، انحسرت موجة الاحتلال الفاشية، وتبعتها في الانحسار أمواج من الدنيا كلها..

أمامي الصحف العربية والأجنبية... إليكم الوجه الآخر للصورة، المعبرة، هذه المرة، لا عن الضحايا المتساقطين برصاص المحتل الإسرائيلي، بل عن المقاومة، في وجه هذا المحتل، والتي، في الانتفاضة الأخيرة، صار عمرها شهوراً، وهي في كل يوم تكبر، وتشهد الدنيا على أننا أمة حية، ذات قضية حية، وأننا منذ زمن بعيد، نبذنا التوسط في الأمر، فإما الموت، وإما الانتصار:

في مدن الخليل ونابلس وجنين، قاطع الطلبة الدروس، وخرجوا من الصفوف، وقامت حشود منهم ومن السكان بإحراق الإطارات وإلقاء الحجارة والزجاجات الفارغة على دوريات الجيش الإسرائيلي،

وفي مخيم الفوار، قضاء الخليل، تظاهر طلبة مدرسة المخيم الإعدادية، ورشقوا السيارات العسكرية بالحجارة، وكانوا يرددون الشعارات المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية والمنددة بالاحتلال.

في بيت ساحور تظاهر طلبة المدارس وأغلقوا الشوارع بالحجارة والإطارات المشتعلة.

في جباليا ألقى مواطنون عرب قنبلة مولوتوف على عربة عسكرية إسرائيلية فانفجرت، وأحدثت ذعراً بين الجنود الإسرائيليين الذين قاموا على الأثر باعتقال شاب فلسطيني يدعى محمد الفار عمره خمسة عشر عاماً.

في أريحا أصيبت امرأة إسرائيلية بجروح عندما حطمت الحجارة المتطايرة جميع النوافذ سيارة إسرائيلية فيها جنود.

في بلدة سير قامت مظاهرات عنيفة مرات عديـدة، ففرضـت السلطات منع التجول الذي كان قد رفع لمدة ساعات فقط، وذلك لمواجهة تظاهرات تخللتها أعمال عنف بسبب مقتل فلاح عربي.

في القدس، وقرب كنيسة القيامـة، أطلـق الجـيش الإسرائـيلي النار على التظاهرات الحاشدة التي انطلقت بالقرب منها، احتجاجاً على اقتحامها من قبل الإسرائيليين، أثناء الاعتصام الجماهيري الذي شهدته، استنكاراً للاستمرار في تدنيس الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية، ورفع المتظاهرون الأعلام الفلـسطينية، واشـتبكوا مـع القوات الإسرائيلية التي طـاردتهم في مختلـف أرجـاء المدينـة التـي أقفلت تماماً.

في كنيسة القيامة، خلال الاعتصام الذي جرى فيهـا، رفعـت لافتات تحمل الشعارات التاليـة: «لا للاحـتلال الإسرائـيلي، نعـم للحرية» «أوقفوا مذبحـة أطفالنـا الأبريـاء» وكـان المعتـصمون في كنيسة القيامة قد قابلوا محاولة القمع الإسرائيلية بهتاف «الله أكبر».

في الـضفة الغربيـة أغلقـت الـسلطات الإسرائيليـة منـزلين بالإسمنت المسلح، ومدرستين ثانويتين، حتى بلـغ عـدد المـدارس التي أغلقت خمس مدارس.

اعترفت المصادر العسكرية الإسرائيلية أن قطـاراً يعمـل عـلى خط القدس - تل أبيب تعرض لوابـل مـن الحجـارة، أثنـاء مـروره قرب قرية بطير، كما رجمت دوريتـان للجـيش بالحجـارة في رام الله حيث أقفل شبان الطريق بإطارات سيارات محترقة.

أربعة وثلاثون عاماً على نكبة فلسطين..

سبعة عشر عاماً على احتلال الجولان والضفة والقطاع، والنضال هو النضال، مقاومة لا تهدأ، كأنما إخوتنا العرب في الأرض المحتلة، وفي إسرائيل ذاتها، قد باعوا أنفسهم للشهادة فهم، كالذين حدثنا عنهم التاريخ الثوري، قد لبسوا الأكفان تحت ثيابهم، ونذروا حياتهم قرباناً للوطن..

أما نحن الذين نجاور هؤلاء الإخوة، فقد تباينت مواقفنا، فينا الذين ربطوا مصيرهم بمصير تحرير الأرض واستعادة الحقوق، وفينا الذين تنازلوا عن الأرض والحقوق، وفينا الذين قايضوا عليها بـ «الصداقة» و«الاعتدال» و«الحلف النمرودي»، وكان الثمن، في كل الأحوال، دمنا الأسود، بترولنا، فهو شريان شهيد أسطوري، تدفق من صحراء وخلجان باتت أسطورية، لا في تضحياتها لأجل النصر، بل في تواطئها مع الذين يمنعون عنا النصر، ويقدمونه جهاراً نهاراً لأعدائنا.

ويسألونك عن رأس الأفعى، فقل هو في واشنطن، أما في تل أبيب فليس سوى الذنب.. ومع ذلك فإن «عرب أمريكا» لا يريدون أن يروا، ولا أن يسمعوا، ولا أن يعوا شيئاً ، إنهم في هذ الحرب المعلنة حيناً، وغير المعلنة أحياناً، الممتدة على مدى عقود، والتي يكتوي إخوتنا، أبناؤنا، أطفالنا، بنارها، يقفون في صف أمريكا وإسرائيل بالفعل، ويقفون في صف العرب بالقول، ويتباكون على القومية العربية، وباسمها يتحالفون مع أعدائها،

وباسمها، يشنون الحرب ضد الثورة والإسلام، وتصبح إيران لا إسرائيل هي العدو الأول.

صدق الجواهري الذي قال: «ولنحن أدرى من همُ، ولمن همُ، ولمن تمثل هذه الأدوارُ»، ولقد كانت هذه القولة يوم كان «عرب أمريكا» يخونون عروبتهم سراً، أما الآن فهم يخونونها علانية، وباسم عودة مصر إلى الصف العربي يدخلون حصان طروادة ويدفعونه باتجاه العمق من وطننا، وتحت هذا الشعار الكاذب يغضون على الذل، حين مسجدهم الأقصى يثقب بالرصاص، ومحرابه يتضرج بالدم، وحرمه الشريف يدنس بأقدام الصهاينة وينتهك بصورة لا مثيل لها في التاريخ، وبعد ذلك، وعلى طريقة الثعالب، يتساءلون: عجباً كيف تمضي أمريكا في عدائها لنا؟ ومتى تعود عن هذا العداء؟ وكيف تعود عنه؟ وماذا نفعل لترضى؟ وبأي أيمان نقسم أننا لها؟ وبأي قرآن نحلف أننا سنكون جندها في الحلف الذي يدعو إليه أبو غزالة، ويريد أن يحشر فيه العرب لقتال صديق العرب الاتحاد السوفييتي؟

لقد أكد رئيس بلدية عنتيبا وحيد الحمد الله الذي أقالته السلطات الإسرائيلية مؤخراً أن المذكرة التي رفعها رؤساء البلديات إلى وزير الدفاع الإسرائيلي ستأخذ طريقها إلى التنفيذ غداً أو بعد غد. وتنص هذه المذكرة على إعلان الإضراب العام وتجميد أعمال البلديات الأربع التي أقيل رؤساؤها.

اضاف: «إن موقفنا هذا ليس رد فعل بل هو مبني على استراتيجية مدروسة، ونحن نعتمد على أنفسنا بانتظار أن يصحو العرب».

واخجلتاه منك أيها المناضل العربي، واخجلتاه منكم أيها المناضلون العرب في أرضنا المحتلة.. إنكم في انتظار صحوة العرب كمن يكون، حسب مسرحية بيكيت، بانتظار غودوت.. وهو لن يعود أبداً..

أقول هذا ولا أعمم، وإلا كان على الأمة العربية أن تتشح بالسواد،

أقوله ولا أعمم، وإلا كان على المقاومة الفلسطينية أن تقول لثورتها وداعاً،

أقوله ولا أعمم، وإلا كان علينا أن نرفع القمصان البيض على المنازل في عواصمنا كلها..

إن الذين لم يصحوا حتى الآن قد قرروا ألا يصحوا أبداً..

أما الذين صحوا منذ البدء، فسيظلون في الصاحين إلى أن يموتوا أو ينتصروا..

امضوا في كفاحكم إذن بالاعتماد على أنفسكم، وبالاعتماد على سورية والثورة الفلسطينية، وبالاعتماد على الجماهير العربية، وما عدا ذلك سراب..

تقولون، في الغرب، إنهم يقتلون الخيول عندكم؟..

تعالوا وانظروا إذن، إنهم يقتلون الأطفال عندنا..

يقتلونهم في فلسطيننا..

ومهما يكن الحصان عزيزاً، فإن الطفل أعز..

ومهما يكن الحيوان مدعاة للرفق، فإن الإنسان مدعاة إلى رفق أكبر..

نحن لا نستجدي شفقة العالم، بل نجعله شاهداً على ما يجري، ونحن لا نطلب منه أن يستنكر جرائم إسرائيل مثل الشاعر ارغون، بل نريده، على الأقل، أن يكف عن الحملة الظالمة على العرب التي يقودها حكام معروفون..

إن أحفاد الذين هدموا الباستيل، جديرون بأن تهتز ضمائرهم لهذه البساتيل التي تقيمها إسرائيل على أرضنا.

وهؤلاء الأحفاد ليسوا في فرنسا وحدها، بل في كل عاصمة عرفت نازية هتلر، بالأمس، وينبغي لها أن تعرف نازية بيغن وشارون اليوم.

لكن ماذا إذا أجابوني غداً: أليست ضمائر «بعض» عربكم أحق بالاهتزاز يا سيدتي؟

وعندها سأقول لهم: نعم يا سادة!

أعترف.. وأنا آسفة جداً.

ليصمتوا ما شـاؤوا

فالخيـار بيـد المقاومـة (*)

«ما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ»

ولا لاجتياح لبنان، ومحاصرة بيروت، وقتل السكان تحت أنقاض البيوت، وكل تلك الهولة التي نعيشها منذ نيف وأربعين يوماً، إيلام في هؤلاء الأحياء الأموات الذين استعاروا صمت القبور أمام أدهى كارثة تحل بإخوتهم العرب..

هكذا يصدق العلم الذي ينفي وحدة مصالح الأمة، وهكذا تتأكد، من خلال الوقائع، أن مصلحة الملك حسين غير مصلحة الفلاح مصطفى من الأردن، وأن مصلحة الرئيس الفلاني غير مصلحة العامل الفلاني، وقس على ذلك، ومن هنا تتبخر الأوهام في أن يكون التحرير قضية واحدة بالنسبة للجميع، وأن يكون استرداد الحقوق، مسألة واحدة بالنسبة للجميع أيضاً. ونفهم أن «بعضهم» لا يريد أن تتحرر الأراضي العربية المحتلة، و«بعضهم»

(*) صحيفة البعث - ١٩٨٢.

لا يريد أن تسترد الحقوق الفلسطينية المغتصبة، وثمة، بين السادة العرب، من يفضل إسرائيل على المقاومة الفلسطينية، ومن يؤثر احتلال أمريكا مع الرجعية على الاستقلال مع التقدم، وهناك من كانوا يصلّون، بعد أن اطلعوا على مخطط الغزو الإسرائيلي، وشجعوا عليه، ووعدوا بالصمت حياله، أن تسقط المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية ونظام الحكم في سورية.

إن هؤلاء لا يتألمون لجراحنا لا لأنهم أموات، بل لأنهم أعداء، ولا يرفعون الصوت مع المقاتلين لا لأنهم في البلداء، بل لأنهم في العملاء، ولا تنبض دماء الكرامة في عروقهم، لأن هذه العروق امتلأت بصديد الحقد والنذالة.

مع ذلك كل شيء على ما يرام..

إننا نسافر عبر الزمن، نحو فرز للأشخاص والأشياء والمواقف، وتأتي الأحداث لتؤكد أن الأمة العربية ستكون، في مقبل الأيام، أمام حقائق مرعبة، تكشف عن غوص كثيرين في مستنقعات الخيانة والاستسلام والتواطؤ، فاعلين ذلك جهراً وعمداً، لأن الظروف لم تعد تسمح لهم بالتستر والمداورة وإطلاق الاحتجاجات كلاماً، وسلوك درب الإثم عملاً.

لقد كنا نعرف «هؤلاء» جيداً. إننا نقرأ أبجدية الحياة، ونعرف ماهية قوانينها. كنا ننتظر قعوداً عن النجدة، وسكوتاً عن الحمية، وضلوعاً في المؤامرة، لكننا ما كنا نظن أن السادة العرب، من المحيط إلى الخليج، إلا من عصم ربك، قد وئدت في نفوسهم النخوة،

وانطفأت الحماسة، وأصبح ضلوعهم بهذه السعة، وهذه الصراحة، وهذا الإمعان في إدارة الظهر لأكبر معركة تدور بين أشقائهم والصهيونية العالمية.

حقاً إن الأفعى لا توضع في العب،

وإن الخيانة لا ينبغي السكوت عليها،

وإن الرجعية ذكية وتعرف كيف تضع مصالحها فوق قوميتها،

وإن التضامن العربي مطلوب حين يكون سكوتاً على الأذى، ومرفوض حين يكون لدفعه.

وإن القضية العربية التي ما زالت حية بعد ثلاثين عاماً، قد اجترحت في حياتها أعجوبة، إذ انتصرت، في نضال لا هوادة فيه، لا على إسرائيل وأمريكا والاستعمار فقط، بل على أعوان إسرائيل وأمريكا والاستعمار، ممن يتربعون على «عروش» كان همها، وما يزال، اغتيال القضية العربية، بإدخالها سراديب ومتاهات من اللف والدوران، ونشر اليأس والعجز، والتحالف مع أعدائها، ومعاداة أصدقائها، وارتكاب كل منكر في الفكر والعمل ضدها.

إنني لا أقول جديداً. كل هذا يعرفه الناس، في كل المدن والأرياف، في كل الأصقاع والأنحاء، ويعرفه «السادة العرب»، ويعرفون أننا على علم به، وأن إسرائيل وأمريكا وكل أعدائنا على ثقة به، بفضل التحالفات السرية، والمصالح المادية، وبفضل تطمينات عليها تواقيع قدمت إلى واشنطن وتل أبيب قبل اجتياح لبنان، وخلاله، وما تزال سارية المفعول حتى يومنا هذا.

إن إسرائيل لم تغزُ لبنان وحده، بل غزت كل قطر عربي، ولم تحاصر بيروت وحدها، بل حاصرت كل عاصمة عربية، ولم تسعَ لفرض سياستها بقوة الاحتلال على «قصر بعبدا» فحسب، بل هي تسعى لفرض هذه السياسة على كل القصور وكل الدور والمضافات، وقد أصبح معيباً هذا الصمت العربي، ومذلاً، وشائناً، لكن أصحابه لا يتساءلون: متى تخرج إسرائيل، ومتى تفك حصارها عن بيروت، ومتى تتوقف أمريكا عن عدائها للعرب، بل يركزون انتباههم وأقوالهم واستفساراتهم حول نقطة واحدة: متى تنسحب المقاومة الفلسطينية من لبنان؟ متى يقضى على الحركة الوطنية اللبنانية؟ متى يأتي دور الضربة التي يتنبأ المعلقون أنها ستوجه إلى سورية؟ وفي هذا المجال يبدون على عجلة من أمرهم، ويودون لو اختصرت المفاوضات بكلمتين: تخرجون أم تبقون؟ فإذا رفض الفلسطينيون الخروج، فإن هذا الخيار العسكري جاهز، وشارون يلوح به صباح مساء، ويكاد يغضبهم أن شارون لا يعمد إلى هذا الخيار وينهي الأمر، فالحسم التدميري وحده، حرب الإفناء وحدها، الضربة الصاعقة باتجاه سورية، هي التي تروي غليلهم الذي طال ظمؤه.

غير أن الرياح لا تأتي كما تشتهيها سفن إسرائيل وأمريكا والرجعية العربية. المفاوضات التي بدأت منذ وصول فيليب حبيب إلى المنطقة، عشية الغزو، وعلى توافق زمني معه، لا تتقدم خطوة بالاتجاه الذي يدفع إليه. فالمقاومة الفلسطينية تمرست بحرب السلاح وحرب الديبلوماسية، وصار في وسعها أن تواجه الأعداء

في الميدان، وعلى طاولة المفاوضات، وهي باقية في بيروت حتى يوضع المخرج السياسي الملائم، وليس أمام إسرائيل سوى المخرج العسكري، وهذا لا ترهبه المقاومة ولا الحركة الوطنية أو القوات السورية المتواجدة في بيروت، وقد صممت أن تجعل من أحجار هذه المدينة مدافن للقوات الغازية.

لكن إسرائيل لن تجرؤ على مهاجمة بيروت. ستظل تحاصرها، وتحاربها بالتجويع، والتعطيش، وقطع الماء والكهرباء، ومنع المواد الطبية عنها، وتضغط عليها بالمفاوضات والتصريحات، والمؤامرات، على أمل أن تهن أعصاب المحاصرين فيها، فيرفعوا الرايات البيض من النوافذ والشرفات، وهذا لن يصير أبداً، وتعرف إسرائيل أنه لن يصير أبداً، لذلك تبدو القيادة الإسرائيلية، السياسية والعسكرية، على جزع كبير، متصاعد، هذه الأيام.

إنها حرب الاستنزاف، عسكرياً وسياسياً وتفاوضياً أيضاً، وتعرف القوات المتواجدة داخل بيروت الغربية كيف تخوضها، وقد برهنت، خلال شهر ونصف، أنها تجيد فنون كل هذه الحروب مجتمعة، ثقة منها أن الزمن لصالحها، فما دامت إسرائيل لم تستطع تصفية المقاومة بالضربة الخاطفة، ولم تستطع إخراج القوات السورية من المعركة بالضربة الساحقة، وأن طيرانها، حتى في حال تفوقه، لم يكن مخيفاً إلى الدرجة التي كانت تأمل، فإن الصمود هو قتل إسرائيل صبراً، هو استنزافها قطرة قطرة، وهو محاصرتها، ولو من داخل الطوق الآخر، الموجودة فيه المقاومة، وحفر بئر عميقة للنقمة داخلها، تتكامل فيه الجوانب الاقتصادية والعسكرية

والسياسية، حتى يأتي اليوم الذي يبدأ فيه الهجوم المباشر، هجوم المحاصرين على محاصريهم، هجوم المقاومة الفلسطينية والقوات المشتركة، على القوات الإسرائيلية، فاتحة بذلك تحت أقدامها هاوية الفناء، الهاوية التي تتلاقى فيها ضربات مقاتلينا من أمام ومن وراء، من قبل المهاجمين والمقاومين وراء خطوط العدو في آن.

«صمت غريب يلف إسرائيل»، هكذا توجز جريدة «ليبراسيون» الوضع الداخلي للكيان الصهيوني. إنه الصمت الناشئ عن العذاب النفسي، وعن الشكوك والقلق، بسبب ما تكشفت عنه الحرب الإسرائيلية في لبنان. ولو شاء الكاتب أن يتقصى ما تكتبه الصحف الغربية نفسها، الأمريكية والأوروبية، عن حالة التأزم التي يمر بها المجتمع الإسرائيلي، لأدرك أن بيغن، وشارون، يعيشان هذه الأيام مأساة خاصة، ناتجة عن أن التصورات التي وضع مخطط الغزو على أساسها تخيب أكثر فأكثر، والحسم الذي قدّرا له أربعاً وعشرين ساعة يمتد إلى ما لا نهاية، والأهداف التي حدداها للاجتياح لا يلوح في الأفق ما يدل على تحقق أي منها، والضغط يزداد، عربياً ودولياً، وتبرز الخلافات، لا بين حزب العمال وتجمع الليكود فقط، بل بين العسكريين الإسرائيليين أنفسهم، هؤلاء الذين اعتادوا على حرب «النزهة» حيث يقوم الطيران بالتدمير، وتدرج الدبابات مستريحة على الأرض، ومن ورائها المشاة الذين يحتلون الأراضي العربية الخالية.

وتكاد ظاهرة المأزق الإسرائيلي، في الغزو الذي توقف عند بيروت، وعلى مشارف البقاع، وفي جبال لبنان، تصبح الحديث

الأكثر إغراء للصحف العالمية، نقلاً عن الصحافة ووسائل الإعلام الإسرائيلية نفسها. وبوضوح كامل تجمع هذه الأجهزة على أن إسرائيل تواجه وضعاً حرجاً، وأن خشيتها من حرب الاستنزاف المشنونة عليها، كهجوم معاكس من قبل المقلومة والقوات السورية، وقوات المقاومة وراء الخطوط الإسرائيلية، هي خشية ذات تأثير بالغ، لأنه إذا طالت هذه الحرب، لا بدَّ أن تنقلب إلى نصر سياسي فلسطيني، مادام الخيار بيد المقاومة، وما دامت هذه الآن أكثر حرية في الحركة، وما دامت ورطة المفاوضات تحمل توتراً مطرداً لإسرائيل، مصدره فقدان السيطرة على مجرى الأحداث، وفوات أوان الضربة الخاطفة، وضياع فرصة احتلال بيروت احتلالاً ناجماً عن الاكتساح في مد الاجتياح الذي بدأ من الجنوب قبل أربعين يوماً، وما دامت سورية، وهنا مركزية الموقف، صامدة، وتعد للاحتمالات عدتها، ولها كل القوة لمواجهتها.

ومع أن حرب تشرين، من الناحية القتالية، كانت خطوة إلى الأمام بالنسبة لما سبقها، فإن هذه الحرب تشكل خطوات متقدمة بالنسبة للحرب التشرينية ذاتها، للأسباب التالية:

١ - قدرة المقاتلين العرب، وخاصة القوات السورية، على التعامل مع سلاحها تعاملاً أفضل، وذلك رغم القصور المؤقت لأحد الأسلحة، وفقدان التغطية الكافية لقوات المشاة.

٢ - أثبت سلاح المدفعية والمدرعات أنه قادر، حتى تحت القصف الجوي المعادي، أن يتشبث بالأرض، ويوقع بالعدو المهاجم ضربات شديدة، وخسائر بشرية ومادية كبيرة جداً.

٣- اعتراف المعلقين العسكريين أن القوات السورية قاتلت في هذه الحرب بأفضل مما قاتلت في حرب تشرين، على كل روعة تشرين، صموداً ومناورة وقدرة على إيقاع الإصابات المباشرة بالعدو، وتحطيم آلياته.

٤- استطالة الحرب التي هي لصالح العرب وضد مصلحة إسرائيل، بحيث تتعالى الأصوات بين الإسرائيليين، في الجبهة والمؤخرة، ضد حرب شارون وبيغن، وضد المأساة الرهيبة التي كلفت الإسرائيليين خسائر في الأرواح ما كانوا ليصدقوا أنها تقع في صفوفهم يوماً.

٥- جديد هذه الحرب أن القوات العربية جابهت الغزاة مجابهة قاسية. إن موقعاً من مواقع القوات السورية لم يسقط دون أن يكبد العدو أضعاف ما تكبده من خسائر، وإن تراجعاً واحداً لم يتخذ شكل انسحاب غير مدروس، مما جعل الخطوط متماسكة، وفوت على العدو القدرة على الاختراق بسلاح المدرعات، وإيقاع الارتباك بين قواتنا.

٦- جديد آخر هام لهذه الحرب، هو أن المدن العربية، التي كانت، تحت غطاء وقف إطلاق النار، تعلن ما يشبه الاستسلام أمام زحف العدو الإسرائيلي، قد صمدت هذه المرة، واستبسلت في صمودها، وقدمت بيروت الغربية مثلاً رائعاً على ذلك، مما يجعل كل مدننا، في المستقبل، تصمد وتقاوم كما قاومت بيروت.

الجديد الثالث، بالغ الأثر والخطورة، هو أننا تعلمنا أن نقاتل وحدنا، دون أن ننتظر أن يقاتل العرب الآخرون معنا. ففي الحروب السابقة كانت الجبهة الشمالية تتأثر إذا ما توقفت، لسبب ما -مثل خيانة السادات- الجبهة الجنوبية. الآن نحن كل الجبهات معاً، ونحن كفوء العدو، وليس إلى جانبنا سوى المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية، وعلى الجبهتين، في بيروت وجبال لبنان، نقاتل ونصمد ونضع الزمن ثقلاً متزايداً في كفتنا.

لقد تعلمنا، خلال هذا الزمن الصعب، ألا نتعاطى مع التشاؤم أو التفاؤل إلا بحجمهما على أرض الواقع، وانطلاقاً من هذا الدرس المستفاد تظل الموضوعية سيدة المواقف، وهي هنا التي تحكم ما نراه من رأي.

ليصمت الآخرون إذن ما شاؤوا ما دمنا نحن نتكلم..

ولتصبح جلودهم صماء كجلود الدببة..

ولتنزلق النبال على جسومهم دون أن يستشعروا جروحها..

فقد قررنا أن نبقى، في بيروت كما في ظهر البيدر والبقاع،

وقررنا أن نقاتل، وأن نستنبت للقتال أسطورة جديدة.

وقررنا، بقيادة حافظ الأسد، أن ننتصر، وسننتصر، وبنا تنتصر الدنيا العربية كلها.

كلمات وداع للقائد الراحل (*)

الأبطال لا يولدون أبطالاً،

تكبر البطولة بالعمل، وبالثورة تصير إلى ذروة، إنما بعدها، يصبح الاستمرار الثوري ذروة غير محدودة.

ولقد فقدت الأمة العربية، هذه الأيام، ذروة ثورية غير محدودة.

كافحت في الطفولة، واليفاعة، واستواء الرجولة،

وكافحت في الدراسة، والحرب، والسلم، وعلى فراش المرض، حتى لقد ذعر الموت، وتظنن العجز طوال أسابيع إلى أن قال له المريض: أقبل، كما قال الثائر لفرنسا: اخرجي.

هكذا تمرد، وثار، ورحل، ولربما في الغيبوبة الطويلة تذكر قولة المتنبي:

نُعِدّ المشرفيّة والعوالي   وتقتلنا المنون بلا قتال

(*) كلمة في تأبين الراحل الكبير الرئيس هواري بومدين، رئيس جمهورية الجزائر، عام ١٩٧٨.

فابتسم من كبرياء، لا إشفاقاً من المنون، ولكن تعالياً من الذي وفّى الرسالة، وأدى الأمانة، وطابت له الرحلة على الـزورق الـذي سنحمل عليه كلنا ذات يوم.

وفي الأفق الأرجواني، حيث السحب الحمر تتشح بدم الثوار، كان قائدهم على موعد مع الأعالي، هو الذي ارتفع سامقاً كإنـسان الأسطورة، بعد أن سجل أسطورته وغادرنا.

أسطورته نقول؟ ونعني.. يكفي أن نقول: بومـدين، ويـصبح الاسم الرمز محركاً أساساً في تاريخ الوطن الذي أنبته، والأمة التـي منها خرج، وإليها انتمى، وما عقّ الانتماء، بل أغلاه، حين أرخـصه العبيد في ردة صفراء على واديهم الأزرق.

يكفي أن نقـول: بومـدين، حتـى نقـول وهـران والأوراس، وحتى نقول الجزائر، هذه التي كبرنا بها، وما زلنا عـلى موعـد في أن نكبر، وسنكبر.

وتنهلّ مع ذلك دمعة من العين، فبعض الدمع تمـرد، وبعـضه حب، وبعضه حزن، وههنا جميع هذا، وفوقه أسف أن يطوي الثرى رجولة كانت تقاس بها الرجولات.

أيتها الأرض، لماذا، بمن في جوفك، تريدين أن تشمخي عـلى من فوقك؟ ولماذا وأنـت العظيمـة تنـادين العظـماء، وبـإصرار، أن يأتوك مضمخين بدم المواقع وعاطر الذكريات؟

وتمنحك، أيتها الأرض، أمتنا العظيمة، رجالاً للعظمة كانوا، لأنها على ثقة أن من أصلابها رجالاً كباراً سيتعاقبون، وكلما تلقفت واحداً، قام آخر وآخر إلى أبد الدهر..

* * *

الأبطال لا يولدون أبطالاً..

يصيرون كذلك بالمفاداة، يوم الوطن ينادي وهم تلبية النداء، وحين الأمة في عصف الرياح، تريد أن تسوق الريح أمامها، وساعد يقوى.. ويوم الصمود سور يشاد، وهم السور وسياج الدار.

لقد أعطى بومدين البطولة محتواها، عمل وعمل وعمل.. وجماع الأعمال شهادة، وبها وحدها نتكرّم. بشهادة الأمة إذ تتلّفت كما تفعل الآن، ونكرم. فهي المتن، ونحن العنوان، وهي الأصل ونحن الفرع، وقلبها الواجف من حزن وخشية، هو توقيعها على صك براءتنا وبطولتنا معاً، وهذا التوقيع الذي لعبد الناصر كان، عن حق وصدق، لبومدين يكون اليوم، عن حق وصدق أيضاً.

ونعدد؟ وجه مفرد كان في التعبير جميعاً. أحدها وجه للثورة العربية الجزائرية، وثانيها لحركة التحرر الوطني العربية، وثالثها لعدم الانحياز وكتلة العالم الثالث، ورابعها لمنظمة الوحدة الافريقية، وخامسها لثورة التعريب، وسادسها للبناء اقتصاداً ودفاعاً، وأكرمها، وجه للعروبة فعلاً لا قولاً، فمن خبز الجزائر اقتطع سلاحاً للعروبة، وهي تخوض حرباً وتجلي عدواً.

مفهوم إذن حزن العروبة الآن. إنه حزن كفؤ للعمل، فالمأثرة تجازى بمأثرة، ومأثرة بومدين لا يجازيها الدمع، ولكنه، أمام الموت، كل ما تملك هذه الأمة، وكل ما تمسح به على جراح الإخوة الجزائريين الراعفة من فجيعة وتأثر.

ومفهوم إذن حزن العالم الآن. إنه حزن الأصدقاء على صديق، والثائرين على رفيق، والمناضلين على زميل، والساعين إلى المستقبل على رجل المستقبل، «فأجمل التاريخ كان غداً» ومع هذا الغد كان يعقد الصلة.

ومفهوم حزن الثورة على ابنها، فبعده تبدو « ماذا ؟» سؤالاً يلح في طلب الجواب، وفقده مثار قلق يرغب في الاطمئنان، وكل ما في الثورة الجزائرية يقول: «اطمئنوا» لكن اليد تبقى على القلب من فرط لهفة أن تظل «المدْينية» اتجاهاً راسخاً، تتفتق أكمامها عن زهور تعطي الثمر ذاته وأجود.

لقد كان انضمام بومدين للثورة أخذاً بها إلى أمام، لا التحاقاً ولا مواكبة، بل فعلاً باتجاه العمق، معينه حقد أصيل على الاستعمار، هو الزاد لمن يضعون الكفاح حداً بين العبودية أو التحرر. وكان عمله في الثورة، بعد نجاحها، جهداً لا هوادة فيه، يرتكز على الإيمان بأنه لا استقلال سياسي دون استقلال اقتصادي، ولا استقلال اقتصادي دون تنمية، ولا تنمية دون خط اشتراكي واضح، ولا خط اشتراكي واضح دون قطاع عام، هو القائد في الصناعة والزراعة والسياسة على السواء، ودون اعتماد على الشعب،

ونبذ، إلى درجة الاستئصال، لكل الطفيليات التي تنمو طحلباً مصاصاً على جدار الثورة.

إن العمل في سبيل الآتي هو المشروع الثوري الذي اعتمده وبدأه وطبّقه طوال حياته، وهو المشروع الذي تفرض سلامة الثورة أن يستمر، وأن يغتني بكل المقومات الضرورية، وأهمها أن الجزائر بالعروبة كافحت وانتصرت، وبها تكافح وتنتصر، والحرص على الانتماء إليها يرتفع إلى مرتبة القداسة، لا لأجل الجزائر بما هي ركن من أركان الصمود، بل لذلك وفوقه لأنها قلب المغرب العربي وقاعدة الكفاح الثوري فيه.

مثله، تطبيقاً، يصبح العمل القومي ترجمةً للانتماء العربي، ويصبح الارتباط بحركة التحرر والثورة العالميين استقواء بهما، ويصبح رفع راية القضية الفلسطينية، ورفض سياسة التخاذل والاستسلام، والالتحام بجبهة الصمود والتصدي، وبطليعتها سورية والمقاومة الفلسطينية، وتأييد ميثاق بغداد، أسساً وطيدة في مواصلة نهج «المدْينية» وحماية الثورة الجزائرية من خطر الانتكاس.

إننا، في سورية، نفهم ثقل العبء القومي والثوري الملقى علينا، وننهض له بمنكبين قويين. فقد كانت الجزائر في المغرب، وسورية في المشرق، ومصر الناصرية في القلب منهما، ثلاث ركائز للقضية القومية العربية، وبخروج مصر السادات من المعركة، زاد الثقل على الجزائر ودمشق، وتقدمت بغداد لتوازن ما اختل، فكان هذا سنداً كبيراً، وبه نتابع المسيرة بصلابة أشد.

وكـما كانـت الـسياسة الـصحيحة لبومـدين حلقـة مـساوية ومكملة في السياسة الصحيحة لعبد الناصر، فإن الـسياسة المبدئيـة الثابتة لحافظ الأسد هي الحلقة التي تحفـظ مناعـة السلـسلة كلهـا، وستجد الجزائر في دمشق، كما قال الرئيس الأسد، عوناً قويـاً رغـم بعد المسافة ونأي الدار، وإزاء كل المخاطر والاحتمالات.

لقد رحل القائد الذي كانت صلابته تتجلى عنفواناً في قسمات وجهه.

غاب عنـا ذلـك الـذي كـان في القـراع ترسـاً عليـه تـتحطم السيوف.

وغادرنـا الرجـل النحيـل مـن عـزم، الـضامر مـن انـضفار الأعصاب على قوة،

ولكن الجزائر باقيـة.. وثورتها مـستمرة، وصـحب بومـدين سيواصلون الطريق.

تحيـة لمؤتمـر اتحـاد الكتّـاب (*)

للكلمة دورها في إنـارة الحيـاة مـن حولنـا، وفي مـنح النـاس الرؤية التي تفتح عيونهم على حقـائق المجتمـع والكـون، وصـياغة وجدانات الذين يتصدون لكل تغيير نحو الأفضل - التغيـير الـذي هو قانون الوجود، وبه يكون الارتقاء، وبه يكون التطور في البنـاء، وفي تحـديث كـل مـا صـار قـديماً، لا يـتلاءم والظـروف الجديـدة، وكذلك المتغيرات والمعطيات الجديدة.

فإذا كان هذا دور الكلمة، فإن دور صاحبها يصبح ملازماً لها، وحاملاً لمسئوليتها، لذلك فإن الكتّاب هم الطليعة، كفاحاً بالأدب، والفنانين هم الطليعة، كفاحـاً بـالفن، ويـزداد الآن، دور الكتّـاب والفنانين، لأن الظروف الراهنة تتطلب، من البصر والبصيرة، بعداً جديداً، وفعلاً جديداً، لهما الشأن الأكبر في التمهيد للمد الآتي، ولو بعد عقود، لأن الوضع العربي الراهن، وهو على مـا تعلمـون، لـن يتوقف جزره إلا بالتنوير، وبالنهضة الفكرية العقلانيـة، التـي هـي مهاد لكل ما يجعل الدور العربي فاعلاً في المستقبل.

(*) المؤتمر الذي عقد عام ١٩٧٥.

إن هذا الاستهلال، ككلمة قصيرة، هو تظهير لأهمية الحرف، وهو تحية للمؤتمر، من زميلة ومسئولة، في الكتابة وفي تطوير عمل اتحاد الكتّاب، ليكون فعالاً، خلاقاً، جديراً بالآمال المعلقة عليه، وهي آمال، في زمن فقدان المصداقية لأشياء كثيرة، تبرر أن نطالب اتحاد الكتّاب بالنهوض والاستنهاض، وبالعمل المستمر على رفع شأن الكاتب، وتفعيل دوره في مجال الكتابة، وكذلك تفعيل دوره كعضو في هذا الاتحاد، الذي يضم، أو ينبغي أن يضم، خيرة المبدعين في سورية الحديثة، سورية الأسد، الذي رعى الأدب والفن، والأدباء والفنانين، رعاية كريمة، سخية، ندر أن تصدر إلا عن قائد عظيم، له من الثقافة ما يدفعه إلى تقدير اثرها وخطرها، وله من الشجاعة ما يجعل السيف قريناً لها، في المسيرة المظفرة، ونحن على أبواب الاحتفال بمرور ربع قرن على قيام الحركة التصحيحية المباركة، هذه التي حملت إلينا الاستقرار، ومعه الازدهار، لأنها من منبت واحد، في القدرة على إحداث التحولات الكبيرة، والإنجازات العظيمة، ومنها الاقتصاد نمواً، والقوة ضاربة، والتحرير غاية، والنهضة الشاملة هدفاً، فاتت الكثيرين من قادة الوطن العربي، وأدركناها نحن، بفضل القيادة الفذة، لقائد يعلمنا كل يوم، أن علينا، لا أن نتحمل مصيرنا فحسب، بل أن نسيطر على هذا المصير أيضاً، أي أن نصنعه نحن بأيدينا، وقد صنعناه، في كل مجال نهضتنا، وعلينا متابعة هذا الطريق، مهما يعنت السير فيه، ومهما يتطلب من تضحيات.

وأحسب أنني لا أقول جديداً، إذا قلت إن سورية عنوان ضخم للحضارة، في ماضيها وحاضرها، وعنوان كبير للا بدَّاع، في ماضيها وحاضرها أيضاً، وإن هذه النهضة الثقافية، والإبداع أحد تجلياتها، قد أفاءت بالنعمى علينا جميعاً، فصارت سورية، في ندواتها ومؤتمراتها ومهرجاناتها، المتتابعة، المتوالية، محط أنظار العرب، والمثقفين بينهم خاصة، وبهذه النهضة استعادت دمشق، في عهد الرئيس الأسد، دورها التاريخي، كمنبر للإشعاع الفكري، وانداحت دوائر هذا الإشعاع الإبداعي حتى عمّ سورية والوطن العربي كله، وصار معروفاً، ومقدراً جداً، دور دمشق المنبري الإشعاعي، في سائر الأجناس الأدبية والفنية، ونبغَ من أبنائها من كانوا واجهة للفخر، بالنسبة لهذا البلد الصغير بعدد سكانه، الكبير بعطاءاته الإبداعية التي كان لها رموز كبار في التاريخ العربي القديم، ولا يزال لها رموز كبار في التاريخ العربي الحديث، وإني لا أجانب الموضوعية، ولا أميل إلى المبالغة، وإذا قلت إننا الآن في الاكتشافات الحضارية، والمآثر الأدبية والفنية، نجعل من بلدنا، نموذجاً يحتذى، وقدوة تقتدى، في كيف يصنع مجد القلم ومجد السيف.

إن الطبيعة تستلهم في أنسنتها، والكون يتمجد بكائناته، والإلهام، بأي معنى أخذناه، لا بدَّ له من مصدر، ولدينا الآن، من مصادر الإلهام، تاريخاً، وجغرافية، وإنجازات وقضايا، ما يمدنا بالقدرة على إبداع متميز، مادامت أشياؤنا متميزة، ووقائعنا حمراً وغراً، متميزة، ومادام دافعنا، في البحث عن الرائع، هو دافع

أصيل، مستمد من رفعة النجم في عليائه، ومن ثراء الأرض في اندياحها، ومن هذا الألق، شعراً ونثراً، في توهجه، لأننا في الطامحين إلى تحقيق كل ما هو عادل وجميل، وعظيم، في كل إنتاجنا، والمعرفي في المقدمة، لأنه، بالمعرفة وحدها، يكون صنيع ما هو عادل وجميل وعظيم ممكناً.

إنما التحية، في طيبها والغالية، تكون حميمة بقدر ما تكون حقيقة، وتكون حقيقة بقدر ما تكون صادقة، وفي الصدق مع النفس، حساباً على ما كان، وأملاً في ما سوف يكون، يتشعشع الجوهر الذي تنطوي عليه الصدور، وتفيء إلى ظلاله في المكرمات، كل الأماني المرجوة من انعقاد مؤتمر مهم كهذا، وإني لأرجو، ورجائي ينهض على أساس من ثقة، أنّ هذا المؤتمر سيكون نقلة نوعية، واندفاعة قوية إلى أمام، حيث الهدف في القضية، هو كل القضية، ولا بدَّ لنا، في إعلاء شأن وطننا وأمتنا، أن نتمسك بهذه القضية، ونأخذها بقوة في أيدينا، وننصرها بأفئدتنا ونواظرنا، بغير اقتصاد وغير ونىً.

المراكز الثقافية ليست بُنىً فوقية
ولها دور تثقيفيّ كبير(*)

أيها الإخوة مدراء المراكز الثقافية

إذا نظرنا إلى العمل الثقافي على أنه نتاج معرفة، يصدر عن الإنسان ويتوجه إلى الإنسان، فإن المراكز الثقافية، التي هي شرايين وأقنية توصيل، هي وحدها القادرة على نقل هذه المعرفة الثقافية بين المؤدين والمتلقين، ومن هنا دورها الخطير، باعتبارها وسائل لنشر الثقافة التي هي ضرورية لنا ضرورة الخبز والماء.

وإذا كان لوزارة الثقافة وجود فعلي، في أي قطر من الأقطار، فإن وجودها الأكثر فعالية يتمثل بالمراكز الثقافية التي هي شبكتها الثقافية الرئيسية في البلاد، بل هي، في التطبيق العملي لخطتها الثقافية، مصب كل جداول هذه الخطة، إذ تلتقي وتتفرع عن المراكز الثقافية العربية جملة نشاطاتنا، في حقول المحاضرات والندوات والأمسيات الأدبية والعروض والمعارض الفنية، والفرق المسرحية

(*) في المؤتمر التوجيهي الأول لمدراء المراكز الثقافية الذي عقد في دمشق عام ١٩٧٨.

وفرق الهواة والمكتبات والوحـدات المتنقلـة، والمحطـات المكتبيـة، ونشاطات الأطفال والثقافة الشعبية الخ..

هذا الحجم من المسؤولية، يحتاج إلى ما يماثله من الجهد للقيـام به، وقد أدت المراكز الثقافية، التي يـزداد عـددها عامـاً بعـد عـام، بعض مهماتها، وقصرت عن أداء كل مهماتها، لأسباب اجتمعنا هنـا لدراستها، وإيجـاد الحلـول لهـا، والانطـلاق بعـد ذلـك في فعاليـة جديدة، قمينة بالتغلب على المصاعب التي تعترض سير العمل.

وسأعترف، قبـل كـل شيء، ان هنـاك تقـصيراً عامـاً في حـق المراكز الثقافية، وتقصيراً ملحوظاً من المراكز الثقافية بدورها.

تقصير من الوزارة تجاه مراكزها، سببه ان العام الأول من توليّ منـصب الـوزارة، اسـتغرقته مـشاغل ملحـة واجهتنـا، ولم يكـن بالإمكان تركها بغير معالجة وبغير حل، في مجال الـسينما والمـسرح، وبناء المسرح، وإنشاء المعهد العالي للفنون المسرحية، ومجلة «الحيـاة المسرحية» والمؤتمر التحضيري للـسينمائيين الـسوريين، والمهرجـان السابع للفنون المسرحية في دمشق، وبناء المكتبة الوطنية، والاهـتمام بالآثار، وبإصدار الكتب وتحقيق التراث، ومشاغل يوميـة أخـرى، ما كانت تسمح، كما ينبغي، بالانـصراف إلى المراكـز الثقافيـة التـي كنت أرغب في القيام بجولة عليها، لأقف على نشاطاتها ومشاكلها على الطبيعة، وفي ذات المناطق المتواجدة فيها، ودراسـة احتياجاتهـا ومعالجة قضاياها، وقد حالت دون القيام بهذه الجولة ظـروف غـير

مؤاتية، إضافة إلى المشاغل الدائمة، ثم وجدنا أن نعقد هذا المؤتمر، ونقوم بالجولة المقررة بعده.

هذا هو التقصير الأساسي، والأهم، وأعترف به أمامكم. غير أن هناك تقصيراً من قبل المراكز الثقافية، أو بعضها على الأقل، ما كان يجب أن يقع، وأن يصل، كما كتبت بعض الصحف، إلى درجة أن تتحول هذه المراكز المقصرة إلى «منافض سجائر» حسب التعبير الذي استعمل.

ومهما يكن في هذا الوصف من ظلم لكم، أنتم الذين تتحركون ضمن إمكانات محدودة، فإن فيه تذكيراً بواقع علينا أن نأخذه في حسابنا، وأن نتدارس أموره ونجد العلاج له. فالحقيقة أن أكثر مراكزنا لا تؤدي الدور المطلوب منها، وقد غاب عن القائمين عليها ان المركز رسالة توجيهية، وليس بنية فوقية، تصنع أو تشرف على النشر الثقافي من علٍ.

إن من مهام المراكز الثقافية، من خلال نشاطاتها اليومية، ان تبث الوعي السياسي والاجتماعي، وتكون أقنية توصيل نشيطة، وأداة بحث عن المواهب لتفتيحها وتقديمها، وعامل جذب للجمهور لكي يقبل على نشاطاتها، وملتقى للمثقفين والمتطلعين إلى الغذاء الفكري.

ومن الطبيعي أن يختلف عمل المراكز الثقافية من منطقة إلى أخرى، ففي بعض المناطق، وخاصة النائية منها، على المركز أن

يسعى لوضع نفسه في دائرة اهتمام الناس، وان يعرف القائمون عليه الواقع من حولهم، ويقيموا أوسع العلاقات مع مختلف الأوساط، ويتحدثوا، في برامجهم، إلى الناس بلغتهم، وحول مشاكلهم، ويتعاونوا مع كل المنظمات الشعبية وفروع الحزب، ويفتحوا الأبواب للشباب الذين هم عماد المستقبل، ويبنوا أفضل الصلات مع المثقفين الذين هم أعمدة الحياة الثقافية، وهم الركائز التي تقيم عليها الوزارة والمراكز قواعدها وأنشطتها، ودونهم لا تستطيع تحقيق أي نتاج ثقافي.

إن الثقافة، كما يجب أن نفهمها، هي ملك الجماهير، أو ينبغي أن تكون كذلك، ولا يصح احتكارها من قبل فئة أو نخبة، وبقدر التحامنا بالجماهير نستطيع أن نأخذ منها ونعطيها، والبرامج الرسمية، أو الخطة التي تضعها الوزارة في العاصمة، ليست كل عمل المراكز، لأننا نقع في هذه الحال في أسر الرواسم الجاهزة، وسيكون أفضل، وأكثر جدوى، لكل مركز، أن يبحث، إلى جانب البرامج الرسمية، عن برامج خاصة، محلية، تُستنبط، وتتحقق عبر اللقاءات المتفاعلة مع البيئة، وناسها الذين لهم فنونهم، ولهم متطلباتهم الثقافية الخاصة، وكل برنامج لا يوضع بالاتفاق مع الذين سيوجه إليهم لا يعطي تأثيره المطلوب، ولذلك من المستحسن، بل الضروري، التعاون مع مثقفي كل منطقة، عند وضع برامج نشاطات المراكز الثقافية المتواجدة فيها، والقيام بالمبادهات الضرورية، وتجنب غربة هذه المراكز عن محيطاتها.

إننا نعرف ما تعانون منه، ونحن هنا لسماع كل ما يتعلق بذلك، وفي حدود علمي، ان في رأس المصاعب التي تعرقل العمل، نقص الكوادر، والافتقار إلى الموظفين، وقلة الاعتمادات، ولذلك يقع العبء الأكبر، في أغلب الأحيان، على مدراء المراكز، ومهما استنجدنا بوجدانهم الوطني، وإيمانهم بضرورة تطوير بيئاتهم، وتثقيف جماهير مراكزهم، فلا بدَّ أن نوفر لهم الوسائل التي تساعدهم على القيام بالمهمات الموكولة إليهم، وسنسعى جاهدين لتوفيرها.

أيها الإخـــوة

إنني أرحب بكم، وأتمنى لمؤتمركم النجاح، وأدعوكم إلى طرح الأمور بصراحة، وجرأة، ومناقشة كل القضايا بعمق وجدية، ورغبة في الوصول إلى أفضل النتائج.

التبادل الثقافي سبيل إلى امتلاك المعرفة(*)

السيد وزير الخارجية الفرنسية جان برنار ريمون

أيها الحفل الكريم

ليس كالثقافة رسول بين أمة وأمة، وبين شعب وشعب، وليس كالثقافة طموح إلى الكمال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما في الفكر الإنساني، وكذلك ليس كالثقافة سبيل إلى امتلاك المعرفة، وصقل المواهب، وإنماء إبداعاتها، في حقول الفن والأدب، ومن هنا فإن احتفالنا بافتتاح هذا المركز الثقافي، هو احتفال بكل هذه القيم، وهو تتويج للرغبة المشتركة في توسيع وتطوير التبادل الثقافي بين بلدينا وشعبينا.

إن الثقافة، بما هي نتاج ذهن وسلوك، وبما هي تعبير عن ذات الأمة، في سعيها لنقل كنزها المعرفي إلى العالم، تعد ذخيرة مشتركة بين الأمم، تتوارثها الأجيال، وتغنيها التجارب والمعطيات،

(*) في حفل افتتاح المركز الثقافي الفرنسي الجديد في البحصة بحضور وزير الخارجية الفرنسية جان برنار ريمون عام ١٩٨٧، وكانت العلاقات على غير ما هي عليه اليوم، بعد أن هوى بها عبث السياسة.

وتزيدها الأعوام والقرون عظمة وشموخاً، لأنها الإرث الذي إلى زيادة، وكل ما عداه إلى نقصان، وهي، بهذا المعنى، إرث بشري، منه يتشكل التيار المندفع للحضارة الإنسانية، التي بها وحدها يكبر ويعظم ويتمجد الجهد الإبداعي الذي هو مفخرة وحصيلة للإنجازات المشتركة، في المجالات العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية على السواء.

وبسبب من أن مفهومنا الثقافي يرتكز على أساس متين من فهم روح العصر، والترجمة عنه، والتطلع الدؤوب إلى تعبير متقدم، لا يقف شاهداً على ما يحدث في البيئة والعالم فقط، بل يفعل وينفعل في هذا الذي يحدث أيضاً، لتكون الثقافة عنصر تغيير في الحركة التاريخية التي لا تعرف الوقوف أو السكون، أقول: بسبب من هذا المفهوم، وفي حرصنا على إبداع ثقافة وطنية قومية تقدمية إنسانية منفتحة على ثقافات الأمم، نسعى سعياً حثيثاً إلى مد جسور الثقافة بيننا وبين الآخرين، ونعمل لتوفير أوسع تبادل ثقافي ممكن بيننا وبين كل من يرغب في مثل هذا التبادل الذي هو في مصلحة تعميق التفاهم، وتوطيد الصداقة، بين البلدان والشعوب قاطبة.

إننا نعرف ونقدر الثقافة الفرنسية الغنية والعريقة، ونعرف، كذلك، إشعاعها الذي أضاء جوانب كرتنا الأرضية، وقد كنا على صلة قوية ودائمة بها، ويسرنا أن نكون الآن، كما كنا بالأمس، على صلة قوية بهذه الثقافة المترفة، معرفةً وإبداعاً، وما افتتاح هذا المركز الثقافي الفرنسي في دمشق، المدينة الأقدم في التاريخ، والعاصمة

الأصلب في الصمود، والمركز الإشعاعي المتألق للثقافة العربية، إلا دليلاً على هذه الرغبة العميقة المخلصة الصادقة في أن يكون التبادل الثقافي بين الجمهورية العربية السورية والجمهورية الفرنسية تبادلاً واسعاً، متطوراً، جامعاً، يقوم على التفاهم المتبادل، والاحترام المتبادل، وفي نطاق المصلحة الثقافية المشتركة التي تعود بالنفع العميم على بلدينا، وتزيد علاقاتنا متانة في كل المجالات.

وإنني إذ أرحب بالسيد جان برنار ريمون، وزير الخارجية الفرنسية، بهذه المناسبة السعيدة، فإنما أرحب برسول ديبلوماسية وثقافة، يشاركني القناعة في أن توطيد العلاقات، على جميع الأصعدة، بين دمشق وباريس، وخاصة الصعيد الثقافي، هو في مصلحة المعرفة الشاملة، والتعاون الدولي، والحوار العربي الأوروبي، وكل المعاني السامية للجهد المشترك الذي ينهض به بلدانا، في سبيل خير البشرية.

ما أروع أن نضع حجراً في بناء صرح ثقافي، وما أجمل أن يكون الإنسان مبدعاً للثقافة، أو ناشراً لها، أو عاملاً في سبيل تبادلها، وما أسعدني اليوم بالمشاركة في تدشين هذا المركز الذي هو عنوان لتعاوننا في حقل المعرفة العزيزة على قلوب جميع الذين يرون في الأدب والفن شهادة على رقي الأمم وعظمتها ومجدها.

الثقافة هي المنبر الرفيع

لصوت الفكر والفن (*)

السيد السفير - أيها الإخوة

العلاقات الثقافية العربية - الفرنسية قديمة في تاريخنا الحديث، فهي تعود إلى حوالي قرنين من الزمن، وتمتد لتشمل كل البلاد العربية تقريباً، ولها جذور في النهضة الثقافية العربية الحديثة التي انطلقت من مصر، وانتشرت في الوطن العربي مشرقاً ومغرباً على السواء.

ولئن مرت ظروف سياسية معروفة، كانت الثقافة الفرنسية خلالها، وبالنسبة إلينا، تحمل بعضاً من مظاهر السلبية، فإن هذه الظروف مضت إلى غير رجعة، وصار الآن للتواصل الثقافي بيننا، طابع التعاون البنّاء، والاحترام المتبادل، والمنفعة الثقافية المشتركة.

وبرغم الظروف المتباينة التي مرت علينا، فقد كان للثقافة الفرنسية، صاحبة الإشعاع الفكري والإنساني الرفيع، تأثير مباشر

(*) كلمة في افتتاح المركز الثقافي الفرنسي عام ١٩٧٧.

على الثقافة العربية، وقد اتخذ هذا التأثير، في إطار التفاعل المتولد عنه، مسارات متعددة، وكانت حصيلته طيبة جداً ومثمرة جداً في حياتنا الفكرية.

إن حضور المفكرين الفرنسيين، وخاصة مفكري الثورة الفرنسية العظيمة، وحضور الأدباء والفنانين الفرنسيين، من مختلف المدارس والاتجاهات، قد كان واسعاً وفاعلاً في الفكر والأدب العربيين الحديثين، ولا نتجاوز الواقع إذا قلنا، في صدق مع النفس، إن الكثيرين، في هذا الشرق، قد قبسوا من الثقافة الفرنسية، وكان لهم من ذلك نفع كبير، لأن حضارتنا المتفتحة أبداً على الحضارات، وثقافتنا المتفاعلة دائماً مع الثقافات، قد أفادتا من عطاءات الفكر الفرنسي، العلمي والإنساني، في شتى المجالات.

أقول إن الحضارة الفرنسية والثقافة الفرنسية، قد أفادتا بدورهما من عطاءات الحضارة والثقافة العربيتين في التاريخ، وهذا، كما يعلم الجميع، معروف ومعترف به، وعملية الأخذ والعطاء هذه، قد كانت عامل تطوير في حضارة وثقافة بلدينا، وفي توثيق عرى الصداقة والتفاهم بين شعبينا.

وإذ نستأنف الآن مسيرة التبادل الثقافي على النطاق الرسمي، فإننا لا نفعل ذلك من نقطة البداية، بل من منطلق ذي ماض عريق، نؤسس عليه، بالجهد المشترك، تعاوناً ثقافياً نريده متطوراً ومزدهراً باستمرار، لتنمية علاقات الصداقة القائمة بيننا.

إني سعيدة غاية السعادة بافتتاح المركز الثقافي الفرنسي في دمشق، وسيكون أصدقاؤنا الفرنسيون سعيدين أيضاً بافتتاح المركز الثقافي العربي قريباً في باريس، ونحن على ثقة أن المركز الثقافي الفرنسي في عاصمتنا دمشق، سيعمل كل ما في وسعه لتعريف شعبنا العربي السوري بأحدث وأفضل نشاطات الثقافة الفرنسية المضيئة، وسيكون من شأن هذا التعريف المتبادل أن يمتن علاقات المثقفين العرب والفرنسيين، وأن يزيد في حجم الأعمال الثقافية المتبادلة، وأن يعود بأفضل النتائج في هذا المجال.

السيد السفير، أيها الإخوة..

إنني باسم الثقافة، المنبر الرفيع لصوت الفكر والفن، وباسم التبادل الثقافي، الوسيلة المثلى لزيادة التفاعل الحضاري والتفاهم بين الأمم، افتتح هذا المركز، وأصنع من كلماتي باقة زهر أقدمها باسمي وباسم المثقفين في سورية، تحية للفكر والثقافة الفرنسيين اللذين يمثلهما هذا المركز، وأتمنى له أطيب توفيق وأحسن نجاح.

المكان الأمثل على جبهة الفكر(*)

أيها الزملاء، أيها الاخوة والأخوات

لو سئلت الريح، وهي تنفخ في شراع التاريخ، لتدفعه إلى أمام،
ولو سئل الشوق، وهو يضج في صدر الإنسان، توقاً إلى التغيير،
ولو سئل الماضي، من الذي، في نقلة الدهور، حمل شعلة المستقبل،

لأجابوا، بغير تردد: إنه ذاك الذي مدّ نار الثورة، في الطموح البكر، كي ينسج منها رداء العدل.. وذاك الذي أعطاها صوته، ليكون صوت الحقيقة، وصاغ وجدان الثائرين في نزوعهم العاصف إلى هدم ما كان سيئاً في القديم، وبناء ما كان سليماً في الجديد..

إنه صاحب الكلمة..
إذن فلتكبر الكلمة، حتى لا سواها أحق بالمجد،
وليكبر بها المكان والزمان، لأنهما من صنعها،

(*) في ذكرى تأسيس اتحاد الكتّاب العرب العاشرة عام ١٩٧٩.

وليكبر بها الكون، طبيعة ومجتمعاً، فمن وشيها كان برداهما،

وليكن اجتماعنا هذا، على اسم الكلمة ومبدعها، تحية لمؤسسة ضمت أصحاب الكلمات، فكانت لهم بيتاً، ووعاءً، ومنبراً، ونقابة، وحافظة للحقوق، ومدافعة عنها، وكانت اتحاداً وفر وسائل ممارسة الأدب لإعلاء شأن الأدب في الوطن العربي الكبير.

إن عقداً من الزمن قد مر على تأسيس اتحاد الكتاب العرب في القطر العربي السوري، ومع كل ما تحقق خلال هذا الزمن القصير، فإننا نعتبر السنوات الماضيات أعواماً تأسيسية، وضعنا فيها ركائز البناء، ثم أشدناه، وأقمنا في رحابه، بفضل التجربة، وبدافع التطوير، بعض أهم مقومات العمل، لا من ناحية جمع الأدباء بعد تفرق، وتعزيز المكانة الأدبية بقصد الإعلاء، بل من جهة خلق الوسائل المادية التي بها يستطيع الأديب أن يحقق ذاته، ضمانة، ونشراً، وحضوراً، ونشاطاً، وصلة بالأدباء العرب وأدباء العالم.

الآن يأتي دور الانطلاق، في نتاج الأدب الذي من أجله كان الاتحاد، وفي تجويد النتاج الذي به يتحقق الإبداع، وفي توسيع النشاط الذي يحمل العطاءات الأدبية إلى الجماهير، ويقيم الصلات معها، فيأخذ عنها باعتبارها المصدر، ويرد إليها بصفتها المآل، ويجعلها ترى في هذا الأدب صورتها وقضاياها ومشاكلها الوطنية والقومية، الاجتماعية والإنسانية، وتتذوق المتعة مقرونة بالمعرفة، وهما هدف كل إنتاج فني.

وكي يتحقق ذلك، ويأخذ مكانه على جبهة الفكر الكريمة، لا بدَّ من التمسك بأهداف الاتحاد، والعمل الدؤوب على تحققها في الإنتاج الأدبي، لا من خلال الشعارات، أو الافتعالات، أو الإسقاطات، بل من خلال الدلالة الفنية التي تنبع من قلب الحدث، وتؤدي في التعبير والتأثير دور وظيفته الاجتماعية التي تبني، فكرياً وخلقياً، الإنسان العربي الجديد والوطن العربي الجديد.

وحين أقول أهداف الاتحاد فأنا لا أعني سطوراً محددة، ولا خطوطاً جامدة، بل أعني القيم الفكرية والفنية التي تنبع من هذه الأهداف، وتجد لها في التعبير أدوات كثيرة، وأساليب متعددة، تغتني بالتنوع، وبالصدور عن الذات، قناعة وجدانية، والتزاماً ضميرياً، في جو من الحرية الضرورية للا بدَّاع، وفي جو من الديمقراطية التي لا يزدهر الأدب، ولا يتشكل الأدباء، ولا ينجح اتحادهم إلا بها، وبها وحدها.

لقد أصبح هذا القطر، بما أحاط به الرئيس حافظ الأسد الآداب والفنون من رعاية، مركزاً من مراكز الإشعاع الفكري، وفي وسع الأدباء أن يفيدوا من هذه الرعاية الكريمة في كل وجوه حركتهم الأدبية، فالذي حضن الفكر خلاقاً، سيبقى حاضناً لكل جهد إبداعي، ولكل نشاط يزيد في فعالية الكلمة ودورها.

إن الأدب لا يقبل الوسطية ولا الزيف، فإما أن يكون أدباً أو لا يكون، ونحن نياسر إلى أدب صحيح، معافى، على أعلى درجة من الفنية، وأعلى درجة من الأصالة، وأفضل شكل من الحداثة في أنبل

مضمون من الفكر، أدب يبحث عن الابتكار، عـن التجديـد، عـن التجويد، ويتصل بالتراث عن طريق أكرم عناصر التفكير البـشري فيه، وأكثرها تقدمية وإضافة إلى الزمن الآتي.

لقد كان الأدب في هذا القطر وطنيـاً وقوميـاً دائـماً، وتقـدمياً وإنسانياً دائماً، وكان الصوت الاجتماعي بكل ما فيه مـن أحاسـيس وصبوات وتطلعات إلى الغد الأفضل.

وفي هذه الظروف التي نجبه فيها هجمـة امبرياليـة صـهيونية ساداتية شرسة، يغـدو الأدب سـلاحاً حـاداً مـن أسـلحة المقاومـة والصمود والتصدي، وصوتاً نافذاً من أصوات اسـتنهاض الهمـم، وشحذ العزائم، وبث الحماسة، في سبيل وحدتنا العربية التـي هـي أعظم أهدافنا، وأشدها حقيقـة وثوريـة، وفي سـبيل تحريـر أرضـنا واستعادة حقوقنا وتقـدم مجتمعنـا، وترسـيخ أعـز قيمنـا الفكريـة والفنية.

إنني باسم وزارة الثقافة، أحيي الكتّاب العرب، بهذه المناسـبة السعيدة، وأتمنى للأدباء جميعاً مزيداً من التوفيق في الإنتاج الأصيل والعمل المثمر.

غاندي، المعلم والمكافح والقديس(*)

إذا ذكرت الهند الحديثة، ذكر المهاتما غاندي كأب روحي لها، وكمناضل دافع عن حقها في الاستقلال، وحقها في السيادة الوطنية، وحقها في بناء دولتها العصرية، بعيداً عن كل تبعية، وبعيداً عن كل نفوذ ينتقص من هذا الاستقلال وهذه السيادة.

إضافة إلى ذلك، فإن المهاتما غاندي كان رجل فكر، وصاحب رسالة، ومبشراً صلباً بأخلاقية تعلو على كل ما يجعل الإنسان عبداً للشهوات الدنيوية، ومطية لأغراض النفعية، والانصراف وراء متع الحياة وملذاتها العابرة، التي تستلب الروح، وتجردها من فضيلة الحق والخير.

وإذا كان قد نادى باللاعنف طريقة في النضال، وطريقاً إلى بلوغ العدل والسلام، وأسلوباً في الكفاح الوطني ضد الأجنبي المحتل، وضد استثماراته ونهبه وسيطرته، فإنه، في صيامه الاحتجاجي على الاستعمار، وفي دعوته لمقاطعة بضائعه، وفي ثباته

(*) أُلقيت هذه الكلمة في السفارة الهندية احتفالاً بعيد ميلاد الزعيم الكبير غاندي التاسع بعد المئة،عام ١٩٧٩.

على المقاومة ضد كل شرور التدخل الاستعماري، في شؤون الهند، إنما كان يلوذ باللاعنف الإيجابي الذي هو موقف في رفض ومقاومة الاستعمار، حتى إجلائه وتطهير الهند كلها من آثامه.

لقد كان، هو المعلم والمكافح والقديس، وهو الجسد الناحل من رقة وشفافية، وقدرة كبيرة على البذل والاحتمال، أستاذاً في تعليم الآخرين الصبر بكبرياء، وتقبل الألم في سبيل الارتفاع عنه، ومواجهة الشدائد بابتسامة تعلو على معنى الاستكانة، ولهذا كان جباراً في مواجهة الأعداء، وقائداً فذاً في مسيرة شعبه النضالية الطويلة، دون أن تلين له قناة، أو تفتر له همة، وبغير إشفاق على نفسه من تعب أو تضحية أو مواجهة، ودون نكوص في طلب الحق والعدل أو تعلو رايتهما.

إن الاحتفال بمولد إنسان عظيم، رائع، وقائد وطني بارع، وحكيم أعطى الكون من ألوان حكمته في غير ونى ولا اقتصاد، وفي سخاء وكرم ونبل وشجاعة، وفي سماحة الشهداء الذين لا يسألون عن بذلهم أجراً ولا حمداً، وإننا إذ نحتفل الليلة بهذا الابن البار بوطنه وبالإنسانية جمعاء، وبهذا المناضل الذي تقتبس جذوته، لما فيها من تألق وإشعاع، فإنما نحتفل بواحد من قادة العالم الذين تركوا وراءهم إرثاً باقياً.

وإنه لمن دواعي سرورنا أن نشارك الهند الصديقة احتفالاتها بميلاد المهاتما غاندي التاسع بعد المئة، وأن نغتنمها مناسبة للإشادة بالروابط المتينة التي تربطنا بالشعب الهندي الصديق، وبالعلاقات

الثقافية النامية بين بلدينا، وبالتعاون المتبـادل بـين حكومتينـا، وأن نسعى لتطوير هذه الروابط والعلاقات في سـبيل الـسلم والتفـاهم الدوليين.

تحية إلى روح غاندي، المعلم والقائد الفكري لشعبه، ولجميـع الشعوب الطامحة إلى حياة أفضل، ومستقبل أسعد، ينتفي منه الظلم والعدوان، وترفرف عليه راية الإخاء والتعاون والاحترام المتبادل.

الأندلس
من نفح الطيب (*)

تمهيد

الأمم فئات: فئة تكتب التاريخ وتقرؤه، وفئة تقرأ التاريخ ولا تكتبه، وفئة بين بين، أي أنها تكتب حيزاً من التاريخ، وتقرأ حيزاً منه أيضاً، وتلك هي سير الأمم الفتية، الطالعة على الدنيا، أو الطامحة إلى الدنيا، لأنها حديثة الوجود، فليس لها، من الدهر، وهو يعد بملايين السنين، سوى قرون، تبدأ بزمن اكتشافها، وهو قريب، لم تدوِّن فيه من الحضارة إلا صفحاتٍ قليلات، إذا ما قيست بغيرها من الأمم ذات التاريخ العريق، التي دونت مجلدات ومجلدات، ومنذ نشوئها، وتكونّها، وتطورها، وانطلاقها في العالم من حولها، بصرف النظر عن نوع هذا الانطلاق، وما إذا كان حرباً أو سلماً، أو كان انتشاراً حضارياً، أو أخذاً حضارياً، عادت هي، في تدرج

(*) مقدمة كتاب «الأندلس - من نفح الطيب» للمقري المتوفى سنة: ١٠٤١هـ - ١٦٣١م». دمشق، ١٩٩٠/١٠/٣١.

رقيها، فطورته، أو قل: خلقته خلقاً جديداً، غير مبتوت الجذور، لكنه تجاوزها بكثير، إذ نما نبتها الحضاري، في أرضها هي، بعد أن تلقح هذا النبت مستورداً، وصار نبتاً مستقراً، من ذات البيئة، وذات البنية، وذات النتاج المنتمي إلى أمة بعينها، أو بلد بعينه، في إعادة الإنتاج الذي يؤصّل الأشياء تأصيلاً ثابتاً.

فإذا كان التاريخ، حسب ابن خلدون، عمراناً، وهو كذلك حتماً، فإن الأمة العربية، بما شيدت من عمران، هي أمة كتبت التاريخ جيداً، وقرأته جيداً، وتشهد لها هذه الحضارات التي تنكشف عنها أرضنا كل يوم، والتي تعود إلى آلاف الأعوام قبل الميلاد، والتي بناها العرب في الدهور السحيقة، ومازالت، قبل الميلاد وبعده، شاهدةً على هذه الحضارة العربية الباذخة، التي يعرفها الآثاريون، وتحفظها الأسفار متناً وهامشاً، تدويناً وتحقيقاً، وتدرَّس في كتب التاريخ، في كل جامعات العالم، وقد ألف فيها المؤرخون والآثاريون، وما زالوا يؤلفون ويؤرخون، يضيفون ويصوِّبون، وفق أحدث المكتشفات الأثرية، ومنها في بلادنا أوغاريت وماري وإيبلا، وحضارة ما بين النهرين، والحضارة المصرية، وحضارة الأنباط، التي هي كلها، في متناول الجميع، بسببٍ من أنها، في القرن العشرين هذا، اغتنت وأغنت، وعن طريقها عرفنا الأبجدية المسمارية، العربية التي يرى العلماء أنها أم الأبجديات.

إنني ههنا، لا أدرس، ولا أتتبّع، ولا أحقق، إنما أريد أن أقول: إن علم العمران الخلدوني، هو علم الاجتماع الأوروبي، وإذا كان

فهم العالم، وفق الفلاسفة الاشتراكيين، وحتى غير الاشتراكيين، هو فن فهم الاقتصاد، فإن ابن خلدون، قد تقدم في هذا، وتخطى وسبق، فالعمران، في آخر المطاف، ليس سوى الاقتصاد، وهذا ما أراده، وما عناه، ابن خلدون، الذي أرسى قواعد العلوم الاجتماعية الحديثة، في وضع مبادئها الأولى على الأقل.

ولأن الأمة الإسبانية، كالأمة العربية، كتبت التاريخ وقرأته، وانبنت، في سيرورة حياتها، على العمران، ومنه حضارتها، ومنه إسهامها الثقافي، الممعن في القدم، والذي تشبعت به، وأخذته، وصدرته إلى أوروبا، وأمريكا اللاتينية - الإيبيرية - فكانت بذلك جسراً حضارياً، كما كانت في ذاتها موئلاً حضارياً، فإن الأحداث التاريخية والمؤثرات الثقافية، متشابكة، متداخلة، فاعلة ومنفعلة، بين الحضارتين: العربية والاسبانية، تستدعي منا دراسةً متكاملة، متواترة، متواصلة، ولهذا فإننا وجدنا ضرورة، بل ضرورة ماسة، لعقد ندوة، في مطلع كانون الأول ١٩٩٠ المقبل، في دمشق، تحت عنوان «الثقافة العربية - الاسبانية عبر التاريخ» دُعي إليها كبار العلماء العرب والإسبان والأجانب، ونحن نعد لها إعداداً حسناً، نأمل أن يكون مستوفياً، وفي التمهيد لهذا الإعداد، نصدر الكتيبات والكتب التي تتحدث عن الحضارة العربية في اسبانيا، وعن الصلات والعلاقات الثقافية العربية -الاسبانية المتبادلة، والمتفاعلة، تأثراً وتأثيراً، ومنها هذا الكتاب المهم الذي وضع أصله المقري، أبو العباس أحمد بن يحيى، التلمساني المولد، والذي نزل فاس والقاهرة

وغرناطة، ودمشق، وتنقل بينها، ثم عزم وهو في دمشق على وضع كتابه الشهير «نفحِ الطيِّب من غُصن الأندلسٍ الرطيب» استجابةَ عرفانٍ بفضلِ أدباء دمشق، وتلبية لطلب صديقه الأديب الدمشقي أحمد الشاهيني، إلّا أنه لم تتهيأ له أسباب ذلك.

وحين استقر في القاهرة، أرسل إليه صديقه الأديب الدمشقي مستبطئاً تأليف الكتاب المنتظر، فأخذ بإنجاز الوعد، ووضع كتابه ذاك، وأداره على قسمين، جاء قسمه الأول الذي خصه بأخبار الأندلس في خمسة أجزاء حفيلة، وعززها بخمسةٍ أخرى للقسم الثاني[1] الذي أفرده لسيرة ذي الوزارتين الأديب الشاعر المؤرخ الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب.

وإذا تذكرنا أن الوجود السياسي انحسر عن الأندلس في ريِّق القرن العاشر للهجرة، وأن المقَّريّ ولد في الربع الأخير منه، فهذا يعني أن صورة الأندلس إذ ذاك كانت ما تزال طرية حية نابضة في الفكر والذاكرة والرؤى والتصورات، تستثير الاهتمام والحب والتقدير، وعواطف أخرى كثيرة، وقد أرفدت عزم المقَّريّ المؤلف الذي أراد، بما يتحلى به من منهجية وحب للحقيقة، أن يستعين أيضاً بالمراجع والمظان المتوفرة، فعاد إليها يدرس ويقبس ويوثق ليكتب كل ما يمتع ويغني ويعرّف بالأندلس وأهلها، تاريخاً وثقافة

---

(١) هذه الأجزاء العشرة حسب النشرة التي صدرت في القاهرة بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد سنة: ١٩٤٩. وللنفح نشرة أخرى حديثة بتحقيق الدكتور إحسان عباس، صدرت في ثمانية أجزاء عن دار صادر في بيروت سنة ١٩٨٦.

وحضارة وعمراناً واجتماعـاً، ويقـدم مـا اسـتطاع وصـفاً مفـصلاً موسعاً لأمورها، والفتح العربي لها، والعمران الـذي أقـاموه فيهـا، والعلماء والأدباء والشعراء والمـؤرخين الـذين عاشـوا في بلاطاتهـا وقصورها، ونقلوا من المشرق، عبر المغرب، إلى الأندلس، كـلَّ، أو أكثر، نتاجات العرب العلميـة والفكريـة والأدبيـة والفنيـة، ومـن الأندلس انتقلت هذه الكنوز المعرفية إلى أوروبا كلها، على نحو مـا هو معروف، لكن انتقالها تم بعد أن أرست، في التربـة الأندلـسية، بذورها، فنمت هذه البذور وأينعـت فأورقـت وأثمـرت، وظلـت قائمة إلى اليوم، وظل التلاقح الثقافي العـربي-الاسـباني ذا حـضورٍ وفاعلية، في النتاجات العربية، والاسبانية معـاً، وذا قـدرةٍ إبداعيـة خلَّاقة، وتأثيرات متبادلة، جديرٌ بنا أن نعنى بها، وأن نعيد سـيرتها، ونطورها، وننشرها، وننظر فيها دراسة وبحثاً وتمحيصاً.

ولقد كان المتخصصون السوريون والعرب، في الثقافة العربية الأندلـسية، وفي الأدب العـربي الأندلـسي والموسـيقا العربيـة الأندلسية، وكل الفنون المتصلة بذلك، أولى، وأدرى منـي، بكتابـة هذه السطور في تقديم كتاب المقَّريّ الذي ننشر أخباراً مختـارة منـه، مرتبةً على نسق ونظامٍ جديدين، لولا أن مديرية نشر وإحياء التراث في وزارة الثقافة، رغبت أن أكتب كلمةً هي تمهيدٌ للكتاب لا مقدمةٌ لـه، لأن نفـح الطيـب المعـروف والمـشهور، بغنـىً عـن المقـدمات والتعاريف.. وهكذا استجبتُ لهذه الرغبة، واستعنت بـما تبقـى في الذاكرة من كتاب المقَّريّ، الذي طالعته منذ زمـنٍ غـير يـسير، كـي

أقول فيه كلماتٍ، هي دلالات، وإشارات، وسطور، ورؤوس أقلام لما تحتويه نشرتنا الجديدة من فصول بلغت ستة عشر فصلاً، تناولت مغاني الأندلس وموقعها وثرواتها وعجائبها وسكانها، وفتحها من قبل المسلمين، والقبائل العربية التي نزحت إليها، وأقاليمها، ودولها المتتالية، وحكمها، وإدارتها، ومجتمعها وثقافتها، وصناعاتها، وأعيانها، وأعلامها من النساء...الخ.

إن المَقَّريّ أبا العباس، الذي عدَّه الأدباء جاحظ العرب، هو جاحظه حقاً وصدقاً، قولاً وفعلاً، لأنه مثل الجاحظ أبي عثمان، انسياب أسلوب، وطلاوة حديث، وطلبة حقيقة، ودراسة تفصيلات، يريدها عياناً، وبياناً، واختباراً، وتقرّياً لها في مواطنها، ومظانّها، في الكتب والواقع، في المشاهدة والتجربة، في الرؤية والسماع، وفي الأخذ عن الثقات، حتى يبلغ الغاية، شأن الجاحظ عمرو بن بحر، في إتمام وإكمال العدة لموضوعه، يبلغ به شأوه، بعد أن بذل فيه كل جهدٍ مستطاع.

ويزيد في تثميننا لكتاب المَقَّريّ هذا، وتقديرنا له، وسعينا إلى نشر مختارات منه، ما كان للمقَّريّ في دمشق من أثر، وما تركت دمشق في نفسه من انطباع، فقد عَلِق أهل الشام وعلِقوه -حسب تعبيره- وأعجب بهم وبكرمهم وأريحتهم وشمائلهم وحسن وفادتهم، وسخاء ضيافتهم، لذلك فقد عني بأن يذكرهم في مطلع كتابه ذكراً حميداً، قائلاً: إن الفاتحين للأندلس، هم من أهل الشام

«ذوي النجدة والشوكة الحديدة»، وإن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين «اتخذوا بالشام وطناً مستأنفاً وحضرةً جديدةً» وإن غرناطة التي نزل بها أهل دمشق، وسموها باسمها، هي شبه دمشق في القصر والنهر والدوح والزهر والغوطة الفيحاء، وهذه كلها وشائج قوية العرى، شديدةٌ. وقد حفزتني -كما يقول- مغاني دمشق وفضائل أهلها على تأليف كتاب «نفح الطيّب» الذي هو بمثابة مسحٍ شاملٍ لكل ما في الأندلس من معالمَ وعوالمَ ومرئياتٍ ومؤثراتٍ ثقافيةٍ وعمرانية.

إن الكلمة في التدوين، هي تسجيلٌ صوتي على الورق، تماماً كما هي الحال في التسجيل على الأشرطة المرئية والمسموعة، وصوت المدون-الكاتب ينبعث ويبعث معه، أصوات الأقدمين من الأجداد والأسلاف، كيما يقصوا علينا، بألسنتهم التي تستنطقها الحروف، كل ما كان في زمانهم، وكل ما دار في خلدهم، من قصصٍ ورواياتٍ وخواطرَ، وكل ما اكتشفوه، في شتى فروع العلم والمعرفة، وفي ألوان الإبداع، من شعرٍ ونثر، وفي اللقى الأثرية، التي كان النقش عليها، رموزاً وصوراً هي، في آخر المطاف، كلمات ذات أصوات، رنّت عبر دهورهم فبلغت دهرنا، وعبر عصورهم فبلغت عصرنا، ومنها أخذنا ذاكرتنا التراثية، الذاكرة التي تبقى حية ما بقي التراث حياً، وفي إحياء التراث، بعد تحقيقه، حفظٌ له، وحفظٌ لذاكرتنا معه، وهذا ما نفعله، ونطمح إلى المزيد منه، في

منشوراتنا التراثية، وفي اكتشافاتنا الأثرية، وفي كتابة أنفسنا وأعمالنا ومشاعرنا كلماتٍ على الورق، أو تسجيلاً على الأشرطة، لأن أمةً دون تراث، أمةٌ دون ذاكرة، وهي في المآل إلى زوال، مهما بلغ شأوها الصناعي، ما دامت الصناعة تالية للحضارة، ومادامت الزراعة سابقة للصناعة، لكنها في تعاقب الأنظمة البشرية، ممهدةٌ لها، وتراكم العلوم، وفتوحاتها المدهشة في القرن العشرين هذا، واندفاعاتها في الابتكارات المذهلة، تعطي الدول الصناعية الكبرى أن تكون دول صناعة، مهما عظمت إنجازاتها، تظل تفتقر إلى ذاكرتها: تراثها، وهي به وحده، وبما ينضاف إليه من معطيات ثقافية، قادرة على إنشاء حضارة، بها تقاس العظمة، وبها، مع مرور القرون، يتشكل التراث الذي هو التاريخ، في أمجد صفحاته.

في ضوء هذا الوعي المعرفي، وفي ضوء التوجيهات التي يزودنا بها الرئيس القائد حافظ الأسد، ويبدي فيها حرصه، بل تشدده، في الحفاظ على التراث، وتحقيقه ونشره، وفي رعاية الثقافة وتوفير وسائل نهضتها، استطعنا أن ننهض ثقافياً، وأن نعيد إلى دمشق مركزها الفكري الإشعاعي، وإلى سورية مكانتها العلمية والأدبية والفنية، وما نشر هذه الاختيارات من «نفح الطيب» إلا بعض هذا الجهد في إحياء التراث والاستمرار في نشر سلسلة المختار منه، وما إقامة ندوة «الثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ» إلا بعض هذا الجهد في تعميم الثقافة، والكشف عن مؤثراتها في الوطن العربي،

وفي العالم من حولنـا، وتطـوير عمليـة إنتاجهـا، وإغنائهـا بالبـذل والدعم والعناية، وتبيان ما كان لها من معطى رحب المدى، عميـق الانغراس، في تربة البلاد التي طالها الفتح الإسـلامي، وفي المقدمـة الأندلس، حيث ازدهرت فيها الثقافة العربية ازدهاراً بالغاً ورائعـاً ما بقيت الثقافات.

هـذا هـو المـدخل الـذي أردتـه، أو قـل اسـتطعته، لكتـاب المختارات من «نفح الطيـب» وإني لأعـرف أن الطيـب، والمسك، والغالية، في الكتاب نفسه، لا في هذا التمهيد القصير اليسير له.

الزهراوي في كتابه (خديجة أمّ المؤمنين)(*)

مصلحٌ يردّ العرب إلى أنفسهم

كي يخوضوا معركة التحرر والوحدة

إن الإنسان ليجد نفسه في هذا الكتاب «خديجة أم المؤمنين» أمام الزهراوي العالم الناقد، وأمام الزهراوي الزعيم المصلح، وأمام الزهراوي الفيلسوف المفكر، وأمام الزهراوي الأديب المحلق والكاتب البليغ.

لقد تعددت مظاهر نبوغه في هذا الكتاب، وتعددت المجالات التي طرقها، بحيث يستطيع الدارس أن يرسم منه ملامح مؤلفه، وأن يخرج بكتاب مكتمل لو هو أراد، وهذا ما يجعلني أقتصر على بعض الجوانب التي يسمح بالحديث عنها الوقت القصير المحدد.

(*) أُلقيت هذه الكلمة في مؤتمر عقد في حمص عام ١٩٦١، أيام الوحدة بين سورية ومصر، ووقع الخيار علي للمشاركة فيه، وكنت آنذاك عضواً في لجنة النشر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وحضر هذا المؤتمر أيام الوحدة المغفور له يوسف السباعي، وعدد من كتّاب مصر المعروفين.

وأود في البدء أن أشير إلى أن هذا الكتاب أثر من آثار الوفاء.. وفاء الولد للأم، ودليل على إنسانية هذا الرجل الكبير، فقد ورد في مقدمته:

«كنت تفكرت في أن أكافئ والدتي بعض المكافأة فتبينت، بعد طول التفكر، أن عظيم فضلها علي هو أبعد من أن يوفى شيء من حقه، ولكن تراءى لي أنه يسرها أن أعلن للملأ فضل جنسها، وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس، ولم أجد أحسن طريقة إلى هذه الغاية الجليلة من شرح سيرة هذه السيدة التي هي إحدى جداتها، فمن عدد تلك الكلمات القليلة، التي تركها لنا المؤرخون، في ترجمة حال هذه السيدة، أؤلف هذه القصة الحقيقية، وإلى روح والدتي أرفعها هدية على راحة خشوعي وضعفي».

وإذا كان بعض الناس يكتب للكسب والشهرة، أو للتملق، أو لمجرد تسجيل الوقائع.. فقد كان الزهراوي فيما كتبه في «خديجة» صاحب رسالة جليلة، وهدف بيّن، وكانت شخصية الزعيم المصلح فيه تطالع القارئ قوية ظاهرة، خلال الصفحات والسطور.

لقد كان هدف الزهراوي فيما يبدو، بأيسر تأمل، إلى أمور منها: إنصاف العرب قبل البعثة، والكشف عن فضائلهم وعظيم استعدادهم، ودفع التهمة عنهم، وجلاء الحق في بعض المشكلات المتعلقة بهم،

ومنها: بيان صدق الرسول وتثبيت الإيمان بالرسالة، عن طريق الأدلة العقلية والنقلية.

ومنها: إظهار المكانة السامية للمرأة، والدعوة إلى توفيتها حقها، وتعليمها وتربيتها.

وقد اتسعت له كل الأغراض في كتابه، على شيء من التساهل، وكان الرابط بينها موضوع الكتاب، فقد تحدث عن العرب وقريش، لأنه أراد أن يضع صورة خديجة في إطارها الطبيعي، من قومها وقبيلتها. وتحدث عن محمد صلوات الله عليه لأنه الزوج الذي اختارته، ودخلت حياتها معه في طور جديد، وتحدث عن الإسلام لأنه الرسالة التي آمنت بها، وكان من كمال الحديث عنها أن يكشف عن أسباب الإيمان، وطريق اليقين، عندها وعند غيرها.

ولقد أحسّ وهو يعالج جلاء بعض الأمور، أنه ربما ابتعد بالقارئ عن سياق السيرة، ولكنه رضي بهذا، وقوى عزمه عليه - كما يقول- ظنه بأن الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته، قد يفيد القراء أكثر ممن يسرد الأخبار سرداً.

تكلم الزهراوي على العرب.. أصولهم وأنسابهم واختلاطهم بالأمم وتاريخهم وحضارتهم قبل الإسلام، وعلى مكة والحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية لقريش، وعلى الخصائص والفضائل والأحوال التي أعدتها وأعدت العرب معها لحمل رسالة الإسلام، بما لا يتسع المجال لعرضه ومناقشته، أو الإشارة الوافية إليه.. فقد كان من أول همه أن ينصفهم، ويدفع التهم عنهم، ويظهر أثرهم في إبراز شخصية كخديجة. وقد فند

دعاوى أولئك الذين ينكرون أن يكون للعرب تاريخ معـروف، أو حضارة قديمة، وكشف عـما امتـازوا بـه مـن الـشجاعة والـسماحة والحكمة والبيان، وسائر الفـضائل، وطالـب القـارئ ألا ينظـر إلى صغر شأن ذلك المجتمع إذا قـورن بـبلاد الحـضارة، فـإن الفـضل الإنساني - كما يقول - «لا يتوقف على زخرف البيوت وكثرة الدور في البلد الواحد» وأقام من سمو صـفات خديجـة دلـيلاً عـلى رقـي قومها، وسمو مداركهم وطباعهم.

ولم تكن عين العالم المؤرخ الناقد التي نظر بها الزهراوي كليلة عن العيوب، فقد أبصر بها أيضاً مساوئ الجاهليـة، وحكـم عليهـا حكماً شديداً..

لقد أرانا بعض ما يؤخذ على العرب، وما يوجد في عقائـدهم الوثنية من إسفاف، وقال لنا عنهم، في معرض ذلـك، أشـباه هـذه الكلمات «تاهوا فتركـوا هـا هنـا العقـل والتفكّـر، وقلـدوا الأمـم واتخذوا من الحجارة أوثاناً». أخطأوا بزعمهم، وحـادوا عـن الحـق بتخيلهم، «غلطوا في كل هذا وسفلت فيه عقولهم».

إلا أن الزهراوي كان ينفذ دائماً من وراء العرض إلى الجـوهر، ويلمس في العـرب اسـتعدادهم العظـيم للتقـدم والرقـي، عنـدما يتصلون بالحق الخالد، ويتضح لهم المنهج السوي، وقد كـان ذلـك عندما حمل إليهم محمد رسالة الإسلام، فكشف لهـم الغايـة المـثلى، وبلغهم الشرعة الأقـوم، وفجـر الطاقـة العظمـى المختزنـة فـيهم، واستثمر الاسـتعداد المـستكن عنـدهم، فانطلقـت كتـائبهم تحمـل

للناس رسالة الله، تفتح لها القلوب بالإيمان، وتدك أمامها المعاقل بالسيوف، فكان الفتحان العظيمان، فتح الهداية وفتح السلام، وكانت الوثبة الكبرى التي دهش لها التاريخ، وتبدلت بها الأرض، وأخذت الدولة العتيدة دولة الإسلام مكانها الراسخ من صدر العالم.

* * *

وتكلم الزهراوي على محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى حظ العرب أن اختاره الله منهم، وعن مولده ونشأته، وإرهاصات نبوته، وزواجه بالسيدة خديجة، ثم تكلم على العمل الروحي وعلى السؤال الخالد:

- ما نحن؟

وعلى بدء الوحي، وعلى دلالة العقل والنقل على صدق الرسالة، وعلى الإيمان والآيات وخوارق العادات، فكان كلامه في ذلك كلام المؤمن بقلبه وعقله، ومزيجاً من منطق العالم المتصل بمعارف عصره، وتأملات الفيلسوف المنطلق بروحه وفكره، ومناجاة المشتاق، وصلوات العابد.. وأخشى أن أغوص معكم في ذلك البحر فلا أستطيع إتمام الحديث، وحسبنا الآن هذه الوقفة العابرة على الساحل، من بعيد.

* * *

أما المرأة وأما خديجة فقد تحدث عنها حديثاً يملأ النفس اعتزازاً، ويهزها طرباً، وتكلم على المرأة وعلى مقامها الرفيع عند العرب، وعدّد الأمثلة الرائعة..

وتكلم على خديجة وعلى منزلتها السامقة وفضائلها العقلية والنفسية، واستعدادها الطيب، وتربيتها الحسنة.

وتكلم على إعجابها بمحمد وزواجها منه، وحياتها الجديدة معه، وعلى إيمانها بما نزل عليه، واستدلالها على رسالته، وتشجيعها إياه على المضي في صدق نبوته، ومؤازرتها له في متابعة سبيله.

وما أروع ما عرض علينا من صور، وما أعظم ما كشف لنا من معنى.. لقد أعجبها من محمد فضائله، فرغبت في أن تربط حياتها بحياته، وتصل طريقها بطريقه.. ولقد وقفت بجواره تهيء له أسباب التأمل، وتمهد له السبيل إلى الغار، وترقب بأشد لهفة خطواته الموغلة لاستجلاء الحق.

وصعد محمد مرة إلى الغار رجلاً، وهبط من الغار رجلاً نبياً، نزل عليه الوحي بالقرآن الكريم.. أنزل الله روحاً يحيي، ونوراً يهدي، وصرطاً مستقيماً للسالكين.. ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور**﴾.

ورجع محمد إلى خديجة وحدثها بما جرى، وقال لها: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت له القولة العظيمة الخالدة «كلا والله ما يخزيك الله أبداً.. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة..».

ألا ما أروع إيمان هذه المرأة بالحق والفضيلة، وبالخير وبالعاقبة الحسنة لهذه الأمور، وما أشد أملها في القوة الكبرى المهيمنة على الكون.. وما أعظم ثقتها بالإنسان وبأهليته لحمل رسالة الله.

وسارت الزوجة المؤمنة مع الزوج العظيم في طريق الدعوة، فكانت له الصدر الحنون، والخل المواسي، والصاحب المعين، تقاسمه البلاء في الدرب الصعب المضني لإبلاغ الرسالة، وإعلاء كلمة الله في الأرض.. ومرت على ذلك عشر سنوات وتهدم كيان خديجة المادي، وماتت قبل أن تكحل العين بمشرق النصر، أو تقطف ثمرة الجهد.

لقد كان جهادها للحق خالصاً، وكان صبرها على الشدة عظيماً، وضحت بالنعيم المادي في الحياة، لا تريد ثواباً على ذلك إلا من الله، ووقف الزهراوي عند هذه الخاتمة الموحية، يناجي القلم الذي سجل السيرة الخالدة بهذه الكلمات: «قف أيها القلم خاشعاً، لقد ماتت من تركت للفضائل حياة لا تفنى، لقد انتهى هذا العمر الذي أمدك بهذه المواد السامية، ولن تجد لك أيها القلم شرفاً بعد هذه السيرة إلا إذا سرت بنقل التاريخ المحمدي..»

«لقد مرت روح سيدتنا خديجة بهذه الدار، فرأينا منها ما نقلناه للقارئ، والآن هي لدى المحيط الواسع، فهل تتجلى اليوم على هذا العالم الذي مرت به، وترى أن تلك الكلمة التي قاست في سبيلها مع بعلها الكريم ما قاست، قد أعلاها الله تعالى، وعظم شأنها، ونصرها العرب وغير العرب، وأصبحت برور الأرض وبحورها

مملوءة، كل هذه العصور إلى يومنا هذا، بمن يقول من جميع أجناس البشر: لا إله إلا الله محمد رسول الله».

لقد قدم الزهراوي لنا من خديجة صورة واضحة، عن اثر التربية في تكوين المرأة، وعن مدى ما يمكن أن تبلغ من السمو، ويجري على يدها من النفع، وذلك ليقنع الناس برد حقوقها المشروعة، والعناية بتعليمها وترقيتها، وقد كان هذا أهم أهدافه، كما قدمت، وقد نص عليه صراحة في مقدمة الكتاب فقال: ومن راقه هذا المؤلف الصغير، وحصلت له به لذة وفائدة، فلي حق أن أرجوه شيئاً، ولا أرجوه إلا مساعداً في إقامة حقوق المرأة وكرامتها وآدابها.. إن النساء أمهاتنا معشر الرجال وعلى حسب بيتهن نكون: فنطلب من محيطنا أن يهذب بالعلم الأمهات، ويسعى لترقية مداركهن وآدابهن».

قلت لكم أول هذا الكلام: إن الإنسان ليجد نفسه في هذا الكتاب أمام الزهراوي العالم، وأمام الزهراوي الزعيم المصلح، وأمام الزهراوي المفكر، وأمام الزهراوي الأديب المحلق، والكاتب البليغ.

فهو يدعو في كتابه إلى الاعتماد على الحقائق وحدها، وإلى طرح الأساطير، ولا يعول على شيء غير معروف بالطرق العلمية، ولا يغتر بالمشهور، ولا يقف عند ظواهر الحوادث، بل يبحث عن الأسرار والعلل، ويناقش الأمور في ضوء المعرفة والخبرة والمنطق، ويورد الاحتمالات المختلفة التي قد ترد على الذهن. أما الفيلسوف

والمصلح والأديب فلن يتعب السامعون في الوصـول إليـه، خـلال صفحات الكتاب، ولو كان يتسع لي الوقت لأسـمعتهم كثـيراً مـن الشواهد.

وفي الكتاب بعد ذلك فـصول بديعـة لم أشر إليهـا، ومزايـا لم أتمكن مـن ذكرهـا، إلا أننـي أحـب أن أقـول رعايـة للحقيقـة، إن الإنسان ربما اختلف مـع مؤلـف خديجـة في حادثـة أو رأي، وربـما لاحـظ أحيانـاً أن خيـال الأديـب يغلـب دقـة العـالم، أو يتجـاوز النصوص، ويقدم مادة قوامها التصور لا الخبرة.. ولكنني لا أتناول هذه التفضيلات وإنما أشير إلى الخطوط العريضة.

ولا بدَّ لنا إذا أردنا أن ندرك القيمة الحقيقيـة للكتـاب مـن أن نضعه في زمانه ومكانه، فالكتاب قد نشر في مصر والبلاد والعربيـة مفرقاً في مجلة المنار، ثم مجموعاً على حدة قبل أكثر من نصف قـرن: أي في المرحلة التي يحتاج فيها العرب أشد مـا يحتـاجون إلى تعـرف حقيقتهم، وإلى الشعور بذاتهم، والثقـة بأنفـسهم، لخـوض معركـة التحرر والوحدة، وفي الوقت الـذي كـانوا يفتقـرون فيـه إلى الثقـة بعقائدهم وقيمهم، والصمود أمام الغزو الغربي العقيدي والفكري والاجتماعي، وفي الزمن الـذي كـان يغلـب فيـه الجهـل والجمـود والتقاليد التي تحرم المرأة حقها الذي منحه الله، وتحول بينهـا وبـين العلم الذي يمكنها من خدمة المجتمع وأداء دورها كـأم، قـام هـذا المفكر والمصلح الكبير يرد العرب إلى أنفسهم، ويمزق لهم الحجـب التي سدلها الجهل والغرض عـلى حقيقـة تـاريخهم، ويـوجههم إلى

الطريقة المثلى في البحث، ويبعث فيهم روح العلم والنقد الهادف، للتمييز بين الصحيح والزائف، ويحطم الأغلال التي تقيد المجتمع، ويعمل لبناء الأمة من جديد، برد كرامة المرأة للمرأة، وتسليحها بالمعرفة والوعي.

وإن الإنسان الذي يقرأ الزهراوي ليشعر أعمق الشعور بأصالة أفكاره في هذه الأمور، فهي حصيلة طبيعية لمقدماتها عنده.

وإذا كان من الكتاب، في بعض الأحيان، من يترك رأياً ويأخذ رأياً، كما يخلع ثوباً ويلبس ثوباً، على حسب الظروف، وتقلب المصالح والأزياء، فإننا نجد في الزهراوي الكاتب الذي ترتبط أفكاره به ارتباطاً أصيلاً، والمصلح الذي يقدم الرأي ثم يقدم بجانبه الحياة.. ألا ما أحوجنا إلى الكتّاب الأحرار.

وثمة سؤال: هل استنفد كتاب خديجة أغراضه الآن، وغدت قيمته تاريخية محضة، واصبح مكانه الطبيعي على الرف، وهل انتهت الحاجة إلى الزهراوي فلم يعد إلا أن نلفه بأكفان المجد، ونودعه في إحدى زوايا التاريخ؟

كلا..

إن الحاجة مازالت قائمة، وإن الأهداف التي سعى إليها ما زالت جديرة بالسعي، بعد أن أدى واجبه في العصر الذي عاش فيه، حسب مقتضيات عصرنا وممكناته ووسائله.. فليس ثمة ما هو أشد مما يستهدف عقائدنا وقيمنا وتراثنا وكياننا الآن..

وبعد..

فنحن هنا للإشادة بالزهراوي المفكر الأديب، وأسأل نفسي أليس في وقوف المرأة في هذا الحفل للتنويه بكتاب خديجة شهادة لآرائه، والاعتراف بفضله؟

إنني أجد نفسي وقد اعتليت هذا المنبر ملزمة بأن أعلن شكر جيلنا لجميل الرائد الكبير الذي اقتطفنا من ثمر كفاحه وجهده، فنحن لا ننسى يد من تقدمنا، ولا يتنكر لماضينا حاضرنا، ولا نترك العمل الدائب للمستقبل.

أهمية الصحافة بالنسبة للثقافة

هذا العنوان: «أهمية الصحافة بالنسبة للثقافة» خليق بأن يكون عنوان محاضرة أو دراسة، ولست الآن في صدد أي منهما، لذلك أستشعر حاجة إلى التكثيف، بل إلى التكثيف الشديد، في الكلام على هذا السؤال المركز الذي يختصر في كلماته الأربع، دنيا من القول، بسبب من أن الصحافة، بما هي سلطة رابعة، ذات أهمية استثنائية، سواء بالنسبة إلى الثقافة، أو إلى الحياة بكل شمولية أبعادها. وفي رأيي أن الثقافة، بما هي نتاج ذهن وسلوك ويد صناع، تتكامل مع الصحافة، وإن كانت تسبقها تأثيراً في تشكل الوعي الذي هو قوام نهوض المجتمع، وكل دلالة، في كل فروع العلم والأدب والفن، عن هذا المجتمع تصدر وإليه تعود، باعتبار أن البنية الاجتماعية، في كل مراحل التاريخ، هي العمران الذي تحدث عنه ابن خلدون في مقدمته الرائعة، وبنى عليه استنتاجاته التي كانت في زمنها، ولا تزال، أحد الكشوف الباهرة في علم الاجتماع.

إن الصحافة والثقافة متلازمتان، كل منهما تأخذ من الأخرى وتعطي، فما دامت الثقافة وحدة معرفية، فلا بدَّ لها من دائرة لا حدّ

لاتساعها، ولا بد لهذه الدائرة من أن تستكمل دورتها، أعني أن المعادلة الثقافية معطى جدلي، فنحن ننتج الثقافة تلقائياً وقصدياً، في الحالة الأولى تكون إنتاجية الثقافة عفوية، وفي الثانية إنتاجية واعية، ولم يعد، أو لن يعود للعفوية شأن يذكر، في هذا التطور المذهل لعصرنا والعصور المقبلة، لذلك فإن العملية الثقافية تصبح تخطيطية، مبرمجة، ذات أهداف دقيقة، محددة، في كل فروع العلوم الاقتصادية والفلسفية والإنسانية، تلبية للطلب المتزايد، من كل الفئات، ومن كل الأنحاء، ريفية وحضرية، وفي كل بلد بذاته، على الغذاء الثقافي الذي غدا ضرورة بالنسبة للعقول التي تتطلع، لا إلى فهم وتفسير ما يجري حولها وفي محيطها فحسب، بل إلى تمثل وتغيير هذا الذي يجري نحو الأفضل أيضاً، كي تستطيع مسيرة الوطن والشعب، أن تواكب الشوط الحضاري، أو تبلغ حدّ تقصير المسافة بين من هم في المتقدمين والمتأخرين تقنياً، في هذا الشوط الذي يتوثب في قفزات مدهشة.

أعود إلى السؤال لأقول إن إنتاج العملية الثقافية هو طرف المعادلة، ولا تكتمل هذه المعادلة إلا بطرفها الآخر، وهو نشر هذا الحجم الثقافي الذي أنتجناه، وهنا يأتي دور الصحافة من حيث أهمية الأثر والخطر. ذلك أن الصحافة هي وسيلة نشر الثقافة، وهي الوسيلة الأكثر اتساعاً، والأشد سرعة، والأعمق تأثيراً، وكل ممارسة في المجال الدستوري أو الحقوقي أو المعرفي بعامة، تحتاج إلى وسائلها ومقوماتها، من المدرسة إلى الجامعة إلى الكتاب، إلى

الحريات العامة، وتالياً إلى كل فنون العطاء الذهني واليدوي، فدون توفر وسيلة الممارسة، تبقى الإنتاجية، بكل خصوصياتها، وكل معطياتها، كتلة جامدة، ليس في وسع أحد أن يستفيد منها، ما لم تصل إليه بشكل من الأشكال. وفي الموضوع الذي نحن فيه، فإن مقولة ثقافة - صحافة، مقولة متكاملة وصحيحة التراتبية، فمنذ نشوء المطبعة، في القرن السادس عشر أو قبله، لعبت المنشورة دوراً مهماً وأساسياً في نشر الثقافة، وكان الأدب أحد تجلياتها، ومنذ عرف الإنسان الكتابة والقراءة، كان النقش على الحجر أو الرق أو البردي، ذا أثر حاسم في تدوين الشرائع والوثائق والعقود والقوانين والأشعار والأغاني، ولم يقتصر دور هذا النقش، أو هذا الخط، في حفظ ما هو مخطوط من الضياع، بل أدى إلى انتشاره، وأدى هذا الانتشار إلى الوعي فالمعرفة فالتقدم، جيلاً بعد جيل، ومنذ العهود السحيقة إلى يومنا هذا، وها هي الأبجدية الأوغاريتية شهادتنا، كما هي أحد إبداعاتنا الحضارية الباذخة والماجدة معاً.

ولقد كنت أحسب أن الكلام على أهمية الصحافة بالنسبة للثقافة، لغة قديمة، عرفناها وحفظناها ووعيناها وعياً كاملاً، وكنت أعد القول فيها نافلاً، لو لا أن لهذه الأطروحة جانباً يحسن بنا التوقف عنده، فنحن ننتج، بواسطة المثقفين، الثقافة التي نريد، والصحافة تعممها، وهذا التعميم يؤدي إلى خلق مثقفين، يسهمون، بدورهم، حين ينضجون، في الإنتاج الثقافي، وهذه هي الدورة الجدلية التي عنيتها أول هذا الكلام، لكن المسألة تبقى هي

الآتية: أي ثقافة ننتج، وأي صحافة تنشر هذه الثقافة، وتكون حاملها الأصيل والقادر؟

صحيح، بل مؤكد، أننا ننتج ثقافة وطنية قومية تقدمية إنسانية، وتقوم صحافتنا بنشر أكثر إنتاجنا الثقافي، وإني لأعرف من قراءاتي في الصحف العربية، أن الصحافة في سورية، تنشر أكثر نصوص المحاضرات والكلمات، في شتى فنون المعرفة، أو تقدم عنها تلخيصاً وافياً، وتغطي تغطية جيدة المهرجانات الثقافية وأبحاث ندواتها، مما لا نجده في صحف عربية كبرى، ذات ميزات كثيرة، من حيث عدد الصفحات وسعة الانتشار وكثرة الرواج، غير أنني ألاحظ، أن في بعض صحفنا، تقديماً غير مشوق للمادة الثقافية، ونشراً غير مدروس للمادة المنشورة، فذريعة التشجيع لا ينبغي أن تستر هزال وسطحية الذين نريد أن نشجعهم، والأدباء الشباب الواعدون لهم الحق في أن نأخذ بيدهم، كما أخذ الذين سبقونا بيدنا، إلا أن بين هذا الذي يسمى أدب الشباب مواد غير واعدة، تنشر وتنشر، فلا هي إلى تطور ولا هي إلى توقف، مما جعل الغث يطغى على السمين، إضافة إلى أن بعض مجلاتنا، ومنها بعض مجلات وزارة الثقافة أيضاً، تعتمد على ما يردها في البريد، وهذا ليس في صالح النشر الثقافي، سواء في الصحف أو المجلات، لأن بعض محرري هذه المجلات والصحف تنقصهم الهمة إلى المبادرة بطرح محاور ثقافية، فكرية وأدبية، للنقاش، ومع أن ما يدفع للكتّاب في هذه الدوريات من مكافآت لا يكاد يذكر، قياساً إلى ما

يدفع من قبل صحف ومجلات عربية تصدر في الوطن العربي وخارجه، وخاصة خارجه، إلا أن التقصير في التحرير الثقافي عندنا أحياناً ينبغي ألا يرفع بينه وبين منتقديه ستارة خيشية لإخفاء الحقيقة التي لا يجهلها أحد.

إن عندنا مبدعين كباراً، شهد لهم الوطن العربي كله، وبعض العالم أيضاً، فعلام يعزف هؤلاء عن النشر في صحفنا، وهم يؤكدون حرصهم الدائم على الإسهام في تطوير المادة الثقافية في هذه الصحف، حتى لو كانت المكافأة التي تدفع لهم لا تذكر أمام مكافآت الصحف والمجلات العربية، في بعض بلدان هذا الوطن وخارجه، وخاصة خارجه؟

لقد أتيحت فرص لهؤلاء المبدعين للنشر في دورياتنا، فأقبلوا مندفعين بالشعور الوطني والقومي، وبإيثار للثقافة بعيد المدى، لكن صحافتنا لم تحسن، كما يخيل إلي، التعامل معهم، لأن هذه الصحافة تحتاج كما يقال، إلى المادة الثقافية المتنوعة، الخفيفة، لأن «معدتها» لا تهضم دسامة المقالات الفكرية والأدبية التي تطرح مواضيعها الجادة بشكل مطول، قد يستغرق أكثر الصفحة، كما هي الحال في صحف كثيرة شهيرة، عربية وعالمية.

وإذا كان أكثر القراء، في حديثهم عن التوجيه الثقافي عبر الصحافة، يرون بطئاً وانخفاضاً للمستوى المطلوب، ويعبرون لذلك عن عدم الرضى، فإن من حقهم علينا أن نتعامل مع وجهات نظرهم، ومساءلتهم الدائمة حول هذا الموضوع، تعاملاً فيه اعتراف

بشرعية أسئلتهم، وصولاً إلى أجوبة مقنعة، لا من خلال الردود، بل من خلال إزالة ما يشكون، وتجديد أنفسنا ثقافياً ونشرياً في آن، وبذلك نستطيع تغطية المساحة المخصصة في دورياتنا للشأن الثقافي، تغطية جيدة من حيث النوع لا الكم.

إن كلامي هذا ينصب على الشأن الثقافي والصحافي معاً، فقد كنت من أسرة الصحافة وأنا طالبة على مقعد الدراسة في جامعة دمشق، وبعد عودتي من أوروبا، ومنذ أكثر من عشرين عاماً، لم أنقطع عن النشر في صحافتنا، سواء في الأدب والنقد والسياسة والفنون الأخرى، وما برحت أفعل هذا، رغم وفرة المشاغل وضيق الوقت.

أعرف أن هذه المصارحة، أو شيئاً منها، قد لا تلقى ما أحب لها من سعة الصدور، لكن «صديقك من صدقك لا من صدّقك» وكل طرح قابل للنقاش، وللحوار الديموقراطي المفتوح والبنّاء، الذي نحن بأمس الحاجة إليه.

العمل الأرشيفي صار ضرورة قصوى

في عصر العلم والوثيقة (*)

كل عمل متقن هو عمل فني، فالإتقان، في أقصى تعريف لـه، هو التجويد، الصياغة، بذل الجهد الإنساني الـصادق، في أي عمـل نحن الذين نخلع عليه من حياتنا حياة، ومن نبضنا نبضاً حين نفعله بحب، بشغف، بتواصل روحي، ونعطيه دفئاً من مشاعرنا.

والعمل الثقافي، من بـين سـائر الأعـمال، لـه ناحيتـه الجماليـة الخاصة، لأنه نتاج عقل وقلب، نتاج دماغ ويـد، يتـصل، مبـاشرة، بعواطف وأحاسيس من يزاوله، مهما يكن الفرع الثقافي الـذي إليـه ينتمي، مادام الإنسان، منتج الثقافة، هو الكائن الأكثـر قـدرة عـلى التعبير عن نفسه، بلمسات إبداعية، حتى في المجالات التي يحـسب الناس أن لا إبداع فيها، لأنها تدوينية، تصفيفية، وعمليـة تنظيميـة بالدرجة الأولى، غاية الجهد الإنساني فيها أن يرتب الأشـياء ترتيبـاً دقيقـاً، وفـق نظـام خـاص، يظـن، لأول وهلـة، أنـه دأب عقـل،

(*) في افتتاح ندوة العمل الأرشيفي عام ١٩٨٦.

لا شرارة عاطفة، لا شرارة عاطفة، مع ان العاطفة لا تنفصل عن الذهن، ولا تستمد حرارتها إلا منه.

ما أريد قوله هو أن العمل الأرشيفي عمل ثقافي، ولأنه كذلك فهو إبداعي، لا نجيده إلا بمقدار ما نعطيه من ذاتنا، محبة وتواصلاً وإخلاصاً، وبمقدار ما نؤمن أنه عمل ضروري ونافع، على إتقانه يتوقف إنجاز أعمالنا الأخرى.

وأنتم تعرفون، كما أعرف، وبإحاطة أكبر ولا شك، أنه في عصر العلم، والتكنولوجيا، والوثيقة، يصبح العمل الأرشيفي ضرورة قصوى، ويأخذ مكانه الخاص، المتميز، بين أعمالنا الثقافية، لارتباطه بكل مجالات البحث، والدراسة، والتحقيق، وصيرورته معيناً يمدنا بالمعلومات المطلوبة، بأقصى سرعة وأفضل شكل من التوثيق الذي أصبح لا غنى عنه في البرهنة على صحة الأشياء التي نتصدى لمعالجتها.

من هنا فإن قيمة الأرشفة تكتسب أهميتها الخاصة، وتغدو علماً قائماً بذاته، لا يمكن، دونه، أن تنتظم الحياة، في سياق بحثنا عن المعلومات، وتخزينها في الذاكرة الالكترونية، أو حفظها في المصنفات إلى حين الحاجة إليها.

ويسعدني اليوم، أن أفتتح في دمشق، عاصمة الصمود العربي، وقلعة التصدي النضالي، هذه الندوة التي تنعقد تحت عنوان شامل، هو «تطور العمل الأرشيفي في البلاد العربية»، وأن أرحب ترحيباً

قلبياً حاراً بالسادة المنتدين، الذين يتصدون لمهمة جليلة، بما لها من أثر في تيسير التحقيق العلمي والفني، وبما تساعف في البحوث التي غدت أساسية في وقت نقف فيه على عتبة مرحلة جديدة، هي مفتتح عصر علمي، بالنسبة للبشرية بعامة، وبالنسبة لنا، في الوطن العربي بخاصة، حيث نواجه، مواجهة حادة، تحديات العصر، ونعمل جاهدين لمواكبة منجزاته، واللحاق بموكبه، واكتساب كل المهارات الفنية، والتقنية، الضرورية لتبوؤ مكانتنا المشرفة فيه، ودخول مباراة التقدم من منطلق صحيح، يتيح لنا أن نسابق، وننافس، ونحقق النقلة بين قرننا العشرين هذا، والقرن الواحد والعشرين الذي يطرق أبواب التاريخ، والذي لا ينفع فيه سوى العلم، والخبرات التكنولوجية التي تصبح، مع الأيام، مفتاح الشوط الحضاري الذي علينا بلوغه، وتقديم إسهامنا فيه.

واسمحوا لي أن أشير، بتواضع تتطلبه الأمانة العلمية، إلى أن العمل الأرشيفي، بالنسبة للوطن العربي، عمل جديد، ينبغي أن يتأسس على قاعدة ثابتة من الفهم النظري والتطبيقي، لا يمكن بلوغها دون ندوات خاصة بالأرشفة، قائمة على الدراسة الجادة، والبحث الموثق، والاطلاع على المنجزات المتحققة في هذا الميدان، لتكون محصلة الندوة دافعة للعمل الأرشيفي دفعاً قوياً، من خلال معرفة ما عندنا، وما نحتاج إليه، وما بلغته الأمم الأخرى من شأو في ميدان علم الأرشفة، الذي أصبحت له قواعد وضوابط وأصول، مرتكزة على أحدث النظريات العلمية.

ومن إلقاء نظرة أولية على جدول الأعمال، وما فيه من محاضرات قيمة، وما ستجلبونه لنا من أوضاع العمل الأرشيفي في البلاد العربية، يمكن أن نقدر أهمية هذه الندوة، في توفير الكشف، والخبرة، والرأي، وتبادل التجارب، لتكون النتائج التي تسفر عنها حافزاً لنا في عملنا الأرشيفي، الذي أصبحت الحاجة إليه تفوق كل حاجة أخرى، لأنه عمل يتوقف عليه، في مستقبل أجيالنا، الكثير من إمكان التوثيق.

ولا حاجة بي إلى التذكير بالوضع العربي الراهن، وما نواجه من مصاعب، في كفاحنا العنيد لتحرير أراضينا، واسترداد حقوقنا، وما نلاقيه من عنت السير، بسبب التحديات العدوة، واشتداد المطامع الاستيطانية التوسعية لإسرائيل، والهجمة الامبريالية الشرسة التي نقف لها بالمرصاد، ونحول دون نجاحها في الهيمنة على منطقتنا العربية، ونعمل لإحباطها ودحرها، وعدتنا في ذلك إيماننا بعدالة قضيتنا، وثقتنا بقدراتنا، وعملنا المتواصل لموازنة ميزاننا الاستراتيجي، وسعينا لامتلاك التكنولوجيا التي بها وحدها، وبالعلم الذي تتأسس عليه، يمكننا أن نواجه التحديات الحضارية التي تفرض نفسها علينا، ولا بدَّ لنا، في بلوغ ذلك، من أن نتقن علوم العصر، ومنها علم الأرشفة هذا، ولا بدَّ لنا، أيضاً، من التذكير بالنهضة الشاملة، التي عرفتها سورية، في عهد الحركة التصحيحية المباركة، حيث تتكامل جوانب هذه النهضة، في اتساق تام، يشمل كل المجالات، ومنها المجال الثقافي، الذي يرعاه السيد

الرئيس حافظ الأسد، ويدعمه، ويوليه عنايته الكريمة الفائقـة، لما للثقافة من دور كبير في التنمية ونشر الوعي وبسط المعرفـة، وتهيئـة الكوادر تهيئة علمية، تؤهلها لإنجاز مهمتها في البناء والتحرير، وفي امتلاك الأهلية للتعامل مع الآلة بجدارة، واستيعاب العلوم جميعاً، ومنها علم الأرشفة.

إن العمل الأرشيفي، الذي تعرفون أنتم أهـل الاختـصاص، مقدار فائدته لنا في نهضتنا الحديثة، يصبح اليوم على درجة فائقة من الأهمية، وتصبح، انطلاقاً مـن ذلـك، نـدوتكم هـذه عـلى الدرجـة نفسها من الأهمية، وإني لأرجو لها النجاح الكامل، ولكـم التوفيـق التام.

نهرو العظيم (*)

أن تقول جواهر لال نهرو فكأنك تقول الهند. ذلك أن نهرو الذي أكمل مهمة غاندي، هو الذي أسقط التاج الوهمي عن رأس نائب الملك، الذي كان ملكاً يحكم باسم الاستعمار البريطاني، ويتقلد صولجانه، في بلد يشبه القارة، مساحة وسكاناً، انبثق، بعد الاستقلال، مارداً كما في الأسطورة، فكانت الهند المستقلة، السيدة، ذات المكانة المرموقة، والكلمة المسموعة، في آسيا كلها، بما لها من شأن يتساوى وشأن بعض الدول الكبرى، ويزيد هيبة، وحضارة، وجدارة سياسية، جعلت لها في المحافل الدولية مركزاً مرموقاً، شغلته بكفاءة متميزة، تتساوق مع عراقة تاريخها، الذاهب بعيداً في الماضي السحيق، والراسخ في الحاضر الذي أحداثه تضطرب لها الدنيا، والمشرف على مستقبل أمداؤه بغير حدود، لأنه مستقبل باهر، لشعب مقدام، تخطى بإنجازاته تلك الهوة السحيقة، القائمة بين ما هو قبل الاستقلال وما بعده.

(*) في الذكرى السنوية لميلاد نهرو - وقد ألقيت هذه الكلمة في منزل السيد سفير الهند، في ١٤/١/١٩٨٩، وكانت وزارة الثقافة قد أصدرت ترجمة لكتابه الشهير «اكتشاف الهند».

ولم يكن هذا الاستقلال عطاء مناخ دولي، بقدر ما كان عطاء نضال ثوري، طويل، عنيد، باهظ الثمن، دفعه الشعب الهندي، بقيادة زعيمه المهاتما غاندي، هذا الزعيم الروحي الذي هو معجزة قرننا العشرين، بما اتصف به من قدرة على الصبر، وقدرة على المقاومة، أحالت اللا عنف إلى عنف ثوري، وبامتياز كبير، حقق النصر للهند، وحققه معه جواهر لال نهرو، الذي هو ابن الثورة الهندية الل اعنفية وقائدها، وهو الذي سار ببلاده إلى الاستقلال، ثم قادها، في المرحلة الصعبة، مرحلة البناء الذي يلي الاستقلال، ويحتاج بدوره إلى جهد ثوري، نهض به نهرو بجرأة نادرة، لاعباً، كفرد، دوره التاريخي، دور البطل الذي يعرف كيف يجعل نضاله متساوقاً ومسيرة التاريخ، وينتصر غالباً لأنه مع التاريخ على موعد.

إذن الهند هي غاندي، وهي امتداده الثوري: جواهر لال نهرو، وفي هذا الامتداد الثوري، تكمن عظمة نهرو، في كل الأدوار السياسية البارعة التي لعبها، داخلياً وخارجياً، ومنها دوره البارز والرائد، في حركة عدم الانحياز، إلى جانب عبد الناصر وشوئن لاي، وفي كل الإنجازات التي حققتها الهند في عهده، ثم في عهد ابنته أنديرا، والآن في عهد زعيمها راجيف غاندي، الحفيد المكافح، والابن البار، للجد الراحل، والأم العظيمة المغدورة.

وإذا كنا، اليوم، نحتفل بالذكرى المئوية لميلاد نهرو، فإنما نحتفل بميلاد الهند الجديدة الهند الناهضة، البانية، المكافحة في سبيل عالم خالٍ من الأسلحة النووية، ومن الحروب، والعدوان،

وكل شرور وآفات الاستعمار التي ما تزال تعاني منها بلـدان العـالم الثالث، نتيجة تركة التخلف التي أورثتها إياها الامبريالية العالميـة. ويسعد وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ويسعد دمشق، بل القطر العـربي الـسوري كلـه، أن يـسهم، مـن موقـع الـصداقة الوطيدة والمتنامية أبداً، بين سورية والهند، بجهد متواضـع، يتمثـل بإصدار الترجمة العربية لكتاب «اكتشاف الهند» هذا السفر الذي هو رائعة كل ما كتب في الأدب الـسياسي، لأن نهـرو العظـيم، بثقافتـه الموسوعية، وشاعريته الندية، وتجربته النضالية الطويلة، هو وحـده قادر أن يأتي بمثله، بسبب من أنه عاش كل كلمة كتبت فيه، وعانى كل واقعة ن وقائعه، وكل لون من ألوان مأساته، في ظل الاسـتعمار البريطاني البغـيض، حتـى ليمكننـا القـول، ان نهـرو في «اكتـشاف الهند»، هو كولومبس في اكتشاف أمريكا، مـع فـارق واحـد، كبـير وخطير، هو أن نهرو، في هذا الكتاب، قد اكتشف بلده، شعبه، أمته، هذه التي حررها، بينما اكتشف كولومبس أمريكـا ليخلـد اسـمه في تاريخ الاكتشافات الجغرافية.

ولم يكتشف نهرو الهند شعباً فقـط، ولا تاريخـاً فحـسب، بـل اكتشفها طبيعة أيضاً، فهو، في سجنه، حيث كتب كتابه هذا، عرف كيف يقيم الصلة بين الزنزانة المظلمة والقمر المنير، وكيف يغزل من أشعته الفضية قلادة هندية، يحـق لكـل هنـدي أن يزهـو بهـا، وأن يفاخر الدنيا، فخراً إلى النضال منتماه، وإلى الحرية مبتغاه، وبينها هذه الصور الأدبية التي تجعل من نهرو مبدعاً فـائق الـذات الإبداعيـة،

فائق المشاعر الإنسانية، فائق الخصال السياسية، فائق القدرة الملحمية، التي، في كتابه الملحمي، تجلت نسيجاً خيوطه من سحابة بيضاء، وشفق أحمر وفضاء أزرق، حاكته أنامل تفتحت على أطرافها ورود تارة، ورعود تارة، ومن يراعة القلم كان ذلك الوهج الذي في ومضة البرق نستنير به في الظلمة، وفي إشراقة الفجر نهتدي به موكباً يأخذ بنا في دروب أمل أخضر، في انضفاره يتوحد الماضي والحاضر والمستقبل، في كلٍّ واحد، بعضه نعمى شهادة، وبعضه روعة ثقة أن النصر آتٍ، مادام الشعب، في عصر الشعوب هذا، يريده أن يأتي، ولا بدَّ أن يأتي، طال الكفاح أم قصر.

«ليس السجن مكاناً ساراً للعيش»، يقول نهرو العظيم في كتابه الملحمي هذا، لكنه في السجن كتب، وكانت وحدة إحساسه تزداد «كلما كانت الكتابة قد تمت في أجواء السجن المغلق وغير الاعتيادية، وجرت القراءة اللاحقة خارجها». إنه، على هذا النحو الخارق، ينقض، بضربة معول خارقة، على كل الجدران، في كل السجون، ما دامت «أجواؤها المغلقة وغير الاعتيادية» تمنحه الطاقة لأن يكتب عن الظلم وهو يرتفع عليه، وعن الشدائد وهو يبتسم لها ابتسامة التحدي، ثم تكون القراءة لما كتب في السجن، على ضوء شمعة، أحلى وهي خارج السجن، لأنها القراءة التي تمنح صاحبها ذلك الفرح الإلهي الذي لا يعرفه سوى المبدعين من المناضلين.

إن عشرين شهراً من فترة السجن التاسعة التي تعرض لها نهرو، كانت عشرين هلالاً لعشرين قمراً «هذا القمر، كما يقول،

الذي طالما كان رفيقاً لي في السجن، قد غدا ودياً وحميماً أكثر، شاهداً على جمال العالم، على نمو الحياة وانطفائها، على مجيء النور بعد الظلام، وعلى تعاقب الموت والبعث في تواتر لا نهاية له».

هكذا، رائعاً كالقمر، يعانق نهرو القمر، يجعله رفيقاً وسميراً وشاهداً، ثم لا يبالي بالسجن، لأن القضية أكبر من السجن، وقضية نهرو كانت كبيرة حتى لتغطي مساحة بريطانيا كلها، وتهزأ من احتلالها، ومن قمعها، ومن جيشها ونائب ملكها، لأنه هناك، في الهند، وبسبب الاحتلال البريطاني الطويل والقاسي، كان الهنود يموتون من الجوع، ميتة مجانية، وهو نهرو، المناضل الصلب والفذ، يسخر في زنزانته من سيل التقارير المزورة، الزائفة، يتدفق من أولي الأمر والنهي في الهند وانكلترا، لأن «الجثث، حسب تعبيره، نادراً ما يسهل التغاضي عنها، فهي على قارعة الطريق».

إذن نهرو كان كبيراً، لأن قضيته كانت كبيرة، وهل ثمة، في دنيانا، قضية أكبر من قضية الشعب، حين هي موضوعة بين يدي قائد الشعب؟ هذا هو السؤال الذي طرحته الحياة على نهرو، وقد أجاب عليه إجابة حاسمة: المقاومة حتى الرمق الأخير، وقد قاوم هو حتى أعجز محتلي بلاده، فراحوا ينقلونه مع رفاقه، سراً، من سجن إلى سجن، لكن «يا لبؤس السر! فقد كانت الهند كلها تعرف أين نحن» كما يقول، ومن يدري، فإذا كان القمر لا يخفى، فهو لا يخفى أيضاً، وكان يرافق نهرو، ويدل عليه، ويقول، بصمته الدهري، كلاماً أبلغ من كلام الدهر نفسه، لأنه النجم الذي يرتفع

فوق حجارة السجن، ويصيح بالشعب: «هنا قائدك العظيم، أيها الشعب العظيم»، وكان الشعب يقاوم، لأن قائده يقاوم، وكان القائد يقاوم، لأن شعبه، به ومعه، يقاوم أيضاً.

إن الكلام على نهرو: إنساناً، وأباً، وقائداً، والكلام على نهرو: سياسياً، ومفكراً، ومبدعاً، يغري، وعبر كتابه «اكتشاف الهند» بقول كثير، له، عندي، وقفة أخرى. أما هذه الكلمة المناسبية، فقد أردتها تحية من دمشق إلى دلهي، والتحية عبق يعطر الكون، ومن في كوننا لم يتعطر بغالية نهرو، طيباً في الكلمة، وشذى في الموقف، ومسكاً في المشاعر، وطنية وإنسانية على السواء؟

لا تسألوا عن الخلود. إنه هو: نهرو! وتلك هي سيرة الرجال العظام، حين يستمدون عظمتهم من شعبهم، ومن بصيرتهم، ومن شجاعتهم، التي بها، في المفاداة، سجناً، وعذاباً، وتضحية، تعلو القيم، قل تغلو، وهذه هي الكلمة اللائقة.

حضارة كل بلد هي كنزه ومجده..(*)

السيدة الوزيرة هيلدا فالتشيك

كل فتوحات العلم، استمدت مقوماتها من الثقافة، بما هي حضارة عظمى، شكلت، وتشكل على الدوام، تراثاً إنسانياً عالمياً مشتركاً، وخاصة في عصرنا هذا، حيث يوشك القرن العشرون على الانتهاء، وحيث تؤكد الثقافة مصداقيتها، من خلال الثورة التقنية الراهنة والمذهلة، التي مرجعها إلى علماء كبار، كانوا، في إبداعاتهم واكتشافاتهم، مثقفين كباراً أيضاً، باعتبار أن الثقافة هي العنوان، وهي الكتاب، وهي التي تشكل الواجهة الحضارية لكل أمة من الأمم.

من هذا المنطلق نعرف معنى الثقافة وقيمتها الحضارية، ونعرف حضارة الجمهورية النمساوية الصديقة، ذات الثقافة العريقة، بفضل ما أنجبت من مبدعين عظام، لعبوا دوراً بارزاً في تاريخ الثقافة العالمية، وما زالوا، ونعتبر السيدة هيلدا فالتشيك،

(*) في حفل تكريم وزيرة الثقافة النمساوية في دمشق، عام ١٩٩٠.

وزيرة الثقافة في الجمهورية النمساوية، رسولة هذه الحضارة، وهذه الثقافة، النمساوتين والعالميتين معاً، ونرحب بها ترحيباً حاراً على هذا الأساس، وهو أساس رائع وماجد ومشترك، لجميع الأمم وجميع الشعوب.

إن العلاقات الثقافية بين الجمهورية العربية السورية، وبين الجمهورية النمساوية، تشهد هذه الأيام تطوراً واضحاً، يستجيب لمصالح بلدينا الحضارية، فقد أقمنا في النمسا معرضاً لكنوزنا الأثرية، منذ سنوات، لقي إقبالاً وترحيباً كبيرين، من قبل الشعب النمساوي الصديق، ولدينا، في سورية، عدد من الباحثين الآثاريين النمساويين الكبار، وها نحن نستقبل بمودة وحميمية السيدة وزيرة الثقافة النمساوية، ونجري معها تبادلاً في وجهات النظر، حول تطوير العلاقات الثقافية بين بلدينا، هذا التطوير الذي نرغب أن يكون إلى ازدياد، في شتى المجالات الثقافية، وما المعرض التشكيلي النمساوي المتميز، لفنانين تشكيليين نمساويين مبدعين، الذي نقيمه في دمشق هذه الأيام، إلا دليل على نمو جهدنا الثقافي المشترك، ودليل على أننا، في سورية والنمسا على السواء، نقدر تقديراً رفيعاً دور الحضارة في التقريب بين بلدان العالم، ونؤكد أن حضارة كل بلد، هي كنز هذا البلد، ومجده، وإطلالته على الدنيا، باعتبار أن الحضارات والثقافات هي واجهة العصر، ولغته، وشاهدته، وبها تكون المكانة الحداثية أو لا تكون.

وأحب، بهذه المناسبة السعيدة، أن أذكر أن المثقفين السوريين، على اطلاع واسع ومعرفة وثيقة، بما هي عليه النمسا من نهضة فنية، في الماضي والحاضر، وفي كل أدوار التاريخ، لأننا إذا قلنا النمسا، قلنا الفن العظيم، من موزارت وشتراوس وماليز إلى كلينت وموريس فون شويندر، وغيرهم من المشاهير في التاريخ.

وأجد من المناسب، بل والضروري، أن أنوه بالصداقة الوطيدة التي تربط بين بلدينا، وشعبينا، من خلال رئيسينا حافظ الأسد وكورت فالدهايم، وما يجمع بينهما من مواقف تنطلق من نظرة مشتركة حيال القضايا الدولية، قضايا التعاون، والتفاهم والعمل ضد العدوان، وضد احتلال أرض الغير بالقوة، وفي سبيل الحفاظ على السلم، من منطلق الاحترام المتبادل.

أكرر الترحيب بالسيدة الوزيرة هيلدا فالتشيك وصحبها الكرام، وأتمنى لعلاقات الصداقة، والعلاقات الثقافية، بين جمهوريتينا، المزيد من الرسوخ، والتطور، والازدهار، لما فيه خيرهما، وخير البشرية جمعاء.

تحية للسيدة كاسترو

رسول الثورة الكوبية إلينا(*)

يسعدني أن أرحب بالسيدة ڤيلما دو كاسترو، رئيسة الاتحاد النساء الكوبي، وأن أحيي في شخصها الثورة الكوبية المجيدة والشعب الكوبي الصديق، وأن أشيد بعلاقات الصداقة التي تربط بين بلدينا وشعبينا، في نضالهما لأجل البناء الوطني، وضد الامبريالية والصهيونية، وفي سبيل مبادئ دول عدم الانحياز، وتعاون شعوب القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

إن السيدة كاسترو هي رسول الثورة الكوبية إلينا، وممثلة النساء الكوبيات بيننا، والمناضلة الكبيرة التي أنجبتها الأرض الكوبية، ويسرنا أن نكرم في شخصها كل هذه المعاني السامية، وأن نرى فيها صديقة للعرب، وأن نأمل أن تكون زيارتها تمتيناً جديداً للعلاقات العربية الكوبية، وتوطيداً للنضال المشترك الذي يخوضه شعبانا، في سبيل تعزيز الاستقلال الوطني، وإحباط العدوان

(*) كلمة ترحيب بالسيدة ڤيلما كاسترو، أثناء زيارتها لدمشق.

الخارجي، وتحرير الأرض المحتلة، واستعادة الحقوق المغتصبة، ونشر السلام العادل في العالم بأسره.

لقد ناضلت المرأة العربية منذ مطلع هذا القرن، جنباً على جنب مع الرجل، رغم الظروف الاجتماعية القاسية التي كانت تحيط بها، فشاركت في المظاهرات والاضرابات، ضد الانتداب الفرنسي، وساهمت في الثورة السورية، وبدأت منذ الاستقلال الوطني تحقق بعض مطالبها، ومع ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣، انفتح أمامها سبيل العلم والعمل، وصارت مشاركتها في الحياة الاجتماعية والسياسية تتسع عاماً بعد عام، وحققت مع الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس حافظ الأسد تقدماً كبيراً، فصارت عضواً في مجلس الشعب وفي مجالس الإدارة المحلية، ووزيرة، وأصبحت تشغل المناصب التربوية والإدارية على مختلف المستويات.

إن هذا التطور الكبير في وضع المرأة العربية في سورية يعود الفضل فيه إلى الرئيس حافظ الأسد، فقد ترجم تقديره النظري لكفاءة المرأة إلى الواقع العملي، بما أصدره من توجيهات، وبما تضمنته خطبه الرسمية من إشادة بجهودها ونضالها.

مرة أخرى أرحب بالضيفة الكبيرة، متمنية لها إقامة طيبة في ربوع وطننا، واطلاعاً واسعاً على منجزاتنا، وتوثيقاً مطرداً لعلاقاتنا وكفاحنا المشترك على جميع الجبهات.

الثقافة والمثقفون ! (*)

لا ثقافة بغير مثقفين. هذه هي النقطة الأهم، في رأيي، والضرورية إلى حد الحتم، في العملية الثقافية إنتاجاً ونشراً. فالجسم، في ماديته، لا بدَّ له من حامل كي ينهض، ثم لا بدَّ له، في حتم نهوضه، من جناحين كي يحلق، ودون ذلك عبث كل جهد يبذل، ما دام هيكل الثقافة، بحاجة إلى أعمدة، والمثقفون هم أعمدة هذا الهيكل بإطلاق، وهذا الفهم، الذي لا أزعم أنني مبتدعته، كما لا أنكر وعيي المسبق له، قد كان في أساس التجربة التي أثبتت الأيام صحتها، بعيداً عن البلاغة وتزويقاتها، وفي منأى عن الكلام المنمق، الذي فيه الأنق والتوشية، لكنهما، في المحصلة، لا يعطيان مردوداً، إذا ما بقيا تطريزاً شعرياً خلبياً، فيهما الخيال والتخييل، وحتى الابتكار الجميل للصورة، دون أن ندرك، ومسبقاً أيضاً، ان هذه الأدوات نافعة، بل هي أساس، في الصياغات الأدبية والفنية،

(*) نشرت صحيفة «السفير» هذه الكلمة بمناسبة العيد الفضي للحركة التصحيحية، في ٧/١١/١٩٩٥، وكان لها معناها العميق ومصداقيتها في كل التطور الذي نهضت به وزارة الثقافة آنذاك.

وتدخل في النسيج الثقافي، إلا أنها، وحدها، لا تنتج عملية ثقافيـة، إذا لم تتوفر لهذه العملية وسائل الإنتاج والانتشار.

الأمر الآخر الذي لا يقل أهمية، يكمن في التعامل مع المثقفين، لا من منطلق احتوائهم، كما يقال، بل من منطلق إطلاق الحرية لكل منهم، كي يعبر، في أرحب وأعمق أجواء الديموقراطية، عن رأيـه، ويجد الوسيلة الحاملة لهذا التعبير الحر، سواء في المـشاركة الكاملـة، وبكل الرضى وكامل الخيار، في إنتاج العملية الثقافيـة، وكـذلك في نشرها، مع احترام موقف هذا المثقف، إذا لم يرغـب في الإسـهام في هذه العملية، واكتفى بتوفير الوسيلة الضرورية له، لتمكينه من نشر نتاجه، سواء في مطبوعات وزارة الثقافة، أو في دور النشر الأخرى، من اتحاد الكتاب العرب، إلى التعلـيم العـالي، إلى الجامعـات، أو في دور النشر الخاصة، بعد موافقة وزارة الإعلام، وهي موافقة متاحة، لكل من يرغب في نشر كتابه، أكان روايـة أو مـسرحية أو مجموعـة قصصية أو شعرية، وكذلك الأبحاث والدراسات النقدية، وكل ما يدخل في إطار تحقيق التراث وإصداره، وفي نشر العلوم الإنـسانية، مادام هذه الإنتاج النـشري يـصب، في النهايـة، في مـسيل العمليـة الثقافية ككل.

إضافة إلى ذلك فإنني، في الكلام على حرية المثقف، أرغـب في التشديد، من خلال الفعل لا القول، على أن الثقافة، وكل ما يتفـرع عنها، لا تـــزدهر إلا في جو الحرية، وتوفير هذه الحرية المـسئولة، هو المناخ المطلوب، الذي ينبغي أن نعمل لـه، كمؤسـسات ثقافيـة

ومثقفين، إذا ما كنا حريصين، الحرص كله، على ازدهار الثقافة، أدباً وفناً، قولاً وسلوكاً، مع معرفتي أن الأدب والفن، في مراحل معينة، وظروف معينة، يمكن أن يزدهرا أيضاً، حتى في غياب الحرية، لأن الفكر لا يحد بحد، ولا يحبس في برج، وفي مقدور مسيله أن يجد طريقه متخطياً كل الحواجز، وفي الآداب والفنون العربية والعالمية، السابقة واللاحقة، شواهد كثيرة وجليلة، على هذه القدرة الفائقة للفكر، في اجتياز أي حد، واكتساح أي سد، يحولان بينه وبين الانتشار، والفكر، ههنا، مأخوذ في التعميم، مأخذاً كلياً، لأن الثقافة، في كل تجلياتها، والآداب والفنون في كل فروعهما، تصدر عن الفكر وتتضمنه في آن، وقد أكد لي، في مناسبات مختلفة، الناشرون العرب، في أكثر البلدان العربية، أنه نادراً ما يمنع دخول عمل أدبي أو فني إلى سورية، إلا ما كان ينطوي على إساءة مباشرة، كيدية، عدائية، تحريضية، وبشكل صريح، أو ما كان ينطوي على قول ساقط يخدش الحياء، ذي سوية فنية مزرية، لا تليق، إبداعياً، بالنشر أصلاً، وهذا المنع، قليلاً جداً ما يحصل، وفي هذا القليل نفسه هناك، أحياناً، تصرف فردي ناجم عن جهل، أو ضيق أفق، من قبل موظف ما، في دائرة، يخطئ في تقديره، وكثيراً ما يتلافى هذا الخطأ إذا ما كان خطأ فعلياً، وفي مطلق الأحوال فإننا نياسر إلى السماح والانفتاح، لا إلى التعسف أو الانغلاق، مستهدين بمقولة الرئيس حافظ الأسد: «الثقافة هي الحاجة العليا للبشرية»، ولأنها كذلك فإنها تحاط من قبل سيادته بالرعاية سابغة، والعناية كاملة، مع

التشجيع المادي والمعنوي، والبذل، بأشد ما في الطاقة، على الإنماء الثقافي، سواء في الإحداثات الجديدة الشامخة، مثل مكتبة الأسد، التي لا مثيل لها في الشرق الأوسط، والمجمع المسرحي الضخم مع دار الأوبرا والمعاهد العليا، والمتاحف والمراكز الثقافية، والمدينة السينمائية، ومتحف الفن اللذين هما قيد الإنشاء، وغير ذلك الكثير، وكذلك في بناء هذه النهضة الثقافية التي هي جزء من النهضة الشاملة في سورية، وفي كل الحقول، مع الطموح الدائم إلى المزيد.

إن وجود الدولة في القطاع الثقافي وجود مهم جداً، لأنه يوفر الخدمات الثقافية، مجانية وشبه مجانية، لجميع المواطنين، في العاصمة والمحافظات، وصولاً إلى أقصى الأرياف. وإنشاء وزارة الثقافة، يأتي في سياق وجود الدولة في القطاع الثقافي، وكتعبير عملي عنه، لأنها، أي وزارة الثقافة، وفي بلد عربي كسورية، هي التي تنهض بالعبء الثقافي، إنتاجاً ونشراً، فكراً وأدباً، مسرحاً وموسيقا وسينما، رسماً ونحتاً، تنقيباً عن الآثار وكشفاً وترميماً، وبحثاً علمياً أثرياً دؤوباً، وحماية للتراث بكل أشكاله، وكذلك ندوات ومهرجانات دولية، وأمسيات مستمرة في مراكز ثقافية، تغطي القطر كله، ومنها ما هو خارج القطر، كمراكزنا في باريس وسان باولو ونواكشوط مثلاً، تطبيقاً للشعار الذي تبنيناه في سورية، وهو «الثقافة للجميع وفي خدمة الجميع»، ويجد القارئ الكريم، في المنجزات الثقافية وحقولها، مدى سعة المؤسسات والمديريات الثقافية التابعة لوزارة الثقافة، والتي هي، في ضخامتها، تحتاج إلى

إدارات مستقلة، مثل مؤسسة السينما، والمديرية العامة للمسارح، والمديرية العامة للمتاحف والآثار، والمعاهد العليا، وغيرها، وكي يكون، ثمة، مثل حي على أهمية وجود الدولة في القطاع الثقافي، من خلال وزارة الثقافة، فإنني أذكر، وأذكّر أيضاً، بأن أنور السادات، عندما خلف الزعيم الراحل جمال عبد الناصر في رئاسة الجمهورية في مصر الشقيقة، كان أول عمل قام به هو إلغاء وزارة الثقافة، لما لها من أثر وخطر في التنوير والتثوير، اللذين كان يخافهما ويعاديهما عداء سافراً.

أعرف أن بعض المثقفين، في بعض البلدان العربية، يتوجسون من وجود الدولة في قطاع الثقافة، وتالياً من إنشاء وزارة تنهض بمهامها، وهذا التوجس يعبرون عنه عادة، بما يسمى استيعاب المثقفين، والخوف من هذا الاستيعاب، وقد يكون لهذا الخوف مبرر ما، في بلد عربي ما، لكنه خوف، إذا ما أخذنا الأمور بدلالاتها، غير مبرر أبداً، فالمثقف الذي لا يريد أن يستوعب، ليس من أحد بقادر على استيعابه، في وزارة الثقافة، أو وزارة الإعلام، أو كل المؤسسات الثقافية والإعلامية. هذا بعامة، أما بخاصة، فإن المثقف، في أي بلد عربي، لا بدَّ له من مورد ثابت للرزق، لأن الكتابة الأدبية، المحصورة في إصدار كتاب أو كتب مثلاً، لا تطعم خبزاً، وهذا واقع مؤسف، لكنه واقع لا بدَّ من أخذه بعين الاعتبار، ولا بدَّ، انطلاقاً من هنا، أن يؤمن المثقف العربي مورد رزقه الثابت من وظيفة، في أجهزة الثقافة والإعلام، ولأنه كذلك، فإنه يصبح

جزءاً من العملية الثقافية أو الإعلامية، وهو مضطر، في حال كهذه، أن يتقيد بالسياسة الثقافية والإعلامية للوزارة أو المؤسسة التي يعمل بها، إلا أن الكثير الكثير من المثقفين، في سورية ولبنان ومصر وغيرها، يعملون في أجهزة الثقافة والإعلام، ويكون لهم، مع ذلك، موقف مستقل، يرتكز على قناعة ومبدأ، وفي وسعهم، بعد أن صار للكلمة واللوحة والنغم ثمن، أن يرفضوا ما لا يتسق مع هذه القناعة أو هذا المبدأ، رغم أن ثمن الآداب والفنون، وهي سلع من السلع في المآل، لا يسمح بأكثر من الكفاف.

هذا لا يحدث، نسبياً، في بلد تتوفر فيه الحريات العامة نسبياً أيضاً، وأمام وضع كهذا، يصبح نضال المثقف، في أي موقع كان، نضالاً ضرورياً ومشروعاً، في سبيل هذه الحريات، فكرية ونقابية، ولأن الحرية مطلوبة أبداً، وإلى اتساع دائم أبداً، فإن النضال لأجلها يصبح مطلوباً دائماً، وإلى اتساع مستمر دائماً، ولدينا شواهد كثيرة على نضال المثقفين، الدائب والعنيد، في سبيل هذه الحريات التي دونها تذوي الآداب والفنون، كما في لفح الهاجرة، أو تتمرد فتناصر وتنتصر، وهذا هو سبيلها، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

إذن الاستيعاب الذي يخشاه المثقفون، بسبب تواجد الدولة في قطاع الثقافة، يصبح أقل، إذا ما أخذنا الحقائق والوقائع، في أطرها، وإذا ما كانت الأشياء في الضوء تماماً، وتأملناها من كل جوانبها، لكن يحدث أيضاً، وهذا ليس بالنادر، أن يكون في هذا البلد العربي أو ذاك، بعض المثقفين، الذين يسعون بأرجلهم وأيديهم، إلى هذا

الاستيعاب، حين يرقصون بأكثر مما ينفخ الزمار، حسب تعبير الجواهري، ويصير هذا سواء كانت الدولة في قطاع الثقافة أو لم تكن، لأن بعض هؤلاء المثقفين بدفع من رغباتهم، يريدون امتيازات خاصة، فوقية، مادياً ومعنوياً، والامتياز بهذه الصورة وهذا المعيار، له مقابل، ودفع المقابل معروف، وفيه معادلة متعادلة، متوازنة، في كل الدول والأنظمة، إلا أننا، في وزارة الثقافة، لم يطلب منا أحد امتيازاً، ولم نطلب من أحد مقابلاً، لأننا نحترم القناعات احتراماً تاماً ولائقاً.

أخلص من هذا كله إلى نتيجة مبنية على الخبرة، مستفادة من التجربة: كل شيء يتوقف على المثقف ذاته، في تعاونه أو عدم تعاونه مع أيما وزارة أو مؤسسة، ومع نوعية هذه الوزارة أو المؤسسة، وقد كانت، قبل الحركة التصحيحية في سورية، التي نحتفل هذه الأيام بعيدها الفضي، هوة ما، بين المثقفين وبين وزارة الثقافة ومؤسساتها ومديرياتها، وأؤكد أن هذه الهوة ضاقت فوهتها تدريجياً، إلى أن ردمت الآن، دونما استيعاب بأي شكل، ودونما ميل إلى هذا الاستيعاب، بأي شكل أيضاً، ومن قبل الطرفين: الوزارة والمثقفين، وأضيف إلى هذا أننا استطعنا، خلال ربع القرن هذا، أن نحول النظرة إلى الثقافة، من كونها ترفاً إلى كونها ضرورة، فالثقافة ليست ترفاً بأي شكل، وليست من الكماليات في حاجات المعرفة، بل هي ضرورة، وهي ضرورة هذه الضرورة، وقد كان من جراء تغيير النظرة إليها، أنها مُكّنت، وتمكنت، من أن تنهض، وتنتشر، وتعم، وتشكل نهضة كاملة ومتكاملة.

هذه بعض المفاصل الأساسية، فيما يتعلق بالثقافة، ووزارة الثقافة، ووجود الدولة في قطاعها، أوجزتها قدر المستطاع، وهي قابلة للنظر، والحوار، والمناقشة، فالحقيقة المطلقة غير موجودة في دنيانا، وحسبنا، في هذه الحياة، الحقيقة النسبية، وهذا هو الدرس الذي قدمته لنا المتغيرات الدولية، وعلمتنا إياه هذه المتغيرات التي هزت العالم.

ما أعظم أن يأتي الإنسان في موكب الثقافة، وأن يكون مسهماً فيه، وممهداً الطريق له، لأن الثقافة، من بين جميع الكنوز، إلى ازدياد، وما عداها إلى نقصان، والكنز الثقافي هذا ليس حلية، وليس بهرجاً، وإنما هو فعل بناء للمواطن والوطن، من منطلق الوعي بأن الأدب والفن، هما وحدهما من يصوغ الوجدان الإنساني، وهذه الصياغة مشروطة بأن تكون المعرفة غذاء عقل، وأن تكون الثقافة، في هذا الغذاء الذي تقدمه للعقل، وطنية قومية تقدمية إنسانية، تتجلى فيها، ومنها، المعرفة، تنويرية، عقلانية، نهضوية، تياسر إلى مواكبة التاريخ، وتتسق مع مساره إلى أمام، في السيرورة والصيرورة كليهما.

المجد للكتاب.. أولاً وأخيراً ![*]

عصرنا هذا هو عصر المعرفة، في أسمى تجلياتها، إحاطة بالكون، وتطويعاً للطبيعة، وارتقاء بالعقل البشري، في شموليات الفكر والفلسفة والعلم والإبداع..

وفي عصرنا هذا تصير المعرفة ضرورة وجود، ومعياراً من معايير تحقيق الذات للأمم والشعوب، في الراهن والمقبل، ولا هامش للخيار..

ذلك أنه بها وحدها تحدث النقلة، ويتطور المجتمع، وينتفي التخلف، وينهض الاقتصاد، ويكون التغيير باتجاه التقدم والارتقاء.

وبها وحدها تتفجر طاقات الإنسان، ويأخذ الفكر مكانه، باحثاً عن حريته في إبداعه، مدركاً لأبعاد الحياة في كوننا الصغير الكبير، قادراً على رسم السياسات، وتحديد المسارات بعين العقل، وإيقاع الحلم.

(*) كُتبت بمناسبة يوم الكتاب، عام ١٩٩٨.

وفي السؤال عن السبيل إلى ذلك، وعن معناه وفائدته، نجده ضرورة من أجل الإنسان وإنسانيته، ويأتي الجواب، هنا، قاطعاً وبإجماع، مؤكداً ان السبيل إلى كل هذا هو الكتاب، ثم الكتاب، ثم الكتاب.

لقد كان كذلك في الماضي، وهو كذلك في الحاضر، وسيظل هو نفسه إلى مدى غير منظور..

تلك هي قناعات العالم.. فالعالم كله يؤمن بذلك، والعالم كله يحتفي بالكتاب حفاوة لا حد لها، حتى وهو يبدع من وسائل التواصل فنوناً ما تزال مفتوحة الاحتمالات، من فضائيات، وشبكات معلومات، وبرمجيات وبرامج هي في الذروة من التفجر والانبهار والريادة والاستكشاف لكل ما كان مجهولاً أو عصياً..

العالم يحتفي بالكتاب، ويخصه بيوم عالمي، حضاً للناس، شباباً وشيوخاً، أطفالاً ونساء، على القراءة، واستثارةً لكوامن الشوق إلى تثقيف الذات، وتعلم الاستمتاع بمجالسة الكلمات.

ونحن، في وطننا العربي الكبير، نحن الذين كنا أول من أبدع الحرف، وأقدم من عرف محاولات الكتابة، منذ الزمان السحيق السحيق، وأول من رفع الكتاب والكتابة إلى مستوى فائق الإجلال، وحافظ على تراث الأجداد، مخطوطاً كان أم مطبوعاً كأثر عظيم عظيم، في الفلسفة والطب والعلوم والأدب والشعر والتاريخ والاجتماع، أقول: نحن أولى من يعنى بالكتاب، يعليه ويغليه، ويضعه في الموقع الأعز الأعز، لا لأنه ذاكرتنا الحقيقية،

وحافظ حضارتنا التي شعّت على الدنيا ذات يوم وحسب، بل لأنه تاريخنا المشرق، وهويتنا المتجسدة فكراً ونـوراً وأدبـاً رفيعـاً، وهـو خبزنا المعرفي، والسبيل الأساس الـذي يوسـع آفاقنـا، ويزيـد مـن إمكاناتنا، إذ يدخل حياة النـاس، كـل النـاس، فـلا يبقـى الـوعي مقتصراً على النخبة، والثقافة بمعاييرها المختلفة من حظ القلة.

إذن نحن أولى من يعنى بالكتاب، جذوة معرفـة تـضعنا عـلى مستوى العصر، لنكون فاعلين فيه، في قلبه وليس على هامشه، ننشر أشرعة الفجر الجديد الذي يبزغ على أرضنا، ويزداد إشراقـاً وألقـاً، كلما ازددنا وعياً وقناعة بأننا قادرون على أن نكتب تاريخـاً جديـداً، مجيداً، تماثل صحائفه الغر، ما كتبه الأجداد مـن قبـل، فكـان هـذا المكتوب سفر دأب وعمل وكفاح وعلم ووعـي وتنـوير وفروسـية ونبالة وعطاء إنساني سامق.

*   *   *

المعرفة ضرورة وجود،

والكتاب، لذلك، ضرورة قومية في حياتنا أيضاً.

والكتاب والكفاح صنوان، جناحان، بهما ننهض ونـستنهض، ونؤدي الرسالة والأمانة.

والكتـاب ثقافـة، والثقافـة حريـة، والحريـة إبـداع في الفهـم والنظرة وتشكيل الوعي والموقـف، ونـماء الشخـصية والذاتيـة، في ارتباطاتها الإنسانية.

والكتاب متعة من نوع فريد، سام، ومتعال، لأنها متعة العقل الذي يتفتح على الكون بعجائبه وعوالمه ومحيطاته وفضاءاته، ويستكشف مجاهيله ومداراته.

لنقرأ إذن،

ولنواصل القراءة،

لنقرأ، ولتكن الكلمات المتوثبة في بطون الكتب، المهاد الرحب لحياتنا، والنور والنار اللذين بهما يتوهج جوهر الإنسان في أعماقنا.

لنقرأ،

ولنواصل القراءة،

ولتكن القراءة انطلاقةً تجدّد الشوق والتوق، وتعلن المصالحة بين السيف والكتاب، مستميحة أبا تمام العذر، لأن السيف ليس أصدق إنباء من الكتب، والكتاب ليس أصدق إنباء من السيف، ففي حدهما معاً «الحدّ بين الجد واللعب».

* * *

كتبت صبية صغيرة ذات يوم في مذكراتها، وكان الزهو قد أخذها بعد قراءة «هكذا تكلم زارا» للفيلسوف الشهير نيتشه: «هأنذي قد وضعت قدمي على الدرجة الأولى من سلم الإنسانية»، ثم عادت، بعد شهور، وبعد قراءات كتبٍ أخرى هامة، فكتبت: «أشعر بالحسرة، بل بالحزن وبالأسى.. لأنني لم أجاوز العتبة بعد. الكتب بحور، بل محيطات، والفكر الإنساني هو بحق معجزة

الإنسان، معجزة وجودنا، وأنا ما أزال أتعلم، والطريق طويل على ما يبدو، وما يزال أمامي الكثير».

التحية لكل الكتّاب والمبدعين والباحثين والعلماء والمؤلفين الذين ندين لهم بما لا يمكن أن نرده، كفاء ما قدموه، ونعترف أمامهم بالتقصير، لأنهم هم الذين أشعلوا أصابعهم شموعاً لمسراتنا، ولم يعبؤوا بالبصر الذي يكلّ، والقلب الذي يهن، والذهن الذي تضنيه معاناة الخلق.

والتكريم في أقصى درجاته للكتاب الذي هو المعين، والجذوة المتوهجة، بل اللهب القدسي الذي ينير ويضيء ولا ينطفئ، والذي يأتي في طليعة ما نجّل في عالمنا..

التحية أيضاً للقراء المؤمنين بالقراءة والكتاب، الحريصين عليهما، والمحرضين على الإفادة منهما، والأمل كبير في أن نفتح قلوبنا وبيوتنا للمعرفة المتجلية بالكتب، ودوائرها التي تنداح فتفيض بشائرَ وعي، وإشعاعات تنوير، وألق تقدّم، به نحقق ما نصبو إليه.

الأستاذ مكرم محمد أحمد

رئيس مجلس إدارة «دار الهلال» - القاهرة (*)

تحيـــة عربيـــة ،

أن نبحث في الشأن الثقافي، في وضعنا العربي الـراهن، معنـاه البحث في شأن المستقبل العـربي مـن كـل جوانبـه، بـسبب مـن أن الثقافة، بما هي معرفة شاملة، توفر لنا الفكـر التنـويري النهـضوي بكل تجلياته، وهذا ما نحن بحاجة ماسة إليه، إذا ما كـان علينـا، في الجزر الذي نشهده، أن نسهم في إيقافه، أقله في تقصير أمده، وتهيئة المهاد الضروري للمد الآتي، المد الذي سيكون انتظارنـا لـه طـويلاً ومنقوصاً، دون جهد كفاحي، على جبهة الفكر خصوصاً، بعـد أن همّشت المتغيرات الدوليـة الراهنـة، دور حركـة التحـرر الـوطني، والتقدم الاجتماعي، في العالم الثالث، وهـي تـسعى، أي المتغـيرات الدولية، واستناداً إلى قوىً معادية، إلى مصادرة هذا الدور، كي يتاح لها أن تشكل النظام العالمي الجديد، وفق مخططها ومصلحتها، وهما

(*) رسالة تهنئة بمناسبة الاحتفال بمئوية «دار الهلال» حيث لم أتمكن من تلبية الـدعوة (عام ١٩٩٢).

يتعارضان مع تطلعاتنا ومصالحنا، في تجاوز المصاعب التي نرزح تحتها، اقتصادياً أولاً، وسياسياً ثانياً، وفي كل مجالات النشاط التنموي والإبداعي، بقصد وضع العرب في المأزق الذي يبدد قواهم وثرواتهم، بأكثر مما هي مبددة بتأثير التجزئة، والفرقة، والتناحر، وهدر الطاقات.

ولقد يكون جميلاً، من الوجهة الفنية، أن يكون للثقافة ترفها، شذى فل وخضرة ياسمين، وأن يكون لها، إنسانياً، ذلك الغزل الذي يسفر بين نجمة وأخرى، كما الإيماءة بين رمش ورمش، فهذا من أغراض الثقافة، مثلما الزرقة من البحر، وذهبية الشلّة انتثاراً من غاربة الشمس، لكن للثقافة، في الحالين: الذاتي والموضوعي معاً، ضرورتها التي تبني الوعي، خصباً في الخيال والتأمل، ومساءلة عما نحن فيه وكيف يجب أن نكون، وما هو موضعنا في موكب العصر، تقنية ومعلوماتية، وأين الخطأ والصواب في التقاط أصابعنا ووسائلنا، من حزمة الضوء وقاع المدينة والريف، وما الذي ينبغي أو لا ينبغي اجتماعياً، بين العمران في شقية: المعماري و الدفاعي، وبين التغيير المرتجى الذي يتطلب، أشد ما يتطلب، مناخاً عقلانياً علمانياً، في مجتمع مدني قوامه الديموقراطية والحرية، في أرحب مداهما، نظرية وممارسة، لأنه في مثل هذا المناخ التنويري وحده، نستطيع أن نتخلق ونخلق منطلقاً لمئة عام مقبلة من التحديث الذي يفضي بنا، ويقود مسيرتنا، كأمة تتطلع إلى النهوض، في الطريق الصح إلى غاياتنا، هذه التي لا تدرك بالأماني، وإنما بالأفعال.

مطلوب إذن نوع من الاختراق للمألوف، في سلوكياتنا كلها، بعد أن قام تواطؤ بيننا وبين الاسترخاء والتبلد والدوران فراغياً، والكلام المكرور على الأشياء ذاتها، والخوف المتسرطن في دمائنا، واتخاذ مجلس القَعدة شهوداً على ما يجري، دون مشاركة تذكر في هذا الذي يجري، رغم أنه يخصنا أولاً وأخيراً، وان إغماضة العين عن القمر لا تعني أن القمر غير ساطع، فهو هناك ونحن هنا، وتجاهل الأمور التي يرتب لها الآخرون من حولنا، وتجري في أكفنا ذاتها، لا ينأى بنا عن مأساة تخلفنا، وإن خيل إلينا أن هذه المأساة لما تزل بعيدة عنا، مع أننا نعيشها واقعاً، فالتخييل المكذوب في هذا المجال باطل، وعلامة استغباء لأنفسنا وشعبنا، وهذا ما يجب أن يكون واضحاً أمام المفكرين والباحثين، المنتدين بمناسبة مرور مئة عام على صدور مجلة «الهلال»، هذه التي منها، على امتداد مسيرتها الطويلة، أخذنا حروفنا وكلماتنا وذاكرتنا الثقافية جميعاً.

إن الندوة التي تنعقد، بدعوة من «دار الهلال» في القاهرة، والتي كان حضورها أمنية بالنسبة إلى عاملة في الحقل الثقافي مثلي، لولا المشاغل والالتزامات، هي ندوة جاءت في أوانها، وطروحاتها تمثل إحدى أهم المحطات البحثية، في إضاءة ما مضى من قرن كامل على التنوير، وما نستقبل من قرن آخر نريده تنويراً حقيقياً، وعلينا أن نصوغ فيه أجوبة على الأسئلة التي طرحها الماضي على الحاضر، ولا تزال هي ذاتها، وقد آن أوان الخروج من جلد اللامبالاة لندخل في ثوب المسئولية التي سيحاسبنا التاريخ عليها.

مع خالص الشكر «لدار الهلال» على الدعوة، والتهنئة الحارة بالمئوية الخصبة في عطائها، وأصدق التمنيات في النجاح الكامل للندوة والمنتدين، ولكل ما تبذله «الدار» من جهد في الإحياء الثقافي التنويري الذي يطرح نفسه بقوة علينا.

موقف خاشع في ذكرى خليفة صالح

عمر بن عبد العزيز (*)

تسمو السريرة، قل تحلق في عليين، لأنها والنفس الطهور سواء، فمن كان على نقاء في السريرة، يكون على نقاء في الفعل، وذلك هو الإعجاز، مرتقى بغير جناح، إلى سدرة المنتهى، حيث الفيء والنعيم والراحة، في جوار الملأ الأعلى، تبارك ثلاثاً..

وعندما يقترن النقاءان، في السريرة والفعل، ويتواضع الشموخ في العظمة، فيصير تواضعاً من يقين لا من نسك، وذلك هو الأكبر في النوايا، هذه التي تمتحن، كالذهب في النار، من خلال الأعمال، خالصة لوجه الله تعالى، مخلصة في القيام وفي القعود، معبرة عن نفسها في السلوك، حين السلوك زهد في متاع الدنيا، ووقفة حزم في وجه العدو.

(*) بقرار من السيد الرئيس حافظ الأسد، أصدره عام ١٩٨٨، أعيد بناء القبة الأيوبية وبالأسلوب الأيوبي، ونقشت عليها آيات القرآن، وكذلك بنيت الجدران والمدخل. كما أعيد ترميم الضريح على الشكل الذي وجد عليه حين اكتشف في الخمسينات، وضم إليه جزء كان قد انتزع منه، وربما يعود تاريخ بناء هذا المقام إلى القرن السابع الهجري. وقد سويت حديقة المسجد بشكل مناسب.

إنما الزهو يصير، ويرتفع مثالاً، حين يكون ثمة ما يزهد به، وإنما وقفة الشجاعة، تغدو كذلك، عندما يكون النزال، في قراع العدو، يتطلب الشجاعة، وكلاهما، الزهد صلاحاً، والشجاعة جسارة، هما من الشيم الغاليات، يملكها السائر في الأرض عدلاً، والسائر بأمته، ومعها، وفي مقدمتها، دفاعاً عن حق، وبذلك يرتفع السائران، في جهاد النفس، وجهاد القلب، إلى مرتبة العظماء، ودونها كل مرتبة تعد في الأدنى، مادام العظيم، في بأس الضمير، يردع، في الصفات، كل منكرة، ويحنو، في الصفات أيضاً، على كل مكرمة، إعلاء للكلمة سواء، وجبهاً للأذية فداء، واشهد أن من الناس، ومن الحكام، من يأخذ الأمور في سيرته هذا المأخذ، وتبقى فضلى السير، بالنسبة للحكام، هي الأمثل، لأنهم، أو الندرة فيهم، يستطيعون، ويتنكبون الاعوجاج، أما الذين لا يستطيعون فإنهم في ذمة التجربة لما يزالوا، ومن يدري، بعد التجربة، كيف يكون أمرهم في سيرتهم، والله تعالى قال: ﴿**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾.

وفي هذا الموقف الخاشع، أمام ذكرى خليفة صالح، تطوف بنا، وتستعيدنا، بدوتان لمأثرتين كبيرتين، في تاريخنا القديم والحديث، أولاهما عندما زار بطل حطين، صلاح الدين الأيوبي، مقام عمر بن عبد العزيز هذا، قبل ثمانية قرون، إجلالاً وتبركاً، وثانيهما عندما أصدر بطل تشرين، الرئيس حافظ الأسد، بعد ثمانية من القرون، توجيهاته بترميم هذا المقام، إجلالاً وتبركاً أيضاً.

إن تكريم الصالح لا يصدر إلا عن قلب صالح، فصلاح الدين، مدفوعاً بالإيمان، حرر بيت المقدس من الصليبيين، وحافظ الأسد، مدفوعاً بإيمان مماثل، ناضل، ولا يزال يناضل، لتحرير القدس الشريف من الصهيونية، وهذا التلاقي، في نقطة الوثوق بالله، قد صدر عن قائدين عظيمين في تاريخنا، كلاهما رغب في تطهير أولى القبلتين، وثالث الحرمين، من رجس الاحتلال، وكلاهما، قديماً وحديثاً، قرن تحرير ما هو مقدس، بتكريم ما هو جدير بالتكريم، فكانت الزيارة للمقام، وهي فعل احترام، وكان ترميم هذا المقام، وهو فعل احترام آخر، وعندما يحدث هذا، على رغم التباعد في الزمن، يعطي دلالة كبيرة، تاريخية وإنسانية معاً، مؤداها أن الشجاعة، في عزم الأمور، تنبع من الداخل، ولا تفرض من الخارج، ففي الداخل تتجلى النفس، في طهرها والسمو، تجلياً خلاقاً، في مبادرة خلاقة، منها الشيمة المقدام، ومنها الفلاح الأصيل، وفي عناقهما، على اسم الحق والحقيقة، تجترح الحدثية التاريخية والإنسانية.

الخليفة عمر بن عبد العزيز، كان حدثاً تاريخياً في حياة المسلمين والعرب، لا من حيث المنصب، وهو يغري بالجاه، بل من حيث التعامل مع هذا المنصب، الذي تفلّت من هذا الإغراء، ومن هنا المأثرة التي قلّما يلقون لها شبيه، فالتفلت من نوازع النفس ووساوسها، مع كل ما في هذه النوازع والوساوس من دفع في الاتجاه المعاكس، يحتاج إلى طاقة في الجهاد الروحي، لا يماثلها في

عصرنا، سوى طاقة التخلص من جاذبية الأرض، والارتفاع فوقها عنوة، لذلك فإن هذا الخليفة المؤمن، يمثل في تاريخنا الإسلامي والعربي كله، واقعة لم تتكرر، وأقول واثقة إنها قد لا تتكرر، فالزمن، في متغيرات القرون، لا يسمح بذلك، لأنه زمن مختلف، والتقوى فيه مختلفة، في المظهر لا الجوهر، ففي المظهر، الآن، لا بدَّ من حضور مغاير، له ضروراته والشكليات، وفي الجوهر، الآن أيضاً، تدرك التقوى، بالجهاد الروحي وحده، وهذا الجهاد يتبدى في إقامة الشعائر وسواها، أي في الطيبة التي لا تخطئها العين، ومصدرها الخلق لا التخلق، وتعظم هذه الطيبة، حين لا يزدهيها الحلم والجاه، ولا يعلق بها وشب من أوشاب هذه الفانية، وأحسب أن اللفتة في ترميم هذا المقام، وقد كان متهدماً، مردها إلى هذه الطيبة، إلى هذا الخلق، إلى تلك السيرة التي نعرف وتعرفون، من حياة الرئيس حافظ الأسد، السيرة التي تميل إلى البساطة، وتمارس هذه البساطة في حياتها الداخلية، إذ تخلو النفس، في صفاء الإيمان، إلى ربها، راغبة عن كل ما يدل عليها، أو يتمظهر في سلوكها، تاركة لنا أن نرى شكليات المراسم، في الحلِّ والترحال، وفي القيام بضرورات للحكم يفرضها منطق العصر، وهذه الشكليات التي نراها، تستر تلك الحقيقة التي لا نراها، سواء في البساطة أو الزهد أو البرّ، أو التعاطف مع كل موجوع وملهوف، وهي حقيقة تعاش لذاتها، وتصدر عن ذاتها، في ممارسة خلوية بين المخلوق والخالق، نسيجها الطاعة لمن له وحده الطاعة، وتجنب كل إثم وكل معصية،

وكل ما ينأى بالنفس عن الصراط المستقيم، في غايته والمبتغى، حيث الأعمال بالنيات، والنيات تترجم إلى أفعال، ومنها هذا الاستشراف لأثر دارس أو يكاد، والاهتمام به، وإعماره، وجلوه الجلوة التي تليق بصاحبه، حتى ونحن في زحمة الخطب، رصداً للعدو، والثبات في قراعه، دون تفريط بأرض أو بحق، ودون ونى أو هوادة، في الإعداد لما أمر به النبي العربي الكريم من رباط الخيل.

إن سيرة الخليفة عمر بن عبد العزيز، هي سيرة بعض الخلفاء الراشدين من أصحاب الرسول، فقد ولد في أسرة أموية حاكمة، سنة ٦١ للهجرة، ٦٨٠ للميلاد، بحلوان مصر، حيث كان والده والياً عليها، وبعد حين أرسله والده إلى المدينة المنورة، فحفظ القرآن، وتعلم وتفقه، على يد كبير علمائها صالح بن كيسان، ويذكر عمر ذلك قائلاً: «لقد رأيتني بالمدينة غلاماً مع الغلمان، ثم تاقت نفسي للعلم فأصبت منه حاجتي». ويعود إلى مصر مفعماً بالعلم والورع والخشية من الله، ويقول عنه أستاذه ابن كيسان: «ما خبرت أحداً، الله أعظم في صدره من هذا الغلام». ويؤيده في ذلك أنس بن مالك، صاحب رسول الله بقوله: «ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله، من هذا الرجل»، وقال عنه علماء عصره: «إنه والله أعلمنا»، وكان عمر بن عبد العزيز، وهو أموي، يقول في الإمام علي: «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب عليه السلام».

ثم اختار الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة المنورة، وحاكماً لها، فجمع عمر فضلاء

أهلها وقال لهم: «إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، وأناشدكم الله إن رأيتم عدواناً أو باطلاً إلا أبلغتموني أمره، وأرشدتموني إلى الحق». وقد كان كلامه هذا بمثابة شعار له لا يحيد عنه، لذلك خيم العدل والرخاء على ولايته، وصار بذلك موضع محبة الناس، ومحط تقديرهم وإعجابهم.

وبعد ستة أعوام من ذلك، عزل عمر بن عبد العزيز عن ولايته، فعاد من المدينة المنورة إلى دمشق، حيث حمل سلاحه وذهب جندياً مع المقاتلين المسلمين إلى حرب البيزنطيين الروم، الذين كانوا يتحرشون بأطراف الدولة الإسلامية. وبعد فترة في الجهاد عاد إلى دمشق، ليصطحب أخيارها من العلماء الأجلاء. وبموت الوليد بن عبد الملك، تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك، فاستبقى عمر لديه كصديق، وسأله يوماً عن رأيه إثر زيارة معسكر يعج بالرجال والعتاد، فقال له عمر: « أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً»، فبهت سليمان، وأردف عمر: «ما أعجب ممن عرف الله فعصاه، وعرف الشيطان فاتبعه، وعرف الدنيا فركن إليها».

وقد عمل سليمان برأي العالم رجاء بن حيوه، وأوصى بالخلافة بعده إلى عمر بن عبد العزيز، وهتف هتفته المشهورة: «والله لأعقدن لهم عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب». فلما توفي سليمان، جمع رجاء بن حيوه أهل بيت أمير المؤمنين، وطلب بيعتهم على الوصية فبايعوا، وبينهم هشام بن عبد الملك الذي بايع على مضض، وتقدم، بعد قراءة الوصية، من عمر قائلاً: «إنا لله وإنا إليه راجعون،

إذ نحّيت عني» فرد عمر: «بل إنا لله وإنا إليه راجعون، إذ صارت إلي وأنا كاره لها». وفي مسجد دابق، يعتلي عمر المنبر فيخلع نفسه، ويترك للناس أن يختاروا من يشاؤون، فيهوج الجمع من حوله قائلين: «بل إياك نختار يا أمير المؤمنين». وتتحول المناسبة إلى تظاهرة، فيروح عمر يجهش بالبكاء تواضعاً وخشيةً، ثم يتولى الخلافة التي لم تدم سوى عامين ونصف العام وخمسة أشهر وبضعة أيام، كان خلالها يمثل عصر الوحي، ويجهد بنقل فضائله إلى عصره المائج بالاضطراب، العاجّ بالعسف، فيبذل المستحيل لإصلاح الوضع، وردع الفساد، ويتخلى عن أبهة الخلافة، وحتى عما كان يرفل به قبلها من نعيم، متخلياً عن ثروته كلها إلى بيت مال المسلمين، مستبدلاً بالعرش حصيراً يجلس عليه فوق تراب بيته، وهو يردد: «ومن ينقذني يوم القيامة من حق الفقير والجائع، والمريض الضائع، واليتيم والأرملة والأسير».

وبلغ من شأن عمر في الوفاء للأمانة التي يحمل، أن أوقف عن آل مروان من عمومته، الإقطاع والمال، وأمر بضمهما إلى بيت المال، فائتمر الأمراء عليه، وكتب إليه عمر بن الوليد مهدداً، فرد عليه عمر بشدة قائلاً: «لو طالت بي حياة لأتفرغن لك ولأهل بيتك حتى أقيمكم على المحجة البيضاء».

ولقد دخل عليه داره أحد المقربين يوماً، فوجده يتدثر بإزار في ركنها، فظنه مريضاً، وسأله عن حاله فأجابه عمر بأنه ينتظر ثوبه حتى يجف، وهو يردد الآية الكريمة: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها**

للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾.
وراح يسابق الزمن في إنجازاته، آخذاً نفسه بأمرين اثنين هما: الدين والأمة. وفي آخر خطبة جمعة له قال في مسجد خناصرة: «إن لله شرائع وسنناً، إن أعش أعلمتموها وأحملكم عليها، وإن مت فما أنا على صحبتكم بحريص». وقد مات عمر فعلاً مسموماً، ودفن في أرضه التي اشتراها قرب دير النقيرة، وكان ذلك، كما يقول المؤرخون: «في خمس بقين من رجب سنة إحدى ومئة هجرية».

هذه سطور قلائل من سيرة عمر بن عبد العزيز، أوردتها لتترجم عن ذاتها، لتقول هذه الذات النادرة في تاريخ العرب والمسلمين، متبدية في إخلاصه للدين الحنيف والأمة العربية، وارتفاعه على الصغائر، وعلى العنعنات القبلية والمذهبية، سالكاً بالناس سلوكاً مغايراً لما كانت عليه عترته، سواء من آل مروان أو آل سفيان، ناشداً العدالة التي يستوي أمامها الجميع.

ويأتي بعد هذا التاريخ الطويل، رئيس منا، نبت من شعبنا، ليكون لنا أباً وأخاً وقائداً، عرفناه، خلال خمس وعشرين سنة من عهده، مخلصاً لدينه وأمته، إخلاصاً بغير حدود، غير مشابه في ذلك لأحد، وغير مقتدٍ بمن سبقوه من الرؤساء بأحد، يأخذ بنا في سبل الإيمان والعزة والكرامة، حتى ذاع صيته، في الحكمة والشجاعة، في أربع جهات الأرض، وحتى ارتقى بأفعاله والمكرمات، إلى ذلك الطراز من الرجال العظام، الذين أوفوا على ما أوفى عليه خالد بن الوليد في بسالته، والمأمون في خزائن كتبه، وعمر بن عبد العزيز

بتواضعه، وسماحته، وبارتفاعه، مثل عمر، على كل عنعنة قبلية أو مذهبية، وتشميله الناس جميعاً بالمحبة والحدب والحنو، من منطلق إنساني أولاً، ومن منطلق الراعي الصالح مع رعيته ثانياً، ومن عتاق الكلمة والسيف في قلبه واليد ثالثاً.

والعجب، بعد هذا، أن يكون العارف بثقافة عصره، وبتراث أمته، في تاريخها الماجد والسحيق، هذه المعرفة الشاملة، وأن يتوقف في تحريه عن أمجاد الأسلاف، ممن أخلصوا لدينهم وأمتهم، عند مجد الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز، وأن يطلع، شخصياً، على مثواه وجامعه ومقامه في دير النقيرة بمعرة النعمان، وأن يرى ما درس من معالمها، فيعطي توجيهاته بترميم الضريح، وإعادة بناء القبة الأيوبية بالأسلوب الأموي، ونقش ما كان نقش عليها من آيات القرآن الكريم، وبناء المدخل والجدران، وإعادة ما انتزع من هذا المقام، الذي اكتشف في الخمسينات من هذا القرن، من أرض ألحقت بغيرها.

إن هذه المكرمة من الرئيس حافظ الأسد، إذا أضيفت إلى مكرماته في ترميم جامع بني أمية بدمشق، وترميم الآثار في سورية كلها، تسمح لنا، في نداوة الجميل إزاء الجميل، أن نرى إلى صنائعه الجميلة بعين غير مزججة، غير زائغة، وأن نوازن، بين سلوكه في حياته، من الجانب التديني، وبين فعله في هذه الحياة، بسبب من هذا التدين، وأن نكتشف، بأكثر مما اكتشفنا حتى الآن، هذا التلازم الباهر بين سلوكه والفعل، بين قوله والتوجيه، بين نهوضه بأعباء

الكفاح والعمران، وأعباء إحياء المعالم الإسلامية، تراثاً محققاً، وأثراً مجدداً، ورعاية سابغة لأرباب الشعائر الدينية، وتقريباً للعلماء منهم، قرابة فيها التماس للنصح، على نحو ما كان يفعل الأماثل من الأسلاف، ومنهم، وفي مقدمتهم، الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي حرص سيادته، رغم المشاغل والأعباء، أن يتابع بذاته أمر استعادة هذا المقام المبارك، من يد البلى، إلى يد الإحياء، على النحو الذي تشاهدون ونشاهد، وتعرفون من قيمة المكرمات ونعرف.

ولشدّ ما تخفّى، وأخفى، سيادته، من مثيل لهذا الصنيع، فهو يؤثر أن يكون فعل الإيمان فعلاً بين الناس وربهم، وهذا ما يأخذ به نفسه، ويلزمها به إلزاماً إلا أن الطيب، في الندّ من الأغصان، يضوع، ومن شميمه يعرف، وهكذا تأبى الصنائع، في فضائلها، أن تحجب بالزهد في إعلانها، فتستعلن، مادام قدر الأشياء، في تلاوينها، هو قدر الشمس في سطوعها، ومن في وسعه أن يخفي خضرة الربيع، في لونها والبهاء، وتوهج الشمس، في ذهبية أصباحها والأصائل.

فيا أيها الخليفة الصالح، يا عمر بن عبد العزيز الثاوي في هذا المقام، انعم بما تنعم به، في الملأ الأعلى، من جوار، كفاء زهدك في العاجلة، وتوقك إلى الآجلة، ولتهنأ روحك، وتقر عينك، وتنتصر سريرتك، فقد قيض الله لنا ولك، رئيساً هو للنائبات حمول، وللمآثر فعول، وهذه إحدى مآثره، وليست هي الأولى، ولن تكون

الأخيرة، وليست هي الفضلى، ولن تكون وحدها المثلى، فليرحم الله عمراً، وليمد بعمر حافظ، ولتزهر العطايا على سن رمحه، وسن قلمه، لأنه بهما جديد، وقد قال المتنبي يوماً وبحق:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

الثقافة أحد خيوط نسيجنا القومي

واللغة العربية أبرز معطياتها (*)

الأخ الكريم صاحب السمو وزير التراث القومي والثقافة
السيد فيصل بن علي آل سعيد
الوفد الضيف

أرحب بكم ترحيباً حاراً، صادراً عن مشاعر الأخوة التي تستمد تجلياتها من أنبل ما يربط بين الأشقاء العرب، من روابط قومية، هي الجامع بيننا، كفاحاً ضد أعدائنا، وبنياناً يرص صفوفنا، وتطلعاً إلى غد أفضل، يعلي من مكانتنا، وفكراً من قبسه أنرنا دروبنا، في النهضة الحديثة والشاملة، في بلدينا العربيين الشقيقين.

إن الثقافة التي نلتقي اليوم على اسمها، وفي رحابها، ليست مشعلاً وهاجاً للتنوير فقط، ولا معلم حضارة باذخة فحسب، بل

(*) في حفل توقيع الاتفاقية الثقافية بين سورية وسلطنة عُمان – دمشق ١٩٩٢/٩/٢٨.

هي، فوق ذلك، أحد خيوط نسيجنا القومي، النسيج الذي يشكل، في وحدتنا العربية المنشودة، مهاداً للآتي من صنائعنا والمستقبل، حين الثقافة ضرورة في ذاتها، بما هي واجهة للتقدم والرقي، وحين هي، بما تستعلن من معرفة، علم نجاري به العصر انتفاعاً واندفاعاً، للحاق بالأمم المتقدمة، التي كان العلم، تقنية ومعلوماتية، سبيلها إلى هذه الثورة التكنولوجية التي أعطت الدنيا كل جديد في الاختراع والابتكار، وكل حديث في الكشوفات والمنجزات، وكل ما فاخر به القرن العشرون القرون التي سبقت.

ثم إنّ الثقافة، وأبرز معطياتها اللغة العربية التي تنزل بها قرآننا الكريم، تشكل في الجامعة القومية التي توحدنا، أحد الأركان الراسخة، وأحد الحبال التي نتمسك بها، في الوثيق من عروتها، وأحد وسائل مجدنا الأدبي والفني والفلسفي، هذا المجد الذي كان له في الفتح فتح، وفي السفارة إلى العالم، وأوروبة منه، سفارة نفاخر بها، وعن حق، لأننا نحن، في النسغ من أصلاب أسلافنا، قد أعطينا العلم والحكمة والطب والفلك والجبر والهندسة والاجتماع، منحة سبق في الحضارة، أفاد منها الغرب والشرق على السواء.

وإذا كانت القومية العربية قد صمدت أمام جحافل الغزو بكل أنواعه، والاحتلالات في كل مسمياتها، فذلك عائد إلى أن اللغة العربية كانت لساننا، وبياننا، وهذه اللغة كانت الوعاء لتراثنا العظيم، والحافظ والمحفوظ في ديننا الحنيف، والموئل الذي لذنا به

في عاصفات النوب، فكان نعم الموئل ونعم الملاذ، ومن أجل هذا فإن الثقافة العربية، بما هي معطى لغة عربية، تزدهر وتنتشر في أربع جهات الأرض الآن، ومن منطلق الرغبة في المزيد من ازدهار ثقافتنا، نجتمع الآن، بعد أن تداولنا مختلف الآراء والأفكار والمقترحات، حول ما يعزز الروابط الثقافية بين مسقط ودمشق، كي نوقع اتفاقاً ثقافياً نثق بأننا سنبلغ به ما نصبو إليه، من اتساع التبادل الثقافي وتعميقه وتفعيله، في خطا تدفع بنا إلى أمام، وسيكون لها أثرها الكبير في الحاضر والقادم من السنوات، مادامت النوايا تنعقد على أروع صور التعاون الثقافي الذي نعمل له، وفي كل ألوانه وآفاقه.

مرة أخرى أرحب بكم، رسلاً للثقافة العربية، ورسلاً للوحدة الثقافية العربية التي ما انفصمت عراها أبداً، رغم كل ما عاناه الوطن العربي من انفصام العرى، في الجوانب السياسية، هذه التي تعمل سورية، بقيادة رئيسها حافظ الأسد، عبر التضامن العربي، على رأب صدعها وتمتين حلقاتها، لنبلغ في تضامننا ما نهدف إليه من عزة وكرامة.

أهلاً بكم في أرضكم، في دمشقكم، بين اخوتكم، تحملون الكلمة الطيبة لتكون نبتاً طيباً، نبادلكم طيبه بمثله ولا نزيد، فأنتم في كل هذا من يزيد ولا يزاد عليه، لأن التاريخ يحمل من مآثر أرضكم، وشميم عراركم، الشيء الكثير.

ومـن سـورية، بلـد الحـضارات والثقافـات، إلى عُـمان، بلـد الحضارات والثقافات، ماضياً وحاضراً، أوجه التحية إلى الـسلطنة الشقيقة، وإلى كل المثقفين فيها الذين تجمعنا وإياهم صـلة الحـرف، وما أعظمها صلة، في علاقات الشعوب والأمم.

تواصل مفتوح الأفق(*)

السيد طارق عبد الرحمن المؤيد

وزير الثقافة والإعلام في البحرين

الأشقاء الضيوف

كما تسهم الريح في تفتيح براعم الزهر، كذلك يسهم التبادل الثقافي في تفتيح براعم الثقافة، لكننا ونحن نستقبل هذه الإسهامات من ثقافة الخليج، فإننا على معرفة، ودراية أيضاً، أنّ البراعم ههنا قد أصبحت نوّارات في عطاء اللون والشذى، وفي تنوع الإبداعات وغناها، لأننا إذ نقول البحرين، نقول تاريخاً من الحضارة، وما كانت هذه، على ما فيها من أبهة وجلال، إلا نتاج ثقافة أصيلة، بحرينية تدعى، وهذا حسبها، في المبنى والمعنى كليهما،

(*) في افتتاح الأسبوع الثقافي البحريني في دمشق، ١٢/١٠/١٩٩٢.

رحم الله تلك الأيام، حين كان الحكم في البحرين وطنياً، والشيخ الحاكم رجل إيمان بالعروبة، وبالتضامن العربي، وبسورية رمزاً لكل ذلك، وكان لأسابيع الثقافة المتبادلة شأن أي شأن، وهذا ينسرح على النصوص التالية المتعلقة بالبحرين.

المبنى لأنها ثقافة نابعة من تراث عريق، والمعنى لأن العراقة فيها قد امتزجت بالحداثة، شعراً وقصة ومسرحية ورواية، ثم فناً تشكيلياً ولحناً موسيقياً، معبراً عن مشاعر أخوة لنا في البحرين الشقيقة، امتلكوا ذائقة ترفيه، في التعامل مع هذا النتاج كله، أداءً وتلقياً، على هدهدة نغم يحكي قصة النفس، بما فيها من أشواق وصبوات، وبما نعمت به من استلهام زرقة الماء وزرقة السماء، فأتى التلوين الإبداعي حاملاً ثراء البيئة الخليجية، في تجاور موحٍ، ما بين عمق اللجة وانداحة الصحراء، ليشكل لوحة تراها فتعرفها، بسبب من أنها تتأنق في انتمائها، جامعة ما بين مدى تخاله وهماً، وبين تعرف أنه حقيقة، والرائي المسافر على زاد من خيال، يستجلي هذه الأمداء، في بعدها المكشوف على رؤى صحراوية وأخرى بحرية، شاء الارتسام الجغرافي، في ندرة الاقتران ما بين الجمالين، أن يقترن الجمالان ههنا، ليكون للبحرين، وجوداً وتعبيراً، تميزها الخاص، بل شديد الخصوصية.

ولئن كانت الثقافة رسالة ورسولاً بين الأشقاء، فقد بلغنا الرسالة وها أنتم الرسل، ونحن ندرك أننا في ترحابنا الحار بكم نغنم، فوق ما في اللقاءات الشخصية من مغنم معرفي، رؤية عيانية لإنجازاتكم الإبداعية، هذه التي كنا نتحراها في بعض مظانها، من كتب ومجلات وصحف، ونقدر رفدها تقديراً طيباً، سواء في الشعر أو النغم أو اللون، ونعد لتمتين الأواصر من خلالها وعلى اسمها، إلى أن سنحت الفرصة، فكانت هذه الأيام الثقافية البحرينية التي

نحتفي بها بالغ الاحتفاء، باعتبارها الخطوة الأولى في طريق رحب وطويل، قوامه تواصل مفتوح الأفق، منطلق الشراع، رهو النسمة، تهب جنوباً وشمالاً، حاملة غلينا ريّ المودات، جمّ العطاءات، جمالية وفكرية، وفي هذا كسب مضاف، تتوثق به عرى الوحدة الثقافية التي ما انفصمت يوماً، لأنها الحقيقة التي تفضي إلى حقيقة أكبر، أولاهما ثقافية في وحدتها، تنويرية في هدفها، والأخرى سياسية في وحدتها، قومية في غايتها، من شأنها أن تجمع، حين تتحقق، شمل العروبة والعرب، لتتيح لنا، كرة أخرى، أن نكون قوة قوية، ذات مكانة ورفعة، ومجد يستعيد الباذخ من مجدنا، والضخم من سفر تاريخنا، هذا الذي نعمل كلنا على استعادته، بكل سؤدده وبهائه، ونبذل في طلابه جهداً دؤوباً، واثقين أننا مدركوه، بالعزائم التي تأتني على قدر العزم، والمكارم التي ينهض لها الكرام من أبناء هذه الأمة، وهم المفادون الذين لا غالب لهم، لأن الله ناصرهم، وهو حسبهم ونعم النصير.

إن دمشق، والأسماء بمثلها تزهو، قد زهت أبداً بالشقيقات من العواصم العربية، والمنامة عاصمة تكتب ذاتها في النعميين: نعمى التلادة لوحاً مذهب الجناح، ونعمى العراقة سجلاً مخلد الأرومة، ويأتي السياق في تسلسل الوقائع مديداً، في صحائفه غرر مجيدات، بعضها للشجاعة، وبعضها للبراعة، وبعضها الثالث لوشائج الأخوة، نداء مجاباً في كل آن، فهذه الإمارة التي تتخاصر والخليج العربي، قد كانت أميرة في انتمائها العربي، ولسانها العربي،

ويدها العربية، مبدعة وسخية في فيئها ونضرة حرفها، ووفية ومعطاء في كل ما من شأنه أن يرتفع بالعروبة شرفاً وإبداعاً، وإذ تستأنف الشوط الثقافي الآن، فإن استئنافها يرتكز على قاعدة معرفية وحضارية تنطلق منهما في طموح مبرر إلى العلى، وما كان العلى يوماً إلّا قصيداً، يعتق كالغالية ومثلها يطيب، وما كانت دمشق إلّا رجعاً للقصيد يتردد منها في سمع الدنيا، ومعها يحقق حضوره، وبها يقترن انتشاره، وليست أيام الثقافة البحرينية إلا مثلاً على حضانة الشآم للإبداع العربي، وإلا دليلاً على تعاملها معه على أساس من الندية، والتفاعلية الوجدانية، أخذاً وعطاء، لإدراكها القومي ان كل ما يخلقه التفاعل بين ألوان الثقافة العربية، هو خلق فيه ارتقاء وازدهار وخير عميم، للدوحة الثقافية التي هنا اصلها، وفي كل قطر عربي جذر من جذورها.

أرحب بكم ثانية، ومع الترحيب تشديد على أهمية ما بدأناه من تبادلنا الثقافي، ففي مجرى العلاقات الوطيدة بين بلدينا، تتخذ العلاقات الثقافية، بما يتصاعد من دور الثقافة في أيامنا هذه صفة أكثر عمقاً وأبعد شمولاً من أن تكون مناسبة عابرة، فسورية، بقيادة رئيسها حافظ الأسد ورعايته للثقافة، وعنايته بالمثقفين، حريصة على أن يكون المنبر الفكري فيها، منبراً فكرياً عربياً، متاحاً للعرب في كل أقطارهم، وليست بلدان خليجنا العربي إلا في الصدارة من هذه الأقطار.

وأغتنم مناسبة هذا اللقاء الثقافي الذي سيكون له أثره الكبير في تطوير علاقات سورية بالبحرين، كي أوجه التحية مقرونة بالتقدير إلى سمو الأمير الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أمير البحرين، وإلى الشعب البحريني الشقيق.

شكراً لكم، وعلى الرحب منزلاً، وفي حرارة اللقيا موئلاً، به نلقى الأشقة، وبمثله يلقوننا، وفي هذا تعبير عن الرباط القومي الذي يوثق عرانا جميعاً.

سر خلود أمتنا العربية(*)

الأشقاء الحضور

الكلمة على اليراعة، كالدمعة بين هدب وهدب، وكالبسمة، مجتلاة، بين التماعة عين وأخرى، تتراءى في المبهم من شأنها، وكذلك في المجنح منه، فإذا هذا المبهم، وهذا المجنح، حقيقة ووهماً، لا مبهماً ولا مجنحاً، لأنه، في المآل، لغز هذا الكون، وقصته، وأسطورته التي نأتيها على دهش، ونعيشها، أبداً، في دهش أيضاً.

وإني لأعترف: أهاب الكلمة! أهابها خاطرة وباصرة، وأهابها هديراً وبوحاً، وكذلك أنقاً موشّىً، وترفاً منه المطارف رؤى في الروض، ومنه السابحات في المدارات العلى، فلكاً بعد فلك، بعد فلك.

وهكذا أنا معها على شيء من ألفة، وشيء من صحبة العمر، لكنني، رغم هذا، لشد ما تهيبتها، حين كتبتها هادرة، وتطلبتها نادرة، ولشد ما سعيت إلى اقتناصها غمامة مشردة، ونهضت لها على

(*) في افتتاح الأسبوع الثقافي السوري في دولة البحرين، المنامة، ٢٥/١٢/١٩٩٣.

الورق والمنبر، ومع ذلك تبقى الكلمة، بالنسبة إلي، عصية، محيرة، متحيرة، فلا هي كالمزنة تهمي، ولا أنا كالمجترئة أتلقاها بالسنان، تفاحة تنشطر وتشطر هذا التهيب معها.

إذن العذر ملتمس وأنتم العاذرون، إذا جئتكم في موكب الثقافة دون أن أجر الذيل تيهاً بها، ودون أن أسحبه، خصلة شمس، في مسارها، لأنني أعرف، أنه ههنا، في هذا البلد الصغير الكبير، كوكبة من المثقفين، تحاذر من كانت مثلي، أن تطلع شفقاً في أفقها، وتحاذر، ان أطلّت خيلها، أن تكون بين الأصائل منها، فالشوط، في السبق إلى العطاء ثقافة، قد كان طويلاً في تاريخكم، تجاوز جغرافية المكان والزمان، ليكون، هو نفسه، مكاناً فيه من عبقر صدى الوادي العجيب، وزماناً فيه من الماضي تليد، يحمل كل طريف، ليزيد في طريفه وطرافته إضافة بها تغتني العطاءات، أدبية باسم الأدب، وفكرية باسم الفكر، وإبداعية باسم الإبداع، بداية لا نهاية لها، لأنه هو، الإبداع، جل أن تكون له نهاية بعد أن امتلك البداية، ومنها انطلق صوتاً صائحاً بين اليابسة والماء، انني أنا الألق الشفيف، الباعث حياة تتسامى على كل حياة، إذ هي تعطي حياتنا، بما نحن بشر، وجودها الأجمل، وفتنتها الكبرى، وغايتها المثلى، في أن تكون للغد بمثل ما كانت للأمس، مجداً عنده تتطامن الأمجاد، لكونه المجد الباقي، وما عداه إلى زوال، وباعتباره المرتجى، في الحرف، أن يتم النقلة، بين ما كان وما سوف يصير، والنقلة هذه في الخط المعرفي الصاعد، هي التي تأخذ بنا إلى أمام، وإلى أمام دائماً،

رغم المنعرجات في طريق السير، ورغم العنت في السرى المدلهم، وكذلك رغم مكر التاريخ، يريد بنا الرجعى، مؤقتة، ونريد به التقدم الذي يجاوز الرجعى ويجتازها، كي يستقيم بعد ذلك مع انبلاجة صبح، هي الموعد والموئل في آن.

بهذا المبتدأ نأتيكم وأيامنا الثقافية بين أيدينا، وبهذا الخبر أتيتم إلينا وأيامكم الثقافية جلوة حضارة عربية إسلامية، لنا منها شطر ولكم منها أشطار، لأنها من الجزيرة العربية انبثقت، فانطلقت فأنارت واستنارت، ولا يزال العالم من حولنا، يقبس منها نوراً، فنستعيده نوراً، وثوقاً منا أن التفاعل الثقافي، ما كان ليكون لولا تلاقحه، وما كان ليعطي ثماره، لولا هذا التفاعل والتلاقح، وبهذا وحده نبرهن، كما في أيام السلف، ان الخلف يدرك مدى أهمية الانفتاح الثقافي، ويمارسه دون أن يهابه، لإيماننا أن الثقافة العربية، التي عرفت من غزوات الثقافات الأجنبية الكثير الكثير، ثقافة متكاملة، راسخة، باقية، صامدة، تعطي وتأخذ على الدوام، وفي هذا العطاء والأخذ تكون حيث يجب أن تكون، من نقطة الصيرورة الثقافية التي بلغتها الأمم الأخرى.

ولئن كانت الثقافة العربية التي هي حاضنتنا، وجامعتنا، ومدانا الأرحب، قد ظلت موحدة رغم الانقسامات، وفاعلة في توحيدنا رغم التمزقات، فإن علينا، وبكل ما نملك من عزيمة، أن نتخطى التخوم الجغرافية، والحدود السياسية، بالجهد الثقافي، لأنه الجهد الوحيد الذي يتخطى التخوم والحدود، ويثبت حضوره

الواحد الموحد في الوطن العربي كله. ورغم كل عوامل التباعد والفرقة، فإن سفارة الثقافة، هي السفارة التي تجمع بعد تشتت، وتشكل اللحمة بعد انفصام، وتأسيساً على هذا فإن الأيام الثقافية المتبادلة، في وضعنا الراهن، تغدو أكثر من وسيلة لاطلاع بعضنا على ثقافة الآخر، على أهمية هذا الاطلاع، وتصبح، في الشأو الذي نبتغيه، عامل انهاض ثقافي جمعي، تتمرأى فيه صورتنا الحضارية، لتكون لنا واجهة وعنواناً، بهما نتبدى للدنيا، وبهما تعرف الدنيا من نحن في رفد الحضارة الإنسانية قديماً وحديثاً على السواء.

إن دمشق، دمشقكم، دمشقنا جميعاً، قد وجدت في إبداعاتكم الثقافية، التي جسدتها أيامكم الثقافية فيها، مخايل للنبوغ الذي إلى نماء، ومطالع لترسيمات فنية، في سائر ألوان الفن، تعد بالكثير، بل هي في ذاتها تستعلن راهناً في هذا الكثير، وعسى أن يكون لأيامنا الثقافية في البحرين، ما كان لأيامكم الثقافية في سورية، ومن نافل القول إنه في هذا التعارف الثقافي المتبادل، يكون النفع والانتفاع بالخبرات الثقافية لبلدينا وشعبينا، وبصورة متبادلة أيضاً، وبقدر ما نزداد تواصلاً ثقافياً، نزداد تواصلاً قومياً، وفي هذا سر خلود أمتنا العربية، التي بلسانها تنزل الوحي الكريم، ليكون، من بعد، رباطاً قومياً هو العروة الوثقى التي نتمسك بها.

ومن البدهي أن يتعاظم الدور الذي تلعبه الثقافة، في أيامنا الرمادية هذه، الحافلة بالمفاجآت، وأن تتقدم هي، الثقافة، لتغدو الأمل وطليعته: الأمل في تبديد كل رمادية في اللون، ليعقبها

الإشراق، والطليعة المعول عليها في إنهاء الجزر الراهن في وضعنا العربي، ثم التمهيد، تنويراً نهضوياً، للمد الآتي، المد الذي أصبح مرتقباً من أكثر المفكرين العرب، ومن أرفعهم مكانة، إدراكاً منهم أن التراجع العربي لن يدوم، وان الانحسار الحالي مصيره أن يتوقف، لا بالتمني، بل بالعمل الدؤوب، وبالارتفاع على الشدائد عنوة، اقتداءً بأمم عانت ما نعاني، وشعوب خوضت مثلنا في مستنقعات الموت، وظلت أقدامها ثابتة، وأيديها ثابتة، بينما لحق الوهن بأيدي أعدائها فارتجفت، وسقطت سقوط الشلو أصاب منه السهم مقتلاً.

لقد تعارف المناضلون، الصادرون عن نظرة علمية، أن السياسة في القيادة، إلا أن الثقافة، في زمننا هذا، هي التي تقود، وهي التي توجه، وهي، كذلك، التي تمهد للسياسة، وعلى هذا النحو أصبحت الثقافة مسئولة لا سائلة، ،اصبح المثقف قائداً لا مقوداً، وبات على السياسي أن يأخذ خطابه من الثقافي، وهو يأخذه اليوم، وسيأخذه بقدر أكبر غداً، وعلى هذا فإن نهضة سياسية مرتجاة، تعني نهضة ثقافية مرتجاة، تسبق وترود، وتخرج بنا من غابة الظلمة، إلى نور السهل، حيث الرحابة مدى، ونحن فيه أسياد النقع المستثار.

هذه بإيجاز، أو بتطويل، نظرتنا الآن إلى الثقافة، وهذا وعينا بها وبدورها الكبير الخطير، ومن هذا الوعي ننطلق، في سورية، بإرساء دعائم نهضة ثقافية عربية قومية، هي لنا إنتاجاً، وهي للعرب كلهم

فيئاً، ولسنا في موقفنا هذا سوى رسل لهذه النهضة التي لن تتكامل دون إسهام المثقفين العرب كلهم، في مختلف ديارهم، برفدها عطاء جميلاً، يشهد عليه عطاؤكم الجميل، الذي عرفنا، في دمشق، خلال أيامكم الثقافية، وجئنا لنتعرف عليه أكثر، خلال أيامنا الثقافية، وعلى الطبيعة مباشرة، والفضل، فوحاً يضوع، يعود إلى رئيسي بلدينا، القائد حافظ الأسد الذي رعى الثقافة رعاية شاملة ومستمرة، وسمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة الذي رعى ويرعى الثقافة في هذه الإمارة العربية الشقيقة.

ختاماً كل الشكر لكم، فقد أصبنا، من ترحيبكم الحار بنا، غالية المودات، ونعمنا في حفاوتكم الأخوية، بروح الأخوة العربية الحقة والصادقة، وليس هذا غريباً على مثلكم، وليس هذا جديداً على مثلنا، فالكرة الأرضية الزرقاء، أضحت صغيرة كالبرتقالة، وعلى استدارتها يجاور الخليج الشام، بمثل ما يجاور الماء اليابسة، وفي فضائها نتلاقى على اسم الحرف العربي، وما أكرمه وأعظمه في آن.

فهم أرحب وتقارب أكبر
بين قطرين شقيقين (*)

تحية عربية،

عدت من البحرين وفي السريرة قناعتان: أولاهما جدوى التبادل الثقافي الذي أخذ به كلانا، وثانيتهما مدى ما للقاء الشخصي من قدرة على الفهم الأفضل لظروف وأوضاع كل بلد للبلد الآخر.

ولأن الغبطة تستعلن في الكلمة والإيماءة واللفتة، فقد استعلنت غبطتنا بما رأينا من معالم النهضة الثقافية الإعلامية في البحرين، في الكلمة صريحة، صادقة، قيلت، وفي الإيماءة مدىً ترامى، واللفتة إعجاباً دهشاً لكل هذا التفتح الإنساني، الذي تراءى في اليد البيضاء حفاوة بالغة، وفي الترحيب منه اللفظ منطبق على الفعل، وكذلك في حرارة اللقيا نداوة حوار صريح بالغ السعة، والعمق، والإحاطة، والمودة، دار بيننا وبين سمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، ومعك أنت شخصياً أيها الأخ الكريم، حول

(*) رسالة تحية إلى الدكتور طارق عبد الرحمن المؤيد وزير الثقافة والإعلام، بعد العودة من البحرين عقب انتهاء أيامنا الثقافية فيها في ٩/٢/١٩٩٣

العلاقات ثنائية، والعلاقات قومية، عربية، ثقافية، حضارية، خرجنا منها بانطباع جميل بقدر ما هو مريح، وأثير بقدر ما هو ثمين، من خلال هذا التقدير المتبادل بيننا، وهذا الثناء الذي سمعناه ووعيناه على الجهد الوطني والقومي الذي يبذله الرئيس حافظ الأسد، في سبيل اللحمة العربية، والتضامن العربي، ويبذل مثله سمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، أمير البحرين حفظه الله.

ولئن كانت أيامنا الثقافية في المنامة ناجحة هذا النجاح الطيب، فإن أيامكم الثقافية في دمشق كانت ناجحة نجاحاً شاملاً، أفاد، كل منا، من نتائجها، ومن تعريفها وتعارفها، فكان الاطلاع وسيلة لفهم أرحب، وتقارب أكبر، وتبادل خبرات وآراء أتاح للعملية الثقافية في بلدينا أن تفوز منها بغنى ثر الفوائد، جم المعطيات المعرفية، أدباً وفناً وآثاراً وتشكيلاً، الأمر الذي سيكون له تأثير نضير على علاقاتنا الثقافية مستقبلاً.

إن العين، في نظرتها التي تتقرى ما هو دون السطح من حقائق، قد أبهجها هذا المجتمع البحريني المنفتح على العالم الراهن، ومكتسباته في الحرية والتقدم، وإنجازاته في العلم والتعليم، في أعلى مستوياتهما، وعلى ما قدم للمرأة البحرينية من مساعفة في حضورها المتميز على كافة الصعد، وما أفاء به على المواطن البحريني من أمائر العيش الكريم، والطمأنينة السابغة.

ومع كل الميل إلى الموضوعية الحقة، في الكلام على كرم الضيافة، وحسن الوفادة، وعذب الحديث المتبادل بينكم وبيننا

كوفد ثقافي شقيق، فإن ثمة فضلة من أريحية لمسناها وعشناها، وإضافة من تغطية إعلامية تحققت لنا من قبلكم، فأكسبت أيامنا الثقافية، في كل ألوانها، انتشاراً أمدى مدىً، وأجل نفعاً وانتفاعاً، وفي هذا دليل على ما تتمتعون به من ذكاء وقّاد، وخبرة عميقة في الشأن الثقافي والإعلامي، مما يستحق التكرمة والتقدير والشكر.

النجم لا ينزل ليصير لؤلؤة في كف، لكن الكلمة، في سطوع تجليها، تمنح ألق اللؤلؤ للعلاقة الأخوية المنبنية على الصدق والتكافؤ.

مع وافر التحيات الحارة والتمنيات الصادقة.

نرحّب بالوزير الضيف

رجلَ ثقافة وفكر..(*)

الصديق العزيز ميلان كلوتساك

وزير الثقافة في تشيكوسلوفاكيا

من الأساس يبدأ كل شيء، فالعلاقات بين الشعوب، على مدى التاريخ، كان ينتظمها سلك ذهبي، هو سلك الحضارة الإنسانية، ثروة كوننا التي لا تنفد، لأنها ثروة الثروات، ولأن كل ما عداها إلى نفاد، حديداً كان أم نفطاً، وتبقى هي كالبحر، أزلية أبدية، شامخة في بنيانها، رفيعة في عطائها.

ويسعدني، اليوم، أن يكون بيننا وزير صديق من دولة صديقة، عريقة في حضارتها، مبدئية في مواقفها، أمينة في التزاماتها بقضايا الشعوب، ومنها قضية شعبنا العربي الذي يناضل لتحرير أراضيه المحتلة من قبل إسرائيل، واستعادة حقوقه المغتصبة، وإقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني.

(*) في حفل تكريم وزير الثقافة التشيكي، في دمشق، ٣/١٠/١٩٨١.

وليس الصديق الكريم الدكتور ميلان كلوتساك وزيراً للثقافة فقط، إنه بثقافته الغزيرة، الشاملة، عنوان للثقافة ومن الذين ينسجون من أسلاك ذهبية، علاقات ثقافية واسعة بين بلاده والبلاد الأخرى، ومنها قطرنا العربي السوري، هذا العريق في حضارته أيضاً، والناسج علاقات مماثلة يريدها أبداً إلى ازدياد، كي يتشكل من الجداول الثقافية بين الأمم، نهر الحضارة البشرية العظيم، الزاخر.

وإذا كانت الجمهورية التشيكوسلوفاكية الاشتراكية، قد وقفت إلى جانب قضيتنا العربية، وترجمت مواقفها إلى تعاون في كل المجالات، فكانت سباقة إلى الدعم والتأييد، مادياً ومعنوياً، فإن هذا يعود إلى مبدئية القيادة التشيكوسلوفاكية، وإلى المحادثات واللقاءات التي جرت بين رئيسي البلدين، الرئيس هوساك والرئيس الأسد، وما برز خلالها من تفاهم واتفاق في وجهات النظر، كما يعود إلى وجود أمثال الرفيق كلوتساك الصديق العزيز لسورية، وللأمة العربية، في مواقع المسئولية، في تشيكوسلوفاكيا الصديقة.

ولهذا فإننا نرحب به مسئولاً بارزاً، وصديقاً حميماً، ورجل ثقافة وفكر، ونثق أنه في زيارته هذه، وفي اللقاءات التي تمت بينه وبين المسئولين في سورية، وفي محادثاته مع الكتاب والفنانين والمثقفين، قد استطاع أن يضيف خطوطاً جديدة، إلى الصورة التي يحملها عن هذا البلد المناضل، بقيادة رئيس مناضل، ترى فيه الأمة

العربية زعيماً عربياً كبيراً، يأخذ بها في دروب الكفاح لأجل النصر، وبناء الدولة العربية العصرية، والمجتمع العربي الموحد، وينطلق من موقف ثابت في قراع الأعداء، وتمتين الصداقة مع الأصدقاء.

إن قطرنا الذي يشكل دولة المواجهة الرئيسية والأساسية بالنسبة للعدو الإسرائيلي، وينهض بعبء القضية العربية القومية، بعد خروج مصر السادات من المعركة مع العدو، يعرف أن عليه أن ينهض بجناحيه كليهما، فهو من جهة يعمل لإزالة الخلل في الميزان الاستراتيجي، ليمتلك القوة الرادعة للعدوان، ومن جهة أخرى يعمل للبناء الاقتصادي والاجتماعي، وتنفيذ برامج التنمية، في خطة متكاملة للتحرير الوطني والتقدم الاجتماعي، وهو إذ يتصدى لهذه المهمة الكبيرة والخطيرة، يواجه كثيراً من المؤامرات والضغوط، وكثيراً من الاعتداءات والتحرشات، ومن أبرزها الهجمة الامبريالية الأمريكية الصهيونية على المنطقة، ورأس حربتها الحلف الاستراتيجي الأمريكي الإسرائيلي، الذي يضع واشنطن في مجابهة مع الأمة العربية، وفي حرب مكشوفة معها.

غير أننا، كما قال الرئيس حافظ الأسد، لن نركع أبداً، وسنقاوم وننتصر، وسنتخذ من وحدة الصف العربي، ومن دعم الدول الاشتراكية، وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي الصديق، سنداً لنا في مقاومتنا ونضالنا، مادام العدو مشتركاً، ومادام الكفاح ضده مشتركاً أيضاً.

مـرة أخـرى أرحـب باسـمي وباسـمكم بالـضيف الكـريم، متطلعة إلى علاقات ثقافية أوسع وأعمـق، بـين بلـدينا، إضـافة إلى العلاقات الأخرى، آملة أن تسهم هذه الزيارة في تمتين الصداقة بين حكومتينا وشعبينا أكثر فأكثر.

نقدر عالياً المواقف المبدئية للجمهورية العربية السورية(*)

أيتها الصديقة العظيمة والزميلة

السيدة الوزيرة الدكتورة نجاح العطّار

أيها السيدات والسادة

اسمحوا لي أن أعبر من جديد عن سروري المخلص، لأنني تمكنت، بفضل دعوة الحكومة العربية السورية، وبفضلكم أيتها السيدة المحترمة الوزيرة، من زيارة بلدكم الجميل، وأشكركم من أعماق قلبي على العناية التي أحطنا بها، فتمكنا من التعرف إلى الثروة العظيمة لثقافة الماضي السوري، والتطورات الديناميكية للثقافة السورية المعاصرة، واتضحت لنا عبر الاتصال المباشر جهود الشعب العربي السوري، تحقيقاً لمستقبله السعيد في جو السلم.

(*) كلمة وزير الثقافة التشيكوسلوفاكي في حفل التكريم الذي أقيم له في دمشق أثناء زيارته لها عام ١٩٨١.

حملنا إلى سورية معنا رسالة الصداقة والتضامن. ونحن نؤكد أن شعب الجمهورية العربية السورية يستطيع أن يعتمد، وبشكل تام، على تأييد شعب بلدنا الاشتراكي الذي يسير معه بطريق التقدم، والسلام، وهذا الموقف الأساسي قد توضح أيضاً خلال زيارة السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، ورئيس الجمهورية الاشتراكية التشيكوسلوفاكية الرفيق جوستاف هوساك لسورية في أيار ١٩٧٩. ونحن نقدر في الحقيقة أن العلاقات بين الجمهورية الاشتراكية التشيكوسلوفاكية والجمهورية العربية السورية تتقوى وتتطور باستمرار.

إننا نقدر عالياً المواقف المبدئية للجمهورية العربية السورية في الأوضاع السياسية المعقدة، في منطقة الشرق الأوسط، وفي نفس الوقت في العالم أجمع. نقدر باحترام أن الجمهورية العربية السورية تقف في الصفوف الأولى، للقوى التي تواجه محاولات الامبريالية العالمية، والصهيونية، منع الحل الإجمالي والعادل لهذا الوضع، في هذه المنطقة الحساسة فوق العادة، من الشرق الأوسط، إذ تساهم بمواقفها المضادة للامبريالية بشكل أساسي، وباشتراكها النشيط في جبهة الصمود والتصدي، وبنضالها لأجل الحل العادل لهذه المشكلة الجدية، ولتعزيز السلام وكفاح الشعوب.

وتذكرنا، وبصوت جهير، الآثار الثقافية التاريخية في سوريا التي تمكنا من مشاهدتها، في دمشق وحلب وتدمر، وفي الأماكن الأخرى، تذكرنا بكل مكان تقع فيه رجل المعتدى على الثقافة

المزدهرة، إذ تتحول البساتين إلى صحراء، ويصمت الإيحاء بين الأسلحة، كما يقول المثل اللاتيني. لذلك فنحن نتحقق معاً بأن السلام هو الشرط الحازم، بالنسبة للتقدم في كل مجال النشاط، وبأن شعوب عالم اليوم ليست لها، من وجهة النظر هذه، مهمة أكبر من الدفاع عن السلام.

إن الثقافة السورية المعاصرة المشبعة بروح الإرث الإنساني لتاريخها المجيد، تخلق الأعمال التي تسهم، عن طريق الاستيعاب الديموقراطي، في إغناء الحياة الروحية لشعبكم، وكذلك في إغناء محتوى الثقافة والفن العالميين، عن طريق علاقاتها الدولية.

إن اطلاعنا على الأعمال الفنية، ولقاءاتنا مع المبدعين الفنانين من سورية، أكدت لنا أن الأمر هو في الخلق الذي ينبض بإيقاع يتماشى مع جهود الشعب العربي السوري. وهكذا فإن الثقافة السورية تذكرنا كثيراً بجهودنا الثقافية السياسية الذاتية، من أجل خلق الثقافة الحقيقية، وتطويرها، بالشعب ومن أجل الشعب.

إن الجمهورية الاشتراكية التشيكوسلوفاكية تهتم اهتماماً عميقا بتطوير العلاقات الثقافية مع الجمهورية العربية السورية، الأمر الذي قد بحثناه بمناسبة زيارة السيدة الوزيرة الدكتورة نجاح العطّار والوفد المرافق لها إلى تشيكوسلوفاكية، في السنة الماضية، وهذا يتم بروح تعاون ودي بين بلدينا في جميع المحاولات، ويحتل فيها مكاناً هاماً بشكل خاص، التعاون المتبادل بين الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي وحزب البعث العربي الاشتراكي،

فنحن نعبر عن هذا التعاون في التأييد المشترك، في المسرح السياسي الدولي، وأيضاً في المجال المادي. وفي هذا الصدد يسرنا أننا من خلال رحلتنا، في وطنكم، استطعنا مشاهدة الشواهد الحقيقية للتعاون التشيكوسلوفاكي السوري في المجال التجاري والاقتصادي أيضاً.

وفي الوضع المتوتر الحاد للعلاقات الدولية اليوم، عندما تنفذ القوى الامبريالية، بشكل مفتوح، السياسة التي تهدد السلام بشكل جدي، وتهدد استقلال الشعوب وحريتها، لا بدَّ من ان نعتبر أمراً هاماً وضرورياً، تثبيت وحدة القوى التقدمية، والمضادة للامبريالية، وإقداماتها المشتركة في النضال من أجل السلام والأمن الدولي، وضد الاستعمار الجديد والصهيونية والعنصرية.

إن صلة التضامن التقدمي، والمضاد للامبريالية، تربط بين جميع الدول، رغم أبعادها الجغرافية، والحقيقة أننا جميعاً نمثل جزءاً من النضال الثوري، من أجل تغيير العالم، وجزءاً من نضال النظام الاجتماعي الجديد ضد القديم.

إن الشعب التشيكوسلوفاكي يقف دوماً مع شعوب باقي بلدان المنظومة الاشتراكية، وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي، إلى جانب الشعوب المناضلة من أجل الحرية والاستقلال التام، والتقدم الاجتماعي، وسوف تدعم هذه الوقفة التطورات الاقتصادية والاجتماعية.

أيها الأصدقاء والرفاق اسمحوا لي أن أرفع كأسي في نخب الصحة والنجاحات اللاحقة للسيدة المحترمة الوزيرة الدكتورة نجاح العطّار، ولصحة السادة الحضور، ولازدهار وطنكم الجميل، وثقافته وفنه، وللتطور الدائم لعلاقات الصداقة بين الشعبين التشيكوسلوفاكي والعربي السوري.

سورية منبع حضارات العالم

وجميع الشعوب (*)

سيادة وزيرة الثقافة

السادة الحاضرون الكرام

١) إنه شرف عظيم أن الاتفاقية حول التبادل الثقافي بين اليابان وسورية قد وُقعت اليوم بيني وبين السيدة وزيرة الثقافة. إن هذه المنحة هي مساهمة صغيرة لتوطيد علاقات الصداقة بين سورية واليابان.

٢) ورغم صِغر هذه المساهمة، إلا أنني فخور بها لأنها بالتأكيد ستساهم في توضيح تاريخ الحضارة المديد لسورية.
إن حضارة سورية كانت منبع حضارات العالم وجميع الشعوب، وهي علاوة على ذلك، القوة التي دفعت حضارات جميع الشعوب إلى الأمام.

(*) كلمة السيد سفير اليابان،بمناسبة توقيع اتفاقية حول التبادل الثقافي بين اليابان وسورية، وتقديم منحة للعمل الأثري، مطالع الثمانينات. وقد رأيت أن أنشرها نظراً لما فيها من أفكار ومشاعر هامة.

٣) ويمكننا القول إنّ حضارات العالم الحالية إنما نشأت على حضارات سورية. وفي هذا المنحى، فإن حضارة سورية تعد ثروة وملكية جماعية لكل العالم والشعوب، ولذلك فإنه من الطبيعي جداً ان نشارك وان نكون فخورين وسعداء بذلك.

٤) اليوم هو اليوم الذي عليَّ أن أنعم به بمثل هذا التكريم، لكنني على العكس، أحس بالحزن لأن اليوم سيكون آخر فرصة لي للتمتع بهذا الشرف.

٥) يتبادر لذهني، في نهاية إقامتي السعيدة في سورية، دورُ سورية في تاريخ العالم. إننا نشكل أدوات الله وأعتقد اننا إنما نعمل لتحقيق إرادة الله. ومن وجهة نظر التاريخ العالمي فإن أحداثاً كثيرة تقع كل يوم، لكنها ليست جميعاً أحداثاً مؤثرة وهامة في هذا التاريخ.

٦) إن الأحداث إنما تكون مهمة عندما يكون المرء يعمل بصفته أداة الله، وهذا هو الحدث الوحيد الذي يبقى، وحيث انه يتحكم في الماضي والحاضر والمستقبل.

٧) وما عدا هذا الحديث فجميعه غير هام. إن جميع الأحداث والأشياء الأخرى هي عامل ميت في التاريخ.

وها هنا، فما هو دور تاريخ سورية في الماضي؟ وما هو الآن؟ وما سيكون في المستقبل؟ إنني أعتقد ان دور تاريخ سورية هو في مزج وتوحيد حضارات العالم.

٨) أعتقد أن دور سورية التاريخي هو في توحيد شعوب العالم بعضهم مع بعض، وقد توضح هذا الدور لسورية في العصور

القديمـة، في التنقيبـات الأثريـة الحديثـة، والاكتـشافات التـي أجريت، وقد تبين إضافة لذلك ان سورية لم تكن فقط جزءاً من إمبراطورية بل كانت مركزاً للحضارات.

٩) إيبلا..أوغاريت.. الخ، إنما هي بعض من الأمثلة، ولقد ربطت تدمر اليابان مع الـشرق الأوسـط وأوروبـا. واعتنـق القـديس بولس المسيحية وهو في طريقه لدمشق، وقد باتت ديانة الأقليـة في هذه المنطقة ديانة عالمية. كانت دمشق مركزاً وعالماً حـضارياً امتد من نهر أنداس حتى سلسلة جبال البيرانيه.

١٠) لقد بدأت القومية العربيـة مـن سـورية، لكـن هـذه القوميـة اختلفت عن تلك القومية الأوروبية في القرن التاسـع عـشر، انها كانـت، في جوهرهـا، قوميـة دوليـة. إن القوميـات ذات المفهوم الضيق لن تبدأ من سـورية، لأن كـل مـا يـصدر عـن سورية مقدر له أن يكون عالمياً، وفي نفس الوقت دولياً.

١١) لقد طلبت كل من مصر والعراق وليبيا إقامة وحدة مع سورية لأن دورها التاريخي كان هاماً وحيوياً لهذه الدول. إنني أحلم وأفكر دائماً بالمستقبل، حـين يـأتي الوقـت حيـث يـصبح فيـه العراقيون واللبنانيون والفلسطينيون والأردنيون والمـصريون جميعاً متحدين ومتقاربين مع بعضهم البعض، وحيث تكـون سورية مركزاً لهم جميعاً.

١٢) وطالما ان سورية تبقى في المركز فـإن هـذا الاتحـاد لـن يكـون مغلقاً بل منفتحاً على العالم كلـه. إن سـورية بطبيعتهـا توحِّـد الناس في العالم، وتجعل منهم إخوة.

١٣) إن سورية ستكون موجودة حتماً في وسط هذا الاجتماع الوحدوي الأخوي لشعوب العالم. وها هنا، ما هي سورية بالنسبة لي؟

إنها تمثل موطني ومسقط رأسي.

١٤) يهب الله الموطن للمرء، ولهذا السبب فإن سورية هي موطني. يقال في اللغة الألمانية (ELEND) وتعني (التعيس)، أما المعنى الأساسي لكلمة (ELEND) فهو (البُعْد عن الوطن والبقاء في أرض غريبة).

١٥) إنني سأصبح (تعيساً) بعد عودتي إلى اليابان، حين أفارق سورية، وذلك لأنني عندئذٍ لن أكون في موطني، بل في أرض غريبة.

أضاف السيد السفير إلى كلمته تلك هذا النص:

«أعلن باسم حكومتي تأييدنا لبطولات الشعب العربي في فلسطين، ولنضاله في سبيل حقه المشروع، ونقف إلى جانبه في استعادة حقوقه، وتقرير مصيره».

الصداقة مع الاتحاد السوفييتي
حجر الزاوية في استراتيجيتنا الكفاحية(*)

النضال المشترك، ضد العدو المشترك، أصبح ظاهرة وقانوناً ومؤشراً في عصرنا.

ولقد تكدست تجارب، منذ مطلع هذا القرن، على صحة هذا الموقف الذي كان الاستعمار والصهيونية يعملان على أساسه، وينكران على حركات التحرر والمقاومة في العالم، وهي الأحق، أن تعمل على أساس منه.

لكن حركة التحرر الوطني والقومي العربية، بقيادة الرئيس عبد الناصر أولاً، ثم بقيادة الرئيس حافظ الأسد من بعده، وعت هذه الحقيقة، وعملت في ممارسة دؤوب، استراتيجية، متواصلة، على تطبيقها في علاقاتنا الدولية، فكان الفرز بين الأعداء والأصدقاء، وكان تحديد العدو وتحديد الصديق، وأثبتت الأيام في الكفاح الذي عمره ثلث قرن حتى الآن، أن عدو حركتنا التحررية

(*) في تكريم الوزير السوفييتي الأوكراني في دمشق – ١٩٨٠.

هو الامبريالية الأمريكية والصهيونية، وأن صديق هذه الحركة هـو الاتحاد السوفـييتي والمنظومة الاشتراكية.

تأسيساً على هذا الفهم الثوري التاريخي، واصل قائدنا الكبـير حافظ الأسد ما كان قد بدأه قائدنا العربي الكبير الراحل جمال عبـد الناصر، وصارت الصداقة مع الاتحاد السوفـييتي، حجر الزاوية في استراتيجيتنا الكفاحية.

ولقـد سـمح تطـور علاقـات الـصداقة الثابتـة بـين دمـشق وموسكو، في أيامنا هذه بقيام حدث كبير، مجيد، هو توقيع معاهـدة الـصداقة والتعـاون بـين الجمهوريـة العربيـة الـسورية وصـديقها المخلص الاتحاد السوفـييتي، هذه المعاهدة التي كانت حدثاً تاريخياً، من شأنه لا أن يوازن الميزان الاستراتيجي بعد اختلاله فقط، بل أن يعطي حركة القومية العربية، في كفاحهـا التحـرري، قـوة وبعـداً، وقـدرة عـلى مزيـد مـن الـصمود والتـصدي للهجمـة الأمريكيـة الصهيونية الساداتية على المنطقة، المتمثلة باتفاقات كامب ديـفـيد، وهي الاتفاقات الأشد خطراً على وجود الأمة العربية، ومطامحها في التقدم والتحرر من كل المؤامرات السابقة.

وإذا كانت معاهدة الصداقة والتعاون قد نصت على التطـوير الثقافي بين بلدينا، فإن ذلك يؤكد أهمية الثقافة والتبـادل الثقـافي في تعزيز التعاون، وفي تأكيد روح النـضال، مـن منطلـق الـدفاع عـن الإنسان والمجتمع، ضد العنصرية الصهيونية البغيـضة، وتزويرهـا وهدمها للمعالم الحضارية في الأرض العربية المحتلة.

ونحن إذ نستقبل بترحاب ضيفاً صديقاً، من بلد الصداقة الأول، فإنما نستقبله ونرحب به كرسول للدولة التي وقفت معنا، قيادة وحكومة وشعباً، في خندق النضال المشترك، ضد الأعداء المشتركين، والتي أيدت العرب ودعمتهم، في أشد اللحظات حرجاً في تاريخهم الحديث.

ويسرنا أكثر أن يكون هذا اللقاء، عشية الاحتفال بالذكرى الثالثة والستين لثورة أوكتوبر العظمى، الثورة البكر، التي من مراسيمها الأولى إنهاء استعباد شعب لشعب، واستغلال إنسان لإنسان.

تحية لكم، ولشعبكم الصديق ولثورتكم المجيدة.

إنجازات استراتيجية

من أجل العقد العالمي للتنمية الثقافية(*)

قامت وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية بدراسة لائحة الأسئلة حول الفترة النصفية للعقد العالمي للتنمية الثقافية (١٩٨٨-١٩٩٧) دراسة متأنية، كما اطلعت على التقرير الخاص بنشاط اللجنة الوطنية السورية التابعة لها، وتوصلت، بعد التمحيص والتدقيق، إلى الأجوبة التالية التي تحدد المهام الواقعية، للفترة الثانية من هذا العقد، إسهاماً منها في الرغبة المبداة من قبل منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونيسكو) في إعطاء دفع أقوى للعمل الثقافي، وصولاً إلى وضع منهاج هذا العمل موضع التنفيذ، وبالشكل الذي يحقق أفضل غاياته الممكنة، في إحياء مفهوم الثقافة في المجتمع الدولي المعاصر، هذا المفهوم الذي يتساوق في الاعتبار مع النظرة الكلية للتنمية الاقتصادية، والرفاهية

(*) ردّ وزارة الثقافة حول الفترة النصفية للعقد العالمي للتنمية الثقافية على أسئلة اليونيسكو عام ١٩٩٣.

الاجتماعية، ويدفع أصحاب القرار في العالم لاتخاذ المقاييس الثقافية للنمو الثقافي، في مخططاتهم، أخذاً جاداً وقابلاً للتنفيذ:

١ - هناك أكثر من مبادرة حققتها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، سواء في مجال توسيع النشاطات الثقافية، في كافة الحقول التي تشملها خطتها، مثل نشر الكتب المؤلفة والمترجمة، وتحقيق وإحياء التراث العربي، وزيادة المطبوعات، وتطوير الإنتاج السينمائي والمسرحي، وزيادة التنقيب عن الآثار، وبناء المتاحف والمسارح، وإنماء دور معهد الفنون المسرحية، وتحويل المعهد الموسيقي إلى معهد عالٍ للموسيقا بفرعيها العربي والغربي، وإنجاز فهارس مكتبة الأسد على الحاسوب، وتوزيع طرفيات في الجامعات والمكتبات داخل القطر العربي السوري، بحيث تتمكن من مراجعة فهارس المكتبة من خلال هذه الطرفيات، وغير ذلك من مبادرات ثقافية يطول تعدادها، وقد ركزنا واقتصرنا على أبرز عناوينها في هذا الجواب، تطبيقاً للشعار المرفوع والمعمول به في سورية، وهو «الثقافة للجميع وفي خدمة الجميع».

٢ - شكلت وزارة الثقافة بتاريخ ١٣/٤/١٩٩٢، اللجنة الوطنية السورية التابعة لها، والخاصة بالعقد العالمي للتنمية الثقافية، برئاسة وزير الثقافة وعضوية مدراء المؤسسات والمديريات العامة في الوزارة، ونخبة من الاختصاصيين والمثقفين في كل المجالات. وقد عقدت هذه اللجنة اجتماعات دورية ناقشت

فيها مختلف أوجه النشاط الثقافي في سورية، وتمكنت من وضع أوراق عمل خاصة بوزارة الثقافة، وهي تتابع نشاطات المؤسسات والمديريات العامة التابعة لها، وعملية تنفيذ المشاريع الواردة في خطة كل منها، ومدى نجاحها في تأدية أعمالها على الوجه الأكمل، وقد وفرت الوزارة لهذه اللجنة كل المقومات المادية والبشرية اللازمة.

٣- إضافة إلى الخطة الثقافية العامة التي تضعها وزارة الثقافة في مطلع كل عام، وتعمل على تنفيذها بشكل صائب ودقيق، فقد وضعت مخططاً ثقافياً وطنياً متكاملاً، بغية وضع العقد العالمي للتنمية موضع التنفيذ، وشملت مشاريع هذا المخطط ربط مكتبة الأسد الوطنية بقواعد المعلومات الدولية، واستكمال بناء المتاحف والمسارح الجديدة، في كل محافظة من محافظات القطر، وإحداث أرشيف سينمائي وطني **(سينماتيك)**، ومواصلة العمل في بناء المجمع المسرحي الكبير(*)، ووضع مخططات التنفيذ لبناء المدينة السينمائية، وإقرار بناء متحف الفن الحديث، ورصد الاعتمادات اللازمة لكل هذه المشاريع وغيرها، في موازنة الدولة الاستثمارية.

٤- أصدرت وزارة الثقافة تعميماً خاصاً إلى كل مؤسساتها ومديرياتها بمناسبة عقد التنمية، طالبتها فيه باقتراح مبادرات

(*) يمارس هذا المجمع نشاطاته منذ زمن بعيد، ويحمل اسم دار الأسد للثقافة والفنون.

جديدة لإنجاح هذا العقد، وقد لبت المؤسسات والمديريات هذا الطلب، وقدمت اقتراحات عديدة ومتنوعة لنشاطات ثقافية إضافية، وافقت عليها الوزارة، ورصدت لها الاعتمادات اللازمة، مثل الندوات الفكرية والأدبية، والمهرجانات السينمائية والمسرحية، ،مهرجان بصرى الدولي، وإصدار نشرات توضح فيها أهمية عقد التنمية الثقافية الدولي، وتحث كل مؤسسة ومديرية على عقد اجتماعات مكرسة للبحث في موضوع هذا العقد، ومدى تأثيره، وكيفية هذا التأثير، وأفضل صيغة لاستثماره في وقائع ثقافية جديدة، وأنشطة خاصة به.

٥ - أنشأت وزارة الثقافة، من أجل تفعيل الجهد المبذول في عقد التنمية، بعض المؤسسات الثقافية الجديدة، وبعض الإحداثات الجديدة، مثل أبنية معهد الفنون المسرحية الجديدة، والمعهد العالي للموسيقى، وتصاميم متحف الفن الحديث، وبناء مراكز ثقافية جديدة بالتعاون مع وزارة الإدارة المحلية، وبالتنسيق مع وزارتي التعليم، والتعليم العالي، والمجلس الأعلى لمحو الأمية.

٦ - كل نشاطاتنا الثقافية لها صفة الإقليمية، إذا أخذنا دول الوطن العربي الكبير كمجالات إقليمية، وفوق ذلك فإن هذه النشاطات تتجاوز الإقليمية إلى العالمية، لأننا نقيم كل عام العديد من المهرجانات الأدبية والفنية، والندوات الآثارية التي يشارك فيها علماء آثار سوريون وعرب وأجانب، كما نقيم ندوات ثقافية وتاريخية لها نفس الهدف، وكان آخرها الندوة

الثقافية التي تعاونت في إقامتها وزارة الثقافة مع المعهد الثقافي الفرنسي بدمشق، وقد أعطت هذه الندوة نتائج مرموقة، وكان تقدير التعاون مع المعهد الثقافي الفرنسي بدمشق تقديراً مثمراً وجيداً.

٧- تخصيص عقد كامل للتنمية الثقافية يشكل بذاته حافزاً للنشاطات الثقافية المتنوعة، وتأثير مثل هذا العقد هو إيجابي بالضرورة، لأن وزارات الثقافة في البلدان المعنية به، تقوم بنشاطات إضافية واستثنائية، لتنفيذ المشاريع التي تتناول المواطن والمجتمع، وفي مجمل الحقول، ومن بين المشاريع التنموية الثقافية التي كان للعقد تأثير حاسم فيها: تكثيف دورات محو الأمية وتعليم الكبار، وزيادة طبع الكتب، وتطوير وتحديث الآلات الطباعية في مطبعة الوزارة، وزيادة عدد النسخ المطبوعة من كل عنوان، وتزايد عدد القراء في المدينة والريف، وباستمرار.

٨- التعاون بين وزارة الثقافة والمنظمة العربية للثقافة والعلوم كان فعالاً ومجدياً، وهذه المنظمة تابعة لليونيسكو، كما كان التعاون فعالاً ومجدياً مع معهد العالم العربي في فرنسا، إضافة إلى منظمات إقليمية أخرى وقد كان من نتيجة ذلك إنشاء مكتب للترجمة في دمشق، وتطوير وتنمية إمكانات المرأة الريفية في سورية، وإقامة المعارض الآثارية في باريس وغيرها من عواصم العالم، وتمويل كل هذه المشاريع تمويلاً وطنياً حسب

خطط سنوية، لأن المساعدات المقدمة من اليونيسكو ضئيلة جداً.

المبادئ والأهداف التي نستند إليها، ونعطيها الأولوية في عملنا الثقافي، هي مشاريع وطنية تتفق في محتواها مع منهاج عقد التنمية، وقد طورنا، مع بداية العقد، مشروعاً ثقافياً واسعاً، الهدف منه جعل سورية، والعاصمة دمشق خاصة، منبراً ثقافياً ومركز إشعاع بالنسبة للوطن العربي كله، من خلال نشاطات تشمل كل العملية الثقافية (سينما، مسرح، مكتبات، متاحف، تنقيب عن الآثار، ندوات ومهرجانات الخ).

١٠ - تنطلق العملية الثقافية في سورية من منطلق التأكيد على وطنية الثقافة، وقوميتها وتقدميتها وإنسانيتها، ومن خلال هذه المبادئ تغتني وتتمايز الهوية العربية الثقافية، غير أن مستوى المساهمة الثقافية الدولية، وفي كل الفروع الثقافية المذكورة آنفاً، كان ضئيلاً أو معدوماً، لذلك ينبغي إعادة النظر في موضوع هذه المساهمة، وتحقيقها في مساعدات دولية فعلية ومتنامية مستقبلاً.

١١ - العلاقة بين الثقافة والتنمية علاقة متبادلة ومتفاعلة لدينا، لذلك فإن الاهتمام بالعلم والتكنولوجيا، من وجهة نظر التخطيط الثقافي، هو موضع اعتبارنا الأكيد، وتنفيذاً له فإننا نتوسع في تأليف وترجمة الكتب العلمية التكنولوجية، ونعممها على أوسع نطاق، ونبذل جهداً كبيراً في إحياء

التراث والحفاظ عليه، وإعطاء الأولوية للعملية الإبداعية في مجال الآداب والفنون، وخاصة الفن التشكيلي، في كل فروعه، من خلال التشجيع المادي والمعنوي، وكذلك تنشيط المعارض التشكيلية، وزيادة صالات العرض العامة والخاصة، ومواصلة العمل بالإحداثات الثقافية الجارية (المجمع المسرحي، المدينة السينمائية، متحف الفن الحديث الخ) وهناك مشاريع مخطط لها تحتاج إلى دعم مادي من قبل اليونيسكو، مثل التجهيزات التقنية في المسارح، الخبرة في بناء الاستديوهات السينمائية، تجهيز متحف الفن الحديث المقرر إحداثه في العام ١٩٩٣(*).

١٢ - لأن التغيرات العالمية كانت مذهلة في سرعتها وعمقها، فهي تنعكس، واقعياً، في التنمية الثقافية كما في التنمية بشكل عام، وكذلك في موضوع البيئة، وتشكل تحدياً خطراً، وقد أصبحت الثقافة، بما هي فكر، تحتاج إلى جهد مضاعف في نموها وانتشارها، لأنها مسئولة عن إعداد المهاد العقلي والنفسي للإنسان الراغب في التغيير نحو الأفضل، ولهذا فإن من أهم الأهداف التي تنبغي التهيئة لها، في الفترة الثانية من عقد التنمية، هي زيادة التخطيط والتنفيذ الثقافيين وفق أهداف مدروسة ومقررة. وقد بادرنا، نتيجة لما أفرزته هذه المتغيرات العالمية، إلى دفع عملية الإنماء الثقافية إلى أمام،

(*) تعثر هذا المشروع لكنه ما يزال موضع طموح للتحقق في المقبل.

والمشاركة في معرض (اكسبو ٩٢) في اشبيليا، ومؤتمر قمة الأرض في البرازيل الذي بحث مسألة تلوث البيئة، وما يتهدد البشرية من خطر ناتج عن هذا التلوث المتزايد، وسنشارك في احتفالات مرور ٥٠٠ عام على اكتشاف أمريكا، والتقاء العالمين القديم والحديث.

١٣- الأولويات الأساسية هي التركيز على وضع خطط جديدة للتنمية الثقافية، باتجاه التوسع والتعمق في إنتاج الثقافة ونشرها، وتقديم المساعدات الدولية (ومساعدات المنظمات) للمضي في تنفيذ مشاريع الثقافة والتنمية، في الوطن العربي وفي العالم الثالث.

١٤- المهام الواقعية بالنسبة لنا هي تقديم المساعدة والخبرة البشرية لتنفيذ أهداف التنمية الثقافية، ومنها مشروع المدينة السينمائية، مشروع بناء متحف الفن الحديث وإكمال بناء المجمع المسرحي، التوسع في التنقيب عن الآثار، ترميم الأماكن الأثرية، مع توفير كل ما تحتاجه هذه المشاريع من تجهيزات وآلات وخبرات.

١٥- يتوقف تيسير التعبئة للموارد البشرية والمالية (في سبيل وضع المرحلة الثانية من عقد التنمية موضع التنفيذ) على مدى إسهامات الدول الصناعية الكبرى (دول الشمال)، في تغذية صناديق المنظمات الدولية مالياً، كي تستطيع هذه المنظمات تقديم ما تحتاجه التنمية الثقافية من مساعدات، في البلدان

النامية (دول الجنوب) وتوفير مقومات هذه التنمية من الأموال والأجهزة والخبرات البشرية.

١٦- يحتاج وضع استراتيجية للعقد العالمي للتنمية موضع التطبيق، وكذلك وضع الاستراتيجية الدولية من أجل العقد الرابع للأمم المتحدة من أجل التنمية، إلى دراسة متأنية ومتعمقة للاستبيانات التي تقدمها وزارات الثقافة في دول العالم، ومنها سورية، ومن المستحسن، عند الضرورة، قيام فريق عمل دولي من الاختصاصيين بزيارة جميع مناطق العالم، للاطلاع الواقعي، واقتراح الأهداف، وكذلك وضع الحلول اللازمة لها.

الثقافـة مفهومـاً وحـواراً (*)

تلبية لدعوة مكتب الثقافة في القيادة القومية، ورغبة في لقاء طلبة المعهد العالي للعلوم السياسية وطلاب الـدورة المركزيـة فيـه، هـؤلاء الذين ينعقد الأمل عليهم في أن يكونوا قادة المستقبل ورجاله، أجـدني سعيدة لوجودي بينكم، متحدثة في الشأن الثقـافي، الـذي مـن معينـه تتفرع كل جداول المعرفة، سياسـية واقتـصادية واجتماعيـة، وتتلاقـى هذه الجداول لتشكل نهر العلم والفلـسفة، هـذين الأقنـومين اللـذين منهما، وعليهما، يكـون الارتكـاز الإعـدادي للمـواطن الـذي نريـده واعياً، مدركاً لواجباته وحقوقه، مسهماً في حمل أمانة الارتقاء بـالوطن والشعب. ومن قلب هذا التشكل الجمعـي في المواطنيـة الحقـة، تـبرز الطليعة التي هي أنتم، بعد أن يتم إعدادها إعداداً جيداً، في كل وجوه العلوم الإنسانية، التي وحدها تؤهل المتخرج من هذا المعهـد العـالي، لأداء دور التوعيـة والإرشـاد بالنـسبة للـشعب بعامـة، وللرفـاق في الحزب بخاصة، وفاء لرسالة قائدنا المكرسـة للتثقيـف، والداعيـة إلى

(*) ألقيت هذه المحاضرة على طلبة المعهد العالي للعلـوم الـسياسية، وطـلاب الـدورة المركزية فيه، عام ١٩٩٣.

امتلاك المعرفة سلاحاً، لا يقل في أثره وخطره عن سلاح المقاتل على الحدود، وفي جبهته الذود عن الوطن.

وفي هذا العقد الأخير من القرن العشرين، تتأكد، وتتألق، تلك الكلمات النيرة التي نتخذها شعاراً، والقائلة إن «الثقافة هي الحاجة العليا للبشرية»، ويصبح هذا الشعار، في الممارسة، نبوءة نظرية، مادامت الثقافة هي التي تلعب الآن دوراً مميزاً، في إذكاء روح الصمود والتضحية، وهكذا تكون أحرف رئيسنا حافظ الأسد منارات تهدينا في سيرنا على دروب المستقبل الوضاء، الذي قررنا أن نبلغه، ولا بدَّ أن نبلغه مهما كانت التضحيات، ومهما عنت السير إليه وترامى. وسأسمح لنفسي، في مفتتح هذا اللقاء الجميل والمفيد، أن أتحدث قليلاً عن مفهومنا للثقافة، ثم يكون الحوار، الذي أثق أنه سيكون حراً، صريحاً، جريئاً، بينكم وبيني، باعتباري القائمة والمشرفة على إنتاج، ونشر الثقافة، في هذا القطر، برعاية رئيسنا الذي كانت عنايته وتوجيهاته الثقافية، منطلقاً لهذا النهوض الثقافي الذي أعاد لسورية دورها، كحامل للثقافة، وكمنبر للإشعاع الإبداعي في الوطن العربي كله.

إن الثقافة، في مفهومنا، هي لغة العصر ومنطقه، بفضلها يبني الإنسان كفاءاته الروحية والعقلية والإبداعية، ويجسد أعظم طموحاته التي تحقق تقدم النوع الإنساني، والتي تعطي حياته وقيمه ومستقبله مدلولات جديدة، تساعده على مواجهة التحديات الكبرى، وعلى إبداع كل ما يتفوق به على ذاته.

ولقد آمنا في قطرنا، وتخصيصاً في مطلع الحركة التصحيحية، أن الثقافة ليست ترفاً أو شيئاً على هامش الحياة، يقذف به إلى آخر سلم الأولويات، بل هي هذا الفعل الكلي الذي يشكل جوهر المجتمع البشري، وينتظم جماع السمات المميزة للأمة، ومجموع معارفها وقيمها وإبداعاتها، وذاكرتها الجماعية، الضاربة في أبعاد التاريخ، ويعني بالتالي هويتها القومية، وأصالتها، ومعنى وجودها، وإسهامها الأصيل الخلّاق في حضارة العالم.

وقد يكون من أهم انتصارات الثقافة، في عصرنا الراهن، ما اكتشفه العالم، بعد عقدين دوليين للتنمية، حددتهما هيئة الأمم المتحدة، من أن مفهوم التنمية القائم على النمو الكمي والمادي وحدهما، قد انتهى إلى طريق مسدود، وأن الثقافة هي بعد أساسي في التنمية الشاملة، وأن لها دوراً رئيسياً في تنفيذ أي مشروع تنموي، وأن العملية الثقافية ليست رافداً للعملية الاقتصادية والاجتماعية فحسب، بل هي قائمة في نسيجها العضوي أيضاً، لأنها صيغة التقدم الحقيقية، ولا معدى عن إدراج مشروعاتها في البرامج القومية الكبرى، لبناء المواطن والوطن، بسبب من أن المشروع الثقافي هو بحد ذاته مشروع اقتصادي من الدرجة الأولى.

وإذا كانت السياسة فن فهم الاقتصاد، فإن الاقتصاد، في الثورة التقنية الراهنة، يرتكز على إبداعات الأدمغة، ذات التأهيل العالي، كي يتحقق، ويعطي أعلى مردود ممكن. ومن البدهي أن دولة متطورة اقتصادياً، أو هي في مرحلة النمو الاقتصادي المتطور،

تصبح لها القدرات الكافية للإنتاج الذي ينهض على دعائمه كل البناء الهيكلي، للدولة العصرية الحديثة، ذات المجتمع الموحد، المتقدم، المزدهر، في كل مجالات الحياة، وخاصة المجال السياسي المرتكز على القوة العسكرية أساساً، والمنطلق منه ضرورة، مادامت القوة، في عصرنا وكل العصور، هي المصدر الذي ينبع منه، ويرتد إليه، النشاط الخلّاق، للجهد الديبلوماسي والحربي معاً.

هكذا تغدو الثقافة مصدر فعالية في التنمية، وتصبح التنمية مصدر فعالية في السياسة. وهذا هو الأساس المتين لقوة أي دولة في عالمنا المعاصر.

غير أن المشروع الثقافي الذي لا يذهب في العمق، لا يستطيع في الحصيلة أن يحقق ما هو مطلوب منه، وتظل الأرقام غير ذات دلالة، مهما كانت كبيرة، إذا كانت لا تعني أبعادها الإبداعية التي تستهدف تخطيطاً ثقافياً جذرياً، يرتبط بالأهداف المستقبلية للأمة، ويدخل في حسابه قضية بناء أجيال الغد المتمسكة بهويتها، وأصالتها وقوميتها، والتي تحيا، عصرها وتستوعب كل معطياته الفكرية والتقنية، وتواكب تحولاته التحديثية، وتسهم فيها أيضاً.

إذن تنمية - ثقافة تساوي اقتصاداً، والاقتصاد يساوي قاعدة بنائية، سياسياً وعسكرياً، تربوياً وثقافياً واجتماعياً، وهذا هو التفاعل المتبادل في العملية التحديثية للدولة، في كل مجالاتها التشريعية والتنفيذية، وفي امتلاكها قدرة الحركة والمواجهة على الدوام.

ضمن هذه المفاهيم، أسهمت وزارة الثقافة في قطرنا، إسهاماً جذرياً في وضع الخطة الشاملة للثقافة العربية، وفي الدفاع عنها في مؤتمرات وزراء الثقافة، وكان لها دور أساسي في إقرار صيغتها النهائية وتبنيها، منطلقة من حرص القطر، في توجهه القومي العربي الرائد، المؤمن بالأمة العربية الواحدة ورسالتها الخالدة، على تأكيد وحدة الثقافة العربية، وضرورة العمل الملتزم والجاد، من أجل تكوين الشخصية العربية المتماسكة والواعية، الحريصة على هويتها، والمدافعة عن انتمائها القومي، والرافضة لشتى أشكال التبعية والاستلاب والتشويه، والساعية وراء التحرر والتوحد، والقادرة على الإسهام في بناء الحضارة العربية، ومواصلة شوطها المستقبلي.

إذن بإدراك تام لخطورة العمل الثقافي، ودوره وأثره، سعت وزارة الثقافة إلى إقامة البنى التأسيسية التي تشكل قواعد التكوين الثقافي، في المجالات المختلفة، وإلى توفير وتطوير وسائل إنتاج الثقافة وتوصيلها، تحقيقاً للشعار القائل «الثقافة للجميع وفي خدمة الجميع» هذا الشعار الذي أطلقناه منذ البدء، إيماناً منا بأن نهضة هذا القطر لا بدَّ من أن تكون شاملة، وأن جبهة الثقافة متلازمة وجبهة التربية الفكرية والسياسية، في تشكيل العقل المبدع للإنسان، وطنياً وقومياً واجتماعياً، وفي بنائه عقائدياً، كي يكون مواطناً فاعلاً سياسياً، ومنتجاً تنموياً، وقادراً على الدفاع والتحرير عسكرياً، يعي تماماً أنه المسئول، أولاً وآخراً، عن النهوض بوطنه ومجتمعه، والدفاع الصلب عن مواقفه، وعن سياساته المبدئية الثابتة، ونصرة

أمته العربية التي تتطلع، في السلم والحرب، إلى قائد هذا القطر الذي يأخذ بها في درب الكفاح والظفر.

وإذا كانت الوحدة الثقافية هي القاعدة التأسيسية للوحدة العربية، فإن العناية باللغة العربية تأتي في طليعة اهتماماتنا، لأنها آصرتنا وجامعتنا، واصدق تجليات هويتنا، وحاملة إرثنا الثقافي والحضاري، وأحد مقومات أمتنا العربية، وهي تمتلك قدرات لا حد لسعتها في التعبير عن كل منجزات العصر، لكونها لغة حية، كانت، وما تزال، وستبقى غنية، متطورة، حاضنة للجديد في عطاءات الفكر الإنساني والفلسفة والفن والأدب، والعلوم الإنسانية والتكنولوجية، وقابلة لتأدية كل معانيها، من خلال التعريب. إضافة إلى أن لغتنا هي قضيتنا، ولساننا، وبياننا، نتصدى بها لأعداء التعريب في أقطار وطننا العربي الكبير، ونبرهن، بما نضيفه إليها من مفردات، وبما نبدعه من خلالها من معانٍ، على أنها لغة ذات رحابة وغنى وطواعية كاملة، لأداء ما نريد، وأن التقصير، حين يكون، ليس فيها، بل فيمن لا يتقنها، ولا يبلغ أن يحيط بدلالاتها اللغوية التي تؤكد حضورها الدائم اشتقاقاً ومصطلحاً على السواء.

من هذا كله يتضح أن أهدافنا في العمل الثقافي منهجية ومبرمجة، وأن المطلوب من وزارة الثقافة بمؤسساتها المختلفة، لا بدَّ أن يكون بحجم هذه الأهداف، تخطيطاً وتنفيذاً، وتأسيساً لبنى جذرية مع البحث المستمر عن أشكال جديدة، وميادين جديدة، للعطاء الثقافي، إنتاجاً ونشراً.

إذن، انطلاقاً من مهمة الثقافة هذه، في نشر المعرفة والوعي، ومن دورها في ترسيخ الفكر الوطني والقومي، ومن الدعوة المستمرة للوحدة العربية، الهدف الأسمى للأمة العربية، ومن التمهيد لهذه الوحدة بترسيخ الوحدة الثقافية العربية، ومن دور الثقافة في التنمية، فقد عملت وزارة الثقافة على إنتاج وتوصيل الثقافة، وعلى القيام بنشاطات ثقافية واسعة، وإضافة نشاطات جديدة إليها، وربط القطر كله بشبكة من الأقنية الثقافية، بواسطة مراكزها الثقافية المنتشرة في جميع أنحاء القطر، وإقامة المهرجانات المتعددة، المتنوعة، مثل مهرجان المسرح، والمهرجان السينمائي، ومهرجان بصرى الدولي، وتوفير الوسائل الكفيلة بممارسة أوسع نشاط ثقافي، عن طريق الإحداثات الجديدة مثل مكتبة الأسد، والمسرح القومي، والمدينة السينمائية، والتخطيط لإنشاء المتحف الفني وغير ذلك.

إن وزارة الثقافة تدرك جيداً ان ثقافة المجتمع هي حصيلة كل ما أبدعه هذا المجتمع، على مر الأيام، وهي الإضافة الدائمة لتراثنا الحضاري الضخم، كما أنها إسهامنا في شوط التقدم للحاق بالعصر الذي يتميز بإنجازات مذهلة، في حقول المعرفة، والعلوم، والآداب، والفنون والتكنولوجيا عموماً، ومن هذا المنطلق، المؤسس على وعي تام بدور الثقافة، فقد انتقلت النظرة إلى الثقافة من اعتبارها ترفاً إلى اعتبارها ضرورة، وعملت الوزارة على جمع المثقفين، باعتبارهم أعمدة الثقافة ومنتجيها، وأنهت ذلك الانفصام

الذي كان قبل الحركة التصحيحية المباركة بين المثقفين والمؤسسات الثقافية.

هذا هو، بإيجاز وتركيز، عرض ميسر لمفهومنا الثقافي، ولـدور الثقافة في بناء المواطن والوطن، ودورها في البعـد القـومي، تمهيـداً وتأسيساً للوحدة العربية، من خلال الوحـدة الثقافيـة، ويـسرني أن أفتح باب الحوار، وآمل أن يكون في حدود الوقت المتاح لمثـل هـذه اللقاءات، دون تكرار، ودون ثنائية بيني وبين الـسائل أو المحـاور، حتى يتمكن أكبر عدد من الإخوة الحاضرين مـن طـرح أسـئلتهم، التي من الأفضل أن تكون مكتوبة، التماساً للتركيـز والاسـتيعاب، وتجنباً للإطالة، في السؤال والجواب معاً.

قراءة حول «قراءة» في كتاب «الأمير» (*)

وزير خارجية قطر عربي، كتب مقالاً في مجلة «الوطن العربي» (تاريخ ٣٠ نيسان ١٩٨٢) بعنوان قراءة في كتاب «الأمير» حاول فيها أن يتصف بالهدوء، والأكاديمية، و«العلمية» في الشتم المبطن، باستخدام شعار ميكيافيلي «الغاية تبرر الوسيلة»، فكان مقاله واسطة إلى غاية «نبيلة» هي التحريض الطائفي، والتجني على الأخلاق، في كلامه على المبادئ، والدس الناعم، الأفعواني، الذي يعود إليه من أفلس في الوسائل الأخرى، وأهمها التخريب عن طريق إرسال السيارات المفخخة، وإشعال الفتن بتوريد الأسلحة والأموال للإرهابيين، والاختلاق والمبالغة عن طريق إذاعة تقوّص في فراغ، وتبرير الهزيمة «بالانسحاب التكتيكي» في حرب الخليج، والتعاون مع «كامب ديفيد» بالعلن بعد أم طال التعاون معها في السر.

(*) طلبت مني جريدة البعث ذات يوم بعيد أن أكتب رداً على مقال كتبه وزير خارجية معروف في قطر عربي، بعنوان «قراءة في كتاب الأمير»، وسخّره للهجوم على سورية بشكل لا يتسم بالموضوعية أو الصدق الأخلاقي، عام ١٩٨٢.

عليَّ قبل كل شيء أن أعترف أن كاتب المقال يفهم ميكيافيلي جيداً. فهو يخبرنا أنه قرأ كتاب «الأمير» في الجامعة، وأنه ناقشه خلال الدروس، وأنه عاد إليه حتى كاد يحفظه، ومن المؤكد أنه، في مهمته الديبلوماسية، يستلهمه، بعد أن كان، في هذه المهمة، مستشاراً ميكيافيلياً ناجحاً للحاكم الذي وُضع كتاب الأمير بين يديه. وإذا كانت «معاكسة استثنائية لا حد لها من جانب الحظ» قد هزمته رغم أنه لم «يهمل شيئاً من كل ما ينبغي لامرئ حذر وبارع» من قواعد الميكيافيلية، فإن هذه المعاكسة الاستثنائية سببها أن «الحاكم» ومستشاره قد وقفا ضد مسيرة التاريخ ومنطقه، وضد حركة التحرر الوطني ومصالحها، وضد القضية العربية وجوهرها القضية الفلسطينية، وضد الثورة الإسلامية الإيرانية التي وضعت، منذ انتصارها، كل إمكاناتها لنصرة القضية الفلسطينية.

ومن المؤكد أن القراءة الجديدة، لكتاب قديم، مفيدة، لكن القراءة الجديدة تستلزم نظرة جديدة، فيها اتساق مع منطق الحياة، والعصر، وكفاح الشعوب، وقضايا الأمم، وفيها ضوء جديد مستمد من مفهوم جديد للعالم، ولدروس التاريخ، ومعرفة مسبقة بأن عصرنا عصر التحرر لا الاستعمار، وعصر الديموقراطية لا الفاشية، وأن التناقض الرئيسي فيه هو بين الرأسمالية المحتضرة وهي إلى زوال، وبين الاشتراكية الفتية، وهي إلى بقاء. وأن انتصار التحرر حتم، وزوال الاستعمار حتم، وأن الشرق قد استيقظ، ولن تستطيع الامبريالية العالمية، ورأسها الامبريالية الأمريكية، أن تعيده

إلى النوم، ولا إلى القيد، وأن إسرائيل، شريكة هذه الامبريالية وربيبتها، هي جسم غريب زرع في الجسم الأصيل، وأنها استعمار استيطاني شعاره التوسع والامتداد من النيل إلى الفرات، وأننا في الكفاح الضاري، بين حركة التحرر العربية وأمريكا وحليفتها الصهيونية، لا بدَّ لنا من تمييز العدو من الصديق، ولا بدَّ لنا من معاملة العدو كعدو، والصديق كصديق، وأن عدونا هو أمريكا، وأن صديقنا هو الاتحاد السوفييتي، وأن كل تمييع للموقف منهما، وكل مساواة في التعامل معهما، يضعنا في صف أمريكا، وفي صف كامب ديفيد، وإسرائيل، وكل الأعداء، كما هي الحال في هذا البلد العربي الذي يقوم بدور المستشار الديبلوماسي الميكيافيلي فيه كاتب المقال المذكور.

إن جدة القراءة لا تهم بمقدار ما تهم صحتها، والأحداث هي محك الصحة والخطأ دائماً، وهي التي تعطيها المصداقية أو النفي، وهي التي في آخر المطاف، تكشف الأقوال والقراءات والنوايا فتبين بشكل قاطع إن كانت مطابقة مع منطق العصر والتاريخ أو مخالفة لهما، وإن كانت متطابقة مع قضية التحرر والديموقراطية أو مخالفة لهما، وإن كانت تخدم القضية العربية أم تخدم «القضية» الأمريكية والإسرائيلية، عن طريق «حرب أمريكا» في الخليج، وسياسة أمريكا وإسرائيل في كامب ديفيد، وسياستهما في الحلف الاستراتيجي الذي ينقل أمريكا بكل قواتها وقواعدها وكتائب تدخلها السريعة إلى الوطن العربي، كي يكون أبناؤه، بموجب هذا

الحلف، طعاماً لمدافع الامبريالية الأمريكية ضد الدولة الاشتراكية السوفييتية الصديقة.

لقد قرأ صاحب المقال كتاب "الأمير» على هواه، لكننا نحن سنقرؤه بموضوعية، وسنقرأ تلك "القراءة» ونبين زيفها، لا لأننا نكترث كثيراً أو قليلاً بما جاء في المقال، بل ليكون كتاب "الأمير» مادة توعية سياسية، مادة تثقيف سياسي بالنسبة للجماهير العربية، بعد أن كان، عند صاحب المقال، مادة تضليل سياسي، ومادة تجهيل أيضاً، فهو ينسى، أو يتناسى، حقيقة أولية، وهي أن الحاكم الذي يأتي إلى الحكم عن طريق الشعب، غير الذي يأتي بقطار أعداء الشعب. الأول يكون مفهوماً كيف جاء، وأي حركة قاد، وأي اتجاه في السياسة اتخذ، وأي سلوك عربي تحرري تقدمي نضالي سلك، والآخر، الذي يأتي بطريق «القطار الأمريكي» لا بدَّ له، مهما تخفى، من دفع الفواتير لأمريكا، عن طريق المشانق والمذابح والاغتيالات، باسم مكافحة الشيوعية تارة - ومعروفة هذه النغمة جيداً، ولحساب من تعزف - وباسم القضاء على «المؤامرة» طوراً.. ومشهورة مذابح قادة «البعث» بعد تنحي أحمد حسن البكر عن الرئاسة -أو باسم حرب «القومية العربية» ضد «إيران المجوسية»، وهي حرب أمريكا من ألفها إلى يائها كما اتضح للعالم كله. وكل هذه الفواتير التي دفعها هذا البلد العربي من بتروله، من اقتصاده، من دم أبنائه، تتوج الآن بالفاتورة «الصولد» وهي الانضمام إلى كامب ديفيد، عن طريق دفن مقررات مؤتمرات القمة.

الحكمة الأولى والأخيرة في سياسة الأمير هي استخدام القوة، أي الحرب، والحرب، كما هي في مفهوم العصر والتاريخ، حربان، الأولى حرب التحرر والتحرير، والأخرى حرب التوسع والاحتلال، فما هو نوع الحرب التي يخوضها بلد صاحب المقال؟ عام ١٩٧٥، يوم كانت إيران تحت حكم الشاه، وكانت تهدد الخليج، والدول العربية، وتتعاون مع إسرائيل، وتفتح لها سفارة في طهران، وتشيد قاعدة عسكرية أمريكية مدججة بالأسلحة، تقف ضد حركة التحرر الوطني العربية، عقد هذا البلد العربي اتفاقاً مع إيران، باركته أمريكا، وفي عام ١٩٧٩، يوم ثارت إيران وخلعت الشاه، وحطمت القاعدة العسكرية الأمريكية، وطردت إسرائيل، وأغلقت سفارتها، وناصرت القضية الفلسطينية، وأعلنت أنها إلى جانب العرب، وأثبتت ذلك من خلال مواقفها في المحافل الدولية، وعلى أرض الواقع، شنّ عليها بعد ذلك الحرب، باسم أمريكا ولحسابها، واجتاح الأراضي الإيرانية وفي ظنه، وظن واشنطن، أن نظام الخميني سيسقط فوراً، بدليل أن كل أعوان الشاه، وكل قادة السافاك، احتشدوا في عاصمة هذا البلد للانطلاق إلى إيران التي «ستحررها» الحرب من الثورة، وتعيدها إلى الحظيرة الأمريكية صاغرة.

وهذه «البطولة» الحربية الميكيافيلية، التي أظهرها هذا البلد ضد إيران، لماذا لم يظهرها تجاه إسرائيل؟ لقد دخلت قواته الأراضي العربية السورية متأخرة جداً خلال حرب تشرين، وتمركزت في

الجبهة، لكنها، كما هو معروف، لم تطلق النار، ومن المرجح أنه «ماكو أوامر» لإطلاقها، وما كاد وقف إطلاق النار الذي فرضته خيانة السادات، يعلن، حتى انسحبت قوات هذا البلد، ضاربة بعرض الحائط بكل الرغبة وكل الإلحاح عليها للبقاء، تاركة سورية وحدها تخوض حرب الجولان، بعد أن لم يبقَ في المعركة سواها. وهكذا تكون القوة، كما عند ميكيافيلي، لحماية «الحاكم» وليس لتحرير الأرض أو استعادة الحقوق، وتكون الغاية خدمة أمريكا وإسرائيل، والغاية، حسب ميكيافيلي أيضاً، تبرر الوسيلة دائماً.

وعندما أقدم السادات على زيارة إسرائيل، رفض هذا البلد العربي الانضمام إلى جبهة الصمود والتصدي، لكنه، ذراً للرماد في العيون، قبل بعقد مؤتمر القمة في عاصمته، ووافق على المقاطعة، إلا أنه لم يقاطع، وهذه هي الأحداث تكشف الحقائق، فقد كان يتعاون مع السادات سراً، وها هو يتعاون مع مبارك علناً، ويغدر بدول الصمود، ويقدم لأمريكا خدمة جديدة، هي الانضمام لكامب ديفيد مقابل أن تحمي أمريكا نظامه من السقوط، وتحول دون هزيمته الكاملة، ودون تقوض أعمدة الطغيان فيه.

وقبل ذلك، كان هذا البلد يرفع شعارات الرفض، ويمعن، سراً، في القبول. يقطع العلاقات الديبلوماسية مع أمريكا، ويقيم علاقات سرية، تجارية واقتصادية وسياسية معها. يعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفييتي، ويدير ظهره له، ثم يقف في قضية أفغانستان التي فجرها التدخل الأمريكي إلى جانب أمريكا، ويقوم

بحملة تشهير ضد البلد الـذي يعقـد معاهـدة صـداقة معـه علنـاً، ويعقد معاهدة عداء ضده مع أمريكا والإمبريالية والصهيونية سراً.

وفي الداخل، وما أدراك ما في الداخل، كانت عشرات المشانق تنصب في يوم واحد، لحزب هو عضو في الجبهة الوطنيـة العراقيـة، فلما خرج هذا الحزب من الجبهة، وتبعته بقية القوى الوطنيـة، أصر «الحاكم» على أن جبهته هي جبهة، وأن الاغتيـالات، والتـصفيات الجسدية والمذابح والإعدامات لقادة «البعث» مـن أعـضاء مجلـس الثورة، هي «ديموقراطية» من الطراز الأول، وأن الميكيافيليـة التـي تبرر كل الوسائل القمعية، في سـبيل غايـة واحـدة هـي الاحتفـاظ بالحكم، ليست نهجاً رسمياً هناك، وأنها نهـج الآخـرين، الـذين لا يعملون سوى صد موجات التآمر والتخريب والتفجير التي يمولها و«يسوّقها» إلى بلادهم.

إن الفاشية، وكذلك النازية، همـا، إلى حـد كبـير، ميكيافيليـة عرقيـة، وقـد ربـط موسـوليني، عـام ١٩٢٤، في «تعليقـه عـلى ميكيـافيلي» بـين الفاشـية والميكيافيليـة، وقـال: أؤكـد أن مـذهب ميكيافيلي حي اليوم أكثر مما كان قبل أربعة قـرون وشـعار الفاشـية والنازية، في حقل الإعلام، كما عبر عنه غوبلز هو: «اكذب، اكذب، اكذب، فلا بدَّ أخيراً أن يصدقوك»، وقد مـارس نظـام هـذا البلـد الكذب حتى الذقن، فهو يرفع شعار اليسار ويمـشي عـلى اليمـين، ويصرخ «بالتطرف» ويهمس «بالاعتدال» ويلعن الرأسمالية ويأخـذ بها في علاقاته مع دولها، و«يناصر» فلسطين ويهاجم إيران، ويقـول

بالصمود ويستسلم للسادات، ويتباكى على القومية العربية ويتـآمر على سورية ظئر العروبة ومرضعتها. أليس هذا كله ميكيافيلية أيهـا السيد المستشار؟

لقد فصل كتاب «الأمير» السياسة عن الأخلاق، مضحياً بهذه الأخـيرة في سـبيل صـناعة الوصـول إلى الحكـم والاحتفـاظ بـه. ومعروف أن الأخلاق هي الصدق، فكل ما يقوله الإنسان ويفعلـه صادقاً هو من الأخـلاق، وأهـم شيء في مـصداقية الأخـلاق هـو الثبات على المبدأ، على الموقف، على الالتزام بقضية الوطن والأمـة، وسورية، منذ الحركة التصحيحية، قالت إنها تعمل للوحدة العربية، وللتضامن العربي الكفاحي، ولتحرير الأرض واسـتعادة الحقـوق، وللصداقة مع المعسكر الاشتراكي وفي طليعته الاتحـاد الـسوفييتي، واعتبرت القضية الفلسطينية جوهر القـضية العربيـة، ورفـع رايـة فلسطين عالياً هو الواجب العربي الأول، وترك المعارك الجانبيـة في سبيل المعركة الرئيسية مع إسرائيل هو النهج السليم، وبعـد خيانـة السادات، مدت سورية يدها لهذا البلد العربي في سبيل الوحدة التي أحبطها «الحاكم»، وأعدم القادة العـراقيين المطـالبين بهـا، وقالـت بالتوازن الاستراتيجي بين العـرب وإسرائيـل، وبـأن أمريكـا هـي عدوة العرب رقم واحد، وأن إسرائيل هي حليفـة أمريكـا وقوتهـا الضاربـة، العدوانية في المنطقة، وكل هذا الذي قالته أكـدت الأيـام صحته، وأكدت ثبات سورية عليه، وهو تطبيـق كامـل للمبـادئ، والمبادئ هي الأخلاق، وحين تكون ثمة سياسـة ثابتـة تكـون ثمـة

مبادئ ثابتة وأخـلاق ثابتـة، في مفهومهـا الـوطني والقـومي، وفي منطقتيها التاريخية وفي توافقها مع مسيرة المستقبل، ومن يأخذ بهـذه الجدلية، في الترابط بين الأشياء، وفي التأثير المتبادل بينها، لا يفصل بين السياسة والأخلاق، ولا يكون ميكيافيلياً بأي حال، أما الـذين يخـالفون هـذه القواعـد، ويخونـون المبـادئ، ويعملـون بالـسر مـا ينكرونـه في العلـن، فأولئـك هـم الميكيـافليون الـذين يتقلبـون ويتلونون.

وإذا ما عدنا إلى كتاب «الأمير» نجده يقـول «إن الحـاكم هـو الذي يتوصل إلى الحكم بقوته ويسعى ليبقـى فيـه بطاقتـه، بعزمـه، بعبقريتـه، بقيمتـه الوحـشية والـضارية إذا لـزم الأمـر» وكـذلك «يكتسب الحكم بالغدر» وإن نجاح الأمير في الوصـول إلى الحكـم والاستقرار فيه «يتطلب أن تكون لديه وسائل الإكراه، وأن يكـون قادراً على القسر» و«إن انتصار الأقوى هو حقيقة التاريخ الإنـساني الأساسية». ولسنا نحن، بل تاريخ هذا البلد العـربي، في الـسنوات الأخيرة، يظهر كيف وصل «الحاكم» إلى الحكم، وكيـف اسـتخدم «قوته الوحشية والـضارية» في تـصفية زملائـه، وكيـف غـدر بهـم واحداً بعد الآخـر، وكيـف اغتـال وزيـر الـدفاع الـسابق حـردان التكريتي في الكويت، وكيف أعدم عام ١٩٧٩ أعضاء مجلس الثورة أمثال مروان عبد الغفار التكريتي، محمد محجـوب، عـدنان حـسين حمداني، محمد عايش، محي عبد الحسين الشمري، غانم عبد الجليـل ومعهم عبد الخالق الـسامرائي، وكيـف اسـتعمل الإكـراه والقـسر

للاحتفاظ بالحكم، وكيف قاد شعبه إلى الهلاك في حرب أمريكا ضد إيران، ثم كيف تعاون مع كامب ديفيد سراً وعلناً.

لقد أعطى ميكيافيلي مثالين على الغدر المبرر في سبيل السلطة، أحدهما مثال سيسيليان اغاثوكليس، في العصور القديمة، الذي كان ابن خزاف بسيط، وتوصل إلى مرتبة ملك سيراكوزة، والآخر مثال أوليفروتو، في عهد البابا ألكسندر السادس، الذي صار سيد فرمو، بأن ذبح خاله وأبرز مواطني المدينة، بعد أن دعاهم إلى وليمة. وبارك ميكيافيلي هذه الفظاظة المستخدمة استخداماً حسناً، وأوصى بارتكاب الفظاظات كلها دفعة واحدة في بداية العهد، من أجل توفير أمن الأمير الجديد. وقد أخذ عنه هتلر هذه الوصية عندما بدأ مذبحته العامة في ٣٠ حزيران ١٩٣٤، وعنهما أخذ ذلك «الحاكم» هذه الوصية أيضاً، عندما اغتال ابن عمه، وزير الدفاع حردان التكريتي في الكويت، وعندما دعا زملاءه أعضاء مجلس الثورة إلى اجتماع وأعدمهم بفظاظة نادرة، ثم عندما ارتكب كل الفظاظات دفعة واحدة فلم يترك شيوعياً ولا بعثياً ولا وطنياً مخلصاً ممن طالهم إلا وذبحه دون أن يرف له جفن.

يقول ميكيافيلي: «كل من يستولي على دولة اعتادت على الحياة الحرة ولا يدمرها، يجب أن يتوقع أن يلحق به الدمار... فمهما اتخذ من احتياطات، ومهما فعل، إذا لم يحل الدولة، وإذا لم يشتت سكانها، فإنه سيراهم في أول فرصة تسنح لهم يذكرونه بحريتهم، ويثيرون ذكرى مؤسساتهم المفقودة، ويبذلون جهدهم لاستعادتها».

ولقد اعتاد شعب هذا البلد العربي المناضل، الثوري، على تعشق الحرية، وعلى المؤسسات الجبهوية والدستورية، فجاء «الحاكم» وعمل بنصيحة ميكيافيلي تماماً: دمر الدولة، وشتت سكانها، وزيف مؤسساتها على أمل أن يدفع عنه الدمار، وأن يحتفظ بالحكم، لكن أبناء شعبه داخل بلده وفي المنافي، يذكرون حريتهم، ومؤسساتهم، ويناضلون ضد هذا «الحاكم» الذي يمضغ طعم الهزيمة في حربه الأمريكية الآن.

الأمير سيزار بوجيا، وكان إعجاب ميكيافيلي به لا يحد، قام بذبح قادته جميعهم، وهم شركاؤه القدامى، وذلك بأن استدرجهم إلى كمين سينيغاغليا، والسبب أنهم كانوا أقوياء، والميكيافيلية توصي بعدم لمس الأقوياء، فإذا كان لا بدَّ من هذا اللمس، فيجب قتلهم فوراً، وقد حدث هذا قبل أربعة قرون، لكنه تكرر في العام ١٩٧٩، وفي عاصمة البلد العربي الشقيق، مما يدل على أن المستشار الميكيافيلي قد كان «نصوحاً» جيداً، استفاد من «الأمير»، وأفاد سيده، على نحو مثير للإعجاب بقدرة الميكيافليين، في جميع العصور، على مقاربة الشر، والشر وحده، لأنه وسيلتهم للوصول إلى الحكم، وللبقاء فيه، ولدوام «النعمة» على المستشارين الذين قرأوا الميكيافيلية صغاراً وطبقوها «كباراً».

في الدراسات حول تحرير المرأة من الظلم، تتأكد مقولة أن المرأة، بتحررها من عبودية الرجل، تحرر الرجل من عبوديته أيضاً. وسورية في تأييدها لإيران، لم تفعل سوى مساعدة هذا البلد العربي،

الذي شن الحرب عليها، على النجاة من الهيمنة الأمريكية، أي تحريره من الامبريالية الأمريكية، بإبقاء إيران حرة من هذه الامبريالية، ذلك أن عودة نظام الشاه إلى إيران، ستكون فاجعة استعمارية رهيبة بالنسبة لهذا البلد العربي أولاً، ولدول الخليج العربي ثانياً، ولكل الدول العربية من بعد، وسورية تفهم هذه الحقيقة من قانون النضال التحرري لا من الضرب بالمندل.

إن حركة التحرر الوطني العربية، بما هي فصيل من حركة التحرر الوطني العالمية، وبما أبقى لها الرئيس العظيم عبد الناصر من تراث الكفاح للتحرر من الاستعمار، وبما أضاف القادة الوطنيون العرب إلى هذا التراث من جديد في الممارسة، قد تعلمت دروساً بالغة الأهمية والخطورة، وصارت تفهم الحلقة الرئيسية من الحلقات الثانوية، والتناقض الرئيسي من الثانوي، والثوابت والمتغيرات، والتكتيك والاستراتيجية، وتحسن استخدام كل هذه القوانين في سبيل انتصارها المحتم، لذلك فهي تجيد معرفة دورها، وتحالفاتها، واتجاهاتها، وأهدافها القريبة والبعيدة، وتعرف جدلية التاريخ، وجدلية الصراع، ونظرية الثورة والثورة المضادة، وفي هدي كل هذه المعارف تمضي في كفاحها، وتحقق انتصاراتها، وعلى هذا فلم يعد بإمكان أي عميل أن ينحرف بها، أو أي «ثعلب» أن يخدعها، والتشدق بالقومية العربية، على لسان من ينحرونها، لم يعد كافياً للبطولة القومية، وجر الشعب العربي إلى حرب ضد مصالحه لم يعد ممكناً، وإلا لكان علينا، غداً، أن نشن الحرب على الاتحاد

السوفييتي، لأن الحاكم الفلاني قد يشن الحرب «التحررية» عليه خدمة لأمريكا.

التناقض الرئيسي، في صراع حركة التحرر العربية، هو بينها وبين الامبريالية العالمية ورأسها أمريكا، والحلقة الرئيسية في كفاح هذه الحركة هي النضال ضد إسرائيل وحاميتها أمريكا، والخطر الأساسي على العرب هو إسرائيل لا إيران الثورة، ومن يريد أن ينصر القومية العربية عليه أن يوفر بنادقه وأمواله وقواته للحرب ضد إسرائيل، وللوقوف في وجه المخططات الأمريكية، اما أن يشن الحرب على إيران، وبعد ثورتها الإسلامية تخصيصاً، ويزعم أنه يفعل ذلك لأجل «التحرير» ولأجل القومية العربية، فإن هذا الزعم من الإسفاف بحيث لا ينهض عن الأرض.

وإذا أردنا أن نتفحص خريطة الواقع فإننا نرى أن الذين أيدوا هذه الحرب الأمريكية بالنيابة، هم الملك حسين، وهو معروف، والسادات، وهو معروف أيضاً، فهل من المصادفة، أو قلة العقل، أن هذين «الفارسين» أيدا الحرب ضد إيران، وسارعا إلى دعمها بالرجال والسلاح؟

إن زمن «البلف» الاستعماري ولّى، والحركة الوطنية أصبحت حركة علمية لا حماسية فقط، ومن العسير على «زلم» أمريكا أن يجرونا إلى مستنقعات الخيانة باسم «قوميتهم» التي يعرف القاصي والداني تاريخها، وواقعها، وأبعادها العلنية والخفية.

وإذا كان المشبوه أسرع الناس إلى إلقاء الشبهة على الغير، فإن مواقف الغير هي من الصراحة والوضوح بحيث تعلو على الشبهات والافتراءات، وما يسمونه «الحركة الانفصالية» في شمال ذلك البلد العربي، هو حركة مسلحة احتجاجية وتمردية تشترك فيها قوى وطنية متعددة، ثائرة على ظلم وبطش «الحاكم»، وليست بفعل تحريض من سورية، لأن تهمة التحريض على الانتفاضات والثورات أصبحت لغة قديمة، مستهلكة، وسورية لا شأن لها بهذه الحركات ولا تساعدها، ولا يمكن أن تساند أي حركة انفصالية، ولا تأبه للأكاذيب بهذا الخصوص، لأنها أكاذيب مفضوحة، شبيهة بتلك التي رددها صاحب المقال عن «تعاون سورية العسكري مع إيران وإعطاء التسهيلات للطيران الإيراني» وقد روجت أبواق «الحاكم» هذه المزاعم بعد هزيمته الشنيعة، والمثل يقول: «لا بدَّ للمهزوم أن يتحجج»، ونحن لا نحسده على هذه الحجج الواهية، لكننا لا نشمت، ونعلن حزننا الشديد على الضحايا المتساقطة من إخوتنا وأعزائنا أبناء هذا البلد في حرب ليست حربهم، ومعركة ليست معركتهم، وقد جروا إليها جراً، ولو خيروا لأداروا بنادقهم صوب إسرائيل التي تحتل أراضي العرب، وتغتصب حقوقهم، وتذبح رجالهم وأطفالهم، وتستحيي نساءهم، لا صوب الثورة الإيرانية الإسلامية التي تقف إلى جانبهم ضد إسرائيل وفظائعها بهم.

وبعد.. في كتاب «الأمير» هذه العبارات التي أغفلها صاحب المقال. يقول ميكيافيلي: «لا أستطيع التسليم بإرجاع حريتنا في

الاختيار إلى لا شيء، لذلك فإنني أتصور بأنه ربما كان صحيحاً أن الحظ يتحكم بنصف أفعالنا، غير أنه يترك النصف الآخر تقريباً تحت سلطاننا.. إنني أشبهه بنهر مندفع يغمر السهول عندما يفيض، ويقتلع الأشجار والأبنية، وينتزع الأراضي من جانب ويحلها إلى جانب آخر: كل شيء يهرب من وجه دماره، وكل شيء ينهزم أمام عنف غضبه، ولا شيء يستطيع أن يحول دونه.. ومع ذلك، ومهما كان مخيفاً، فإن الناس لا يهملون، عندما تبدأ العاصفة..» وشعب البلد العربي الشقيق لا يهمل،

وكل شيء موقوف على هبوب العاصفة.

مشاركة العرب الجليلة
في صنع التقدم البشري (*)

السادة العلماء، أيها السيدات والسادة،

قيمة العمل في عصرنا معيار حضاري، بها تقاس النتاجات الإبداعية والاقتصادية بين ثابت ومتحول، وبها يوزن الجهد الإنساني عند فرز ما هو نتاج مادة وما هو عطاء دماغ، أي إنها هي القيمة الباقية التي تحدد في آخر المطاف إضافة العطاءات العلمية والفكرية التي كانت ثمرة جهود البشرية، على مدى التاريخ. أما ما يتعلق بعملية الإبداع الفكري أو المادي، فإن العمل يأتي سابقاً للعلم ولاحقاً به، مادامت المادة والفكر هما اقنومين يدفعان ويندفعان في مسيرة البشرية، ملخصين صيرورة الدنيا في انتقالها من الأرقى إلى الأكثر رقياً، حيث الكشف والاختراع والتقنية وكل فتوحات الإنسان التي تفيد في إنماء العمل والعلم ويستفيد منها

(*) في افتتاح ندوة السمات الإنسانية الثانية للعلم والعمل في بلاد الشام في متحف الطب والعلوم، في دمشق ٥/١٠/١٩٨٤.

العمل والعلم عبر التطبيق المرتكز على هذه الفتوحات في إنجازاتها الكبيرة والعظيمة في قرننا العشرين هذا.

إن هذه الندوة التي اتخذت لها شعاراً «العلم والعمل» قد كثفت في كلمتين جوهر التقدم الإنساني في مدلوله الواقعي، حين لا شيء، لا حياة، لا وجود، دون هاتين الحقيقتين في اقترانهما وافتراقهما، ثم في اقترانهما وافتراقهما من جديد، في حركة جدلية تصنع التاريخ وتمضي به إلى أمام بفعل الأنظمة المختلفة المتعاقبة مسرعة النقلة الحتم، في موكب النضال لأجل الغد الأفضل والحياة الأكرم.

ومن حسن الحظ وعمق الفهم التاريخي، لمشاركة العرب الجليلة في صنع التقدم البشري، أن يدمج العلم بالعمل، وأن يقرنا بالسمات الإنسانية، هذه التي كانت لنا في ماضينا وحاضرنا مثلاً عليا، وضعناها نصب أعيننا، في كل حقول المعرفة التي باشرناها، وطورناها، وأغنيناها، ومازلنا نسهم فيها بقسط موفور، وخاصة في عهد قائدنا الفذ الرئيس حافظ الأسد الذي يولي نشاطات المعرفة تشجيعه، وتكريمه المستمرين.

ولقد كان العلم والعمل عقيدة ووجداناً، مطلباً مشتركاً لنا، في سعينا للمعرفة، وفي وضعها موضع التطبيق، العلم الذي أُمرنا أن نطلبه ولو في الصين، والعمل الذي تنزل به الوحي الكريم في قوله تعالى: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾.

ومن هذا العناق الأبدي بين علم يصير إلى عمل، وعمل يصير إلى علم، تتقدم البشرية، في توق دائم إلى التحقق عبر العدالة الاجتماعية، ونشدان ما هو أفضل، وجوداً ومصيراً، لكن العلم والعمل دون نوع إنساني، دون غاية إنسانية، دون شروط وضوابط تلجم إغراءات الشر، وتطلق إرادات الخير، لا تكون لهما تلك الحصيلة المباركة التي تعود على الناس بما يحلمون به، من نهوض ورقي، وخلاص من شرور الفقر والجهل والمرض، ومن آفات الحروب والعدوان والاغتصاب، وهذا هو مفهومنا للسمات الإنسانية في كشوفاتنا وإنجازاتنا على السواء.

لقد كان علمنا وعملنا، في كل تاريخهما، انطلاقة فكر خلّاق، وفعل خلّاق، قدما إلى العالم، بما حققا من انجازات، كنوز معرفة في الطب والفلك والجبر والهندسة وعلم الاجتماع وعلم الكلام، وفي نقل الفلسفة من مطاوي المدونات إلى حلقات البحث، وكان أجدادنا الأوائل في الترجمة التي نهضوا بها، وأضافوا إليها، مبدعين، ومسهمين في إغناء التراث الإنساني، وكانوا في كل ما خلفوه، وهو كثير، قصدة خير وحق وجمال، منطلقين في قصدهم من أنبل المشاعر الإنسانية، وفي بنائهم من أسمى الدوافع العمرانية، وفي سعيهم من أفضل الغايات التي بها وحدها بلغوا تلك الشهرة الواسعة في أربع رياح الأرض.

ولكم يسعدني أن أفتتح ندوة على اسم العلم والعمل، وأن أبدأ الكلام، وفيكم من هو أحق مني، ذلك أن السمات الإنسانية

للعلم والعمل راسخة في بلاد الشام، وهي سمات إنسانية أصيلة مغروسة في تربة هذا الشرق، مع آلاء العقائد، ونيّرات النوايا، في أن يكون كل شيء للإنسان، وفي خدمة الإنسان، وأن نبرهن على ذلك بالمواقف، سلماً وحرباً، فلا تعرف هذه الديار إلا ذلك النزوع إلى ترسيخ النافع واقتلاع الضار، بالجهد المتواصل لجعل هذا النفع عاماً، وذاك الضرر بددا، في مقاومة دؤوب للشر والظلم بالقلب واليد واللسان جميعاً.

ولعل ندوتكم الكريمة هذه، تضع أمام الضيوف القادمين إلينا، وأمام المشاركين المقيمين بيننا، صفحات بيضا من مآثر طبنا وطبابتنا وبحوثنا العلمية في فروعها، وأن توقظ ما نام في الكتب عن كل تلك المآثر وتنشره، دون مبالغة ودون إجحاف، بل بصورة موضوعية ترضي العلم والعمل والوجدان.

أتمنى، أيها الأخوة، لندوتكم هذه، النجاح المرتجى، المتحقق بإذن الله، وأكبر فيكم جهدكم، وأشكركم عليه شكراً جزيلاً.

منظور لا حدّ لمداه (*)

السادة العلماء

مرة أخرى نلتقي، على اسم العلم والعمل، وما فيها من سمات إنسانية في بلاد الشام، وهذا اللقاء الجديد، يكرس لقاءات سابقة، ويمهد للقاءات مقبلة، حتى يترسخ، في الأذهان والقلوب، السمات الإنسانية التي هي منظور لا حدّ لمداه، في تاريخنا كله، علماً وأدباً وفناً وفلسفة وسلماً وحرباً، لا بسبب من أننا نريد أن ندفع عنا قيلة مغايرة، بل لأننا نواصل نهجاً إنسانياً في كل حقول معرفتنا، وفي كل مناحي سلوكنا، ونحرص على هذا النهج، ونجعله شرعة في يدنا وضميرنا على السواء.

ذلك أن مجد دنيانا، في العلم والعمل، قد كان كبيراً بمقدار ما كان حظه الإنساني كبيراً، وكان شاملاً، بقدر ما فيه، من إحاطة إنسانية بدوافع العلم والعمل كليهما، حتى لم يسجل التاريخ، على

(*) في افتتاح الندوة الثالثة للسمات الإنسانية للعلم والعمل في بلاد الشام، في متحف الطب والعلوم. دمشق - ١٩٨٥

كثرة وقائعنا، وفتوحاتنا، وريادتنا الحضارية، أن العرب غفلـوا، أو تخلوا، أو هادنوا في أمر العرف الإنساني، أو سـمحوا، في علاقـاتهم مع الـشعوب والأمـم الأخـرى، أو في أبحـاثهم ونزعـاتهم الماديـة والروحية، بإسقاط هذا العرف، أو قصروا في تطبيقه عـلى أنفـسهم وسواهم، تطبيقاً عادلاً خلاقاً، همه أن يفسح في المجال لنمـو بـذور الرحمة بالآخرين، وتحقيـق العدالـة لهـم، وإشراكهـم في كـل جهـد علمي، وكل صنيع إبداعي، حتى برز منهم، ومن كل الذين دخلوا الدين الحنيف، علماء عاملون، في مختلف المجـالات، وحتـى تقـدم المبرزون منهم، والمجـدون مـن أبنـائهم، في كـل فـرع، وعـلى كـل صعيد، وبلغوا شأواً بعيداً، كل في الفرع الـذي اشـتغل فيـه. وقـد حفظ تاريخ الآداب والعلوم، في سجله الـذهبي، أسـماء الكثـيرين منهم، أدركوا ما أدركوه من مكانة، بفضل وفرة الإمكانات المتاحـة لهم، والموضوعة في تصرفهم، وبفضل التشجيع والدعم.

ونحن، في زماننا هذا، نواصـل شـوط الأجـداد، أمنـاء عـلى النهج، وعلى العرف، والتقاليـد، في أقـصى طموحاتهـا، حـين هـي تحمل إضافتها إلى عصرنا، وحين هي، في موكـب العلـم والعمـل، تتقدم لتكون بانية حضارة، تنهض في هـذا القطـر نهوضـاً جبـاراً، بفضل رعاية وعناية ودعم قائدنا العظيم حافظ الأسـد، الـذي مـا يكاد القطر، في عهده، يخلو يوماً من مهرجان أو نـدوة أو احتفـال، غايته أن يطور، علماً وعملاً، ما ورثناه عن السلف، ويضيف إليه ما يبدعه الخلف، في تماس مع العلماء والعاملين في كـل أنحـاء العـالم،

اكتساباً للمعرفة، والخبرة، وإفادة من الجديد، ورفداً له، وإقامة للصلات الثقافية والحضارية، التي بها وحدها، تتقارب الأمم، وتتفاهم الشعوب، وتستنير الدنيا، في إطار من المساواة والاحترام المتبادل.

واليوم، كالأمس، وما قبله، إلى فجر انطلاقتنا المباركة من الجزيرة العربية، نحرص، في علمنا وعملنا على أن يكونا، في دائرة النزوع الإنساني إلى الخير، والعدل، والمحبة، وأن يكون لهما، في سعيهما إلى مزيد من التحقق، غاية إنسانية، وشروط وضوابط، تلجم اغراءات الشر، وتطلق مبادرات الخير، انسجاماً مع الماضي، وأمانة لروح العلم، ووفاء بواجب العمل، هذين اللذين كانا، في كل تاريخهما، إرادة فكر خلّاق، وعزم فعل هادف، قدما إلى العالم، بما حققا من إنجازات كنوز معرفة في الطب والفلك والجبر والهندسة وعلم الاجتماع وعلم الكلام، وفي الفقه واللغة والمنطق والبيان، ونقل الفلسفة من دفاتر التدوين إلى مراكز البحث وحلقاته.

وأنتم تعلمون أن أجدادنا، في أبحاثهم ومصنفاتهم الطبية والفلكية والرياضية وغيرها، كانوا مبدعين، متسامحين، ناشرين لما بين أيديهم من علم، وما في صدورهم من معرفة، نشراً واسعاً، كريماً، في غير تحفظ ولا قصد، كما كانوا، في الترجمة التي باشروها، وأضافوا إليها، عاملين مجدين، ومسهمين كباراً في إغناء التراث الإنساني، وبناة للعمران، وسباقين في إرساء قواعد الدولة، على

أسس متقدمة من فهم الريع والخرج، وتنظيم الـدواوين، وتحـديث الأنظمة، ونقل شعبنا العربي، والشعوب التي دخلت الإسلام، نقلة كبيرة، من بداوتها إلى حضرية تليدة، رتبت الأمور ترتيبـاً عقلانيـاً، يصح فيه أن يكون تنويراً في عصره، كما كان التنوير في عصور الأمم الأخرى.

إن هذه الندوة تتخذ لها، في بحث ومناقشة القـضايا العلميـة، موضوعين جديدين، وبذلك تحسن صـنعاً، لأن كـلا الموضـوعين ضروري وملح. ففي الطب تطرح طبابة القلب، وفي أحـوال المـرأة تطرح وضع الأسرة، وبذلك تجدد في طروحاتها، وتـضفي عليهـا، من خلال أبحاث السادة العلماء، ضيوفاً ومقيمين، أبعـاداً جديـدة، تغنيها البحوث والمناقشات، وتضيف إلى دفاتر الندوة، قيماً جديدة، تساعد في تسليط الضوء على المبتكرات والخبرات والتجارب، فـلا يكون هناك تكرار، ولا يكـون وقـوف عنـد حـد في البحـث، وإن كانــت النــدوة تلحــظ أن تكــون لهــا، بالنــسبة لموضــوع المــرأة، استكمالات في دوراتها المقبلة.

ولا شك أن المنتدين الكرام يعرفون، وسـيعرفون أكثـر، مـن خــلال البحــوث والمناقــشات، أن النــزوع الإنــساني هــو الــسمة الأساسية في كل طروحاتنا، سياسةً واقتصاداً وعمراناً، فـنحن بلـد يبني نفسه، ويعمل، من منطلق قومي، لتحقيـق الوحـدة العربيـة، ويدرك أن البناء الاقتصادي، والعمل الوحدوي، لا يتحققـان دون استقلال وطيد، ودون تحرير كامل، ولهـذا فإننـا نـصدر عـن مبـدأ

واضح، قوامه تحرير الأرض واسترداد الحقوق، وفي نضالنا لأجلهما، نريد السلم العادل الذي يوفر لهما ظروف التحقق وشروطه، ومن أجل هذا فإننا نكافح ضد العدوان، وضد الاغتصاب، وضد الحلول المنفردة، وقد جابهنا كامب ديفيد، وأوقفنا امتداداته السرطانية، وأعلنا أننا ضد اتفاق عمان، وسنحبطه ونلغيه، كما أحبطنا وألغينا اتفاق ١٧ ايار في لبنان، وبغية النجاح في كل ذلك، نريد السلم، ونعمل له، لكننا نفرق بين السلم والاستسلام، فنقبل الأول ونرفض الثاني، ونواصل طريقنا وسط مصاعب بالغة العنت، في عملنا لإنقاذ لبنان وتحرير المحتل من أرضنا في فلسطين، وتحقيق الحل الشامل، في مؤتمر دولي، تحضره جميع الأطراف المعنية.

ولا يخالجنا شك، أن ما نعمل له سيصير، مادمنا صامدين، مكافحين، وعلى قيادتنا زعيم عربي كبير، تمرس بالنضال، وتملأ جوانحه الشجاعة والحكمة، وله من محبة العلم والعمل، ومن الاحتفاء بهما، ما جعله يهتم بهذه الندوة، ويبارك جهدها، وباحثيها، والقائمين عليها.

أكبر فيكم هذا المسعى الجليل، وهذا التوجه العلمي المقترن بالنزوع الإنساني، وأفتتح ندوتكم الكريمة، على اسم العلم والعمل، متمنية لكم نجاحاً مطرداً، موصولاً، وتوفيقاً كاملاً ودائماً.

تحية إلى العمال.. في عيدهم (*)

هذه أول مرة أقف فيها لأتكلم على العمال، في عيدهم العالمي، عيد الانعطافة التاريخية التي جعلت شعار «يا عمال العالم اتحدوا» شعاراً معاشاً، متنفساً مع الهواء، مجبولاً بعرق الكادحين، وهم يتجلون على صفحات التاريخ العالمي، كحقيقة بوزن مطرقة من ألف طن حديد، مطرقة سيستيقظ العالم على ضرباتها، وهي تدوي حاملة بشرى وحدة المنتجين لخيرات البشرية، وبشرى صيرورتهم طبقة سيكون لها دوي حاسم، في صناعة التاريخ، في نقلة جبارة بين عهدين، عهد عبودية العامل، وعهد حريته، عهد رأسمالية الآلة التي كانت سيدة العامل، وعهد اشتراكية الآلة التي صار العامل سيدها.

اعذروني إذن، وأنا الآتية من صفوف المثقفين، إذ أحاول، في كلمات بسيطة، أن أتكلم لغة أخرى، لا تجانف الثقافة، ولكن تتعلم أن تترجم بكلماتها عن الذات الإبداعية، للكائن السامي الذي هو الإنسان، الكائن الاجتماعي الذي يمارس نشاطاً عملياً، إبداعياً في

(*) في الاحتفال بعيد العمال العالمي، في ٧/٥/١٩٨٦.

جماله، هو نشاط الطبقة العاملة المنتجة، الشجاعة، المتفانية، التي هبت مع عاصفة الثورة الاجتماعية، منذ وعت الثورة ذاتها، كتعبير عن المستضعفين في الأرض، لتقتلع، وتكتسح، ركائز وحواجز عالم قديم، فاسد، مهترئ، وتبني على أنقاضه عالماً جديداً، عادلاً، عالم العمال والفلاحين، في وحدتهما التي غيرت وجه الدنيا، بما دكت من أسس الظلم، وما بنت من صروح العمران والثقافة والنظرة الجديدة الكريمة للإنسان.

وليس غرضي أن أعود إلى تاريخ عيد العمال العالمي، وسببه، وحقيقته، بعد الجريمة البشعة التي ارتكبتها، في أواخر القرن التاسع عشر، الرأسمالية الأمريكية، في مدينة شيكاغو، التي دست عناصرها المأجورة، في صفوف تظاهرة عمالية سلمية، وقامت بتخريب إرهابي، أمريكا عريقة فيه، وأعدمت القادة النقابيين بذريعته، ثم انكشفت الجريمة، وصار يوم انتصار الحقيقة العمالية النضالية، عيداً عالمياً للعمال، نحتفل به في الأول من أيار كل عام.

أقول إن التأريخ ليس غرضي، بل هدفي هو المشاركة، وهي مشاركة تبعث على السعادة الذاتية، وعلى الغبطة القلبية، هدفها أن أحيي الطبقة العاملة في قطرنا العربي السوري، في يوم عيدها العظيم، وأحيي، من خلالها، الطبقة العاملة العالمية التي صار لها وزن، لا شبيه لقوته وجبروته، في النضال ضد الرأسمالية، وضد الاستعمار والاستعباد، وضد نير الذين كانوا يتحكمون بمصائر الناس، وفي النضال لأجل انتصار العدالة الاجتماعية، وتوطد

الاشتراكية، ودعم حركة التحرر الوطني العالمي التي بتحالفها مع نضال الطبقة العمالية العالمية، ستحرز النصر الأكيد، النصر الآتي خلال التخويض في غمارات المعارك الدامية، القاسية، الرهيبة، كي لا يبقى، على وجه البسيطة، ظلم، وجور، واستثمار، واستغلال، ولا تبقى رأسمالية احتكارية نهمة، مصاصة للدماء، ولا يبقى استعمار وحشي، يستعبد الشعوب، بكل أشكاله وأساليبه، ويبطش بها، ويعتدي عليها، ويحاول قمعها، والتدخل في شؤونها الداخلية، للهيمنة على بلدانها، وجعلها سوقاً للإنتاج الرأسمالي الاستهلاكي، ومورداً لمصادره الخامية، وطعماً للمدافع في حروب الاستعمار العدوانية، النووية، التي تهدد السلم العالمي، وتعرض البشرية لخطر الإبادة الجماعية.

وأنا أعلم، وعن يقين ثابت، لا تزعزعه الشكوك، أن الطبقة العاملة إلى نصر في كل مكان وفي كل بقاع الأرض، بسبب هذا الوعي الطبقي، والنضال النقابي، واللحمة بين عمال العالم، في الكفاح المشترك، الذي يخوضونه لأجل التقدم الاجتماعي، والتحرر الوطني، والدفاع عن الأرض، والسيادة، والكرامة، وعن المصير والوجود، والمكاسب التي حققتها الطبقة العاملة في أكثر البلدان، وخاصة الاشتراكية منها.

ولقد قرأت أدبيات الطبقة العاملة، العربية والعالمية، وعرفت كم من عذابات عانت، وكم من تضحيات قدمت، وكم من مآسي شهدت، وكم من أرواح بذلتها، هي أرواح شهدائها الأبرار، في

سبيل أن تكون الطبقة العاملة حقيقة عصرنا الراهن، ودعامته، وسنده، ولأجل أن ينتصر التقدم على التخلف، والحرية على العبودية، والتحرر على الاستعمار، والاشتراكية على الرأسمالية.

وقد أدركت، كما أدرك الآخرون، مقولة الفلاسفة الاشتراكيين عن مجيء المثقفين إلى العمال، وعن دور هؤلاء المثقفين، في حمل الوعي النقابي، ونقله، وتحريضه، وتثويره، ودفعه إلى حلبة النضال، ووجدت، أنا التي أزعم انتمائي المتواضع إلى المثقفين أن علي أن آتي إلى الطبقة العاملة، وأن أكون معها، وأخوض، بقلمي، نضالها، وأرفع راية البهجة والتضامن في عيدها، العيد العالمي العظيم الذي لا أحلى ولا أبهى منه، بين أعياد البشر.

لكنني، وهذا اعتراف صادق، لم أكن إلى ما قبل سنوات، قد امتزجت، عن قرب، بنبض الطبقة العاملة، وسمعت خفقات قلوب العمال، وهتافاتهم، وشهدت فولاذية إرادتهم، إلا حين وقفت، في عداد الواقفين على المنصة التي تصدرها قائدنا، وزعيمنا العربي الكبير، حافظ الأسد، قرب ساحة الحجاز في دمشق، وهو يستعرض، ونحن معه، تلك المسيرة العمالية التي خرجت في موكب طويل طويل، عظيم عظيم، صلب العود والإرادة، والثقة بالنصر على أعداء هذا الوطن، في الداخل والخارج، وكيف أعلن السائرون فيها بهتاف القلب، وتلويحة اليد، ونظرات العيون، عن عزمهم على سحق المتآمرين على الوطن، وكيف حققوا ما أرادوا، وسحقوا هؤلاء الأعداء، وهم الآن، كما في السابق، على استعداد لسحق كل

من تسول له نفسه أن يسيء إلى أمن سورية، داخلياً أو خارجياً، لأنهم يعرفون، بالتجربة، إن مجتمع التقدم والاشتراكية الذي نبنيه، هم بناته، وحماته، والذائدون عنه بعزيمة لا تلين.

في تلك المسيرة التي دامت ساعات طويلة، وأمواج العمال تتدفق، تحمحم، تشرئب، كما في بحر صاخب، غاضب، وهي تمر أمام منصة العرض، ازددت إيماناً بأن النصر لنا، مادامت الطبقة العاملة ركيزتنا، عدتنا، قوتنا، ومادام الفلاحون، في حلفهم المقدس مع العمال، هم الجنود الذين يقدمون عطاءات الخير في إنتاجهم، وعطاءات الدعم في مواقفهم، وعطاءات الفداء في وقفة قواتنا المسلحة الباسلة على حدود وطننا، الوطن الذي هو صخرة صلبة للصمود وللتصدي، ولمقاومة كل الضغوط والمؤامرات والمناورات من حولنا، ومن قبل أعدائنا: أمريكا وإسرائيل ودول حلف الأطلسي الذين يكشرون هذه الأيام عن نيوبهم، ويبعثون إلينا بتهديداتهم، ونحن نتبلغ هذه الرسائل التهديدية، ولا نستهين بها، لكننا لا نهابها، ونستعد، في كل لحظة، لجبهها، ودحرها، ورد كيد أصحابها إلى نحورهم.

أيها العمال والعاملات في قطرنا، وفي وطننا العربي الكبير..

إنكم تعرفون ولا شك، بحكم اطلاعكم، ووعيكم، ويقظتكم الثورية، الأخطار المحيقة بمنطقتنا العربية، والمخططات التي توضع في واشنطن وتل أبيب، وبعض العواصم الأطلسية،

للاعتداء على الدول العربية المكافحة، الرافضة لكامب ديفيد، ومشاريع التصفية، ودعوات الاستسلام، وبغية الهيمنة على المنطقة، بذريعة الإرهاب الذي يركبون قطاره، ويقودونه في العالم، ويسحقون تحت عجلاته ضحاياهم، لأنه قطار من صنعهم، ومن تدبيرهم، وهم يتخذونه مطية، وذريعة، وحجة للعدوان، كما فعلوا مع الشقيقة الجماهيرية الليبية، وكما يهددون به سورية، وكل الأنظمة العربية المقاومة لمشاريعهم ومطامعهم، ونحن نأخذ مأخذ الجد سلوكهم العدواني، هذا الذي يحشدون له الأساطيل، حتى النووية منها، في المتوسط، لكننا لا نرهب هذا العدوان، وسنقف بحزم وصلابة، إلى جانب كل قطر عربي يتعرض له، وسندفعه عن أنفسنا إذا ما وقع علينا، وسننزل بالأعداء أفدح الخسائر المادية والبشرية.

وإذا كنا نكره الحرب، ونعمل للسلم العادل، في المنطقة وفي العالم، فإننا سنحارب إذا فرضت الحرب علينا، لأن حجتهم التي يتسترون بها، وهي الإرهاب، حجة واهية، وستارة لا تستر شيئاً، وفهم يعلمون أننا ضد الإرهاب، لكننا نفرق بين الإرهاب والنضال التحرري، بينما هم يخلطون بينهما، ويريدون القضاء على كل حركة تحررية نضالية بذريعة الإرهاب الكاذبة التي يتخذونها سلاحاً، يشهرونه في وجوه الشعوب والدول لإرهابها، وحملها على الاستسلام.

لقد جربوا أن يطيحوا بالنظام الوطني، التقدمي، الوحدوي، في ليبيا، خلال عدوانهم المجرم، وأخفقوا وجربوا قبل ذلك في لبنان

فلحقت بهم الهزيمة، وإذا كانت إسرائيل مازالت تحتل شريطاً حدودياً من الأرض اللبنانية، فإنها ستنسحب منها مرغمة، تحت ضربات المقاومة الوطنية اللبنانية الباسلة، وبدعم وتأييد سورية وكل القوى التقدمية العربية، وقوى الحرية والسلم في العالم، ولن تستطيع محاولاتهم المجرمة، وتخريبهم المستمر في لبنان، أن يحول بين نضال الأشقاء اللبنانيين وبين تحقيق الوفاق، بدعم من سورية التي سيتحقق الوفاق بمساعدتها وبمحاولاتها الصادقة لإنقاذ لبنان، ووقف المجزرة على أراضيه، وتوحيده أرضاً وشعباً، وإعادة الطمأنينة والحرية إلى ربوعه.

إننا في سورية، نعرف قضيتنا، ودورنا، وقوتنا، ونثق بأصدقائنا وحلفائنا، وبكل القوى الخيرة، المناضلة، الواقفة بثبات إلى جانبنا، وقد كان شعار التوازن الاستراتيجي الذي رفعه الرئيس الأسد، شعاراً حقاً، صادقاً، تثبت الأيام الآن مصداقيته، ويقتنع العرب بهذه المصداقية أكثر فأكثر، لأن الهجمة العدوانية الأمريكية الإسرائيلية الأطلسية موجهة إليهم كلهم، إلى كل بلد، وكل شعب، وكل وجود عربي في المنطقة، وأمام هذا الخطر الداهم، ندعو الأشقاء العرب إلى التضامن الكفاحي، وإلى اليقظة، والحذر، وتوحيد الجهود، وتعبئة الإمكانات، لإحباط المؤامرة الكبيرة علينا.

إن وحدة النظرية والممارسة، ليست مجرد أعطية آلية، وإنما هي جزء من عملية تاريخية، تتصف، في أشكالها، بشعور غريزي بالاستقلال، ثم ترقى إلى مستوى حيازة رؤية شاملة موحدة،

ومتماسكة، للعالم والحياة، وهذه الوحدة، في النظرية والممارسة، تتحلى بها طبقتنا العاملة، ويتحلى بها شعبنا، ويتخذها الرئيس الأسد خطة في نشاطه السياسي، سلماً وحرباً، ومنه نستمد ونتعلم، وعلى أساس ذلك نناضل، وسيتكلل نضالنا بالنصر، مهما يعنِت السير، ويشق النضال، وتطل دربه التي سنقطعها بتصميم لا هوادة فيه.

تحية إلى طبقتنا العاملة في عيدها، عيد الأول من أيار، وتحية إلى كل عمال العالم، وكل المناضلين فيه، من أجل الحرية والسعادة والكرامة الإنسانية، والمجد للشهداء، جميع شهداء النضال العمالي والتحرري والقومي، الشهداء الذين احتفلنا أمس بعيد استشهادهم المجيد، وإلى الأمام في مسيرتنا الظافرة، والتوفيق حليفنا جميعاً.

الأستاذ المحامي عيسى سلامة(*)

التعبير عن الانتماء إلى الوطن والأمة، يتجسد بكلمة، بلفتة، أو بموقف ما، وقد عبرت أنت، في الحديث الذي دار بيننا خلال لقائنا في وزارة الثقافة، عن هذا الانتماء بكلامك الحار، وترجمت كل ذلك إلى وقائع مادية، هي في الدلالة تعبيرٌ أروع وأبلغ، فقدمت إلى "مكتبة الأسد" هذه التي نعتز بها كإحدى الإنجازات الضخمة في عهد الحركة التصحيحية المجيدة، بعض كنوزك من الكتب الثمينة، والآثار التاريخية النادرة، مما أعنى موجودات المكتبة، وحق لك أن نخصص فيها حيزاً باسمك، يضم التقدمات التي تبرعت بها، عنواناً للانتماء الكبير، رغم هجرتك الطويلة عن أرض الوطن، وإقامتك الدائمة في الأرجنتين منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً.

وإنني إذ أنوه بهذه البادرة النبيلة، التي نتمنى أن تصبح تقليداً، لما فيها من معاني حبّ الوطن، وتمجيد الثقافة، والحرص على

(*) وجهت وزيرة الثقافة الدكتورة نجاح العطّار الرسالة المرفقة إلى الأستاذ عيسى سلامة تشكره فيها على ما قدم ويقدم من كتب نادرة وقيمة إلى مكتبة الأسد (عام ١٩٨٦).

الإسهام في إغناء هذه المكتبة الوطنية بالكتب والمجلدات النادرة والنفيسة، أقدم إليك، باسم مكتبة الأسد، وباسم وزارة الثقافة، جزيل الشكر، وصادق التقدير.

مع أطيب التمنيات.

بعض ما قدم الأستاذ عيسى سلامة

من إهـداءات قيمـة

قدم الأستاذ عيسى سلامة إلى مكتبة الأسد مجموعة من الكتب النادرة، تتناول مواضيع مختلفة، وفيها مجلدات عن الفن العربي الإسلامي، تتضمن صوراً ولوحات رائعة، تمتد من مدينة حلب إلى قرطبة فغرناطة ومصر وفلسطين، وتبرزها في إطارها التاريخي الزاهي، في القرون الماضية، وبالتخصيص في القرنين الثامن والتاسع عشر، وهي مجموعة نفيسة بحق، ولها قيمة كبيرة، مادياً ومعنوياً.

كذلك قدم الأستاذ سلامة محتويات مكتبته الحقوقية، وتمثالاً قديماً رائعاً يعود تاريخه إلى ألفي عام، ويظن بأنه تمثال كليوباترا، وجرة جميلة عاشت في أعماق البحر في طرطوس زمناً غير قصير.

ومن عناوين الكتب النادرة المقدمة، كتاب سورية - الأرض المقدسة، حياة محمد، العملة السورية خلال الإمبراطورية السلجوقية، خط تونسي، الطب أيام العرب، كتاب أبي نواس،

محاكمة يهوذا، إنجيل مطبوع في حلب عام ١٧٢٩، ملحمة من تحرير القدس من الصليبيين، لوحات سيبسل، الكتابات العربية الموجودة على جدران جامع قرطبة، دير الاسكوريال في اسبانيا، أول كتاب لتعليم اللغة العربية في جامعة السوربون عام ١٨٠٣، برج بابل وهندسته، رحلة الشرق **(مجلدان)**، مصر وفلسطين **(مجلدان)**، إضبارة تضم ٤٠ لوحة من السيراميك الشرقي، بستان الزهور، مصحف قديم تجليد أصلي، مخطوطة عن الشريعة الإسلامية في القرن الثامن عشر، مصاحف قديمة مطرزة تعود إلى الأعوام ١٢١٩، ١٢١٦، ١٢٥٤هـ، أول مصحف مطبوع باللغة الفرنسية عام ١٦٤٩م، دلائل الخيرات، مخطوطة تضم أبحاثاً عن الإسلام مطرزة بالذهب عام ١٢٥٣هـ، محاضر مار قوزما وماردامیان، تاريخ الصابئة، حروب الأندلس **(**جزءان**)** حروب غرناطة، حروب غرناطة ١٧١٤، الفن العربي حسب المعالم العربية في القاهرة **(**٣ مجلدات**)**، فينوس وآشور **(**٣ مجلدات**)**، المعالم العربية والمغربية **(**مجلد واحد**).**

وهناك كتب ومجلدات أخرى هي**:** الكتاب الأول**:** مقياس فوليو باللغة الفرنسية، الأوابد العربية والمغربية في قرطبة واشبيلية وغرناطة، مرسومة من قبل جيد ودوبرانجيه وعدد من الرسامين ومطبوعة في باريس، رسوم وزخارف ولوحات نادرة ذات قيمة فنية وأثرية وتاريخية فائقة**..**

الكتاب الثاني: (٣ أجزاء) الفـن العـربي بالاسـتناد إلى أوابـد القاهرة، وتاريخ الجزء الأول من القرن الـسابع حتـى نهايـة القـرن السابع عشر، والجزء الثاني والثالث لوحات، باريس ١٨٧٧، وهـو نادر والرسوم رائعة وهامة جداً تاريخياً وأثرياً وفنياً.

والكتاب الثالث (٣ أجزاء) للمؤلف فيكتور بلاس مـن رواد علم الآثار في الرافدين، والعنوان: فينـوس وبـلاد آشـور، ويـضم الجزءان الأول والثاني نصين، ويضم الجزء الثالث لوحات، ويعـود تاريخ الجزء الثاني إلى عام ١٨٧٠ باريس، بأمر الإمبراطور نـابليون الثالث، وهو نادر وهام جداً، خاصة بالنسبة للوحات.

القومية والوحدة واللغة

هي قوام وجودنا ومصيرنا (*)

اللغة أداة توصيل، بين الأنا والآخر، بين الفرد والجماعة، وهي أداة تفاهم، منطوقة ومكتوبة، تزداد، مع كل يوم يمر، وكل حاجة تعرض، مفردة تغني ما سبقها من مفردات، وهكذا تستمر في النمو، والتطور، والانتشار، بين القوم الذين نشأت بينهم أولاً، ثم بين الأقوام الذين صارت إليهم، لأسبابٍ شتى، ثانياً.

بهذا المعيار تصبح اللغة لغة قومية، يتداولها قومها في تسيير أمورهم، ثم في التعبير عن ذواتهم، التي تتطلب دائماً كلمات جديدة، يستدعيها أبداً التعبير الجديد، بحيث تنتقل اللغة، من شكل أدنى، إلى شكل أرقى، ومن دائرة ضيقة، إلى دائرة واسعة، أي من الاستخدام في الحاجات والأغراض، إلى الاستخدام في الأحاسيس والخلجات، وبذلك تؤدي اللغة وظيفة إنسانية قومية اجتماعية، منذ خلق الإنسان في هذا الوجود، وخرج من أحاديته

(*) كلمة ألقيت في الرباط – المغرب، عام ١٩٨٩.

ليصير في ثنائية، ويتكاثر بالإنجاب حتى يصبح ذرية تنقسم بدورها إلى ذراري، حتى تبلغ مرحلة الجماعة، وتتخطاها إلى مرحلة الجماعات، في مشاعاتهم بدءاً، وفي النظم الاجتماعية المتعاقبة عبر التاريخ تالياً.

غير أن الإنسان الذي استخدم اللغة للتخاطب، ما لبث أن اكتشف الأبجدية، ومع اكتشافها توصل إلى الكتابة، فصار في وسعه أن يدون الأشياء حتى يحفظها من النسيان، وكان القلم وسيلة هذا التدوين، وبه، وعنه، تنزلت الآية الكريمة: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق.. اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾.

وإذا كانت اللغة العربية من أغنى لغات العالم، باعتراف الكتاب الذين يتخذون من اللغة وسيلتهم إلى التعبير، في الشعر والمقالة والقصة والرواية والمسرحية وغيرها، وكان اعترافهم هذا صادراً عن تجربة أثبتت قدرة اللغة العربية، وصلاحيتها، للكتابة والترجمة معاً، فإن هؤلاء الكتاب، من طه حسين إلى يحيى حقي إلى مارون عبود في قرننا هذا، ومن الجاحظ إلى الأصفهاني إلى المتنبي في العصور الأولى المتتالية للإسلام، يقدمون شهادة دامغة، لا على حيوية اللغة العربية فقط، ولا على قابليتها للتطور فحسب، بل على إمكاناتها الكبيرة والرائعة التي هي منها في الذات، لأنها منها في صلب بنيتها، صرفاً ونحواً.

إن ما أقصده هنا، هو قابلية النحت والاشتقاق، هذه التي كان القياس منطلقها الرحب إلى آفاق جديدة، بها اغتنت العربية وأغنت في آن، بحيث اتسعت لتستوعب الوحي النبوي، في كلم القرآن الكريم الجامع، الذي في منزل أحكامه، وسع أمداء اللغة العربية إلى غير حدود، فحفظها من جهة، ونشرها في أربع جهات الأرض من جهة أخرى.

وإذا كانت لغة قريش هي الأصل في لغة القرآن الكريم، فإن هذه اللغة القرآنية دللت على عبقريتها حين صاغت من لهجات القبائل العربية، على كثرتها وتنوعها ومساحة انتشارها، لغة واحدة موحدة، كما دللت على سعتها التي هي دون حدود، حين شملت الكون، بكل معطياته، شمولاً كاملاً، فكانت مفرداتها وعاء لهذه المعطيات، في الطب والفلك والجبر والرياضيات، وفي علوم الفقه والكلام والمنطق والعمران وغيرها، ويكفي هذه اللغة فخراً أنه بها كتب الشيخ الرئيس ابن سينا كتابه «القانون» في الطب، وبها كتب ابن رشد والغزالي كتبهما الفلسفية، وكذلك بها كتب ابن خلدون مقدمته الشهيرة وكتابه في العمران، وقبل هذا بها ترجم حنين بن اسحق وغيره أمهات الكتب اليونانية إلى العربية.

بهذا التذكير والتأكيد، على غنى اللغة العربية، وخاصة مع نزول القرآن الكريم، وانتشار رسالة الإسلام عبر الفتوحات والغزوات، وبما كانته هذه اللغة من حامل للشعر، الذي هو ديوان العرب، وللنشر، وهو جامع كلمهم في كل شئونهم وأغراضهم،

نصل إلى بدهيـة مؤداهـا أن اللغـة هـي منظومـة إشـارية اجتماعيـة وتاريخية، في تكونـها وسيرورتها، وهي منظومة بما هي قواعد ونحو وأساليب بلاغة، ذات دلالة عـلى وقـائع نفـسية داخليـة، ووقـائع اجتماعية خارجية، تتعلق بالبيئة والمحيط.

إن اللغـة العربيـة، في مواكبتهـا للفكـر العـربي والعـالمي عـر العصور، قد كانت لغة حية، قادرة على الفعل والتفاعـل، متطـورة إلى أبعد حدود التطور، وهي لغة مانحة بأكثر ممـا هـي ممنوحـة، إذ إنها، في مواكبتها للفكر العربي والعالمي، قد أعطت عطاءات جليلة، ليس في مجال استيعاب هذا الفكر وإغنائه فحسب، بل في المفردات التي وفرتها للغات الأخـرى، المواكبـة، فحققـت بـذلك حـضوراً تاريخياً عظيماً، في المضمار اللغوي، ويكفي، في هذا المقـام، أن نـذكر تأثير اللغة العربية في اللغات الفارسية والتركية والاسبانية وغيرها، هذه اللغات التي أفـادت مـن العربيـة مفـردات تـصل إلى حـدود الآلاف وتتجاوزها، في العلم والأدب والفن، وسائر شئون المعرفة.

من هنا تأتي المكانـة الرفيعـة للغـة العربيـة بـين لغـات العـالم الواسعة الانتشار، ومـن هنـا، ولكـون اللغـة العربيـة لغـة القـرآن الكريم وحاملة رسالة الإسلام، فإنها احتفظت، عبر كـل العـصور التي تلت ذلك، بقوتها، ونضارتها، واكتنازها، واستعصائها على كل محاولات محوها، أو طمسها، أو تحديدها، أو إفقارها، بل أذهب إلى أبعد من ذلك، فألاحظ أن اللغة العربية، لم تصمد لهذه المحـاولات فقط، بل انتصرت عليها أيضاً، فأثّرت في اللغات الأخرى، وأفادت

من قابلية التطور الكامنة فيها، فأخذت عن هذه اللغات، مفـردات صارت في صلب بنيتها اللغوية العربية الآن.

ولأن اللغة العربية تمتلك حيويتها الخاصة، الديناميكية، فقـد رفضت الجمود، ونبذت التقوقع والانغـلاق، وواكبـت فعـلاً كـل العصور التي مرت عليها، واستطاعت بـذلك أن تكـون لغـة كـل عصر، بما في ذلك عصر النهضة العربية الحديثة، فأفرزت مـن ذاتهـا اللغة الأدبية، لغة الخطابة والكتابة والتأليف، ولغة الحيـاة اليوميـة، لغة البيـت والـشارع والبيئـة والمجتمـع، وهكـذا حققـت، ذاتيـاً، انتصارها الرائع، عند تحـول الأدب مـن المقامـة إلى القـصة، ومـن الخطابة الإنشائية الحماسية، إلى الكتابة النثرية، في مجـالات المعـارف المتعددة، وتركت السجع إلى الترسل، والبلاغة المتقعـرة إلى التعبـير البسيط الواضـح، وتمكنـت أن تطـوع نفـسها لتكـون لغـة الـشعر المعاصر، ولغة الرواية والمسرحية والمقالة الحديثة، واجتازت بنجاح الامتحان الصعب، امتحـان تطويـع الفـصحى للأشـكال الأدبيـة الراهنة، وبذلك تبدد الخوف من اندثار الفصحى، وطغيان العامية، وهكذا تراجعت موجة كتابة الحوار، بل المتن، في القـصة والروايـة والمسرحية، باللغة العامية، وصارت الفصحى هي السائدة في هـذه الأجناس الأدبية جميعاً.

لقد ارتقت اللغـة العربيـة مـع ارتقـاء مكانـة الأمـة العربيـة، وانحدرت مع عصور انحـدارها، وهـذا شيء طبيعـي، وذو صـفة ملازمة، لصيقة، بحركة المجتمع والتاريخ، ذلك أن اللغة هي أحـد

مقومات الأمة، ترتبط بها ارتباطاً عضوياً، في حالتي الازدهار والذبول، وقد عاودت اللغة العربية نهوضها، مع نهوض الأمة العربية، وتابعت صعودها، مع صعود مكانة هذه الأمة، منذ عصر النهضة التي بدايتها محمد علي باشا الكبير، وامتداداتها زمن الاستقلالات الوطنية، في أواسط هذا القرن، وما تلاها من زخم حركة التحرر الوطني في عهد الزعيم الكبير الراحل جمال عبد الناصر، وصحوة فكرة القومية العربية صحوة مدهشة، ثم انتشارها وتجذرها واستمراريتها بدفق ذي وتيرة عالية، مع النضالات التي تخوضها أمتنا العربية في سبيل تحرير الأرض واسترداد الحقوق، ومع المفاداة المذهلة للانتفاضة في الأراضي العربية المحتلة ومع التصدي للغزو الثقافي، الامبريالي والصهيوني معاً.

إننا، في سورية، وبقيادة الرئيس حافظ الأسد، ننطلق، في كل المجالات، من المنطلق القومي، نضالياً واجتماعياً وثقافياً، ونتمسك، بقوة لا تلين، بقوميتنا العربية، ونعمل للوحدة العربية، ونحرص على اللغة العربية حرصنا على سواد العين، بسبب من أن القومية والوحدة واللغة، هي قوام وجودنا ومصيرنا، ونحن ندفع عن هذا الوجود والمصير دفعاً عزيزاً عنيداً، وننتج ثقافة عربية وطنية قومية إنسانية تقدمية، تؤمن أن اللغة تواكب الفكر، إذا ما استطاع مجتمع هذه اللغة أن يواكب التاريخ، ونأمل، أن نحقق هذه المواكبة، لغةً وفكراً، كي يتساوقا، في مجرى الإسهام الثقافي والحضاري العربيين، مع مجرى الثقافة والحضارة في العالم.

إن من البيان لسحراً، ومن لغتنا قد كان، وسيظل، سحر بياننا، ومع هذه اللغة، وبها، نطرح أسئلتنا على النجوم، وخواطرنا على زرقة البحر، وخضرة الربيع، وثلج الجبال، ورمال الصحراء، ونرسل فكرنا المصاغ بماسية يراعاتنا، سفيراً لنا إلى الدنيا، وتسمع الدنيا، وتجيب، لأنه لا بدَّ لها أن تجيب، ما دمنا نأخذ حبرنا من دمنا، وأصابعنا من عروقنا، وحروفنا من شهبنا، نيرات في السماء، مزهرات في الربى، موشيات في الشفق، متأنقات في اللفظة البكر، والطعنة البكر، والوقفة البكر، صموداً، وزهواً وأنقاً، في طلاب العلى، وغلاب المنايا، وتحقيق النصر، فتكة وعنوة وقدرة، نحن لها، لأننا نحن، في التاريخ، قد كان التاريخ مجداً بنا، وعزاً لنا، وصفحة مشرقة لمآثرنا.

الثقافة وحدها تمتلك مفتاح التقدم (*)

في عصر المعلوماتية هذا، تصبح الثقافة بكافة فروعها، ناقلاً أساسياً للمعرفة بين أمة وأمة، وحاملاً حضارياً لأرقى ما توصل إليه العلم، في اكتشافاته المذهلة، وللآداب والفنون في سائر إبداعاتهما، التي تضع في يد إنسان القرن العشرين، وهو في عقده الأخير، المشعل الذي نستقبل به القرن المقبل، استقبالاً فيه حفاوة مضيئة، بما كان، وبما سوف يصير، وفيه امتداد لجهد البشرية المشترك، بكل ما أنجزت، ووعد في إنجازات أكبر وأروع، ما دمنا نسلك إلى غاياتنا المعرفية، درباً يعطي الفكر هذا الشأن العظيم، رقماً وكلمة، فيهما، للرياضيات والفيزياء والكيمياء، دور خطير في مواصلة الاكتشافات المأمولة، وللأجناس الإبداعية دور لا يقل خطورة، إذا لم أقل إنه يتساوى، أو يزيد، لأن الإبداع، في كل صوره، يجعل العقل الإنساني يتفتح، كوردة نادرة، في ألوانها، ونضارتها، وشذاها، وبه يتجلى الكون جميلاً وبهياً.

(*) كلمة في إعادة افتتاح المركز البريطاني في دمشق عام ١٩٩٣، وبحضور السيد هانس المدير العام للمجلس البريطاني في المملكة المتحدة، وكانت العلاقات على غير ما هي عليه اليوم، بعد أن هوى بها عبث السياسة.

من منطلق هذا استشرافه، وبتحديد واقعي وواضح لكل مسئولية الثقافة، في عطاءات ندرك، لا بالظن وإنما بالفعل، أنها ستكون بالغة الأهمية، فائقة الضرورة، يسعدنا اليوم أن نفتتح بيتاً جديداً قديماً للثقافة، فيه وصل لما انقطع، أو استئناف لما كان، يتصدى لغاية سامية، هي نشر المعرفة، بأبهى تجلياتها، في إطار من الاحترام المتبادل، والتفاهم المشترك، اللذين بهما تصان لغة الأداء والتلقي، على الصعيد الثقافي، وضمن المسار المتفق عليه مع الأصدقاء البريطانيين، في عملية التعاون التي نريدها إلى نمو واتساع، بسبب من أننا حملة، وكذلك ورثة، ثقافة منفتحة على كل الثقافات، تنطوي على رغبة مخلصة، أكيدة، في تطوير شتى أشكال هذا التعاون، انطواءها على رغبة مخلصة أكيدة أيضاً، في إقامة علاقات ثقافية، مع جميع الدول، وكل الشعوب، علاقات تتجسد فيها، وتتجلى في حواراتها، مبادئ شرعة دولية ننتسب إليها جميعاً، ونحرص على إنفاذها، بصدق وإخلاص، جميعنا أيضاً.

إن الثقافة، في أيامنا هذه، تملك وحدها مفتاح التقدم المنشود، وستزداد، في المستقبل، امتلاكاً لهذا المفتاح السحري، لعالم المعرفة السحري، الذي دخلناه في تاريخنا العربي، بقدم ثابتة، ووثوق كلي، فكان لنا فيه شأن معروف، ومكانة مرموقة، أعطتنا المتنبي والمعري وابن رشد وابن خلدون وغيرهم، كما أعطتكم ثقافتكم، التي يعرف العالم شأنها ومكانتها، شكسبير وبايرون وبيكون وراسل وهكسلي، وغيرهم، ولهذا فإننا، أنتم ونحن، نملك تراثاً معرفياً

ضخماً، نريد أن نبني عليه، وننطلق من موقعه المتقدم، في إضافة إسهام جديد إليه.

ولعلّي، في كلمة الاستهلال هذه، قد استطعت أن أبرز بعض ما يعنيه مجلس بريطاني للثقافة، نرحب بإعادة افتتاحه في دمشق، المدينة التي كانت منبراً للإشعاع الفكري، وهي، الآن أيضاً، منبر لهذا الإشعاع، في عهد رعى الثقافة، وعمل على تنميتها، وإقامة نهضتها، وحث على تبادلها، في إطار مطرز بنمنمات من الخلق الإبداعي، توشي دائرته صداقة متكافئة، مسورة بنظرة جديدة، لعلاقات ثقافية جديدة، قوامها الحق، والجمال، والحرمة الأصيلة، لكل ما هو حق وجمال وأصيل في عالم اليوم والغد.

أخيراً أرحب بالضيف الصديق المدير العام السيد هانس والسيدة حرمه ترحيباً حاراً، متمنية لعملنا المشترك أن يحقق أهدافه، على الشكل الأمثل، وللمجلس البريطاني النجاح في مهماته الثقافية.

الريادة عزماً ونضالاً وفعلاً

جهان الموصلي نموذجاً (*)

الأموات يستمرون أحياء فينا، مادام الإحساس بوجودهم بيننا، يصنع تخيله الخاص، التخيل الذي ينشئ لهم، في ذاكرة الذين يحبونهم، سكناً وفيئاً وخاطراً، يعيدهم، أو يستعيدهم، من رحلة اللا عودة، ويقيم لهم حضوراً، ويصنع وجوداً، حتى من العدم الذي صاروا إليه، وبسببه يكون الجزع من الفراق الذي لا لقاء بعده، لأننا، جميعاً، نجزع من العدم، وفيه لغز الموت وما بعده، متناسين، لوهلة ما، أن المرء يبقى بفعله، وبما في هذا الفعل من أثر حميد، ويبقى في صيرورته، من خلال ذريته، وما في هذه الذرية من خصال كريمة، ويبقى، أيضاً، من خلال صيته الحسن، الذي هو فوق متاع الدنيا الغرور، ويبقى، أخيراً، بمقدار ما قدم وأخر، ونال من رضى الضمير والناس، وما صنع، وهذا هو الأهمّ الأهمّ، من حسنات، تجعله راضياً مرضياً في انتقاله إلى الملأ الأعلى، حيث الجزاء والعقاب يتوقفان على الصالحات والطالحات من الأعمال.

(*) في تأبين السيدة الفاضلة جهان الموصلي عام ١٩٩٦.

إن فقيدتنا الغالية، التي ارتحلت على جناح المودات، وعبرت الصراط المستقيم، في يسر وهون، قد صارت في جوار البارئ العظيم، وهناك الرحمة الواسعة، والمغفرة السابغة، وميزان العدالة الذي يشيل به، ويحط به، مثقال شعرة، لأنه في دقته، وفي رهافته، المستمدتين من البارئ، تبارك وتعالى، موكل بإحقاق الحق، وما بعد الحق الإلهي من شيء، وكلنا، بعد الرحيل من الفانية إلى الباقية، نأمل أن يشملنا هذا الحق، كما شمل، أملاً، الراحلة الكريمة، الأستاذة الفاضلة جهان الموصلي، التي كانت في حياتها القدوة والأمثولة، وكانت الرائدة التي تقحّمت وعر الدروب، في نضالها من أجل نشء صالح، حين مارست نظارة التجهيز الأولى للبنات في دمشق، كما مارست التعليم بالجهد الدؤوب، المنبثق من وجدان حي، وضمير نير، وكذلك في نضالها من أجل المرأة، عندما تقدمت الصفوف، لتكون بين النساء القلائل جداً، اللواتي دخلن الجامعة، وعندما نالت إجازة الحقوق، مارست المحاماة فترة، وشاركت عام ١٩٣٤ في تأسيس نواة الاتحاد النسائي السوري، تاركة في كل ما قامت به، بصمات باقيات، من راحة بيضاء في صنيعها، سخية في عطائها، دافئة في صداقتها، وعلى هذا النحو كانت مجلية في تحليقها الخلقي، مبرزة في دورها الإنساني، وما فيه من نبل رفيع، وما في هذا النبل الرفيع من مأثرة، ومكرمة، وجسارة، شقت للمرأة طريقاً إلى العلى، فتدرجت فيه صعوداً ولما تزل، وحققت طموحاً في العلم والعمل، والمشاركة في الشأن السياسي، وكذلك الشأن القيادي، على مختلف الصعد، وفي كل المجالات.

لذلك، فإننا، عندما نقول جهان الموصلي، ترن قولتنا رنيناً خاصاً، قد كان، ولن يبرح، ملء الأسماع، وما أشك في أنه ستبقى للفقيدة العزيزة، في سجل كفاح المرأة العربية السورية، صفحات مشرقات، هن الغرر، عنواناً ومتناً، وقد كان علينا، في ذكريات الأيام المواضي، أن نروي حكاية امرأة من هذا الوطن، من هذا الشعب، من دمشق وغوطتها وقاسيونها، ما يجعل الحكاية أسطورة، وأن نقول في فقيدتنا كلاماً، فيه من عطر المعزات، ومن أرج النفحات، ما تندى له القلوب حرارة، ومودة، وتكرمة، وحسرة أيضاً! إلا أن الكلام، في التآبين المفجعة، لا يطاوع، ومهما ياسر الكلم في صدقه، وحزنه، وفجيعته، إلى رسم الصورة التي نريد، يبقى أعجز من أن يرسم الصورة البهية التي نريد، والتي تتطلبها سيرة امرأة كانت، بداية وخاتمة، من أشد نساء الوطن العرب وعياً، وجرأةً، وكفاحاً، وكانت من خيرهن سلوكاً ريادياً، فيه كل سبق الريادة، وفضلها، ونفحها، وفيه كل مصاعبها ومتاعبها أيضاً.

فيا أيها المترحلة ولا ترحال، لأنت في الباقيات فينا، والشامخات من مآثرنا، والساطعات نجماً ألقاً في مسيرة حياتنا، التي مهما يعنت سيرها، ومهما يطل دربها، فإن الظفر مكتوب لما ففيها، وسيأتينا النصر يوماً، خلل قفل ومفتاح، كما قال بوشكين، في إحدى قصائده، لأبناء أمته الذين كانوا يعانون، وتحت وطأة الشقاء يئنون، فأذكت فيهم هذه القصائد روح المقاومة، وأشعلت نيران التضحية، كما تذكي فينا مواقف قائدنا، وقصائد شعرائنا، وكلمات

أدبائنا، وريادات نسائنا والرجال، روح المقاومة التي لا هوادة فيها، ولهب التضحية القدسي الذي لن يترمد أبداً في مواقدنا، ما دمنا نطعم هذه النار الملتهبة جذوات قلوبنا، كي يبقى توهجها فيها ولنا، يمنحنا البصيرة في اختراق حجب النوائب، ويضيء دربنا في المدلهمات من النوازل، ويشد عزائمنا في التغلب على المصاعب، اقتحاماً لا تردد فيه ولا ونى، واندفاعاً هو التضحية والشهادة في آن.

في يوم الممرضة العالمي (*)

الأخوات الممرضات

أن نحتفل بيوم الممرضة، يعني أن نحتفل بيوم العلم والرحمة، فبين التمريض كجزء من علوم الطب، وبين البرّ الإنساني، وشائج قوية، أبرزها أن تكرس العاملة في هذا الحقل كل معارفها وخبراتها في فن التمريض، وكل قواها الجسدية والنفسية، لخدمة الذين على أسرّة المرض، أو في حالات الإسعاف، أو في المراحل الصعبة من نهايات العمر، حيث الحياة أنهت دورتها في الجسد العليل، وكل ما في الكيان ابتهالات قلبية إلى الملأ الأعلى، ونداءات وجدانية للرحمة الواعية، المبنية على المعرفة، والتي تتمثل في الثوب الأبيض لملاك السماء الحاني على من يتعذبون على الأرض.

لهذا كان للمرضة لقب من علم ورحمة، وكان لها هذا الدور النبيل في رعاية المرضى، وفي إدخال الراحة والعزاء إلى قلوب هدها المرض، وجسوم أنهكها الإعياء، وأبدان تتلمّس الراحة وهي في قبضة الأوجاع، وكان عمل الممرضة من أصعب الأعمال وأكرمها

(*) كلمة ألقيت في احتفال أقيم عام ١٩٩٤.

أيضاً، يقوم على استيعاب المعارف وتطبيقها، وعلى التضحية، ونكران الذات، كما يقوم على الشجاعة والاحتمال، وعلى معايشة الكائن البشري في أشد ساعاته حاجة إلى العون والمساعدة، وفي أكثرها رهافة حس، ورقّة عاطفة، حيث تشكل المبادرة العلمية، التقنية، إلى جانب الكلمة الطيبة، والابتسامة المشجعة، والصبر وعدم الضيق، واللطف والوداعة، طاقة على مواجهة الحالات الطارئة، والتصرف حيالها، وفيضاً من مشاعر العطف والإخاء والقربى، وكل المعاني الخيّرة التي بها وحدها يتجلى سمو التواصل الإنساني.

من هنا أصبح التمريض اختصاصاً عالياً، مستقلاً، ذا دراسة حديثة علمية وفنية، وأخذت المجتمعات المتقدمة تنظر بتقدير كبير إلى مهنته، ومن هنا جرى تخصيص يوم للمرضة، وكانت هذه الالتفاتة الكريمة للسيدة الأولى التي تفضلت برعاية هذا اليوم، وكان هذا الاهتمام الذي يوليه قطرنا بقيادة السيد الرئيس لعالم الطبابة الذي يشكل التمريض عصبه الحساس، كما يشكل مرحلته الأكثر دقة، والأشد تطلباً للسهر والبذل والعطاء.

لقد أصبحت الممرضة، في مفهوم الحداثة، مساعدة أساسية للطبيب، وأصبح تعليمها جامعياً، يتطلب ثقافة واسعة، وخبرة علمية وعملية رفيعة، وصار الاعتماد عليها، في المشافي الكبرى، يشكل ركن المعالجة الطبية، ولهذا فهي تحظى باهتمام كبير في تعليمها، وفي تقدير خبرتها على السواء.

ونحن إذ نعدد كل هذه الصفات الطبية للممرضة، ولمهنة التمريض، ونضعها في المكان اللائق بها من الجسم الطبي، ونُشيد برعايتها وسهرها ومواظبتها على أداء دورها الإنساني نهاراً وليلاً، فإنه علينا أن نعرف حقها، وأن نؤدي لها هذا الحق، وأن نثمن مكانتها، ونعلي هذه المكانة، ونبدل النظرة إليها جذرياً، ونزيد في مكافأتها، وفي تعويضها عما تبذل من جهد جبار، جسدي ونفسي، في سبيل العناية بالمرضى، ومداواة الجرحى، وإغاثة من يحتاجون إلى إغاثة من ضحايا الحوادث وطالبي الإسعاف.

ولئن كان تكريم الممرضة، في يوم عيدها، يتخذ معنى الاعتراف بجميلها، ومنحى الإشادة بدورها، فإنه علينا من هذه المناسبة السنوية، أن نترجم هذا التقدير إلى فعل يطور مهنة التمريض، دراسةً وتخصصاً ومكافأةً مادية بالتالي، بحيث ننشئ كلية لدراسة التمريض في هذا القطر، ويصبح لشهادتها درجة علمية، وبذلك نضع الأشياء في مواضعها، وننتقل من حيز الكلام إلى حيز الفعل، فنسهم حقاً وصدقاً في إعطاء هذا العيد قيمته، في دنيا الواقع.

تحية للممرضة في يوم عيدها، وشكراً ليديها اللتين تصوغان المعرفة والعاطفة الإنسانية سلوكاً إنسانياً، يتجلى في ما تقدمه من عطاء نادر، ومن مفاداة تبلغ حد المخاطرة بالنفس، لإنقاذ نفوس الآخرين.

الثقافة . . في عاصمة الثقافة (*)

الكلام على مستقبل الثقافة العربية، يرتبط، جدلياً، بالكلام على ماضي هذه الثقافة، لا في العقود القليلة المنصرمة، وإنما في العصور الأسبق، حيث مرت هذه الثقافة بامتحانين صعبين جداً، من خلال مراحل الانحطاط، ثم مراحل القهر والاحتلال والاستعمار والخضوع لسلطان الأجنبي، وقد خرجت الثقافة العربية، من الامتحانين، ببعض الوهن في الأول، وبالصمود اللافت للنظر في الامتحان الثاني.

إن الثقافة، بما هي أم الفكر، والفكر بما هو جماع المعرفة، يضعاننا في إطار من الرهبة القدسية، كأنما نقف إزاء الصوت المبشر بالمحبة السمحاء، المنبعث من الناصرة وبيت لحم، أو حيال الوحي المنزل في مكة المكرمة، ثم المدينة المنورة، بازغاً في لألاء الدعوة المجيدة للإسلام العظيم، وهذه الرهبة، في توقها إلى التحقق ألقاً منيراً، قد كانت، ولا تزال، رهبة إجلال لما هو فائق في ذاته، وفائق في اندياح دوائر هذه الذات، لما هو في الإبداع، ذات إبداعية، قبسنا

(*) كلمة في مؤتمر وزراء الثقافة العرب في الشارقة عام ١٩٩٨.

منها المعارف هدىً للتقوى، وهدىً للرؤية، وهدىً للتجلي، انخطافاً إلى ما وراء الأفق المحجب بالسحب البيض، وما بين غمامها والانهمار، من نفاذ إلى أسرار العلم، هذا الذي هو مفتاح الجنة المعرفية، المرتقاة على سلم مسحور، حيث لا قدم تسعى، ولا خطو يطال، إلا بالجهد إشراقاً كاشفاً مبدداً لظلمة الجهل والتجهيل معاً.

لنقف، إذن، أمام الثقافة نهوضاً، ولنشعل، من قبسها الوهاج، قناديل رؤى، سطعت، وتسطع، جيلاً بعد جيل، ولنكّرم هذه الثقافة عقلاً وروحاً وشعوراً، يأخذ بنا إلى مدى غير منظور، غير محدود، غير مؤطر، حتى بدوائر الضوء، فالثقافة هي الضوء الذي ما بعده ضوء، سوى الضوء الإلهي وفيه تتمظهر أسرار هذا الكون، سراً بعد سر، وفيه، أيضاً، عطاء باذخ للإنسان المستحق، الساعي إلى المعرفة، سعيه إلى مرضاة الخالق، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وأفاء عليه بالنعمى، هذه التي تصبح، في فضاءات الفهم والتفهيم، نعميات ولا أبهى.

من هذا المنطلق، واستناداً إلى حقائق التاريخ، في بعده والقرب، أراني ميالة إلى تفاؤل موضوعي، نسيجه الوعي، والاستقرار، والنظر الخلاق، من خلال البصيرة والباصرة، إلى ما كان من شأن الثقافة العربية، في ماضيها والراهن، من قدرة موّارة بالعزم، حافلة بالإقدام على جبه التحديات الثقافية من حولنا، وفي عالمنا، شريطة أن نعمل ليكون لنا شأن ثقافي في هذا العالم، كما لهذا

العالم من شأن ثقافي عندنا، وهذه، في حدود الرأي، المشمول بالوعي، المزوّد بالنفاذ، هي الطريقة المثلى لمقاومة ثقافة التطبيع، والتضليل، والعولمة الزاحفة إلينا بنماذج، أو نموذج، دأبه الهيمنة على ما عداه، كونه نموذجاً للفرادة المستندة إلى السيطرة الجائرة، والنشر المجندة له وسائل إعلام، تستمد طاقتها من ترسانات الشركات متعددة الجنسيات، وما لها من نفوذ مدعم بالقوة المصرفية، وبالقوة الاقتصادية، التي في فهمها فهم للسياسة، لا في فهم هذه السياسة على أنها من الممكن من الأشياء.

ولئن كان العنوان وعاءً للمحتوى، فإن عنوان «مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين» يعد محتوى راهناً وضرورياً، ففي حقل الاستعداد ثقافياً للقرن المقبل، ملتئماً ومفترقاً مع الحقوق الأخرى، الاجتماعية والاقتصادية والتنموية والدفاعية، نعطي الثقافة كفاء ما هي عليه من أهمية متقدمة، متعاظمة، في عصر الثورة التكنولوجية وفتوحاتها الالكترونية، ويأتي الالتئام من كون «الثقافة هي الحاجة العليا للبشرية» في ارتباطها مع الحاجات الأخرى، والافتراق من كون هذه الثقافة لا تنهض على قوائم من فخار، وإنما على ركائز استنادية، مادية ومعنوية، ففي السعي لامتلاك ثقافة علمية، تربوية، روحية، مستقبلية، تتصدى للتحديات السياسية والاقتصادية، يجمل بنا أن نلاحظ أن قوة الثقافة من قوة اللغة، وقوة اللغة من قوة الأمة، وقوة الأمة من مكانتها الدولية، في محيطها والعالم، وتتمحور كل هذه البدهيات في

إنتاج الثقافة ونشرها، والإنتاج الثقافي لا بدَّ له من حامل إبداعي، ولدينا، في وطننا العربي الكبير، إبداع أصيل، ترتبط عصريته بتراثيته، في وحدة متكاملة، وهذا الإبداع، في فروعه، وأشكاله، وأجناسه الأدبية والفنية، هو غذاء للروح، وبناء للمواطن، وصوغ للوجدان العربي الجمعي، وسفارة لنا إلى غيرنا، إلّا أن السلسلة الثقافية، والإبداعية تالياً، لا تكون هي ذاتها في كل الحقب، وأمام حقبة القرن المقبل، الذي نحن منه على المشارف، ستنشأ، أو لا بدَّ أن تنشأ، سلسلة ثقافية جديدة، لا تقطع مع الماضي، ولكن لا تتصنّمه، بل تكون استمراراً متغيراً، متطوراً له، ومن هنا تتأتى الضرورة لثقافة تعي عصرها، وتتماشى مع ركبه، وعصرنا المقبل، عصر ثقافة المعلوماتية، في فتوحاتها الكبرى، وهذا ما يتبدى في محاور العنوان الرئيسي، لمؤتمرنا هذا، المؤتمر الحادي عشر للوزراء العرب المسئولين عن الشئون الثقافية، ولسوف نبحث، ونتناقش، ونتحاور، داخل المؤتمر وخارجه، حول أفضل السبل الكفيلة بأن تجعلنا في قلب ثقافة القرن المقبل المطل جديداً علينا، لا على هامش هذه الثقافة.

إنني، أيها الزملاء الأعزاء، آتيكم من بلد شقيق، بينه وبين البلدان العربية الشقيقة عروة وثقى، لا انفصام لها، آتيكم من سورية، البلد الذي جعل شعاره «الثقافة حاجة عليا» حسب تعبير السيد الرئيس حافظ الأسد، الذي أولى الثقافة وأهلها، والإبداع وصانعيه، كل عنايته ورعايته، حتى تحققت لسورية، في عهده،

نهضة ثقافية لها منبر إشعاعي، لائق بعاصمته دمشق، ذات التاريخ الكفاحي والحضاري والثقافي العريق، ويسعدني، كما يسعدكم، أن ينعقد مؤتمرنا هذا في إمارة الشارقة، وهي، كما في قرار منظمة اليونيسكو، عاصمة ثقافية للعام ١٩٩٨، وهذه الصفة السابغة في نعمائها، قد صادفت صدقاً في التوصيف، واكتسبت موضوعيتها من كون دولة الإمارات العربية المتحدة، برئاسة سمو أميرها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، قائد هذه الدولة، في ازدهار ثقافي متنام، معترف به عربياً ودولياً، وأغتنم هذه المناسبة الكريمة، للتعبير عن أقصى الارتياح، وأمدى الاعتزاز، لكون الشارقة اختيرت لاسم يتطابق والمسمى تماماً، ولكون صاحب السمو أمير الدولة المضيفة، له في قلوب العرب بعامة، والسوريين بخاصة، مكانة رفيعة، ألقة، أنقة، لما يتحلى به من مكرمات، شملت شعبه بالمنجزات، وشملت العرب جميعاً بالأيادي البيضاء، غير الممنونة وغير المنقوصة أيضاً.

وإذا كان العرب، في الزمن الصعب هذا، يواجهون التحديات، ويجابهونها بما ملكت أيمانهم، فإن المزيد من التنسيق، والوفير من التضامن، بين الدول العربية الشقيقة، يعطي لجبه التحديات، وردع الاعتداءات، وتحرير الأرض واسترداد الحقوق، دفعاً ديناميكياً، يؤهله للظفر المرتجى، في معركته الكبرى، معركة الوجود، معركة المصير، معركة الصراع العربي الإسرائيلي، وما يلوح من بوادره الخطرة في العودة إلى التحالف والأحلاف الموجهة ضد الأمة العربية كلها، لا ضد سورية وحدها.

إننا نجتمع الآن لدراسة مستقبل الثقافة العربية، وهذا في ذاته يبعث مشاعر الاعتزاز، والاعتداد فينا، فلقاء الزملاء والإخوة العرب، يعطي وحده الرجوة في تحقق الأمل العربي القومي، ويعطي، إضافة، السانحة لتبادل الآراء والخبرات والمودات، ومهما تكن توصيات هذا المؤتمر، وهي إلى نجاح مرتجى، ومؤكد، مهمة في ذاتها وذواتنا، فإن علينا أن ننتبه وننبّه، إلى أننا نجتمع، بالدرجة الأولى، لمواصلة أبحاث، تكون لها نتائج مضافة إلى نتائج وتوصيات المؤتمرات السابقة، فلنحاذر أن تنام هذه التوصيات في الأدراج والملفات، فالنجح يكون نجحاً، حين نوقظ ما هو راقد، مستلقٍ، منسي، في الأوراق التي تحبّرت به، لا حين نتخذ توصيات تنام بدورها إلى جانب أخواتها، في أدراجنا والملفات.

إننا نزجي الشكر إلى منظمتنا ومديرها العام، والعاملين فيها، وإلى اللجنة الدائمة والخبراء الباحثين وإلى كل من أسهم في التحضير، والترتيب، والتنظيم لهذا المؤتمر المميز، لكونه مؤتمراً للثقافة، في عاصمة للثقافة، وهذا في النادر من المصادفات السعيدة، وإن يكن ليس بالنادر مما تستحقه ثقافتنا، ويستحقه إبداعنا الذي خرج من حيز المحلية إلى رحابة العالمية.

الراحلون في الغمام الأبيض ![*]

الذين يمضون، لا يرحلون مع أشرعة الليل والنهار، ثم ينطوون، إلى غير رجعة، في مسيل الزمن، لأنهم، هؤلاء الأعزاء الراحلين، يتراءون لنا في اندياح الغمام الأبيض، أو على بساط الشفق الأحمر، فاتحين أذرعتهم، وفي وهم الظن، أنهم سيلاقوننا، نحن الأحياء، ويعودون إلينا، ذات صباح أو ذات مساء، في أردية نورانية.

فيا أيها المسافرون، في رحلة الأبدية العظمى، إننا، في وهم الظن أيضاً، نأمل، وما أمدى الأمل، أننا سنلقاكم في ومضه البرق، أو ثنايا السحب، أو بكل بساطة، يخيل إلينا، في تحنان إلى اللقيا ثانية، أنكم كالطيوف، ستدخلون علينا، في بهرة السطوع أو عتمة الغروب، من الأبواب أو النوافذ، لأننا، في مدعى الشوق، نتوق إليكم، ونغزل الأماني الخلبية حولكم، فهل أنتم، في خيالاتنا والأحلام، من يغرينا بغزلها؟ وهل أنتم، الذين بين القلوب وشغافها قائمون، من يخادع الذاكرة في أمر وجودكم بيننا؟ وهل

(*) في حفل تأبين الراحلة الصديقة سعاد العبد الله، عام ٢٠٠٠.

تجعلنا جراح الشتاء التي تبلسمها شموس الصيف، ننسى، في انسيال الرؤى، أن جراحنا المبلسمة، هي خدعة رؤى، يصوغها الإشفاق من أن يكون فراقنا أبدياً؟

في الأسطورة، أن قلب الإنسان نبع حياة، وعلى هذا النبع ينحني الراحلون الأحباء، كي يترشفوا منه، لتعود إليهم الحياة الأولى، في شكلها الفيضي، فإذا صحت الأسطورة، فإن قلوبنا المندّاة، مباحة لكم، فترشفوا ما فيها، قطرة قطرة، وحتى الثمالة، لتعودوا إلينا، فنبلغ السعادة، هذه التي قال عنها كونفوشيوس إن كثيرين يبحثون عنها في ما هو أعلى من الإنسان، وآخرين فيما هو أدنى منه، لكن السعادة، هذه الأمنية المرتجاة، هي بطول قامة الإنسان، لا أكثر ولا أقل.

سعادتنا، إذن، هي بكم، بطول قاماتكم، فلا تدعونا ننتظر طويلاً، ونحن نفكر بكم، ونقلب الأسطورة على كافة وجوهها، مندفعين بالحب الذي نضمره لكم، الحب المزوج بالألم، والمكتوب له ألا يصيبه، مع الفراق، الذبول، كما هو مألوف، ذلك لأنكم تعرفون جيداً أنه ما من حبٍ لا يذبل سوى حب الوطن، وحب أولئك الذين يناضلون بإخلاص، من أجله.

إنني، كما تلاحظون، أتكلم على المفرد بصيغة الجمع، فالصديقة، العزيزة الراحلة، سعاد العبد الله، كانت جمعاً هي المفرد، جمعاً في نضالها الحزبي، البعثي بامتياز، وجمعاً في نضالها الوطني والقومي والديبلوماسي، وجمعاً في نضالها لأجل المرأة خصوصاً،

هذه التي وهبتها كل طاقتها الجسدية والنفسية والروحية، ومشت إلى جانبها، وغالباً أمامها، لتشق لها الطريق، فأسست، عن وعي بأن مجال المرأة، لا يقاربه، في الظروف التي كانت، والتي لا تزال كائنة، سوى المرأة، أقول أسست الاتحاد العام النسائي في سورية، وسعت، بجهد لا كلل ولا ملل فيه، لجمع النساء كلهن في إطار هذا الاتحاد، باذلة كل إمكاناتها وهي كبيرة، في عمل نهضوي متواصل ومضنٍ، ألمعي ودؤوب، للوصل بين ما كان، وما ينبغي أن يصير، غير متنكرة لنضال الرائدات السابقات في سبيل المرأة، وتضحياتهن البالغة، في ظروف صعبة، أو شبه مستحيلة في بعض الأحيان، ومن هنا نفهم ما بذلته في سبيل تكريم أبرز المناضلات قبلها، وفي طليعتهن السيدة الفاضلة عادلة بيهم الجزائري، التي سيتم، اتساقاً مع مبادرتها، تكريمها لاحقاً، حين منحها صاحب مجد السبق في إنصاف المرأة العربية، وتبني قضاياها، وإعلاء شأنها، الرئيس العظيم الراحل حافظ الأسد، وسام الاستحقاق، من الدرجة الممتازة، وفي هذا أيضاً، اقتفاء لأثره، واقتداء بأمثولته، وتطبيق لمبدئه الثابت، في عدم التنكر لنضال من سبقوه، لأنه، في عدله القسطاس، كان يراعي، ويتفهم، الظروف التي ناضلوا فيها، وما بذلوا من جهد هو الأقصى، إلى أن تم الجلاء، وتحقق الاستقلال، وما تلا ذلك من محاولات استنهاض ونهوض.

يقول جان جينيه، في «حوارات وشهادات»: «شرط أي ثورة أن تكسروا المرآة التي تنظرون بها إلى الحضارة الغرب»، والراحلة

سعاد كسرت هذه المرآة بجرأة، فكانت مناضلة نسائية، وسفيرة دبلوماسية، تتعاطى بندية مع حضارة الغرب والبارزات من نسائه، دونما استشعار، في أي من مواقفها وعلاقاتها، لأثر أي تفوق حضاري غربي، ودون أن تدير ظهرها لما في الغرب، وحضارته الراهنة، من أشياء يمكن الإفادة منها، في نزوعنا إلى التقدم، لحاقاً بالأمم الأخرى، وفي تطلعنا إلى الرقي، مع التمسك بمثلنا، وقيمنا، وحقيقة انتمائنا.

سعاد العبد الله، بكلمة واحدة، حركة دائمة، امرأة ارتدت قميص الثورة، وعباءتها ووشاحها، وعقالها، حين تطلب الأمر أن تقوم بما يقوم به الرجال، وفي سيرة حياتها، يأخذنا عجب، قل يأخذنا دهش، في تقحمها ميادين الحياة، دراسة أولاً ونضالاً، فقد انتقلت من دمشق إلى القاهرة، بتشجيع من الأب ودعم منه، وهناك، في القاهرة، لم تكن هي المتفوقة، رهينة جدران الجامعة، بل تخطت بالجرأة المأثورة عنها، هذه الجدران، عاملة على تأليف الروابط الطلابية، قبل الوحدة بين سورية ومصر، وخلالها، وفي القاهرة تدفع بانطلاقها الدائم خطوات إلى أمام، فإذا هي على صلة ببعض أركان الثورة الجزائرية، وعندما تنتصر هذه الثورة، تصبح أعلى، وأجلى، أصواتها الإذاعية، ومن الجزائر تنساب، كنسمة نضالية فاعلة، إلى المغرب، وتبلي، حيثما ارتحلت، أو حلّت، البلاء الحسن، كفتاة سورية، وسعت آفاق نشاطها إلى الوطن العربي الكبير، تحقيقاً لوعيها القومي، وتفعيلاً له في ميادين الجهاد، وما

أنداها وأغلاها، ضاربة المثل، حول ما يراه المفكـرون في أن المـرأة، في كل ثورة، هي العنصر الأشد جذرية.

يمكن القول، إذن، إن نـضال سـعاد العبـد الله، كـان لأجـل الرجل والمرأة معاً، لكن المرأة، وهي الحلقة الأضـعف في سلـسلتنا الاجتماعية، استأثرت، بعد ذلك، وعلى نحو ما تقدم، بكل جهدها، وقد حاولت، وهي تنشئ الاتحاد النسائي وتترأسه، أن تنقل بعـض ما في نفسها، كمناضلة سياسية رائدة، إلى المرأة العربية بعامة، والمرأة السورية بخاصة، فتجعلهـا، في مطلبهـا، مسيّـسة، إدراكـاً منهـا أن السياسة في القيادة، وأن المرأة المسيّـسة، حتـى في نـضالها المطلبـي، تكـون أقـدر وأشـمل، عنـدما تقـرن النـضال المطلبـي بالنـضال السياسي، لأجل تحقيق ذاتها أولاً، ونيل كافة حقوقها ثانياً، وتوطيد مكانتها الاجتماعية ثالثاً.

وكما كان الرئيس الأسـد، كـما يعلـم الجميـع، يغـلي الوحـدة العربية، ويفديها، ويرفع راياتها، ويعتبرها الهدف الأنبل والأسمى، باذلاً لها طاقته الهائلة، متعددة الكفـاءات، حريـصاً عـلى أن تكـون عقيدة في صدر كل مواطن، فإن سـعاد، هـي التلميـذة في مدرسـته الوطنية والقومية، شأننا جميعاً، جعلت الوحدة العربية على الدوام، أحد محاور نشاطها، وقد بذلت في نشر مفاهيم هذه الوحدة، جهـداً واعياً، أصيلاً، دائباً، في كل المناصب التي شغلتها، وكل الأنـشطة، وهي متعددة جداً، التي نذرت نفسها لها.

يقول جورج لوكـاتش، المفكـر الكبـير، وصـاحب النظـرات الأدبية الشهيرة: «إن عظمة الشعب، وعظمة الإنسان الخـارج مـن قلـب الـشعب، والـضاربة جـذوره فيـه، خـلال أزمـات التـاريخ الكبرى، تمثل جوهر الرواية بما هي حياة، ومصدر تأثيرها في العالم. وهذه الحقيقة التاريخية العميقـة، تعطـي الأزمـات المـصاغة قاعهـا الاجتماعي والإنساني، وبفضلها نستطيع أن نعايش واقـع أن ذلـك تاريخنا، وأنه التمهيد الـضروري لحياتنـا الحاليـة، ولحيـاة الـشعب الراهنة».

لوكاتش كان يتحدث عن الرواية، وهل حياتنا، في المآل سوى رواية؟ ومن يزعم أن حياة سعاد العبد الله، في كل مراحلها ليـست رواية، ورواية تاريخية، بدءاً ووسطاً وختاماً؟

وإذا كان المجتمع العربي لا يزال، مع الأسف، يعـاني تمزقاتـه، وفي معاناته تتكسر أحلامه، فإن هذا الواقع لا يـدفع بنـا إلى وهـدة اليأس. إننا نعرف مجتمعنا، لكننا نعرف معه أيضاً، زماننا، ونضيف: نعرف تاريخنا، وكل هذه المعارف تنفعنا في أن نتابع الشوط، نضالاً مستميتاً، إلى أن تـأتي، مـن نجمـة الـصبح، إشـارة انـبلاج فجرنـا المرتجى.

إن الصلاة، الأقرب إلى السماء، هي صلاة الـشهادة، وأبطـال الانتفاضة في فلسطين، يرفعـون صـلاتهم، في تطـاول انتفاضـتهم، شهادات ممهورة بالدم، تفجـره العنـصرية الإسرائيليـة العدوانيـة،

لكنه في سيرورة الأحداث، ينجدل حبلاً من دم يلتف حـول عنـق هذه البؤرة الاستعمارية، وسيظل يضيق الخناق عليهـا إلى أن تـسلم بالحقوق، أو تلفظ أنفاسها، مهما تكن، عسكرياً، قوية، ومهما يكـن حماتها أقوياء.

*   *   *

أيّتها الغالية التي سافرت على متـن سحابة، إلى المـلأ الأعـلى، إن زرعك، في أرضنا، قد أينـع، وأثمـر، ومنـه، وعـلى كفـاء معـه، سنتابع الطريق وصولاً إلى الغاية.

المحبة والسماحة.. وأخطار العولمة (*)

لنجرب، بالمحبة، أن نغزل محبة أخرى، أكثر تسامحاً، وعلى بساطها الشفاف نرتفع إلى السحب، لنلاقي في نسيج بياضها، وجه البياض العلوي، فإذا انحدرنا إلى الأرض، أمنا جميعاً، نتشح بالسندس تقى، هو الأكرم عند الله والأنقى، ومن فيض هذا الكرم، وقدسية هذا النقاء، يكون للتقى سموه، قبوله عند الباري، مباركته حين يكون الإنسان، في إخائه والمودات، قد خلع على إنسانيته معزة الآخر، اعتباره شريكاً في مقولة «الدين لله والوطن للجميع».

وفي مصطخب الأنواء المعربدة، المكشرة عن ظفر وناب، المنذرة بما نتوقع وما لا نتوقع، نودع قرناً ونستقبل قرناً، نخرج من الماضي إلى المستقبل، نستمسك، كالعروة الوثقى، بالمحبة السمحاء، ففي لبوسها والسعة، وفي نداوتها والتجلي الروحي، نلوذ بالإيمان من أن ينحرف بنا السير على الصراط المستقيم، أو يجد البغض، الآفة التي تجانفها الأديان، اي ركن، أي أثر، أي نزعة أو نزغة، في

(*) ألقيت في منتدى الاحتفالية بالألفية الثالثة عام ٢٠٠٠، ومن محاورها «الإسلام والمسيحية جناحا العروبة في المسيرة الوطنية».

نفوسنا التي وحّدت الخالق على اسم الحق، وفي توحيدها الذي هو جلوة الإسلام، تتعانق قلوبنا جميعاً على وضاءة الإيمان والخير والجمال.

لقد اجتهدت البشرية، في الألفية الثانية، ما وسعها الاجتهاد، وخرجت من ألفيتها هذه بالقمح والزؤان، في بيدر أمنياتها والأحلام، إلا أن النقلة، في المسيرة، تمت، والارتقاء في معراج الارتفاع، تحقق، ولست أزعم أن النقلة كانت كبيرة، أو على مقاس الطموح، أو أقول إن الارتقاء كان وافياً، على قدر الرغبة فيه، وذلك لأسباب تعرفونها تاريخاً ومعايشة، إنما في وسعي الإشارة إلى منجزات غير قليلة، منها استقلالات الناس بأوطانهم، ومنها الفوز ببعض ثمار سعيهم في العدالة الاجتماعية، ومنها، أيضاً، التقدم في العلوم تقدماً مدهشاً، لو استخدم كله في سبيل هناءة البشر، لكان الغنم أوفر من القرم، ومع هذا فإن الغنم، فيما ينفع الناس سيمكث في الأرض، بينما يذهب الزبد جفاء، والطوبى لفاعلي الخير كانت طوبى مفرحة، كزنابق الحقل، هذه التي، قولة السيد المسيح، ليس مثلها في ملك سليمان كله.

إن مدينة القدس التي استنارت بمفاداة الناصري، قد تبلّجت إشراقاً مع الإسراء، ومنذ ذلك الحين أصبحت مدينة عربية إسلامية مقدسة، ردّ عنها صلاح الدين الأيوبي جحافل الصليبيين، مسمياً إياها بيت المقدس، وهذا البيت العربي الإسلامي هو بيتنا، إضافة إلى البيوت التي كانت، ولا تزال، بيوتنا، في المدن التاريخية ذات

الدور الحضاري، ونحن نناضل ولن نفرط أبداً، بالقدس الشريف الذي هو موئل ديانتنا، ومحفل أسلافنا وأجدادنا وآبائنا وأحفادنا، وقد أحسنت هذه الندوة حين جعلت من مدينة القدس العربية الإسلامية أحد محاورها الأساسية.

إنما علي، ونحن نتندي، في احتفالية الألفية الثالثة للميلاد المجيد، حول محاور مهمة، رئيسية، ضرورية، لازبة في الطرح والمناقشة، أن أشير إلى أن هذه الألفية تحمل معها من الأخطار ما لم تحمله الألفية الثانية المنصرمة، وتتركز، وكذلك تتكثف، هذه الأخطار في ما يسمى العولمة، أي أداة السيطرة على أسواق العالم.

ومع أنّ في العولمة، كما ينبغي أن نبين، جوانب يمكن استغلالها إيجابياً، مثل تطبيق ميثاق الأمم المتحدة عالمياً بغير تحيز، لا كما هو جارٍ الآن، والمساواة في العدل ومحكمته، والتكافؤ في التبادل في كافة المجالات، فإن النواحي الأخرى، الواسعة، مضرة أشد الضرر، مثل احتكار الأسواق، والاتجار من طرف واحد مهيمن، ومتابعة نهب بلدان العالم الثالث، وملامسة العولمة لأصغر الزوايا في كوكبنا، وتجاهل استقلالات الشعوب، وعدم مراعاة تنوع الأنظمة. وقد كتب المفكر الفرنسي رامونيه في اللوموند ديبلوماتيك يقول: «الأرض لم تعرف عصراً من الغزو الاقتصادي كما تعرف الآن، إننا أمام عصر جديد، كما كان الأمر زمن الاستعمار، لكن الفاعلين الرئيسيين من الغزاة السابقين كانوا على هيئة دول، أما الآن فإنهم على هيئة مشاريع، تكتلات، مجموعات صناعية ومالية خاصة،

تسعى بعزم، للسيطرة على العالم. وأبداً لم يكن عدد سادة الأرض ضئيلاً كما هو في الوقت الراهن، ولم يكونوا أقوياء إلى هذا الحد، وهم متموضعون في ثلاثي هو: الولايات المتحدة الأمريكية، اليابان، أوروبا، إلا أن قاعدة هذا الثلاثي هي واشنطن، وتلك هي ظاهرة أمريكية بشكل أساسي».

إن العولمة لا تتطلع إلى غزو البلدان عسكرياً، بل إلى غزو الأسواق تجارياً، وستحدث، مع بداية الألفية الثالثة، قفزة في التمركز الرأسمالي، تترافق والتقنيات الجديدة وثورتها في المعلوماتية، ولكم أن تتصوروا مدى التدمير، والخراب، والأوبئة، والأمراض الجائحة التي ستجتاح بلدان الأطراف، ومنها نحن، كما تجتاح القارة الأفريقية في الظروف الحالية، إذا لم نتنبّه ونحتط لدرء كل هذه الشرور والأخطار.

ومن البدهي أن العولمة لا تفرق بين المسيحية والإسلام، وأن المصالح الاقتصادية فوق كل تسامح ديني، فالشراهة في الربح، في الاستغلال، في النهب، لا تتعرف إلى سماحة الأديان أو تعيرها اهتماماً، ومن هنا كان علينا، ونحن نتحدث عن الحركة التصحيحية ومنجزاتها المؤسساتية وغيرها، أن نحتاط لحماية هذه المنجزات، وأن ندرك أن المباحثات الجارية بيننا وبين إسرائيل، على أساس الأرض مقابل السلام، تماطل فيها إسرائيل، وتحاول التهرب من استحقاقاتها، ومن المرجح أنها ستظل تماطل إلى أن تبدأ مناشط الانتخابات الأمريكية، وبذلك تضيع فرصة السلام الذهبية،

وتتجند إسرائيل بالضغط الأمريكي بدفع من الرئيس كلينتون، الذي سيصبح منشغلاً مع فريق عمله بالانتخابات، وغارقاً في مياه بئرها العكرة بسبب من ضغط اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة.

إن الرئيس الأسد، وهو المتمرس في السياسة حرباً وسلماً، يؤمن بالسلم، وموقفه منه استراتيجي لا تكتيكي، إلا أنه أدرك، بثاقب بصره، كل مناورات إسرائيل هذه، فأبطل لعبة المفاوضات لأجل المفاوضات، وجنّبنا، وجنّب وفدنا المفاوض، متاهة الأخذ والرد بغير طائل، وكثرة اللغو الذي هو جعجعة بغير طحن.

لقد كان قوياً، واعياً، حازماً في استئنافه المفاوضات من حيث توقفت، وعلى أساس اعتراف باراك، الذي نقله كلينتون، بالانسحاب من الجولان المحتل حتى حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧، ولم تفته، في الوقت نفسه، محاولات إسرائيل لكسب الوقت، واللعب على الألفاظ، بحيث تعلن مالا تبطن، وتصرح دون التزام بتصريحها، وتقول بالانسحاب وفق قاعدة استئناف المفاوضات، لكنها ترفض بحث ترسيم الحدود أولاً، وتطرح بحث التطبيع أولاً، على نحو ما هو معروف في المراوغة السياسية، أي وضع الحصان وراء العربة!

إن ندوتكم الكريمة، بمحاورها الأساسية، تكتسب شرعيتها، وضرورتها، من الوضع الراهن، محلياً وعربياً ودولياً، وإني لواثقة

أنها ستجلو، بأبحاثها ومناقشاتها، كـل غمـوض، كـل لـبس، كـل إشكال، يعتور القضايا المطروحة، وستسهم في زيـادة اللحمـة بـين مواطنينا، وهي قوية، على مختلف معتقداتها الدينية، وفي هذا كسب للجميع.

وجهة نظر من أجل حماية الانتفاضة (*)

أيها المنتفضون في الأراضي العربية

يا من جعلتم من الصدور درعاً، والساعد سناناً، والدم فدية ترتفع صلاة إلى الأعالي، في فجر هو موئل للإيمان..

إننا نحييكم حيث كنتم في مواقعكم، وحيث أنتم في مدنكم وقراكم، وحيثما تتجذرون عميقاً في أرض المعارك، شامخين بالهام والزند، صامدين مكافحين، صابرين ومصابرين، يستطيل بكم الكفاح، ويتمجد النضال، وتزهو انتفاضتكم وهي توشك أن تدخل شهرها التاسع، وأنتم في ثورة دائمة، هي ثورة شعب، وثورة حق وعدل، وثورة شهداء يمضون في موكب تتقدمه راية مخضبة بالأرجوان، جناح للهدى، وجناح للنور، حين ظلام الاحتلال غمامة ولا أسود.

ويا فلسطين

يا رمز الخصب والعطاء والبسالة

(*) أُلقيت في مؤتمر إيران عام ٢٠٠١.

إن درب اللهب هو وحده درب الكفاح، والقربان الأعظم الذي تقدمينه هو فدية نصر، والنصر كان دائماً بحاجة إلى ضحايا، وبحاجة إلى قرابين..

ويا فلسطين

إننا نموت كل يوم مع الذين يموتون، ونجرح مع الذين يجرحون، ونحس أن بيوتنا هي التي تتهدم، كما تتهدم بيوت إخوتنا أبنائك، وأن الحرائق تلفح وجوهنا كما تلفح وجوههم.

ونشهد بأعيننا آلاف الضحايا، آلاف الأطفال، آلاف المشردين، ونسمع صراخهم من باطن الأرض وظاهرها، وهم يكتبون بالجراح أمثولتهم، ليهدموا حواجز الذل والقهر والاغتصاب، تحت وابل من الصواريخ والحوامات والبلدوزرات، وفي مواجهة نازية لا حدود لإجرامها.

ويا أمتنا العربية

إن الضمير في صدرنا يفرض علينا أن نكون جنوداً في معركة المصير، لا نخون ذواتنا، ولا نتنكر لقضايانا ومعتقداتنا، وأن ندرك أننا أمام عدو محتل، إذا سمحنا له أن يكتسح أرضنا في فلسطين، فسيكون ذلك بداية زحفه الذي لن يبقي على استقلال أو سيادة أو نفط أو ثروة، في منطقتنا كلها، ولن يكون أحد بمنجىً، فالغزو يولد الغزو ما لم يردع، والمذبحة تجر المذبحة، والساحات تمتلئ بالأشلاء بعد الساحات، ولن تنقطع أنهار الدم. إن المعركة معركة

الجميع، وإذا كان قد كتب على الفلسطينيين أن يكونوا فصيلها الدامي، فلنكن نحن على الأقل فصيلها المساند..

إن الخطر الصهيوني خطر داهم، وهو أكثر الأخطار عمقاً وشراسة وتعقداً، بسبب من أنه عرقي عنصري، يتفرد عن كل مشاكل العصر بارتكازه على فلسفة عقائدية، ودعائم دينية ضالة مضللة. نقول مضللة لأننا نؤمن، ويؤمن العالم معنا، أن الله جل جلاله قوة عدل مطلقة، لا يمكن أن يخالطها ظلم، وأنه لا يمكن أن يعد فئة من الناس باحتلال أرض ليست لها، وطرد أهلها، وتقتيل أبنائها، وتوجيه الأسلحة إلى صدورهم العارية إلا من الإيمان بحقهم في أرضهم، وحقهم في تقرير مصيرهم، وحقهم في السيادة على هذه الأرض التي انتزعت بالقوة، ويتوج اليوم العدوان بمحاولة اغتصاب المسجد الأقصى، وتدنيسه، بعد الاستيلاء على القدس كلها، بدعوى أنه بني على هيكل سليمان.

إن الانتفاضة هي خط دفاعنا الأول والأساس، في الأرض المحتلة، وأبسط ما يمكن أن نقدمه لها هو توجيه الجهود والطاقات والقوى المادية والمعنوية في الوطن العربي والعالم الإسلامي، نحو العدو الإسرائيلي، لجبه أطماعه، وتحطيم نزعته العدوانية الراعفة حقداً على العرب، والمهددة لهم بأسلحتها التقليدية وغير التقليدية. وحين نوحد قوانا وجهودنا ونوجهها نحو الاحتلال الإسرائيلي الاستعماري الاستيطاني، نقدم دعماً نوعياً كاملاً للانتفاضة، ونساعدها على الاستمرار، والتحول من انتفاضة إلى ثورة، ليكون

بمقدورها أن تتصدى، كما تفعل، لاجتياح عسكري مدجج بأحدث آلة حرب مدمرة، وأشرس نفسية عنصرية، وأعنف تصميم إرهابي، يدوس كل الأعراف الدولية، بتشجيع وتحريض وحماية من الولايات المتحدة الأمريكية، بشتى الأشكال والأساليب.

وبالعودة إلى أكثر من نصف قرن من تاريخ الصراع مع إسرائيل، نرى أننا لم نكن نمارس العنف بل كنا ندعو إلى السلام، وأننا اعتدنا أن نجابه الاحتلال الناشئ عنها باللجوء إلى مجلس الأمن، واستصدار قرارات الإدانة، والاستنجاد بالرأي العام العالمي، والاعتماد على الأصدقاء والقوى المحبة للحرية والسلام، واستنفار الطاقات العربية بالقدر الذي يسمح به الوضع العربي، والاستعداد لإزالة آثار العدوان المتنامي والمتصاعد الذي لم تفلح في إزالته قرارات الأمم المتحدة، المعطلة في الغالب بالفيتو الأمريكي، عبر مفاوضات بدأت في مدريد، على أسس مرتكزة إلى الشرعية الدولية، وانتهت بفشل ذريع، وتخلي الراعي الأمريكي عن كل التزاماته.

لقد حاربنا أكثر من مرة، مكرهين، ولم ننتصر لأننا لم نحارب إسرائيل، حاربنا أمريكا وجسورها الجوية، وكادت حرب تشرين أن تحقق أهدافها، لولا أن أمريكا دخلت الساحة، عبر جسرها الجوي، وبطائراتها وحاملات طائراتها وصواريخها.

ولم يعد من سبيل للشك في أن أمريكا هي الحامية لإسرائيل والحاضنة، وهي التي تبارك مواقفها العنصرية، الممعنة في عنصريتها

وعـدوانيتها، ويكفـي أن نـذكر اسـتقبالها الأخـير لمجـرم الحـرب شارون، صانع صبرا وشاتيلا، بطلَ سلام تشجب معه «الإرهـاب الفلسطيني»، وتزداد تنصلاً من مجمل مواقفها السابقة.

إن انحيازها الكامل لإسرائيل أمر واضح للجميع، ومع ذلك فإننا نسهم في إعطائها مفاتيح الهيمنة، ونسعى إليها، هـي الوسـيط غير العادل والمنحاز والمتحيز، كي نطالبها بشيء مـن عدالـة فقـط، بتدخل لرفع العدوان ودعم عملية السلام، متناسين أنهـا مـا تـزال منذ بدايات القضية تستخدم الفيتو وحتى أيام قريبة..

المفارقة أنها الدولة التي تحصد أموالنا ونفطنا، وكأنها هي إلهـة العالم المتوجة، وكأنما واجبنا أن نلتمس رضاها بما نعطيه، متناسـين أنها تأخذ منا لتمنح ربيبتها إسرائيل المال والسلاح والدلال والدعم السياسي غـير المحـدود، وقـد استغلت أحـداث المنطقـة لتحـول إسرائيل إلى ترسـانة أسـلحة، بإمكانهـا أن تفجـر العـالم، ولم يكـن ينقصها السلاح، فقد كان القرار الأمريكي المعروف قد أنجز هـذه المهمة منذ البدايات: قوة إسرائيل العسكرية ينبغي أن تزيد على قوة البلدان العربية مجتمعة، وعلى الجميع أن يدفعوا ثمن ذلك.

وبالمقابل فقد ظل يؤذيهـا أن تـرى إيـران دولـة كبـيرة منيعـة الجانب، ومارست كل الضغوط الممكنة كي لا تـتمكن إيـران مـن الحصول على التقنيات، محاولة أن توهم العالم بأن الخطر كل الخطـر يكمن في أن تكون إيران دولة نووية، وتضعها على قائمة الإرهاب، وتصر، كما تضع سورية على هذه القائمة، وهي تعـرف جيـداً مـاذا

تعني إيران بالنسبة للوطن العربي والعالم الإسلامي، والقضية الفلسطينية، وكل الأحرار الذين يؤمنون بالقيم الإنسانية الرفيعة..

وفي حين تسمح أمريكا لإسرائيل أن تحاور بالصواريخ، وبالقتل والتدمير، أطفال فلسطين، وتحاصر الأهل باللقمة والبطالة والمياه الآسنة، وتدمر البيوت والمزارع، دون أي وازع من ضمير، وتسوم السكان ألواناً شائنة من العذاب، يكون همها وهم دول صديقة لها، وشركات ومؤسسات إعلامية وثقافية وسينمائية، أن تملأ العالم بالحديث اليوم عما عاناه الإسرائيليون قبل أكثر من نصف قرن، في حين لا تحظى الممارسات الرهيبة التي يمارسها الصهاينة في الأرض المحتلة، وعلى الشعب الفلسطيني، بأكثر من أخبار طارئة على شاشات عالمية، وحتى هذه الأخبار التي اعتبرت امتيازاً متفضّلاً لإعلام حر، بدأت تتضاءل، فالفضائيات الأمريكية تكاد لا تلم بالأحداث الجارية في فلسطين، وتحاول دون حياء أن تقلب المعادلة، وأن تتحدث عن الإرهاب الفلسطيني المعطل لعملية السلام. وفي حين يقاتل الفلسطيني بالحجر وبالمقلاع دفاعاً عن حقه، فإن إسرائيل، وبدعم من أمريكا، تعمل اليوم، كما تعلن، على تطوير أشكال من الأسلحة حديثة، كي تكون أكثر قدرة أيضاً على ممارسة عدوانها.

العالم كله يفقد توازنه، في ظل هيمنة الذين لا يرعون عهداً ولا حرمة، ولا يمتلكون أبسط حس بالعدالة، أو إيمان بالدفاع عن الحق وحرية الشعوب، ويريدون للعالم كله، سياسة واقتصاداً

ودفاعاً، أن يسلسل قياده لهم، هم الذين يحكمون على مئات الملايين من أبناء البشرية بالقهر والجوع والبؤس والمرض، ويستمرون في استغلالهم لموارد الكرة الأرضية، ولا يعبؤون بأشكال التلوث المختلفة والإجرامية التي تهدد حياة البشرية، ويرفضون الانصياع لكل أشكال حماية البيئة الإنسانية، دون خجل مما يفعلون، هؤلاء هم الذين يساعدون إسرائيل، بشكل أو بآخر، على الاستمرار في عدوانها، دون أن يستشعروا أي إحساس بالذنب. إن دم الضحايا هو في أعناقهم أساساً، ما داموا يشاركون إسرائيل جرائمها، ويدافعون عما ترتكبه كل يوم من مجازر، ويقدمون لها كل أشكال العون، سلاحاً ومالاً وتأييداً، وتظل هي تطلق تهمة الإرهاب على الذين يؤمنون بالحق والعدالة وكل القيم السامية الرفيعة. إنهم لا يؤتون من جهل أو عدم إدراك لحقيقة ما يجري، لكنهم يفتقرون إلى هذه القيم بالذات التي كانت نبراس الإنسانية، وكان أي انحياز عنها، لا يهم من يمارسه، هتلر أو نظيره شارون، أو نظراؤه الآخرون، يعتبر اعتداء على الإنسانية كلها.

علينا في النهاية أن نتعلم كيف لا نهابهم، لا نهاب سلاحهم، ولا جموعهم، ولا شططهم أو جنونهم، وواجبنا أن نتضامن أكثر، وأن نجعل من جبهتنا الموحدة، قوة لا تقبل الاختراق.

إن المواثيق التي أطلقها المجتمع الدولي، بعد الحرب العالمية الثانية عن كل أفكار السلام، ونزع السلاح النووي، والإيمان بحقوق الإنسان، وبحقوق أطفال العالم، وحماية البيئة التي غدت

تنذر بالويلات، وحقوق الشعوب في تقرير مصيرها، والدفاع عن التجمعات البشرية حتى لا تنهكها الأزمات المدبرة التي تسمح بالاستغلال والاحتلال والنهب، ولا يكون فيها لمفهوم العدالة والنزاهة أي مكان، كان معظمها قبض ريح، أو مسايرة أوهام. ولقد وقع العالم كله على هذه المواثيق الكثيرة، وتصورت دول عديدة أن تكون هيئة الأمم المتحدة، ومجالسها المنبثقة، هي مصدر الأمان ومبعث الثقة، فإذا بالدولة العظمى اليوم، القوة الفريدة والمتفردة، تأخذ من هيئة الأمم صلاحياتها، وتهيمن على وقائعها، وتنقض ما احترمناه من مواثيقها، وتسعى إلى قلب الحقائق حسب أهوائها ومصالحها..

إيران دولة إرهاب، وأطفال فلسطين إرهابيون أيضاً، وأطفال العراق لا يستحقون أن يأكلوا أو أن يجدوا الدواء، وليبيا ينبغي أن تحاصر وتحصر وأن تعزل عن العالم، وسورية على قائمة الإرهاب ينبغي أن تظل، وجنوب لبنان تمرد فخرج فلم يرعو، وينبغي أن يظل معاقباً، أو يتخلى عن كل مفهوم للالتحاق بجواره العربي والمسلم، وليمارس التطبيع مع العدو الإسرائيلي الذي قتل ونهب واستلب واغتصب، ولم تكن مجزرة قانا آخر مجازره.

* * *

أمام هذا الواقع يتحتم علينا، أن نلتزم بخطة عمل تستجيب لما يفرضه هذا الواقع، وتكون موضع درس مستمر، يسمح بإعطائها الشكل الأمثل، في الظروف الراهنة، لحماية الانتفاضة

ودعمها، إضافة إلى كل ما تم الاتفاق عليه، في مؤتمرات سابقة وندوات، أخذت في حسابها مقاومة التطبيع بكافة أشكاله، والتصدي للغزو الثقافي، والتحدي الاقتصادي، واليقظة في وجه كل الاحتمالات. وفي طليعة مسئولياتنا، أفراداً ودولاً، رسميين وشعبيين أن نعمل جاهدين لتحقيق ما يلي:

١- الاستمرار في المقاطعة، وإحكامها أكثر، والتشدد في فرضها، ومنع أي اختراق لها، فهي سلاحنا الذي نمتلك، ولا أحد يستطيع أن يسلبنا هذا السلاح.

٢- أن نقدم للانتفاضة دعماً غير محدود، مادياً ومعنوياً، وأن نتذكر أن للمجاهدين المقاتلين، في الأرض المحتلة، حقاً في الأموال التي نمتلك، دولاً وأفراداً، وأنهم يدفعون عنا ضريبة الدم، ولا يستطيعون أن يستمروا، ما لم نقدم لهم ما يحتاجون، بشتى الوسائل والأساليب.

٣- أن يرتفع الصوت العربي والمسلم أكثر، وينتشر عبر الفضائيات والأقنية المحلية والدولية، كي يضيء المواقف ويكشف الحقائق، بدلاً من تقديم مباذل الغرب التافهة المترجمة التي تسيء إلى البنيان النفسي والخلقي، ولنستخدم كل وسيلة، كي نستجر أصدقاءنا في العالم، إلى تأييد الحق ودعمه، مقابل الاستكبار بكافة أشكاله. إن سلاح الإعلام شيء هام، والكلمة المكتوبة أو المسموعة أو المصورة، ينبغي أن تأخذ

دورها، وأن يمارس الكتاب والفنانون والسينمائيون والعاملون في التلفاز دورهم بالشكل الذي يمليه الواجب الوطني..

٤ - ولكن، وقبل ذلك، ينبغي أن ننطلق من عقيدة غير قابلة للتزعزع، أو التأثر، بأي عقدة نقص يريدون لنا أن نستشعرها بصفتنا المتخلفين المنتمين إلى العالم الثالث، وصفتهم المتقدمين أو أسياد العالم، فالتقدم أبداً لا يكون مع القتل والتدمير والعدوان واغتصاب الحقوق، مهما امتلك المعتدي من تقنيات القتل والعدوان.

٥ - عدم الخضوع لأي ضغط تمارسه الدول العظمى، وفي الطليعة أمريكا، مهما اشتد خطره وكبر، والكلام موجه إلى المسئولين وغير المسئولين، إلى كل فرد يعز عليه الوطن والمقدسات.

٦ - وعلينا ألّا ننسى أبداً أن الدولة العظمى التي هي شريك وراعٍ لعملية السلام، قد أساغت وقبلت ودافعت وحمت كل أشكالً العدوان الإسرائيلي على الأرض، بالدعم العسكري الضخم وبالمال، وفي أوساط الأمم المتحدة، والأوساط الدولية كلها، بالسيطرة على القرار الذي تسعى أن يأتي دوماً لصالح إسرائيل، هذه القاعدة العسكرية المغروسة في أرضنا، والتي لم تنبت إلا الدمار والقتل والتخريب وعسكرة الحياة، في حين أنها لا تكف عن ممارسة ضغوط لا حدود لها على الفلسطينيين والدول العربية المعنية، للقبول بالتنازلات والمساومات، والتخلي عن الأرض والحقوق، دون أن تقدم أي مساعدة في أي شأن، للفلسطينيين أو للبلاد العربية.

إضافة إلى ما تقدم، فإنها أرادت للقدس، أو تَبَنّت إرادة إسرائيل، أن تكون تحت السيادة الإسرائيلية، ولم تعترض على طرد سكانها وتشريدهم، وهدم بيوتهم، وإلقائهم في العراء، وأيدت تحويل هذه المدينة المقدسة المرتبطة بالأديان السماوية، عاصمة مغلقة لدولة إسرائيل.

٧- منطق أمريكا قد سمح لها أن تتهم بالإرهاب كل حركة وطنية، وأن تصنف الدول بين إرهابية وغير إرهابية، تبعاً لموقف كل دولة من سياساتها، وفي الحوار المتواصل معها ومع العالم، بُذلت جهود لإفهامها أن ثمة فرقاً بين الإرهاب المرفوض، وبين النضال التحرري الذي تأخذ به الشعوب المحتلة أرضها، دفاعاً عن حقوقها، لكن هذه المحاولات لم تؤت ثماراً، وذهبت سدى.

وصار من الواضح أنها تتخذ من تهمة الإرهاب ذريعة لستر عدوانيتها وعدوانية حليفتها وربيبتها إسرائيل، وأدرك بسطاء الناس أن النضال ضد إسرائيل لا يعني شيئاً دون النضال ضد أمريكا ذاتها.

٨- إن مقاومة الضغوط الأمريكية هي مسئولية الحكومات العربية أولاً، لكنها أيضاً مسئولية كل مواطن على الأرض العربية وفي العالم الإسلامي، وينبغي أن تكون مواقفنا موحدة حازمة صامدة وصارمة، إزاء تعسفاتهم وقراراتهم، وضغوطهم لتنفيذ هذه القرارات غير العادلة التي لا تتسم بالشرعية.

٩ - السعي لإيقاف عمليات الاستيطان، على كل المستويات الدولية، وتحويل هذا الموضوع إلى شأن دولي، ومنع مجرم الحرب شارون من تحقيق ما سعى إليه، ويسعى، حين أمر جيشه بضمان «حق اليهود بالصلاة في الحرم القدسي»، إضافة إلى ممارساته الإجرامية والعدوانية المستمرة.

ولشدّ ما يحزّ في النفس أن ندعو نحن إلى السلام العادل، والدفاع عن الحقوق بمنطق التاريخ والحقيقة، وبنهج الشرعية الدولية، وأن يقوموا هم بالمزيد من الغارات الجوية والقصف الصاروخي، مستخدمين الدبابات والمدافع والقنابل، مع دعوات إسرائيلية حاخامية ومدنية ورسمية، لتكثيف العمليات على الفلسطينيين ليلاً ونهاراً، وعدم الاكتفاء بالهجمات المحدودة، فالمنازل مباحة لهم، ورجال الأمن الفلسطينيون هدف من أهدافهم، ومروحياتهم تحوّم فوق الرؤوس، تصطاد بصواريخها من تختار من الرجال، وتكتسح ما تشاء من الأحياء والبيوت والمخيمات، ولقد زاد عتوّهم عتواً بالضربة الأخيرة لموقعين سوريين في لبنان، بعد منتصف الليل، استهدافاً لحياة الذين يحمون هذين المكانين، وتحرشاً له أهداف عدوانية لا تخفى على أحد.

وبالرغم من كل ذلك فإننا لن نهابهم، كما سبق وأشرت، وسنستعصي على محاولاتهم، وسنضفر من أعصابنا عزماً أقوى من أن توهنه أو تقطعه أنيابهم، وصروف الأيام.

وأبداً لن ننكّس راياتنا، ولـن يغتالنـا اليـأس أو الإعيـاء، وفي وطننا وبـيننـا، والخطر بيتنا، قوى للنور، وجحافل للحـق، وثـوار منتفضون يهزون في كل يوم، وكل بقعة، دعائم الباطل. وأسـاليب البطش، وأشكال العدوان كلها في النهاية إلى هباء، مهما استقوت، وامتدت، وعتت، فالأرض تعرف كيف تنجب مـن يـدافع عنهـا، وتعرف كيف تنشئ الأوفياء لها، وفي الطليعة من هؤلاء المناضـلون الذين كتبوا بالدم أسـماءهم، رسـلاً للوعـد البكـر المـضمّخ بعطـر الشهادة.

سـلام عـلى المقاومـة الفلـسطينية وانتفاضـتها العـصية عـلى الترويض، وسلام على أهلنا الـصامدين أيـنما كانـت مـواقعهم، في فلسطين والجولان وجنوب لبنان، في غزة ونابلس ورفح وقلقيليـة والبقاع، والمجد لشعبنا الذي يقاوم حتى وهو أعزل، منـذ النكبـة، وتعجز أمريكا وإسرائيل عن إخماد مقاومته..

والخلود للشهداء، جميـع الـشهداء، فـإنهم أحيـاء عنـد ربهـم يرزقون.

* * *

والتحية والتقدير للجمهوريـة الإيرانيـة الإسـلامية، العـصية عـلى الأخـذ، والمنتـصرة للحـق، ولمؤتمرهـا الكـريم، وليبـارك الله جهودها، وليحمها ويمدها بعونه، وليكتب لها النـصر، إنـه سـميع مجيب.

المجد النابت على راحة الصحراء (*)

بين سورية ودولة الإمارات، وبالتخصيص، بين الرئيس الراحل حافظ الأسد، وسمو الشيخ زايد، ودّ موصول، وتقدير متبادل، نبتاً من إيمان عميق مشترك، بقضايانا القومية، وفي الصدارة منها، أهمها ومحورها، قضية فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي، وعلى التوازي معها، وليس بعدها، قضية وحدة الأمة العربية، ذلك أن كل حديث عن العرب، تحرراً، وتحريراً، وتقدماً، ودخولاً في العصر، وبلوغ أهداف، واستعادة دور، لن يكون ممكناً إلا بتوحدهم، موقفاً وقناعات، وسعيهم، في انتمائهم الراسخ، إلى تحقيق كل ما هو ممكن، من عمل مشترك، ومن تضامن صادق فاعل.

ولقد كان سمو الشيخ زايد، يرى إلى هذه الأمور، من منظور، موازٍ لما نراه في سورية، «فالأمة العربية -عنده- واحدة ومصيرها واحد، والخلافات في الرأي طارئة وعابرة وليست جوهرية».

(*) ألقيت هذه الكلمة في المؤتمر الذي أقيم في «العين» احتفاءً بشفاء الزعيم العربي الشيخ الجليل زايد بن سلطان آل نهيان، عام ٢٠٠١

وضمن نظرته المستقبلية النابعة من الثقة بأمته، وبالشعب العربي من خليجه إلى محيطه، كان على شبه يقين «بأن الأمة ستستعيد وحدة الكلمة، والتضامن الحقيقي والفعال».

ولم تكن هذه الكلمات، المتوهجة بالحقيقة، المتسمة بالمصداقية، مجرد آراء، أو لغة خطاب، بل لقد ترجمها إلى أفعال، تجلت أبلغ ما تجلت، في حرب تشرين، حين اتخذ القرار التاريخي، باستخدام النفط سلاحاً في المعركة، وظل على اتصال بسورية، خلال تلك الفترة، وبغيرها من الأقطار العربية، متابعاً المشاورات، مستجيباً لكل ما يمليه الموقف القومي العربي النبيل، مقدماً المساعدات، واضعاً كل ما يتوفر من إمكانات، في تصرف أشقائه المقاتلين. وحين قدم إلى سورية، مناصراً، قال قولته التي نحفظها له في القلوب: «لقد جئنا إلى سورية المقاتلة التي رفع جنودها رأس الأمة العربية عالياً، بما بذلوه من تضحيات، وما أبدوه من بطولات، على الهضبة السورية».

ولقد كانت تلك أياماً مجيدة، ومواقف مجيدة، ولا أحسب أن أحداً، ممن عاشها، يستطيع أن ينساها.

وبالمقابل، فإن الرئيس الراحل حافظ الأسد، قائد حرب تشرين، وبطلها، أكد في أكثر من حديث ومناسبة، بتقييمه الصحيح، وفهمه العميق، تقديره لسمو الشيخ، في «مواقفه المشرفة، وفي جهده المتواصل، لتوحيد الصف العربي».

ولقد قررونـا، في سـورية آنـذاك، لـسمو الـشيخ زايـد، هـذا الموقف العربي الملتزم، المنطلق من مفهوم قومي غير قطري، منتمٍ إلى الأمة العربية، ساعٍ إلى رفع شأنها، لا يفرّط في الدفاع عن حقوقهـا، ولا في مساعدتها على تحقيق طموحاتها. وكانت الشواهد كثيرة على أنه كان مـدركاً لحقـائق الواقـع والتـاريخ، جريئـاً في التعبـير عـن قناعاته، يقول قولـة الحـق، وبجهـارة الـصوت، مـن منـابر العـالم المختلفة، ويصرّح ببساطة مَـنْ سـلاحُه الحـق، تـصريحات مدويـة، وذات دلالة، مثلها قولـه هـذا، لتلفزيـون أوروبي: «مـاذا سـيكون موقف إسرائيل أمام اثنتـين وعـشرين دولـة عربيـة، إذا أصـبحت أمريكا دولة غير عظمى؟.. على إسرائيل أن تعلم أنها تستمد قوتهـا من قوة أمريكا».

وكـذلك تـصريحه التـالي لـصحيفة غربيـة ذات شـأن: «إن استمرار الوضع الحالي، لـيس في مـصلحة إسرائيـل، فـالعرب لـن يناموا إذا لم يحصلوا على حقوقهم، سواء عدل المجتمع الـدولي أم لم يعدل.. ولن يكون هناك استقرار في الشرق الأوسط، مادام العرب لم يحصلوا على حقوقهم، ومادامت إسرائيل متمسكة بأطماعها».

أما بعد حرب الخليج، فلم يمنعه الحـزن العميـق الـذي مـلأ نفوسنا جميعاً، بسبب منها، أن يحدد حجم المأساة بقولـه: «الخـسارة الكبرى في حرب الخليج ليـست في المـال، وإنـما في تفـرق العـرب والمسلمين»، وأن يتابع بنبالته الإنسانية، النابعة من أصالته العربيـة العريقة، التي تتعالى على الجراح، وإن كانت مـا تـزال بعـد نـاغرة:

«نحن لا يهون علينا أن نرى الشعب العراقي وقد دمرت مقدراته، وسفكت دماؤه، أكثر مما جرى، ومما أصابه»، وأن يؤكد، في غمرة تلك الظروف الصعبة، وبوعي لم يتأثر بالعابر من الأحداث، لصحيفة اللوموند: «دولة الإمارات لا تقبل بوجود قواعد أجنبية، في أراضيها».

إن المعيار الحقيقي، للحكم على أي زعيم أو حاكم، في منظورنا، نحن المثقفين العرب، مرتبط بإخلاص هذا الحاكم أو الزعيم، لأمته وقضاياها، وبمفهومه القومي الصحيح لكل ما يجري، في إطار العالم، وبقدرته على تجاوز القطرية، والمصالح الصغيرة، وسموقه إلى أفق التضحيات، مشاركةً فعالة في النضال الذي يعني دول المواجهة، بمقدار ما يعني الأقطار الأبعد، فالأمر ليس جغرافية، وليس صراع حدود، وإنما هو صراع وجود، كما هو أيضاً شأننا المشترك جميعاً. وبهذا المعيار نقول، واليد على الضمير، إن الشيخ الأمير قد قدم براهينه، وارتقى بجدارة إلى مواقع الريادة والزعامة.

لا أستقصي، فتلك كليمات للتحية، وبمناسبة عزيزة، ولكنني أشير، بشكل سريع، ومجرد إشارة، إلى بعض ما حققه سمو الشيخ زايد، من نهضة رائعة، في كل ميادين الحياة، جعلت الذين عاشوها يقولون إنها تقارب المعجزة، فالتنمية التي تسارعت، بوجوهها الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية، ودخلت على الناس بيوتهم، وشدّتهم إلى المستقبل، كانت حدثاً بالفعل، تجلى

على كل المستويات، بنياناً، وعمراناً، وصناعة، وتحديثاً، وتعليماً، وتحريجاً، حوّل التصحّر إلى يناع وخضرة وازدهاء وازدهار، ليس بعده ازدهار.

وكان حظ الثقافة والمرأة، من اهتمام سمو الأمير كبيراً، والشواهد تنهض كل يوم، متجلية في مراكز بحث وتراث وتاريخ وثقافة، وندوات ولقاءات، للكتّاب والمفكرين والمثقفين، من كل الأقطار العربية، وبلدان العالم، والمرأة في كل ذلك، إلى جانب الرجل، تسهم وتشارك وتعطي، دون انتقاص من إمكاناتها، أو حيلولة بينها وبين تحقيق ذاتها، بالشكل الذي تريد.

ومن أفق المحبة، والمشاعر الإنسانية، تذكر له شعوب متعددة في العالم، إلى جانب العرب، هباته، ومساعداته، ومشاريعه الخيرة، وإعاناته لكل دولة يلم بها خطب، أو كارثة، في إطلالة من مشارف التعاطف، والتفهم، ونبل المشاعر، حين هو، يجود ولا يمنّ، ويرى في ذلك حقاً إنسانياً للآخرين، وواجباً على من هم في المقتدرين. لم يسلك أبداً سلوك بنك دولي، ولم يجعل من المصلحة الضيقة، التي تغتال الحقيقة، في كثير من الأحيان، وتتطلب الثمن الباهظ، معياراً للعون المقدم، بل كان ما قدمه ويقدمه، نابعاً من جود إنساني، يرتبط بالقيم الرفيعة أولاً، وبضرورات رفع الحيف، والاستجابة للضمير، في كل الأحوال.

لكل ما سبق، ولمعرفتي بسمات الشيخ زايد، القيادية والإنسانية، وبتاريخه الكفاحي، وجدت في تنظيم المؤتمر المحتفي

بشفائه في «العين»، المدينة التي كان أميرها أمداً، قبل أن تتوحد الإمارات، وفي المركز الذي يحمل اسمه، مشروع وفاء جميل، والوفاء هو من بعض قيمنا العربية، التي لا توازيها قيم أخرى، رفعة وسمواً ونبالة وفروسية، هذه القيم التي نبتت على راحة الصحراء ماجدة ومجيدة، والمجد، كما يقول شاعرنا الكبير عمر أبو ريشة، ما نبت يوماً، على غير راحة الصحراء.

وكما كانت الأخوة عميقة، صادقة، كريمة، بين سموه وبين الرئيس الراحل حافظ الأسد، فإن هذه الأخوة، بكل عمقها وصدقها وألقها، قائمة ومستمرة، مع الرئيس بشار الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية، الذي ينهض بمهمة الرئاسة بثقة وإيمان وطيدين بالمستقبل، وقناعة نابعة من النظرة القومية للأمور، بضرورة العمل العربي المشترك، والحرص على إقامة أفضل العلاقات وأمتنها، مع الأشقاء العرب، الذين ما نفتأ ندعو وإياهم إلى التضامن والتنسيق، لما فيه نصرة الأمة العربية، ومجدها، وسؤددها.

شهامة وطيبة وحضارة (*)

من دمشق، المدينة الأقدم في المدن، بل الأقدم من التاريخ المكتوب ذاته، يهل قمر أزرق، ناشراً شذى تحية أحملها إليكم من قاسيون وبردى والغوطة، أما قاسيون فلأنه الجبل الذي احتضن دمشق، سمح لها أن تكون، وأن يكون حارسها، الباسط عليها ظلاله، لتفيء إلى نعميات الجوار، في الأصباح والأماسي وما بينهما، وأما بردى فلأنه الشريان الذي يحمل في نسغه الحياة، تصديقاً للمنزل من الكلم الحكيم: ﴿**وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ**﴾ فلولا بردى ما كانت أكواب النمير العذب التي سقت العطاش، منذ مر به، وأقام في جواره، أولئك الذين نهلوا وارتحلوا، أو الذين ارتووا وأقاموا، وأما الغوطة، وأين منها بستان هشام، فلأنها كانت، منذ كانت الخضرة اليانعة، المنورة، المنضرة، الباسقة أشجارها، مراحاً وانديا حاً، كبساط مزركش من ألف لون، طالما أقال، على أديمه، المتعبون في الترحال، والمشوقون إلى الراحة، والقاصدون الطبيعة في

(*) كتبت هذه الكلمة تمجيداً للشيخ الجليل، الزعيم العربي زايد بن سلطان آل نهيان، واحتفاءً بشفائه، في أبو ظبي، تلا لقاء العين، عام ٢٠٠١

جمالها والمتع، حق كأنها جنان عـدن، في بهائهـا وانـدراج الزرقـة في أعاليها، وفي نبتها وانفساح المدى لكل أخضر في سهلها والروابي.

آتيكم معي بغلالة من حرير القز، في ماسـة الألـق، وفي ثنايـا هذه الغلالة وطواياها، إعجاب يزدهي به الإعجاب، لما كـان مـن فلاة، هي لملعب لغيد الرشأ، ولما صار، في هذه الفلاة، مـن عمـران هو السكن للأهل كراماً، وهو الإمارة للناشدين سلاماً، وبينهما، في المدى المترامي، رؤى للحضارة، تتنور بهـا الحـضارة نفـسها، حتـى ليمكن القول، في دبي وأخواتها من الإمارات، إن بهـاء الغـرب قـد صار بهاء الشرق، وإن أنوار باريس، هي العـين، ودبي، والـشارقة، وأبو ظبي، في لألاء ضيائها والسطوع، وكل هـذا الـصنيع الفريـد، المقارب حد الإعجاز، هو صنيع أمير قدم إلى دنيـا الإمـارات، مـع ومضة البرق، شائلاً بيمناه والبركة، ميراث نجوم، تزهو بها السماء، وتزهو بها الأرض، وتتفتح مع نوارات الشهور، وازدهاء الأعـوام، براعم من جنى الطبيعة، حين يد الإنسان، تحول الطبيعة في قحلها، إلى طبيعة في خصبها، وآن هذا الإنسان مقيماً وعاملاً، يقـوده شـيخ جليـل الطلعـة ، سـخي اليـد، رفيـع الـشيم، في خـصاله العربيـة، الأصيلة دماثة، المتوثبة عزماً، المنضفرة، كجديلـة مـن ذهـب، عـلى صلابة في المواقف، وعلى جهد في الـدأب للإنجـاز، وبعـد نظـر في السياسة، ونداوة في الراح، حتى لم يبقَ من بلـدٍ عـربي أو مـسلم إلا وبلغته هذه النداوة، وإيمان بوحدة الأمة العربية، «ومواقف مـشرفة تجاه قضاياها، حسب تعبير الرئيس العظيم الراحل حـافظ الأسـد،

وجهد موصول لتوحيد صفوفها»، مع تقديم مساعدات لها أشكال وألوان من المكرمات.

هذا القائد العربي الفذ، هذا الإنسان المتواضع في نشوة الرفعة، هذا الطيب الذي ترتسم، كما بريشة فنان، الطيبة في وجهه والنفس، في حركته واللفتة، في مبادرته والحكم، هو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، الذي نحتفل اليوم بشفائه والصحة، كما نحتفل بمواقفه والإنجازات، الاحتفال اللائق، أو قل دونه مهما نحاول، نثراً وشعراً، لأنه هو، الشيخ زايد، الأكبر من كل احتفال، ومن كل لياقة في الاحتفال، ومن الصعوبة، بمكان المعزة، أن نصطاد الكلمات، أو نجترحها، في وصف شمائله الغر، التي تهب، من بعض صنيعه، كالرياح الرهوة، من الجهات الأربع، ومعها تخفق راياته، في ألوانها، على سعة إماراته، في صيتها، وصبوتها، وتوقها إلى قول الجميل، في اليوم الجميل هذا.

إن قلب الشيخ زايد الكبير، يتواضع في نفحة كبريائه، ومن النادر، إذا لم يكن من المستحيل، أن نجد شبيهاً له في طيبته، وأن نتوصل إلى وصف هذه الطيبة، بكلمات من نفس معدنها، وأن نزيد، تأكيداً لا مزايدة، في الكلام عليه هو، في إحدى مآثره التي تتجلى في معرفته كيف يحمي طيبته، مادامت الطيبة، بغير حماية، هي عجز عن الاقتدار، والطيبة لا يحميها سوى الحزم، ومن طيبته هذه الأنداء، في نفحها والغالية، ومن حزمه هذا البناء، في ضخامته والسؤدد.

إن التحية التي أحمل، ومموردها منا في دمـشق، هـي بحجمهـا تماماً، وهذا الحجم نثر البياض من ياسمين الغوطة، وضـفر إكليـل من ورق الغار في غابات الشمال من سورية، ورشقة عطر من شذى بردى، وهذا حسبها، لكنني لا أستطيع إلا أن أستعير هنيهات، من وقت الزملاء الأجلاء المتكلمين عـن مواقـف وإنجـازات الـشيخ زايد، لأنوّه، في رجوة الإيصال والتوصيل، ببعض من وفـاء بلـدي سورية، كفاء ما قدم لها المحتفـى بـه، في حـرب تـشرين التحريريـة التاريخية، من دعم كامل حين أعلن بجهارة الصوت، ونبالة الإيمان «أن البترول سلاح من أسلحة المعركة، وليس هو بـأغلى مـن الـدم العربي»، «وأن دولة الإمارات العربية المتحدة، هـي شـقيقة لـدول المواجهة، وتلتـزم بكافـة قراراتهـا. إن الـنفط لم يكـن ليـؤدي دوره المطلوب دون الرجال الذين حملوا السلاح».

وكان الزعيم العربي الأصيل الذي ترجم أصـالته، في صـدق الأخوة، إلى أفعال نذكرها، ونشكرها، ولا سبيل في هذه العجالـة، إلى تعدادها، وما فعله مع سورية، وقدرته سورية، رئيساً وحكومـة وشعباً، حق قدره، فعله مع الدول العربية الأخرى الـشقيقة، ومـع انتفاضة الأقصى المجيدة، هذه التي فـادت مفـاداة تجـاوز المـألوف، فقدمت المئات من الشهداء الأمجاد، والآلاف مـن الجرحـى الـذين نسأل الله لهم الشفاء، وقد مـضت الـشهور وهـي تلقـي، في موقـد الشهادة، بالمزيد من وقود النصر الذي يأتي، حين يأتي، متشحاً بغبار هذه المعركة الاستشهادية الكبرى، وبـسوادها، ونجيعهـا، وزيتهـا

وبخورها أيضاً. إن الانتفاضة، بكلمة موجزة لها، هي حديد أفئدة المنتفضين الأبطال، الذي تفولذ في أرواح أبنائها الأبرار.

الإنسان القوي، يصعب عليه، أحياناً، أن يحتمل أعباء قوته، والشيخ زايد احتمل هذه الأعباء، ولا يزال، بشجاعة تربو على الشجاعة، ورجولة تعزّ على الرجولات، وإذا كان الكثيرون، من زعماء العالم، يعرفون أوضاع شعوبهم، ويتغنون بوعودهم لها، ببلاغة ومداحة، فإن القليلين، بين هؤلاء الزعماء، هم الذين يحولون معرفتهم إلى عمل من أجلها، يوفر، من خلال البناء والعمران، الحياة الكريمة لها، لأن «الذي يعرف أكثر، تزداد واجباته أكثر» فالمعرفة حكمة، والحكمة تذهب مع الريح، إذا لم تستقر في أرضها، وتجلب الخير لمن هم على هذه الأرض، والمكرّم بيننا، أدرك بفطرته ومعرفته، أن واجباته، تجاه شعبه أولاً، وتجاه الشعب العربي كله ثانياً، وتجاه العالم الإسلامي ثالثاً، هي أكبر، لأنه يعرف أكثر، ولقد نهض لذلك نهوضاً مقتدراً يتساوى مع ما يعرف، ومع ما يجب عليه بموجب هذا العرفان، وبهذا حوّل المعرفة إلى حكمة، وما أغلى المعرفة، وأروع الحكمة، عندما تتلاقيان، وتمتزجان على هذا النحو الأصيل والجميل معاً.

* * *

أيها السادة

سورية تمر هذه الأيام، بمرحلة جديدة، فيها استمرار مع خط الرئيس الراحل حافظ الأسد، وفيها تغيير تتطلبه الأوضاع الراهنة،

لكنها، في الاستمرار والتغيير، هي أبداً على ما كانت عليه، من استمساك بالعروة العربية الوثقى، دعوة للتضامن والتنسيق، ولما يجمع العرب في هذه الظروف الصعبة، ويوحد كلمتهم، ويصلّب موقفهم تجاه الأخطار المحدقة.

وهذه المرحلة التي يقودها الرئيس بشار الأسد، هي مرحلة توسيع لأفق الرؤية، وإعادة نظر بما كان، لجهة ما سوف يكون، وهي لا تقطع مع الماضي، ولا تهمل المستجدات التي تفرض ذاتها في الحاضر، وتبقى داخلياً وعربياً ودولياً، على ما كانت عليه من ثبات على المبادئ، وهي تقدر عالي التقدير مواقف سمو الأمير الشيخ زايد، وتسعى لتطوير العلاقات مع دولة الإمارات العربية المتحدة، وشعبها العزيز، لما فيه مصلحة البلدين الشقيقين، والأمة العربية جمعاء.

أمجد الطرابلسي ..

خبر صغير في جريدة ! (*)

حين فاجأنا صوت الناعي من باريس، ينعي أمجد الطرابلسي، وكأنه ينعي سيناً من الناس، كانت صدمة الألم بالنسبة إلي كبيرة، وتولاني شعور بأن الحياة جرفتنا في دوامات نسيان لم يكن مبرراً، وقطيعة لا نعرف من هو المسئول عنها، نحن أم هو. لم نكن في العاقين، ومع ذلك فالحقيقة المرة هي أننا أضعناه، وأننا بعد فوات الأوان نبكيه.

وتساءلت: ما الضرورة التي تحول إنساناً موهوباً، بلده بأمس الحاجة إليه، إلى مغترب يتجرع مرارات الاغتراب، وأحزانه، يوماً بعد يوم، حتى تأتي النهاية؟..

ولماذا يسمح أعزاؤنا لأنفسهم، ونرضى نحن لهم، أن يعيشوا غرباء، بعيداً عن الوطن، ويموتوا غرباء بعيداً عنه أيضاً؟

رحلت، وكان هذا قرارك، وربما كنا قادرين أن نستعيدك من رحيلك، وأن ندفع عنك ضرورة العمل في الخرج، على الأقل نحن

(*) انتقل إلى رحمة ربه عام ٢٠٠١.

رفاقك وأصدقاءك وتلامذتك، والذين عرفوا فضلك ومنزلتك، وما تملكه من إمكانات، توجهت بها إلى ميادين الأدب والفكر واللغة والتراث، لتعطي قدر ما سمحت ظروفك، ونحن نعلم أن هذه الظروف لو سمحت لتجاوزت بالموهبة، وسمو الإبداع، الحدود التي وقفت عندها، حزيناً بالتأكيد، تعايش السنوات التي فرضت عليك أن تبقى، في النهاية، أسير المسعى في دروب العمر، من أجل حياة كريمة، وكان مكانك في بلدك، هو الأولى أن يتسع لك، وأن يشد من أزرك، وأن يمنحك الفسحة التي تمنيت، وكنت أعرف وأنا أقرأ رسائلك الودود إلي، عمق الحنين الذي يشدك إلى دمشق، وألامح في سطورك، أحاسيس الأسى، في التوق النبيل إلى متابعة أبسط أخبار الفكر وإصدارات الكتب، وخصوصاً تلك التي كانت من نتاج رفاقك وتلامذتك.

كيف كانت أيامك الأخيرة؟ تراك، من باريس، بقيت تطل، من نافذة صغيرة، على أرض الوطن، ومشاعر الشوق تملأ النفس التي بدأت تحس وطأة المنحنى الذي يدفع بها، ولو وئيداً، إلى مشارف النهاية؟

كم كنت في سنوات التدريس، في جامعة دمشق، قريباً إلى طلابك! وكم كان إعجابهم بك يسمو بأحلامهم في عوالم الشعر والأدب، تراثاً قرّبته لهم حتى صار شيئاً من ذاتهم، وكم شددتهم إلى الشعر وأنت تتلوه وكأنك مبدعة، وتسهب في التعليق والشرح والتحليل والنقد، فينسون كل شيء إلا حضورك الآسر، على منبر

الصف، في هالة من سموق الفن، لا يدرك أسرارها إلا الذين عاشوها، وأخذت بهم إلى فضاءاتها، أستاذاً ليس كالأساتذة، وإنساناً ذا قضية، يعرف ماذا يعني شرف الإيمان بهذه القضية.

أوكل ما تبقى لنا منك، أيها المعلم، هذا الخبر الصغير في صحيفة يومية، وسؤال ما ينفك يستعاد: لماذا نسمح أن يموت أعزاؤنا، بعيداً عن أرض الوطن؟

وكيف فاتنا، خلال كل هذه الأيام الطويلة، أن نذكرك ونتذكرك؟

وكيف فاتنا، خلال كل هذه الأيام الطويلة، أن نذكرك ونتذكرك؟

أكان حراماً أن تعود إلى دمشق، أن تقترب من أسوار جامعتك، أن تواصل أجيالاً ما عرفتك، وقد خسرت الكثير لأنها ما عرفتك..

لقد كنت رجل إباء دائماً، وكان صعباً عليك أن تقدم تنازلات، هكذا عرفناك، حين كنت أستاذاً، وحين أصبحت وزيراً، وحين عدت للتدريس ثانية.. لم تتغير، في سورية أو المغرب أو فرنسا، سيان.. إلا شيئاً واحداً، هو هذا الحنين أو رسيسه الذي كان يملأ نفسك، وهذا الحزن الشفيف الذي يحمله صوتك وحديثك ورسالك، يفصح دون أن تفصح ويقول دون أن يقول، وتكاد تنشد في شيء من بداوة الشعور، ما أحببت من عذب الشعر:

ولكن رحلناها نفوساً كريمة تُحمّل ما لا يستطاع فتحمل

إن الشجى، أيها الغائب الغالي، يبعث الشجى، وفي رحاب الموت وأمامه، يعمق السؤال، وتغتلي المحاسبة، لماذا؟ وكيف تخلينا عن أصحاب مواهب كبيرة، وسدرنا مع النسيان، ببساطة، أو براءة، الذي لا ذنب له؟

أمجد الطرابلسي اليوم، من العالم، الذي إليه ارتحل، يطل من خبر صغير في جريدة، لينفض عن الذاكرة ركاماً، في تلويحة وداع حييّة، ربما كان يود أن نكتشف الجرح الذي في أعماقه، أن نرى إلى أمثاله قبل أن يطويهم الموت، قبل أن يستحيلوا إلى ذكرى، في المدى البعيد، على مشارف أفق، في عوالم أخرى.

موتك أيها الأخ والصديق والمعلم، في باريس، أثار في النفس أسى، يفوق الأسى، كأنما الزمن شاء أن يتوقف، وهو في سريع دواماته، ليعملنا شيئاً، لقول لنا شيئاً، عبرك أنت الذي كنت صلباً بمقدار ما كنت رقيقاً، أبياً بقدر ما كنت شفيفاً، وكانت أحلامك شغفاً صوفياً، لا في إطار الفكر فحسب، بل في قضايا الوطن، الذي شئته كجيلك كله، عزيزاً منيعاً متقدماً مجيداً ومنتصراً، وكنت مستعداً أن تقدم الكثير، ثم رأيت هذه الأحلام تتكسر واحداً بعد الآخر، والعين تبصر، والأسى يتراكم، والحماسة تخبو، والشجاعة تنحسر، تغدو أحياناً بلا معنى، أو لوناً من ألوان الوهم الدونكيشوتي المقارب لنبوة العقل.

ويوماً بعد يوم كبر اليأس، وأحسست أن وجودك غير وجودك غير مرغوب فيه، وأن من حولك يرون أن دورك انتهى، وعليك أن تتدبر أمورك، في كل مكان على وجه الأرض إلا في وطنك.

وسافرت، وابتعدت، وابتلعتك الغربة.. جرّبت أن تعطي، وقد أعطيت، ولكن في حدود ما يعطي الذي خانته الظروف، وكبّلته مئة مشكلة ومشكلة، وصار عليه أن يحسب خطواته، وأن يظل، في كل الأحوال، دمثاً، مجاملاً، مراعياً، وأن ينكفئ في أماسيه على نفسه، ليلحظ كيف ينفصل بالتدريج عن كينونة الأمس، حين كان يرى أن حريته هي الأثمن والأغلى، وأن إنسانيته هي بهذه الحرية، وأن إشعاع إبداعه الحقيقي لا يكون إلا بها.

هل أجنح إلى المبالغة، أيها الراحل العزيز؟

لا.. لقد عرفتك عن قرب، في سنوات توهجك، وكنا شهوداً على رهافة إحساسك، وصرامة مبدئيتك، وعنفوان تطلعاتك، وشاعرية نفسك، وشهامة ضميرك، وشفافية مواهبك، ونبالة إخلاصك لكل ما هو سامٍ ونبيل، وتوقك المعرفي الذي يشدك إلى العلم والدرس والمتابعة والإنتاج، لا في ميادين التراث الذي أحببت وحسب، وإنما أيضاً، في كل ما يزهو بالحداثة والعصرنة والامتلاء بالقيم التي تستشرف المستقبل..

كنت أمثولة الطموح في بداية العمر.. وها أنت ذا تغدو أمثولة في ختام العمر، لأولئك الذين يدفعون الثمن غالياً غالياً، لأنهم لا

يمتلكون القدرة على تقديم التنازلات، والرضى بالتسليم بمرارة الأمر الواقع أو المفروض.

لقد جنحت شمسك إلى الغروب، وطواك من بعدُ المغيب، وانطفأ المصباح الذي توهج أمداً، ثم غمرته العتمة، وضاع في بحر من الظلمات..

سبقتنا، ونحن اللاحقون، وليس لنا من بعدك إلا أن نستمطر الرحمات لك، والعزاء لكل محبيك.

التوازن الدولي مطلب إنسانيّ(*)

بداية، أوجه تحية إكبار لكوبا ،البلد المكافح المتأبّي على أشكال الحصار، والمنتصر عليها، ولزعيمها العظيم كاسترو الذي لا يزال يحمل المشعل في يده، ليشق العتمة، ويجتاز بشعبه ومعه، دروب النضال غلاباً،بالوطنية الصادقة، والإنسانية النبيلة،دون أن يأبه للصعاب التي تمرس في مواجهتها، وتذليلها،بعنفوان الواثق من نفسه ومن شعبه ،والعارف بأن الحق قوة،وأن اللهب المقدس، في البؤرة السحرية، لإرادة المقاومة، ورفض الاستسلام،ومنطق التنازلات، وبناء الحياة الكريمة، هو الذي، في عالمنا،يحمل حمرته إلى أفق الشروق وأفق الغروب، ويفتح آفاق المستقبل رحبة، بالفكر الحر، والنضال النزيه.

وحين نذكر كوبا، البلد الذي نغلي، وزعيمها وقائدها الرئيس كاسترو،نذكر معها تاريخاً من النضال في أمريكا اللاتينية، شق دروبه، ورسم رؤاه، رجل من عظماء العالم، في التاريخ،هو القائد

(*) ألقيت باللغة الفرنسية في المؤتمر الدولي الذي عقد في كوبا بمشاركة كبيرة، تحت عنوان «اللاتوازن في العالم بمختلف وجوهه» عام ٢٠٠٣.

الرائد خوسيه مارتي الذي أعطى المعنى الأسمى للقيادة المقترنة بشجاعة القلب، وانضفار العزيمة، وشمولية المعرفة،ومبدئية المواقف، وامتلاك القدرة على طرح ما هو عادل في القضايا الإنسانية، والدفاع عن هذه العدالة، مهما بلغ الثمن.

لقد أراد الكبير خوسيه مارتي لشعوب أمريكا اللاتينية، أن تطلع، من قلب القدر، أمواج عزم، تناطح الظلم والقهر والاستعمار، دون أن تتحطم على صخور الشواطئ، وهي تعاود الكرة مرة بعد مرة، مؤمنة بأن شعلة الحياة ينبغي أن تبقى متوهجة في الأعماق، مهما كانت آلام الجراح.

وآلامنا في هذه الأيام كبيرة، تتفاقم بمقدار يزيد عن تفاقم الفجوة بين فقراء العالم وأغنيائه، بين الجياع والمتخمين، بين الذين لا حد لبؤسهم وحرمانهم، وأولئك الذي يتصرفون بمقدّرات هذا الكون، وكأنه ملك شخصي لهم.

وعالمنا الراهن عالم مذعور مؤطّر بالخوف، يبدو وكأنما أصابه مس من جنون، ولم تتمكن كل المعارف العلمية، والتقنيات التي احتازها، أن تبسط في أرجائه الطمأنينة، بل لقد أخذ يضيق على اتساعه، وتغزوه كل مخاطر الخلل، وفقدان التوازن، من التلوث البيئي إلى الانهيار الأخلاقي، إلى مزيد من الانقسام العرقي و الطائفي، إلى فيض من بؤس الاستلاب وضياع الحقوق، إلى تفاوت بين بلدان الوفرة وبلدان الجوع حتى الموت، وتفاقم أشكال العدوان واللامساواة ومحاولات الهيمنة، ومصادرة السيادة،

والإمعان في التسلط، ونهب ثروات الشعوب، ومواردها، والاعتداء على الأرض والحق، دون أي وازع أو رادع.

عالمنا الراهن عالم منهك، تكاد تغيب عنه، بفعل قوى الامبريالية العاتية، قيم عزيزة غالية، منها الحرية والعدالة والإرادة الإنسانية الواحدة، في وجه التحديات الكبيرة والخطيرة التي أدخلتنا في مدارات التناحر والعنف، واستعلاء القوة، والحروب غير المشروعة، والاستبداد والتمييز، وأسهمت في خلق الكثير من بؤر التوتر، وأغرقت دولاً عديدة في ضائقات اقتصادية قاسية، في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ووضعتنا أمام إشكاليات ليس من السهل معالجتها، والخلاص من عواقبها وارتكاساتها، ومن بين هذه الإشكاليات، في مجال اللا توازن الدولي الراهن، تحتل مسألة الفقر المدقع، واتساع الهوة بين الذين يملكون والذين لا يملكون مكاناً أول، لأنها ترتبط بالوجود الإنساني أساساً، وتنتهك الحق الإنساني الأول، بشكلٍ متنام وسريع، تسقط معه بلدان في جوف الظلمة ، وتغرق أخرى في لجج الموت وهي تكتسح أعداداً هائلة من السكان الذين لا حساب لهم لأنهم لا يملكون، في وجه الرأسمالية العاتية، إلا إحباطاتهم، حسب تعبير منظمة اليونيسكو، ولأنهم في بؤسهم لا يجدون الطعام ولا الملبس ولا المسكن.

لقد تحدث كارل ماركس منذ نحو قرن ونصف عن «الإفناء البطيء للرجال»، وعن معاناة «الزنجي في الولايات الجنوبية من أمريكا، الزنجي الذي أنهك، وأصبح استهلاك حياته، في سبع

سنوات من العمل، جزءاً لا يتجزأ من نظام محسوب حساباً جامداً»، وعن «المرضى والمشوهين والنساء والشيوخ الذين عليهم جميعاً أن يعملوا، ترغمهم الضربات على ذلك، وأن يعملوا حتى يضع الموت حداً لبؤسهم وعذابهم».

وتحدث أيضاً عن «الأطفال الذين حولهم الهزال إلى هياكل عظمية، وتوقفت قاماتهم عن النمو، وامحت سمات وجوههم، وتشنج كيانهم في همود يبعث مرآه على الرعشة».

والأمثلة المشابهة، في هولها، لا تحصى في كتاب رأس المال، وهي أمثلة مرعبة للاستغلال الإنساني في البلاد المتقدمة، وفي غيرها، مما دفع إلى ثورة أكتوبر الاشتراكية، ومن قبل كانت الثورة الفرنسية ثورة جياع مقهورين، يبحثون عن اللقمة والعدالة، وكان للمفكرين المتنورين، في بلدان مختلفة من العالم، وفي الطليعة من بينهم خوسيه مارتي، دور قيادي كبير، غذّى الوعي، وفتح العيون، وأيقظ الضمائر، وألهب النفوس شوقاً إلى التغيير الثوري، واستطاع أن ينقل العالم، في تاريخيته الاجتماعية، وبشكل جذري، نقلات نوعية، باتجاه القضاء على الظلم والاستبداد والاستغلال، وأشكال الحرمان، وباتجاه السير نحو عدالة اجتماعية، تسعى إلى توازن بين الغني والفقير، وإلى اجتثاث النبت الشيطاني الخطير، نبت الاستغلال، وما ينطوي تحته، أو يندرج في بابه، من ظلم أسود، صارخ، يقضي على الإنسان، جسدياً وروحياً، قضاءً شبه كامل.

والذي يتابع تقارير التنمية الصادرة عن هيئة الأمم، وعن مؤتمرات دولية، ومنظمات حكومية وغير حكومية، يدهشه هذا التسارع الرهيب، في الخلل العالمي المتنامي، ويتساءل كيف تعيش هذه الكتل البشرية التي لا تحظى حتى بالحد الأدنى من إمكانات العيش، في حين تكبر الثروات، بطريقة خيالية، أو قل أسطورية، وتتحكم الشركات المتعددة الجنسيات، والعابرة للقارات، بأربع أركان العالم، على اسم العولمة المرتبطة بها، والنابعة منها، وعلى اسم اقتصاد السوق ومنظماته التجارية والمصرفية، وما يفرضه من نهب مدروس في عملية ما يدّعيه من تحرير للتجارة، ترفع كل أشكال الحماية عن إنتاج الشعوب، و من تسليع حزين للحياة كلها، ويكفي أن نذكر بعض الأمثلة المستقاة من التقارير الإحصائية الدقيقة، لندرك بشاعة ما يتم على أرض الواقع.

في عام ١٩٧٥ كان هناك ١١٠٠٠ شركة متروبولية تتحكم بـ ٨٢٠٠٠ شركة فرعية في أنحاء العالم المختلفة.

وكانت قيمة مبيعات هذه الشركات تصل إلى ٢٥ **%** من مجمل التجارة العالمية. وفي عام ١٩٩٠، قفز عدد هذه الشركات إلى ٣٧٥٠٠ شركة متروبولية، لها ٢٠٧٠٠٠ فرع أجنبي، أي خارج بلدان هذه الشركات.

وقد بلغت قيمة مبيعاتها في عام ١٩٩٠ نصف الناتج القومي العالمي، وبلغت قيمة مبيعات فروعها الأجنبية ما يعادل، في الحجم، مجمل التجارة العالمية.

ولنتابع تفاقم هذه المأساة.

يقول أحد التقارير: كان دخل العشرين بالمئة من سكان العالم الذين يعيشون في البلدان الغنية، يزيد بمقدار ثلاثين مرة عن دخل العشرين بالمئة، من سكان البلدان الأكثر فقراً. لكن هذه النسبة أصبحت ٨٢ ضعفاً في عام ١٩٩٥. ويعلق الكاتب قائلاً: وهذا الفقر يجب اعتباره بالأحرى إملاقاً، فهو ليس مجرد وضع، ولكنه عملية مستمرة في قلب النظام الاقتصادي العالمي. ويتابع فيكتب: ارتفع عدد الأفراد الذين يقل دخلهم عن دولار واحد يومياً، خلال الفترة بين عامي ١٩٨٧ و١٩٩٣، بما يقترب من مئة مليون فرد. (في مواجهة دافوس F.Houtart, F.Polet – L'Autre Davos).

وفي مقال للسيد رامونيه يتحدث فيه عن المجموعات الصناعية الخاصة،التي تعتزم السيطرة على العالم، وعن تمركز رأس المال والسلطة، وتسارع هذا التمركز بقوة مخيفة، في السنوات العشرين الأخيرة، يأتي ما يلي:

«في حين يمثل الإنتاج الغذائي الأساسي أكثر من ١٤٠% من الحاجات، فإن ٣٠ مليوناً يستمرون بالموت جوعاً كل عام، وأكثر من ٨٠٠ مليون هم تحت مستوى التغذية. إن دخل ٢٠% من الأغنياء، يتفوق بمقدار ٨٢% على دخل ٢٠% من الناس الأكثر فقراً».

ومن بين الستة مليارات من سكان العالم، يكاد ٥٠٠ مليون يعيشون في يسر، بينما يظل خمسة مليارات ونصف، في حدود الضروري - (إيغناسيو رامونيه - لوموند ديبلوماتيك) .

وفي مقال أخير للسيد رامونيه، في عدد تشرين الثاني ٢٠٠٢ من الموند ديبلوماتيك، يأتي أن نصف البشرية يعيش في الفقر، وأكثر من الثلث في البؤس، و٨٠٠ مليون يعانون سوء التغذية، ونحو مليار يبقون أميين، ومليارا ونصف مليار لا يتوفر لهم ماء يشرب، ومليارين ليس لديهم كهرباء أبداً..

أما التفاوت، داخل المجتمعات المتقدمة، فقد شهد اتساعاً مخيفاً، كما تؤكد الدراسات الإحصائية، والمراجع المتعددة، ويكفي أن نشير إلى كتاب جان بول مارشال عن الاقتصاد التضامني الذي يؤكد فيه أن عشرات الملايين في أوروبا، يعيشون في الفقر، أو هبطوا دون عتبته، في حين أن الغرب لم يكن يوماً على مثل هذا الثراء الفاحش.

ولعله من الضروري أن نشير إلى أن الفقر ليس جوعاً وموتاً ومرضاً وانهياراً نفسياً، وانكساراً اجتماعياً، إنه إلى ذلك، مجموعة أمراض ترتبط به، تتأتّى، من محاولة للدفاع عن الذات، ربما، وبإغواء القادرين، الذين يبحثون عن الإثراء بأي ثمن، وبشكل انحرافي هدّام، يستدعي عمالة الأحداث، وتجارة الأطفال، وتسليع النساء، وممارسات الدعارة، وانتشار الأوبئة كالإيدز مثلاً، وفتح أبواب الجريمة والمخدرات، والاستسلام لشبكات المافيات التي تستغل الظروف المعيشية القاسية للمحرومين، وتدفع بهم إلى سراديب اللصوصية والقتل، وهذا يعني بالتالي، أن يتحول الإنسان

العـادي، المكبّـل بالحاجـة، إلى حطـام بـشري، غـارق ومغـرَق في مستنقعات الإجرام والفساد.

ونتساءل، بعد أن ذهب زمن الوثوقيات، كيف يمكن أن نردم الفجوة بين الشمال والجنوب، ونساعد هذا الجنوب على تحقيق تنمية معقولة، تحول بين شعوبه وبين هذا البؤس المضني، والجوع القاتل، في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينيـة، وكـل البلـدان التـي تحتـاج إلى الإسعاف والمساندة؟ ألا تقـع المـسئولية هنـا عـلى الـشمال المتطـور الغنـي، في تقـديم العـون الحقيقـي إلى الـدول الفقـيرة الناميـة، في القارات الثلاث، أي دول الجنوب، حسب المصطلح الـذي أطلقـه نادي روما.

ونتساءل: هل من الطوباوية، حـسب مـا يـزعم الـبعض، أن نطالب الإنسان بألا يتخلى عن إنسانيته؟ أليس المفروض أن يستعيد الفكـر التنـويري والتغيـيري دوره، وبـشجاعة، دون أن نـسقط في الحصار المناهض لقيمنا، وفي المصادرات الفكرية التي تغلق الدائرة من حولنا، في المدى الحيوي للفكر.

لقد قال جون كنيدي في خطـاب تنـصيبه: «أمـا أولئـك النـاس القاطنون في أكواخ نصف العالم وقراه، مناضلين من أجل تحطيم قيود البـؤس الـشامل، فإننـا نعـد ببـذل قـصارى جهودنـا لمـساعدتهم في مساعدة أنفسهم، لأي مدة يحتاجونها، مهما طالت، لا لأن الشيوعيين قد يكونون يقومون بذلك، (وتلك هي المـسألة بالدرجـة الأولى!) ولا لأننا نسعى إلى نيل أصواتهم، بل لأن ذلك حق وصواب».

لكن الذي جرى من بعد كان مختلفاً جداً..

انتهت الحرب الباردة، ومع نهايتها بدأ رأس المال يستبدّ بالعالم، ويستعلن معه نظام عالمي جديد، ارتبط أساساً بالشركات متعددة الجنسيات التي منها كانت العولمة، وباقتصاد السوق، وبخلق بيئة عالمية للاستهلاك، توجهها علاقات بعيدة كل البعد عن التكافؤ، بين اقتصاد عالم ثالثي بائس وتابع، واقتصاد صناعي متطور، لا يرتبط بحدود جغرافية، بل يكتسح على اسم استراتيجية تنموية حداثوية، كل الحواجز، وكل بلدان العالم، كي تبقى له الأسواق مفتوحة، وكي يشكل إمبراطوريته الرأسمالية، في إطار قانون الربح المطلق الذي استحوذ على كل الميادين، وبمعزل عن أي تفكير إنساني متعاطف ورحيم، بما في ذلك ميادين الصحة والغذاء.

وضمن منظومة صارمة، ترتبط بحرية التجارة، والخصخصة، والمنافسة الإنتاجية، والتسليع المعمّم، والإثراء على حساب الطبيعة، وكوكبنا الأرضي، فتحت العولمة مصاريع العالم، وأمام انتصاراتها دخلت دول عديدة، في أزمات المديونية والتراجع والعجز والبطالة ..

وغرق عالم الجنوب في كوابيس الدين، وفي تسديد الفوائد المتراكمة، وغدا هذا الدين شكلاً مقونناً من أشكال الربا، تسقط فيه مجتمعات الجياع والمحرومين، وتسدّد، ولا تنتهي، من الفوائد التي تتنامى، وتذكر الإحصاءات أن دول الجنوب قد سددت، حتى نهاية

عام ١٩٩٩، أكثر من أربعة أضعاف ديونها، فوائد، وأن ما ألغي من هذه الديون الكلية لم يجاوز- وياللمهزلة - ٢٪.

أما صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي فلم يحدث أبداً أن تنازلا عن دين، حتى في الظروف الاستثنائية، للدول ذات الاحتياجات البالغة، وأما المساعدات البسيطة التي تقدمها بعض الدول أو الصناديق للبؤساء في الجنوب، فلها في الغالب، أهداف سياسية وارتباطات ليست، في مؤدّاها، في صالح المعوزين من دول الجنوب..

وأضع جانباً قروضاً دولية من نوع خاص، تعطى في إطار حماية المستوى الاستهلاكي الأدنى لبعض البلدان، خوفاً من الانهيار المهدّدِ فيها، وحرصاً على تصريف البضائع في أسواقها، وحمايةً لرأس المال العالمي المهيمن، وهذا ما جاء على لسان الرئيس كلينتون، في خطابه الذي ألقاه، تعقيباً على إفلاس نمور آسيا، إذ طالب بدعمها بالحد الأدنى، لا حمايةً لها، بل من أجل الحفاظ على قدرة شرائية لها، تبقي أسواقها مفتوحة أمام أمريكا ومصنوعاتها.

وهكذا، وفي النهاية، ينضاف الدين الذي لا يأتي ضمن خطة مدروسة مستنهِضة، في كثير من أشكاله، إلى عوامل تفاقم البؤس، في دول الجنوب، ويتحول إلى أفيون مرحلي مهدئ وموقوت، تدفع البلدان الفقيرة المدينة ثمنه غالياً، ضمن شروطه التي تهيء لتفاقمه، بشكل سريع، كما جرى في بلدان آسيا وأمريكا اللاتينية ، وهو في جانب منه، جزء من نزوع الرأسمالية العالمية إلى خلق منظومتها

القيمية التي تتزعمها أمريكا، ويتنامى فيها الاستلاب الإنساني الذي تقع شعوب العالم الثالث ضحية له، وتعاني بسببه ألوان العذاب، في حالة دولية تسودها قوى عاتية، لا تقيم وزناً لغير مصالحها، ولاعتبار القوة ومنطقها.

وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن نرى إلى التاريخ الحديث، وكيف ارتسم في الثلث الأخير من القرن الماضي، في إفريقيا ومجاعاتها وحروبها، حين سلبت خبزها وحريتها، واستلبت إرادتها، ولم يكن في مقدور مزارعيها مثلاً، في بعض بلدانها، أن يزرعوا القمح بدلاً من المطاط كي يطعموا أطفالهم، ويدفعوا عنهم جوائح الموت. وفي أمريكا اللاتينية كيف دفع الجوع القاتل الأمهات في البرازيل، هذا البلد الغني بثرواته المنهوبة، إلى بيع أطفالهنَّ، ،وكيف تم القتل الجماعي للأطفال واليافعين في الشوارع، علماً بأن اقتصاد البرازيل كان هو الأقوى في أمريكا اللاتينية، وكيف تركت شعوب بكاملها للجوع والمرض، وفقدان كل مقومات الحياة، سنين طويلة، بذريعة أو بأخرى، ليس فيها ما يقنع، كأن يفرض على دولة ما مقاطعة اقتصادية دولية، لا تزول في دعواهم ما دام الحاكم موجوداً، واليد القوية العسكرية يمكن أن تمتد إلى كل شيء، إذا شاءت،ولا يرفّ جفن لأحد حين نرى مئات ألوف الأطفال في برامج اليونيسف التلفزيونية، من هذا البلد، في حال من الوهن والتشوه، بسبب سوء التغذية ونقص الدواء. ولقد سكت العالم ويسكت، تحت وطأة الخوف من القوة التي استفردت في الهيمنة على العالم، سكت عن

المذابح والمجازر المتواصلة التي قتّل فيها عدد كبير من أبناء شعبنا في فلسطين، وبدايتها لم تكن دير ياسين ولا كفر قاسم، ونهايتها لم تكن مجازر الخليل وقانا واجتياح جنين وطول كرم ونابلس وغيرها، ولا تكسير عظام الأطفال وهدم البيوت، وتدمير المزارع،ومحاصرتهم في لقمة العيش، وتحويل حياتهم إلى جحيم.

سكت العالم ويسكت عن إرهاب الدولة الذي توقعه أمريكا في ممارساتها لسياسة القهر، وإيقاع الأذى انتصاراً لمصالحها وحدها، على المجتمعات والدول المختلفة، وفرض أقسى أشكال الحصار الاقتصادي، باسم الدفاع عن «الديمقراطية» الموهومة التي يريدون فرضها بقوة القمع، فأي مفارقة في هذه المغالطات؟ وأي حديث عن العنف يتذرّع به الذين يمارسون العنف، وفي أبشع صوره، اغتيالاً، وسجناً، واحتلالاً لأرض الغير، وعبثاً بأقدار شعوب لا ذنب لها إلا أنها الأضعف قوة، أو الأكثر تخلفاً، أو لأنها موضع أطماعهم، بثرواتها الطبيعية، وهم حريصون على استباحتها، ضماناً للمزيد المزيد من الرفاه لهم، والبؤس لغيرهم،ولم يؤرقهم، ولن يؤرقهم، أبداً هذا الاغتيال الشرس الممارس للحياة والحق والكرامة.

وكانت كوبا، وما تزال، المثل الرائع لبطولة المقاومة، وتحدّي غطرسة الهيمنة، وكل ما فرضته أمريكا من حصار اقتصادي، وتطويق عسكري، وافتراء إعلامي، ومحاولات تهديد إرهابي

متواصلة، فزعاً من شجاعة كاسترو وشعبه، وإنجازات ثورته البناءة، وتأييد أحرار العالم له، وحرصه التاريخي على مقاومة كل أشكال العدوان، واستمراره في خطط التنمية والنهوض، رغم عنت الظروف، ومناصرته الدائمة لنضال الشعوب، وحفاظه الصادق على قناعاته الإيديولوجية، النابعة من فكره النيّر، واستشرافاته للمستقبل.

إن الهول الذي وصفه كارل ماركس، بكلماته الملتهبة، لا يزيد عما تعرضه الشاشات على المشاهدين، من أشكال البؤس، فلماذا يغضي العالم، ولا يرتعد، ولا يتحرك ساكن، أمام مرأى الهياكل العظمية، والبطون المنتفخة، لأطفال هدهم الجوع الدائم؟

أليس من واجب الإعلام، بكل ما وفرت له تكنولوجيات الاتصال، وثورة المعلوماتية، والبرامج الفضائية التي لا تحصى، أن يكون أكثر قدرة على خلق الوعي، وتحريض الضمير، وتشكيل تطلعات أكثر إنسانية، تبني أخلاقيات أكثر نبالة، بدلاً من التردي الإيديولوجي الراهن، واللجوء إلى ترف الإلهاء، في ثقافات التسلية والتمييع، وتكسير المثل، حرصاً على خلق مجتمع عالمي للاستهلاك، تسعى وراءه أمريكا، مستخدمة أرقى تكنولوجياتها، في ظل المتغيرات الدولية، والتصدعات المتتالية، والتفاوت البشري الكبير الكبير، الذي لم يسبق له مثيل من قبل، والذي استحال إلى شرخ متّسع،ينذر بانفجارات يصعب تحديد مداها.

إن خطر الإعلام كبير، وما أحد يجهله، لكن ما هو أخطر هو اندفاع أمريكا المحموم للاستيلاء عليه، حسب تعبير أحد الكتاب، وتشكيل إمبراطورية إعلامية عابرة للفضاء كاسحة.. إدراكاً منها لما للإعلام من شأن، وما سيكون له في المستقبل.. حين تخطو العولمة خطواتها الأوسع، على رقاب الشعوب التي تسعى إلى تحقيق ذاتها، والدفاع عن وجودها، وتوفير أمنها الغذائي والاقتصادي والسياسي والثقافي.

يقول بريجنسكي: «ما دامت أمريكا تسيطر سيطرة فعلية على ٦٥% من أجهزة الإعلام العالمية، فإن في إمكانها أن تقدّم للعالم «نموذجاً كونياً للحداثة»، اقتصادياً وتجارياً، وهذا النموذج يحمل بالضرورة، القيم الأمريكية المطلوب تعميمها على العالم»، والجملة الأخيرة هي بيت القصيد.

ويعلق المفكر الفرنسي، بيير بورديو، بعبارة واقعية الدلالة، حين يقول: «وسائل الإعلام تمنح الولايات المتحدة وضع النموذج الذي لا يناقش».

لكن رجع الصدى يظل في القصيدة التي تقطر ألماً ودمعاً ودماً للشاعر فانغ تشي مين، أحد زعماء الحزب الشيوعي الصيني، في المراحل الأولى للثورة، والتي أسماها «أصوات البؤس»، ومنها:

كثيرون من حولي يبكون / في بؤسهم، بعضهم بجهارة / وآخرون بخفوت. آهاتهم، وصراخهم / ونحيبهم، تغدو كلما أعرتهم أذنك أكثر / كي تسمعهم، أشد مرارة / في القلب. دمهم

وعرقهم / يتحولان إلى بذار، كلها تقريباً، / تسرق منهم من قبل المالكين، / ولا يتركون لهم ما يكفي لإطعام زوجاتهم / أو أطفالهم.

* * *

كتبت مرة:

«الصورة، ولا شك، مأساوية، إلى حد كبير، لكن الأمل في التغيير هو البعد الأعمق في حياتنا، ولا نهاية للتاريخ، مهما كتب منظرو الرأسمالية، فوكو ياما وهنتيغتون وأمثالهما، ولا نهاية لصراع لا يحسم لصالح العدالة والتوازن وتوفير الحياة الكريمة للإنسان، دون أي مصادرة أو استلاب أو عدوان أو إفقار، حين يظل الوجه الإنساني للحياة هو الأبهى والأسمى. وفي طوايا حلمنا البشري الكبير، ورؤانا الكونية التي تستعلي على اليأس، وعلى الفكر الأحادي، المرتبط بمفاهيم للحياة، تقبع في مستنقعات الهيمنة والعولمة، وقوانين الربح، والاستفراد بثروات العالم، وسقوط القيم، والعبث بمواثيق الأمم المتحدة، وبحقوق الإنسان وحرياته، على حساب كل القيم الشريفة والنزيهة، وأساساً على الاستقواء بضعف الضعفاء، وحاجة المحتاجين، تنهض جماهير عريضة، لمقاومة هذا الوضع التعس، والتوجهات المريضة التي تغطي سطوح المساحات الدولية الشاسعة، كما ينهض مفكّرون وروّاد وفلاسفة ومبدعون من شتى أرجاء العالم، هاجسهم أن يدفعوا عن الشعوب الفقيرة المستضعفة، العدوان بأشكاله العسكرية والاقتصادية والثقافية، وأن يبحثوا عن أساليب للنهوض بعالم

جديد ، قادر على أن يجبه أشكال التحديات التنموية والإنسانية، وأن يخترق الحواجز والعوائق التي تحول دون الوصول إلى نهج جديد شامل، يستنهض العالم من كبوته الراهنة، ومن احتمال حدوث انهيار عاصف، أو انفجار شامل».

وإذا كانت الرأسمالية المتعولمة تسعى إلى خلق ثقافتها الاستهلاكية الخاصة، وقيمها الانحلالية، وإلى تزييف الوعي، لدى أبناء الدول الفقيرة والمستضعفة، كي يقبلوا بالأمر الواقع، ويستسلموا لمشيئة القدر الذي تمليه، فإن المقاومين لهذه التوجهات، وهم كثر، يدركون مدى عمق الحاجة إلى قيم أخرى عليا ونضالية، وإلى ثقافة تغييرية وثورية، ومبادئ تقود المجتمع البشري، في بحثه عن التوازن، وعدالة التكافؤ، إلى الكفاح، دفاعاً عن المصير الإنساني، وسعياً لإيجاد حلول ملموسة لمشكلات ضخمة، تحتاج إلى استراتجيات تنموية مدروسة، تبني نهجاً عالمياً متقدماً وشاملاً ، معنياً بالتنفيذ وليس بالتنظير فحسب.

إن أحداً لا يدّعي امتلاك عصاً سحرية، تحقق معجزة إيقاظ الذهن، وإحياء الضمائر، وإنهاء أشكال تخلي الإنسان عن إنسانيته، وبناء عالم جديد، ينتفي منه الفساد والإفساد واللا أخلاقيات والآثام، وتركّز استراتيجيات التنمية فيه على الإنسان كيفما كان، وأينما كان، ومهما كان لونه أو عرقه أو ديانته أو مذهبه، لحمايته من ألوان الحرمان المميت، وتحرير حياته من عذاب الجسد الجائع ، واغتيال المرض الذي لا يملك ثمن الدواء له.

إننا لا نمتلك هذه العصا، ولكن ثمة أمور كثيرة قابلة للتحقق الأكيد، وبإمكاننا أن نسعى، بما نملك من وسائل، ومن إمكانات تأثير، إلى تحقيقها، ولتحويل المسارات المؤذية والمسيئة، والمفعمة بالأنانيات والاستباحات، باتجاه الخير والنبالة وتحرير الإنسان من ربقة العبودية للقمة العيش، وتوفير الأمن الغذائي له.

لقد كان بإمكان الهيئات الدولية، وكذلك المؤسسات المالية العالمية، أن تنهض بمسئولياتها -وقد قامت من أجلها- بأسلوب مختلف. إننا لا نطالب بخلق مدن فاضلة - يوتوبيات- لكننا نتمنى أن يظل رهاننا على إقامة تعاون دولي، بين الشعوب الغنية والشعوب الفقيرة، بدلاً من الاكتفاء بتعاون الأغنياء، في حضارة التصنيع، والامتناع عن مساعدة الشعوب المقهورة.

ومساعدة هذه الشعوب لا تكون بتقديم بعض الفتات لها، والاستمرار بممارسة مفاهيم العولمة والسوق وآلياتهما عليها، ومتابعة سياسات الغزو الاقتصادي الذي حّول بعض الدول العالم ثالثية إلى دول فقيرة حقاً، رغم امتلاكها، أو بسبب امتلاكها، لموارد الطاقة، ولثروات نفطية، كانت وبالاً عليها، إذ حرّضت أطماع الدول الغازية على الاستمرار في هذه اللعبة، والمثل على ذلك ما جرى ويجري في نيجريا وفينيزويلا، ويدور اليوم حول السعودية.

إن إمكانات الدول الغنية الصناعية كبيرة، وإمكاناتها التقنية أكبر، وبإمكانها أن تفيد منها لصالح التطور الإنساني، والمساعدة في رسم سياسات لتنمية حقيقية نوعية، حين يتوجه جزء من مشاريع

الاستثمار منها لإيجاد حلول ملموسة، لمشكلات الفقر، وإنماء القدرات المحلية.

وإنها لمفارقة أن نكون شهوداً على التفوق التكنولوجي الهائل في عالمنا، وشهوداً كذلك على غياب حسّ التواصل الإنساني فيه في آن. وربما كنّا في حاجة، على ما يرى عدد من المفكرين، إلى استنهاض العلوم الإنسانية التي تخلّفت كثيراً عن آماد التكنولوجيا، وكانت السبب في هذا الضمور الأخلاقي الذي أصاب العالم. «والبشرية حسب قول مايور -الرئيس السابق لليونيسكو- بحاجة إلى أهداف ومثل عليا ومبادئ ، وكل ذلك أفلت من يد الناس، في كافة أنحاء العالم».

إن المسافة التي تعزل بعضنا عن بعض، حضارياً ومعرفياً، فقراً وغنى، صارت كبيرة جداً، وصار من الضروري أن يقترب الإنسان من الإنسان، بالمعرفة التي تولد الفهم والوعي، وتصحح المسارات في العلاقات، وتقود إلى طريق مشترك، أوضح، وتسمح بالانفتاح على الممكن من الرؤى التي تبني التكافؤ، وتحقق التوازن.

ومن أجل ذلك، ينبغي أن يعاد للثقافة دورها الخلّاق، الباني، المستنهض والتنويري، وآمل أن يُبحث هذا الموضوع، في محوره الخاص، وأن يسمح التعليم، في كل بلدان العالم، بابتكار الأفكار والرؤى والفلسفات التي تسهم في تطوير الواقع الراهن، وتجاوز الأفق المحدود، بدعم الذين غُلبوا على أمرهم، من أبناء البشرية، وبلغوا أقصى آماد العجز، فقراً مدقعاً، وتخلفاً وانكفاءً وانعزالاً،

وبجبه الذين صار همّهم الأكبر الاستحواذ على كل ما يمكن، بالوسائل المشروعة وغير المشروعة، من الإنتاج العالمي، وبالتوجيه السديد للمناهج والبرامج، وتصحيح القاعدة القيمية لها.

وفي غياب التوازن السياسي والعسكري الدولي، وإحكام قبضة القطب الواحد على مصائر البشر، نشأت أوضاع جديدة، أضافت أشكالاً جديدة من البؤس، مدججة بإعلام احتكاري يستبيح كل شيء، ويعبث بمصائر الأمم، ويسخر من البؤس الإنساني، ويمارس التضليل، والإلهاء، والتتفيه، ومن واجبنا حرصاً على مستقبل إنسانيتنا، وشرف المواقف، أن نبذل أقصى ما نستطيع، كي يبقى للإعلام دوره النزيه في نشر الوعي، والدفاع عن الحقيقة، والإسهام في تحقيق التقارب والتواصل بين الناس، على اختلاف مواقعهم.

يبقى أمر أخير، بالغ الأثر والتأثير يتأتى من غياب الوجود الحقيقي والدور الفعّال لهيئة الأمم، والمنظمات المرتبطة بها، ولمجلس الأمن وغيره من المجالس، فنحن لا نسمع، في كل ما هم مهمّ، إلا صوتاً واحداً، هو صوت أمريكا التي استلبت، وتستلب، كل الأدوار، وهمّشت، وتهمّش، كل الهيئات، وضاعت في دوّاماتها، الشعوب المتحضرة المتقدمة الثرية، فكيف بالشعوب الفقيرة، والمهمشة أصلاً؟

*　*　*

نيتشه يقول: «إن العالم بعيد غوره، وأبعد غوراً مما ظنه النهار. إن أمله لعميق .. لكن العذاب أضحى شكلاً من أشكال الانخطاف العظيم».

ثم ماذا؟

هل سنيأس، ونكتفي بالسقوط في سعير الآلام، ونحن نتطلع إلى هذا البؤس المريع، والظلم الظالم، واستمرار اتساع الهوة بين القلة الثرية المهيمنة، وجموع الناس المنهكين؟

كلا

فالوجه المضيء للحياة يزداد إشراقاً، بالنضال الدؤوب المشترك، والوعي يتجلى أكثر فأكثر، في المواقف الشريفة، والتعاطف النبيل، وهذا أمر طبيعي، تمليه سنة التطور التي لا تبقي على العسف. والتاريخ يشهد على أن الإنسانية كون من العلاقات الكفاحية، والارتباطات التي تشحذ الشوق، وتتسامى، بالفكر والشعور، إلى فضاءات يشع فيها الإنسان، بما هو إنسان، وأن جهود المناضلين على وجه البسيطة تتصاعد، ونداء الضمير يقوى، ولا بد من أن يحصل التغيير.

إننا لن نيأس أبداً، وسنزداد ثقة بأن التواصل النضالي الصامد والصابر، سيحقق التكافؤ والعدالة، وسيوفر العيش الكريم للبشرية،في يوم غير بعيد، وسيصبح شرعة مبدئية، ومهمة إنسانية، ورسالة محبة وعدل، إذ هي طموح يعلو على معنى العدوان،

ووجود لا اغتصاب لحق فيه،و لا استلاب لثروة، ولا احتلال لأرض الغير، ولا تمييز في العرق أو اللون أو الجنس، ولا افتئات على حق شعب، وتشريده من دياره، واستباحة مقدساته، كما فعلت إسرائيل بشعبنا العربي الفلسطيني، وكما تفعل أمريكا بشعبنا العربي في العراق، وكما تحاول منذ زمن بعيد، أن تفعل بالشعب الكوبي العظيم.

أنبل تطلعاتنا الإنسانية، نحو غد مشرق، يستتب فيه العدل، ويمّحي الفقر والمرض، ويزول الحرمان، وتعلو راية الحق والحرية والسلام ..

إشكاليات الحقوق الثقافية وضرورة العمل على تشكيل جبهة ثقافية عربية (*)

بإحساس رفيع بالمسئولية، وإدراك عميق لأهمية الثقافة، ودورها الكبير في بناء الإنسان، وتحرير طاقاته، والخروج به من مهاوي القهر والسقوط، إلى استشراف المستقبل، على وقع خطى عصر مجيد وسافل، كما يقول ناظم حكمت، أعادت المنظمة العربية لحقوق الإنسان، مع منظمات دولية ومغربية، الحقوق الثقافية، في هذا الملتقى، إلى المقدمة، بعد أن وُضعت طويلاً، وكالثقافة ذاتها، في عالمنا العربي، في آخر سلم الأولويات.

ولم نكن، من قبل، على شدة إيماننا بالثقافة، قادرين على الخروج من مأزق تهميشها، ولو إلى حين، فقد كانت هناك أولويات بالفعل، وما تزال، لدى كل المعنيين بحقوق الإنسان، في عالم منهك تغيب عنه قيم غالية، منها الحرية والعدالة، وحق الشعوب في تقرير المصير، وتغزوه كل مخاطر الخلل، من فقدان التوازن، إلى بؤس

(*) في رئاسة حلقة نقاش حول «حقوق الإنسان الثقافية» – الدار البيضاء عام ٢٠٠٣.

الاستلاب وضياع الحقوق، وتفاقم أشكال العدوان واللامساواة، ومحاولات الهيمنة، ومصادرة السيادة، والإمعان في التسلط، ونهب ثروات الشعوب الضعيفة ومواردها، والاعتداء على الأرض والحق، واستعلاء القوة، وشن الحروب غير المشروعة، والاستبداد والتمييز، وإغراق الدول المستضعفة في ضائقات اقتصادية قاسية، في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ووضع العديد من شعوب العالم أمام إشكاليات ليس من السهل معالجتها.

لقد كان القضاء على الظلم والاستبداد والقهر والعدوان من جانب، وعلى أشكال الاحتلال والنهب والتناحر والعنف من جانب آخر، بحثاً عن الحقوق الأولية الوجودية، هدفاً أساساً ارتبطت في التصدي له منظمات حقوق الإنسان، ولم يفسح في المجال لحديث الثقافة والحقوق الثقافية والاجتماعية التي ظلت نائمة في صفحات المواثيق والقوانين والعهود، دون أن يكون لها شأن خاص، كحق أساسي، من حقوق الإنسان، يوازي حقه في الحياة.

أما الحقوق الاقتصادية فقد كان لها شأن آخر، خصوصاً في ظل الإعلان عن نظام عالمي جديد، ارتبط أساساً بالشركات متعددة الجنسيات التي منها كانت العولمة، وباقتصاد السوق، والتسليع المعمم، والنهب المدروس اللامحدود، انطلاقاً من قانون الربح المطلق.

إن الذي يرجع إلى أدبيات حقوق الإنسان، في المواثيق الوطنية والدولية، في نصوصها القديمة والحديثة، منذ الإعلان الفرنسي

لحقوق الإنسان عام ١٩٨٩، وإعلان الاستقلال الأمريكي، إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨، يجد أن هذه النصوص قد تناولت قضايا الثقافة والاقتصاد والاجتماع بشكل جانبي، وبكثير من الرفق، وأنها مرت بها مروراً عابراً، بالقياس إلى القضايا المرتبطة بالوجود الإنساني أساساً بحق الإنسان في الحياة والحرية والعدالة، بعيداً عن أشكال التمييز، بسبب العنصر أو اللون، أو الدين أو المولد أو الثروة، أو الوضع الاجتماعي والوطني، أو الانتماء السياسي، أو القانوني أو الدولي أو الإقليمي، ثم توقف الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وقفة أطول قليلاً، عند التعليم الذي يستهدف التنمية الكاملة لشخصية الإنسان، وحق المشاركة الحرة، في حياة المجتمع الثقافية.

وحين اعتمدت الجمعية العامة في عام ١٩٦٦ نص «العهد الدولي» الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كانت قد خطت خطوتها الأكبر، والأكثر اتساعاً، وربما كان ذلك بسبب الموقع الذي بدأت الثقافة تحتله في الفكر الإنساني، وفي توجهات المنظمات الدولية، وطليعتها هيئة الأمم، ومنظمة اليونيسكو، اللتان ارتأتا فيما بعد أنه لا بدَّ من الإعداد لعقد للتنمية الثقافية، أحسّتا بضرورته، بعد أن فشل عقد التنمية الاقتصادية، لأنه لم يرتكز على تنمية ثقافية، هي الأساس في أي تنمية بشرية.

لقد رسمت بمواد هذا «العهد» ما يشبه خطة موجزة شمولية، من شأنها أن تفتح آفاقاً أرحب، لمفاهيم هذه الحقوق بعامة، والحق

الثقافي بخاصة، في التعلم، والتدرب، والوصول إلى منابع الثقافة، ودخلت، ولو دون تبسط، في تفاصيل هامة، تشكل مجمل عناوين للتعلم بكافة مراحله، وضرورة مجانيته، حين يمكن ذلك، إضافة إلى البحث العلمي، والإبداع الفني والفكري، وتوفير الحريات الكاملة لذلك، وإنماء الاتصال والتعاون الدوليين، في ميداني العلم والثقافة.

ولعله من المؤسف حقاً ألا تتمكن الدول العربية مجتمعة، من إطلاق المشروع العربي لحقوق الإنسان، ذلك الذي أعد في إطار الجامعة العربية، وكان منسوخاً بشكل مبتسر عن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والذي لم يكن يحوي ما يستدعي رفض أي دولة عربية له، بسبب اعتداله المفرط..

من المؤسف أن يتحول هذا المشروع الذي قبلته دولتان عربيتان فقط، إلى جزء من ورقيات الأرشيف.

عزاؤنا أن ثقافتنا الموحدة قد أبقت على الروابط العميقة، في حياة أمتنا، وقد تجاوزت بنا منعطفات أخطار التشرذم، وستظل قادرة على ذلك، وأن موروثنا الحضاري قد حمل إلى الأجيال الإعلان الأول لحقوق الإنسان، الرافض لكل أشكال التمييز، عبر قرون مديدة، في آيات كريمة وأحاديث شريفة، ووصايا للصحابة في التعامل الإنساني، لم يجاوزها بعد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وقصّرت دونها سلوكيات دول الحضارات المعاصرة.

إن عقد هذا الملتقى على اسم الثقافة يستدعي أن نوجه الشكر الكبير، إذن، إلى المنظمات الداعية التي أعادت الاعتبار إلى مسألة بهذه الأهمية، في وطننا العربي الذي لم يعرها ما تستحق من اهتمام، والذي يواجه، في هذه الأيام، محنه الكبيرة، بكثير من العجز والاستلام والانصياع، ولم يعد من سبيل لاستنهاضه ونهوضه إلا بفكر تنويري تغييري، يأخذ دوره بشجاعة، ويحمينا من السقوط في المصادرات الفكرية، والمفاهيم المحبطة التي تغلق الدائرة من حولنا، ويعطي للحقوق الثقافية، في نبالة مداليلها، إمكان التحقق، على أرض الواقع.

* * *

أيها السادة

بداية، أحب أن أقدم بعض الإضافات، على أمل أن تغني منطق العمل الذي ندعو إليه، في تبنينا للضرورة الملحة التي يمليها علينا الوضع الراهن، من اجل جعل الثقافة حقاً مضموناً لكل مواطن، خبزاً يومياً للجميع ومن أجل الجميع، ويعين على مواصلة شوط لم نكمله، ولا فائدة من الانكفاء عليه، وعلى الاستقواء بنهضة فكرية، تسهم في الخلاص من الوضع الراهن الذي نحيا فيه، ولا نرضى عنه، وليس بغير المعرفة في شموليتها، يتحقق التقدم، ويكون التحرر، وتتوهج من جديد شعلة الحياة المتجددة في انتصارها، متخطية آلام جراح الانكسارات.

كما أجد أنه من الضروري أن نتوقف عند كلمة مثقف، والتي يستخدمها البعض، في بلدان مختلفة، للدلالة على أصحاب الأقلام من الكتاب والمفكرين والمبدعين..

إننا في الاستخدام المعمم للكلمة، من قبل كثيرين في الإعلام وغير الإعلام، مضطرون لإعطاء الكلمة معنى أوسع وأشمل، يستوعب كل الذين، بالدرس والتجربة والمتابعة، تحصّل لديهم حد من المعارف العامة، والوعي المتفتح، وكوّنوا بذاتهم ولذاتهم أفكاراً وتوجهات، في ميادين الحياة المختلفة، وفيما يخص أوطانهم، ويأتي في الطليعة أولئك الذين تسمح لهم إمكاناتهم بالتواصل، والتعبير بشتى ألوان إبداعاتهم، عن الأفكار والمبادئ التي يحملون.

ويحسن أن نشير إلى ان الأمة العربية تعتدّ، أو ينبغي، بمفكرين أحرار، وعباقرة رائعين، ومثقفين متميزين، مارسوا، ويمارسون، أدوارهم بمصداقية ونبالة، كل حسب إمكاناته وما يستطيع، وتلاقت أفكارهم ومواقفهم عبر فضاءات الوطن العربي كله، وتحمّلوا ببسالة، أشكال القمع التي تعرضوا ويتعرضون لها، في تصديهم للدفاع عن قضايا أمتهم، مع غياب الحرية في كثير من الأحيان.

غير أنهم في كل الأحوال، لا يشكلون الفئة الأكبر في مجتمعنا، هذا إذا لم نقل إنهم نخبة محدودة العدد، لا يتوفر لها من إمكانات التواصل إلا أقل من القليل.

من هنا يكون من الضروري أن تطرح وبقوة، مسألة الثقافة، وقضية الحقوق الثقافية للإنسان، وأن تغدو في متناول أبناء الوطن، حقاً مشروعاً، كالماء والهواء، لا تماري فيه سلطة ولا تمنّ.

وإذا كنا، بالفعل، نريد للثقافة أن تستعيد دورها الخلاق والتحريري والبناء، المستنهض والتنويري، إذا كنا جادين في خياراتنا، حريصين على أن ينهض أبناء الوطن بالوطن، فإن في الصميم من حقوقهم، هذا الحق الإنساني بتوفير التعليم أولاً، كي لا يبقى المواطن أسير جهله، مكبلاً بأبسط حاجاته، عاجزاً عن استخدام طاقاته، يعيش في عزلة الانكفاء والتخلف.

وحين نتحدث عن التعليم، ننطلق في حديثنا عن توفير أسبابه، من مراحله الأولى حتى مستوياته العليا، بمجانية مدروسة، تدعم الذين غلبهم الفقر على أمرهم، وفرض عليهم نمط حياة مطوقة بالعجز، وبانتشار شمولي على مساحات الوطن، يمكّن من إلزام الناس بتعليم أبنائهم، ثم تأتي القضية الأهم، تلك التي لا نعيرها كبير اهتمام، في بلداننا العربية، أعني قضية المستوى التعليمي الذي يفجّر الإمكانات الإبداعية، ويعطيها أبعادها، ويرتقي بالمناهج والبرامج، ويصحح القاعدة القيمية لها، ويدخلنا بها العصر، من أوسع أبوابه، ويسمح بابتكار الأفكار والرؤى والفلسفات التي تسهم فعلاً بتطوير الواقع المريض، وتجاوز الأفق المحدود.

أما أن تبقى إشكالية الأمية والتسرب من التعليم، أو المراوحة في مراحله الأولى.. أما أن تظل الجامعة امتداداً جامداً للتعليم

الثانوي، نغلق أبوابها في وجه الغالبية من أبناء الأمة، في حين تضنّ الدولة، في موازناتها، بالإنفاق على هذه القضايا غير ذات الأهمية، في نظرها، أو الهامشية، فهذا يعني العدوان على الحقوق الثقافية للإنسان التي بها تتشكل إنسانيته في جوهرها، بل يعني الانتهاك الخطير لها.

ولا تنحصر الحقوق الثقافية بالتعليم في مراحله ومستوياته، أو بالبحث العلمي، وهذا أمر بديهي، بل تتناول كل ما يرتبط بالمعارف التي تولد الفهم والوعي، وتنمي الكفاءات والمواهب، وكل ما يدخل في مضامين الثقافة من فنون وآداب وإبداعات، وتتيح لكل فرد أن يشارك ويستفيد ويستمتع، أو أن ينضم هو، عندما تتوفر له الموهبة الإبداعية، وظروف الإبداع، إلى مواكب المبدعين، دون أن تعوقه العوائق المألوفة التي نعرف جيداً أنها تدمر، في كثير من الأحيان، إمكانات كان يمكن لها أن تسهم في إنماء البنيان الحضاري للأمة، وتحقيق تقدمها وارتقائها.

إننا مدعوون، في عالمنا العربي، إلى خلق المناخ الفكري الثقافي المغتني بالموروث، والفن المتنامي بألوان الثقافات في العالم، وبإبداعاتنا الراهنة، وإلى توفير وسائل التواصل والنشر على صعيد الأدب والفكر والفن، وبناء المكتبات والمدارس والمسارح والمراكز والمعاهد التي لا ينحصر وجودها في العواصم والمدن الكبيرة، بل تنتظمها لامركزية نزيهة في التوزيع، تستهدف تحقيق المساواة العادلة، وإفساح الفرص لأوسع الجماهير.

وحينذاك يمكننا الحديث عن استراتيجية واعية، تضمن لكل فرد حق المشاركة في الحياة الثقافية أخذاً وعطاء، تعلماً وإبداعاً، وبناءً للوطن الذي يستطيع أن يجبه كل التحديات.

وتبقى الحرية قضية القضايا، ومسألة المسائل، ودونها لا يمكن الحديث عن أي حق إنساني، وبشكل خاص، عن أي حق ثقافي.

وقد لا أحتاج إلى التأكيد على أنه من حق المثقف أولاً، كاتباً أو مفكراً أو فناناً، أن يمارس حق التفكير والتعبير، بملء الحرية، وأن يطرح وجهات نظره، ويعبر عنها بالكلمة أو بأي وسيلة فنية أو أدبية يختار، ومن حق القارئ أو المشاهد ألا يحرم من الاطلاع الحر، تحت أي ذريعة، وما أكثر الذرائع، التي تفرض أشكالاً من الرقابة تنتهك هذا الحق المقدس، دون مبرر.

وإذا كان الإعلام قد صار، في كثير من الأحيان، الوسيلة الأولى، في حياة المجتمعات، للتواصل، فإن أخشى ما نخشاه منه أن يعتدي بالفعل على الحقوق الثقافية للإنسان، بما يمارسه من تضليل وإلهاء وتتفيه، وإشاعة لثقافة الترف والتسلية والاستهلاك، والضمير يدعونا، حرصاً على مستقبلنا ومستقبل إنسانيتنا، وما نؤمن به من شرف المواقف، أن نبذل أقصى ما نستطيع من جهد، كي يبقى للإعلام دوره النزيه في نشر الوعي، والدفاع عن الحقيقة، وخدمة الثقافة بوعي وإخلاص.

* * *

عالمنا الراهن لم يشهد عدواناً على حقوق الإنسان، بدءاً من الحق الأول والأسمى - حق الحياة، وعبثاً بكل المقدسات، يوازي ما نشهده في هذه المرحلة..

ولم يشهد كذلك انتهاكاً للمواثيق الدولية، والقوانين والعهود، واعتداءً عليها، واستهانة بالمنظمات التي صدرت عنها، كما يجري اليوم.

ولقد كنا نحن العرب، أول ضحية من ضحايا هذا العدوان الباغي، مع نهايات القرن الماضي، وبداية القرن الراهن، في فلسطين والعراق، وبأشكال من الهمجية والعنصرية وأساليب الاغتصاب والاستلاب والاحتلال والتشريد واستباحة المقدسات، تفوق كل تصور.

كنا أبرز ضحية لحرب شرسة ضارية، استخدم فيها أفتك الأسلحة للقضاء على المدنيين الآمنين، وتدمير إمكانات الحياة الطبيعية، وتحدى صانعوها، باستهتار، شرائع الدنيا والرأي العالمي كله، وعادوا بالتاريخ إلى مرحلة كانت قد انطوت، وظننا، إلى غير رجعة، مرحلة الحروب العدوانية المدمرة، مما جعل من «الوضع الإنساني» المعاصر، هاجس الجميع، على ضوء هذه المستجدات، في أربع رياح الأرض.

ولم يكن فريباً أن يتخطى هؤلاء الذين تصدروا العالم، قوة أحادية، تستقوي بسلاحها لا بمبادئها، الحدود كلها، بعد أن استباحوا قداسة الحياة، وانتهكوا مواثيق الإنسانية، فيكون لهم هذا

الموقف العدواني من عروبتنا وقيمنا، بكل ما ينطوي عليه من جهل وغباء وتهافت، وتعصب ضالّ، ونوايا سياسية، مما يذكرني بهذا البيت الجميل الذي خاطب به شوقي أولئك الذين استغربوا سرقة الحاكم البريطاني لتمثال أحد الفراعنة من قبر فرعوني:

أمن سرق الخليفةَ وهْو حيٌّ يعفّ عن الملوك مصفَّدينا

المهم هو أن ندرك ما وراء هذا الموقف من تصميم عدواني يستهدف العالم العربي والإسلامي، بذرائع يرفضها الفكر المعاصر، وأن نفضح خبايا النوايا الشريرة التي ينطوي عليها، دون أن تأخذنا رهبة في الدفاع عن ديننا وعروبتنا وموروثنا.

العالم كله يعرف أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والعهد الدولي الذي تلاه، يضمنان للإنسان حرية المعتقد والفكر والوجدان والدين، ويشمل ذلك، كما جاء في المادة ١٨ «حريته في أن يدين بدين ما، وحريته في إظهار دينه أو معتقده بالتعبد وإقامة الشعائر، والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حدة».

ونكتفي بهذا القدر هنا، دون الإشارة إلى محاولة التدخل في المناهج والتعليم، أو حتى في الكتب المقدسة، التي تخطط لها إدارة دولة الاحتلال، والتي لن تلقى بالطبع، أي صدى، في العالمين العربي والإسلامي.

إننا نتعرض لهجمات غير مبررة، صاروا يستسهلونها، بسبب ما يبدو من ضعفنا، وكلها تنتقص من عقائدنا وموروثنا وحضارتنا

وواقعنا، يطرحون مصادراتهم حولها، ثم يحولونها إلى مسلمات، ثم إلى قناعات، والواجب يفرض علينا أن نتصدى لمثل هذه التصرفات، بالمنطق المقنع، وبمخاطبة الشرفاء من مثقفي هذا العالم الذين لا يبيعون قيمهم للأقوى، والغريب أن التهمة التي توجه إلى بلداننا دائماً، هي العدوان على حقوق الإنسان، تلك التي لا نعرف نظيراً لموجهيها في العدوان عليها، مستخدمين كل الوسائل المدمرة التي يمتلكون، في إطار العلاقات الدولية غير المتوازنة، تحقيقاً لمصالحهم التي يعتبرونها الشأن الدولي الأعلى.

أيها السادة

الخصوصية والعالمية والعولمة مفاهيم لا يمكن أخذها على إطلاقها، ولقد أثارت من قبل حوارات لم يغلفها الغموض بالنسبة للخصوصية والعالمية. وما من شك في أن العلاقة بينهما ليست علاقة تناقض فهما متكاملتان، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان ومنذ البداية، لم يتناسّ الهوية الخاصة، بل لقد تبناها، تماماً كالعهود والاتفاقات التي تلته، ودافع عن حقوق الأقليات العرقية والدينية، واعتبرت اليونيسكو العلاقة بين الثقافات والحضارات علاقة توازن، فكل أمة أو مجموعة، مهما كان وضعها، لديها ما تعطيه وما تقدمه، ولها حقوقها الثقافية التي لا يجوز أن يعتدى عليها -وهذا لا يتناقض أبداً مع العالمية التي تضم تحت جناحيها خصوصيات الأمم، وهذه الخصوصيات تشكل إضافات أساسية للحضارة الإنسانية تغني مفاهيم التعددية والتنوع في رحاب الفكر الإنساني..

أما العولمة فشأنها شأن آخر، وهـي مـا تـزال ملتبـسة بالنـسبة للرأي العام العالمي الذي يرى معظمه فيها الجانب السلبي المـرتبط بالنهب الرأسمالي، الاقتصادي والفكري، وهي في مجملها، ما تـزال إشـكالية تحتمـل الكثـير مـن المناقـشات، وخـصوصاً مـع تنـامي الرأسـمالية المتعولمـة التـي تـسعى إلى خلـق ثقافتهـا الاسـتهلاكية الخاصـة، وقيمهـا الـلا إنـسانية، وإلى تزييـف الـوعي لـدى أبنـاء الـشعوب المستـضعفة، كـي يقبلـوا بالرضـوخ، وبـالأمر الواقـع، ويستسلموا لمشيئة القدر التي تمليه، هي المدججة بإعلام احتكـاري يستبيح كل شيء، ويغزو بقوة فـضائيات العـالم، ومنهـا فـضائياتنا العربية، المشرع بعضها على ما يقدمه من صنوف الشعوذة والـسحر والجريمة والجنس والعنـف واغتيـال القـيم، إلى جانـب التـضليل الفكري والسياسي.

ويأتي في هذا السياق، دفاعاً واستنهاضاً للنزعـات الإنـسانية، حوار الحضارات، الموضوع الأكثر رواجاً في مساحات الفكر، الذي أملته، ربما، مستجدات وتوجهات أخذت تبرز بقوة، عـلى الـساحة الدولية، منذ أن انتهت الحرب الباردة، وحسمت لصالح أكبر دولة رأسمالية، بدأت تـسعى، منـذ ذلـك، إلى بنـاء إمبراطوريـة لا تريـد للشمس أن تغيب عنها.

إن موضوع حوار الحضارات يحتـاج أيـضاً إلى وقفـة أطـول، ليس هنا مكانها أو مجالهـا، وثمـة مفكـرون كبـار لا يـرون مـساره

صحيحاً، ولهم موقف مناهض من بعض المنظرين الـذين يبتـذلون الفكـر حـين يـضعونه في خدمـة توجهـات سياسـية، لهـا أهـدافها المعروفة، من مثل فوكو ياما وهنتينغتون، ويرى بعضهم في النهايـة أن كل حضارة متقدمة تغتـذي مـن حـضارة سـابقة، كـما اغتـذت الحـضارة الأوروبيـة، في يـوم غـير بعيـد، مـن الحـضارة العربيـة الإسلامية، وأن الحديث عن صراع أو صدام، لا يرتكز على أسـس فكرية وتاريخية سليمة.

والمسافة التي تعزل بعضنا عـن بعـض، وتعزلنـا عـن العـالم، حضارياً ومعرفياً، صارت شديدة الاتـساع، وإذا لم يـتمكن وطننـا العربي من النهوض بمشروعه الخاص، ومن إعطاء الثقافة والفكـر دورهمـا، والحقـوق الثقافيـة مـا تـستحق، دون أن نهمـل قـضايا الاقتصاد والتنمية، فإن المحنة العربية ستطول، ولنتذكر أن النهـضة لا تكون إلا بأيدي أبنائها الذي يبنون حاضرهـا ومـستقبلها، عـلى الأساس المعرفي الذي يشملهم جميعاً، ولا يبقي أوسـع الجماهـير في مواقع الجهـل والتهمـيش، وظلمـة سـجن هـو الأقـسى مـن كـل السجون.

الـصورة، ولا شــك، بائـسة إلى حــد كبـير، دوليـاً وعربيـاً، والصراع مرير ينطوي على مخايل محن رهيبة، لكن الأمل في التغيير، بالنضال المشترك، هو البعد الأعمق في حياتنا، ولا نهايـة للتـاريخ،

مهما كتب منظرو الرأسمالية فوكو ياما وهنتينغتون وأمثالهما، ولا نهاية لصراع لا يحسم لصالح العدالة والتوازن وتوفير الحياة الكريمة للإنسان، دون أي مصادرة أو استلاب أو عدوان أو إفقار.

وفي طوايا حلمنا البشري الكبير، ورؤانا الكونية التي تستعلي على اليأس، وعلى الفكر الأحادي المرتبط بمفاهيم للحياة، تقبع في مستنقعات الهيمنة والعولمة، وقوانين الربح، والاستفراد بثروات العالم، وسقوط القيم، والعبث بمواثيق الأمم المتحدة، وبحقوق الإنسان وحرياته، على حساب كل القيم الشريفة والنزيهة، وأساساً على الاستقواء بضعف الضعفاء، تتشكل جبهة عريضة من الجماهير الواعية المثقفة، لمقاومة هذا الوضع الظالم، والانحيازات المريضة، كما ينهض مفكرون ورواد مثقفون، وفلاسفة ومبدعون، من شتى أرجاء العالم، هاجسهم أن يدفعوا العدوان، بأشكاله العسكرية والسياسية والثقافية، وأن يبحثوا عن أساليب للنهوض بعالم جديد، دفاعاً عن المصير الإنساني، وسعياً لإيجاد حلول ملموسة لمشكلات ضخمة، يحتاج علاجها إلى استراتيجيات تنموية مدروسة، وثقافة إنسانية، تسهم في بناء نهج عالمي متقدم وشامل.

أيها السادة

حقوق الإنسان هي المسألة، وحقوقه الثقافية التي ينكرونها عليه، في معظم بلداننا، بالإهمال والتهميش، قد تكون

مسألة المسائل، ولذا أود، في الختام، أن أطرح سؤالاً أتمنـى أن يجـد أصداءه:

ترى أليس من الضروري، والانكسارات العربيـة قـد بلغـت اقصى آمادها، أن نسعى إلى تشكيل جبهة ثقافية عربية، تعيد للثقافة دورها ووهجها، وللحياة وجهها المضيء؟

سـؤال للتفكـير حتـى لا نكتفـي بالـسقوط في سـعير الآلام، وعذاب الضمير.

الضرورة الماسة لتعليم طليعي متقدم (*)

لم نغفل يوماً عن أهمية الثقافة ودورها في بناء الإنسان، والارتقاء بالوطن، وصناعة التقدم، ورسم حدود المستقبل المنفتح على الممكن، وعلى مجمل معطيات العصر، وعن ضرورة إعطائها كفاء ما هي عليه، وما هي جديرة به، في عصر الثورة التكنولوجية، وفتوحاتها الالكترونية، ومحاولات الهيمنة على أقدار الشعوب، أداءً لرسالة تحمي الهوية، وتعزز لغة الحوار، وتدخلنا في العصر، ونستحضر معها الدور الأخلاقي المنوط بالإبداع والفكر، في مواجهة تحديات العولمة، ومحاولات التنميط.

وفي السعي لامتلاك هذه الثقافة المرتبطة بالحاجات الاجتماعية والاقتصادية والتنموية والأخلاقية، تتجلى الضرورة الماسة لتعليم طليعي متقدم، يكون هو الحامل الأساس للثقافة، في استراتيجيته العقلانية، وفلسفته الإبداعية، وبعده الفكري والتربوي، وارتباطه بتراث الأمة، وتطلعات المستقبل.

(*) كلمة كتبت لتقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٤.

وسنكون مهددين بأنبل أحلامنا، إذا لم نعط الأولوية لقضايا التعليم، في كل مراحله، بعيداً عن المألوف والروتين وما درجنا عليه، ولم نعد النظر في أساليبنا ومناهجنا التي تحتاج إلى تغيير، ولم نسعَ إلى تهيئة الكوادر القادرة والكافية، ولم نفسح للشخصية المبدعة، ولم نمنحها من الحرية ما يسمح باستنهاض إمكانات الخلق والتّجديد، ولم نتخلَّ عن العملية المرتكزة على الحفظ الصم، والكتاب المفروض مرجعاً أحادياً، ولم نفسح المجال للتنمية الفكرية والثقافية الحقيقية، في أبعد آمادها، ونوفر لها مستلزماتها، في فترة الدراسة وما بعد الدراسة، بحيث نعوّد النشء على حب الكتاب مصدراً مستمراً للمعرفة، في مراحل الحياة المختلفة، يمنح القدرة على اكتسابها دون توقف.

إن الانتهاء من أمية الحرف ضرورة بديهية، لكن الأمية الأخطر هي أمية المتعلمين الذين لا يتجاوزون بثقافتهم، المتواضعة أصلاً، مراحل الدراسة، ولا يرتبطون بمعطيات عصرهم، ويراوحون عمرهم في مكان رمادي، من معرفة مبتورة، لا يتخطون حدودها، حتى ولو حملوا شهادات جامعية.

إن الافتقار إلى المؤسسات ذات الخصوصية، ومراكز البحوث، في كافة المجالات العلمية والإنسانية، معوّق من معوقات التقدم، وسبب من أسباب التخلف، ولا بدَّ من معالجة هذا الأمر، وبشكل حاسم.

كذلك لا بدَّ من الاهتمام الكبير بالتعليم الجامعي نوعاً، وليس استيعاباً كمياً فقط، وأن يكون في رؤيتنا التعليمية موضع أساس للغة العربية، ودور للغات الأجنبية، وحضور للتراث، ومنظومات القيم، لا يقلّ شأناً عما ينبغي أن نوليه لتفجّر المعلومات، وثورة التكنولوجيا، وحاجات التنمية.

لقد كنا في الماضي، كما نحن في الحاضر، الساعين إلى الانفتاح قناعة، والحوار ضرورة، حداثويين ولكن دون تنازلات، ودون إضاعة لانتمائنا، ولإرثنا الحضاري الباهر بإنسانيته، وكل ما نستهدفه في العملية الثقافية والتعليمية التربوية ينبغي أن يظل في دائرة التطوير والتحديث والإغناء، ورهنَ مقاربات متسمة بالشجاعة والمصداقية والإخلاص.

تعقيب على مذكرة الأمانة العامة
لجامعة الدول العربية

عطفاً على مذكرة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية رقم (٣/٢١٦٣) وتاريخ ٢٩/٥/٢٠٠٧، وعلى ما قرره مجلس الجامعة على مستوى القمة، أشير إلى ما يلي:

١ - إننا في سورية، نؤيد بشدة القرارات الداعية إلى التأكيد على أهمية إرساء حوار حقيقي بين الحضارات، وربما كان علينا أن نعترف، بالرغم مما قمنا به من جهد دؤوب، منذ مطالع النصف الثاني من القرن الماضي، في الدعوة إلى هذا الحوار، وفي الإسهام فيه وبمنتدياته ومؤتمراته، والكتابة حوله، وإصدار الكتب، وإلقاء المحاضرات في سورية وخارجها، في البلاد العربية والأجنبية، فإننا ما نزال مقصرين، في أداء أمانة بهذا الحجم، في عالمنا الراهن، الحافل بالمتغيرات، ما دام الفكر تنويرياً نهضوياً معرفياً هو الفاعل التغييري أو هو الممهد الأساس للتغيير، يعدّ الأرضية لكل تضامن مقبل، نكافح

لأجله كفاحاً دؤوباً، بعد هذا الانخفاض الذي تشهده الخريطة العربية، في الطاقة النضالية، وهذا التراجع في تحقيق الأماني القومية، السياسية والاقتصادية والتنموية.

وفي قناعتنا أن الثقافة هي الوسيلة المثلى للتفاهم، وإنماء المعارف وتحقيق التفاعل، بين ثقافتنا العربية والثقافات العالمية، بقصد تبادل التجارب والخبرات، والإغناء والاغتناء، وتأدية إسهامنا في الحضارة البشرية المعاصرة.

٢- إن لمنظمة اليونيسكو دوراً أساسياً في الحياة الثقافية، وفي تنمية العلاقات بين الثقافات وبين الشعوب، وما أحد ينكر تأثير كل معطياتها على السلم والأمن الدوليين، وعلى وجوه الحياة كلها، ولكننا نرى فيها الجبهة الموازية لمجلس الأمن، وينبغي ألا تقل عنه شأناً أبداً، بل إنها، في اختصاصها، تأتي قبله، إذا أتحنا لها أن تؤدي دورها بشكل أفضل، وأن يكون لها حضورها الأقوى، في الشأن المعرفي والحضاري والإنساني، وفي مد جسور التواصل بين الأمم، متجاوزة بالوعي الثقافي، ما يمكن أن تحمله السياسة من تحديات،

٣- لقد حاولنا في سورية، أن نحمل هذه الرسالة، وكان لنا دور جلي في كل المجالات، ويشكل حجم تواصلنا الخارجي تعريفاً بثقافتنا، وحضارتنا، وإغناء لعملية التواصل والتبادل، دعماً حقيقياً لكل أشكال الحوار الحضاري ذي المصداقية

الذي تستقوي به قوى العدالة والحرية نصرة ومنعة، حوار مرتكزاته حقائق على أرض الواقع، وجذورها في أبعاد التاريخ.

٤ - إننا نحاول دائماً أن نرصد ونتقصى، وأن نستجيب ونتعاون مع كل الدعوات والمبادرات، ولقد كان لنا تمثيلنا فيها وحرصنا على التعاون معها، من موقع الندية، وتقديم الطروحات المثمرة، على ضوء الانفتاح السليم، وقيم التسامح التي لا تتسم بأحادية الجانب، والتي تضمن أن يكون لنا صوت مسموع فيها، يخرجنا من دوائر الصمت الذي يحجزنا عن العالم. وكي نكون شهوداً حقيقيين، على ما يجري في عالم اليوم، نجدنا معنيين بتأييد كل الظواهر الإيجابية في مجال الانفتاح الحضاري والحوار، وما يتقدم به مفكرون كبار ورجال سياسة، وما يحدثون من مؤسسات ذات آليات في العمل، تستحق التقدير، ولكنها تطرح علينا سؤالاً يطالبنا بأن ننتقل من الجانب السلبي، ومن مراقبة النشاطات إلى تأسيسها، وإلى العمل على تكوين بنانا المهيأة للعمل ضمن جبهات الثقافة في الإطار العربي والعالمي.

٥ - إن دعوة التنسيق مع منظمة المؤتمر الإسلامي، حرية بأن تلقى اهتمامنا جميعاً، وأن نجد الوسائل لتحقيقها على أرض الواقع.

٦- لقد كان حلماً قديماً أن تحظى أمور الثقافة والحضارة بمكان لها، في مؤتمرات القمة، وباهتمام موازٍ لاهتمام القادة بقضايا السياسة، علماً بأنه من الصعب جداً فصل ما هو سياسي عما هو ثقافي.

فـي موكب العلم وإشراقة المعرفة (*)

الأبنـاء الأعـزاء

المستقبل بكم، أيـها الأبنـاء، بأجيالنـا الطالعـة ألقـاً هـو ألـق المعرفة.

الجامعات هـي هـذه المؤسـسات العلميـة التعليميـة المتناميـة المتجددة، في مسيرة النـور والتنـوير اللـذين، عـلى هـديهما، يمـضي موكبنا العربي، مستشرفاً أفـق الهـدف الكبـير، في أن نتبـوأ مكانتنـا بالعلم لا بالقول، وبالعزم الموّار المنضفر بالجهد الدرسي الواعي، لا بالتمني الكسول سراباً يرتجيه الظامئون ماءً ولا ماء.

وهي التي تشكل مراكز للإشعاع الفكري والبحث العلمـي، تعمل على بنـاء الشخـصية المبدعـة، المرتبطـة بالمعـارف المتطـورة، والذهن النامي المتفتح الذي يسمو بالعقول، ويرتقي بالحياة، رسالةً هي الأنبل والأسمى.

(*) كلمة في حفل تخرج الدفعة الأولى لطلاب جامعة القلمون الخاصـة، عـام ٢٠٠٧، وكنت فيها آنذاك رئيسة مجلس الأمناء.

ولم يكـن غريبـاً أن تعقـد المجموعـة الأوربيـة، صـيف عـام ١٩٨٦، قمة خاصة بها، تحت اسم «أوريكا»، يتضمن جدول أعمالها بنداً واحداً هو تطوير التعليم والبحث العلمي..

وأن تحتـل الجامعـات مقدمـة المسرح في بلـدان العـالم التـي تستهدف الدخول في العصر، من الباب الأوسع، سـعياً للمـستقبل الأفضل، بدلاً من المراوحة في واقع مسوّر بالجمود، أو الوقوف على تخوم لا تعين على أي تغيير.

ومن الإنصاف لسورية أن أذكّر بأن التعليم، في كل مراحلـه، قد صار فيها أولوية، وعلى مدار سنوات طويلة، منذ منتصف القرن الماضي، وأن خطاه قد تتابعت انتشاراً واتساعاً وإحاطة، وأنه شكّل طفرة عامة، اتخذت صفة الشمول عام ١٩٧٠.

غير أن الخطوة الأهم كانت في القـرار التـاريخي الـذي اتخـذه القائد الشاب الساعي إلى التطوير والتحديث، في إنشاء الجامعـات الخاصة التي تدعم وتردف وتجدّد، وتسهم في إغناء التعلـيم العـالي الذي يرى فيه مؤهلاً أساساً لمواكبـة حركـة الـصعود الاجتماعـي، ولبناء الوطن على قاعدة سليمة، تسمح بالارتقاء بالمفاهيم الأرحب والأغنـــى، في عمليـة الاسـتنهاض والنهـوض، تجـاوزاً للآفـاق المحدودة والمدى القريب، وانفتاحاً عـلى الممكـن، في حـرص عـلى انبثاق رؤى جديدة، للمستقبل الذي نرود لأبنائنا.

لقد أدرك، وبعمق، أن التحديات كبيرة، والمتغيرات العالميـة، في كل المجالات، تتسع، ومنها المجال العلمي التقني الـذي تتطـور

فيه التقنيات بسرعة فلكية، مما يفرض علينا أن نأخذ احتمالات المستقبل في الحسبان..

وأنه لا بدَّ من تجديد القيم التعليمية والتثقيفية، وإصلاح التعليم بشكل يتوافق مع ما تتطلبه النهضة الإنسانية المعاصرة، وما يفرضه عالم المعلوماتية.

وفي هذا السبيل لا بدَّ من التآزر والتضامن بين الدولة وجهود المجتمع المدني، بين الجامعات الرسمية والجامعات الخاصة، ومن رسم استراتيجيات للربط بين التعليم والتنمية، بشكل أوثق، عبر التنسيق بين احتياجات الاقتصاد وضرورات الواقع، وبالتعاون مع المؤسسات المختلفة، تعاوناً متسقاً متكاملاً، يدرك معه راسمو هذه الاستراتيجيات أهمية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، التربوية والثقافية، وأن التنمية، بما هي نوع من التخطيط لإنماء القدرات الوطنية، تتفاعل بصورة دائمة مع مستوى التعليم، وعلى هذا النحو، تتطور - أو ينبغي - مجالات الإنماء، ومعها توجهات التعليم والبحث، في متواليات هندسية ذات بعد أفقي وعمودي، ويتم تأهيل الكوادر الشابة، استجابة لهذه الضرورات الاقتصادية والاجتماعية، العلمية والتثقيفية، ومستلزمات التطوير والتحديث، ويكون للجامعات، في هذا المجال، رسمية وخاصة، الدور الحاسم.

* * *

لقد كان حظ جامعة القلمون كبيراً بحق، فقد حظيت بالتوقيع الأول للسيد الرئيس، ضمن رؤياه الواضحة، هو الذي جهد كي يفتح كل الآفاق الممكنة، في كل الميادين، وفي إطار من الحرية المسئولة الواعية، وأن ينتقل بحياتنا، في كل جوانبها، من التخلف إلى التقدم، ليكون لنا حضور في العصر، ودور على مسرح الوجود.

وأشهد أن الذين عملوا على تأسيس الجامعة، من أساتذة وممولين ومثقفين، قد جهدوا من أجل إنشاء جامعة تحقق الطموحات، وتبني دارة رفيعة للتعليم، قلت، في كلمة سابقة، إن همها أن تبني الأجيال فكرياً وعلمياً وأخلاقياً، وأن تعطيها إمكان الانطلاق الواعي والمسئول والممتلك للرؤية الواضحة، والقدرة على متابعة البحث، وممارسة الإبداع الخلاق.

لقد انطلقوا، في عملية التأسيس، من إيمانهم بأن التعليم العالي قد أصبح ذا أهمية استثنائية، في ظروف المتغيرات الدولية الراهنة، وأن الجامعات، رسمية وخاصة، هي التي تستطيع – أو ينبغي لها – أن تعزز، بالتعليم والتثقيف المتميز، الانتماء والهوية القومية، وأن تقف سداً منيعاً أمام عملية تفتيت الشخصية..

وأن من حق الطلاب على جامعتهم، إلى جانب التدريس، التوسع في إقامة حلقات التدارس، والمناقشات العلمية والفكرية، والتعريف بتراث الأمة، والعمل على حماية لغتها وقيمها..

وأن من واجب الجامعة أن تعنى بالعلوم الإنسانية، وأن تسعى لإقامة الجسور بينها وبين العلوم الدقيقة والطبيعية.

نعترف. لقد حققنا، في القلمون، بعضاً من هذه الطموحات، ولم نتمكن من تحقيقها كاملة، في هذه البرهة القصيرة من الزمن، لكننا نواصل السعي، وفي كل الاتجاهات، في سبيل استكمال ما رسمناه، وكي تظل المناهج موضع نظر، باتجاه التطوير والتحديث والإغناء، ولا تنازل، ولا انكفاء، وتظل مقارباتنا متسمة بالشجاعة، وبنبالة المصداقية والإخلاص.

إن التعليم والتثقيف، في منظورنا، هما النقطة المركزية في البناء الفكري والنفسي والمجتمعي، ولن نراوح أبداً، في مدار عقدة الدونية تارة، والنرجسية طوراً، فالتواضع والغرور يعودان إلى مصدر واحد هو ضبابية الرؤية، وخلل الاتزان.

ولن ننسى أبداً أن الرئيس القائد المتنور، قد حمّل الجامعات الخاصة رسالة، وأنه مطلوب منها أن تؤديها على أفضل وجه، بالتضامن البناء مع الجامعات الرسمية، وأن تكون على قدر المهام المطروحة عليها، وأن تفتح الآفاق رحبة أمام الأبناء والعاملين فيها، يلتقون في مساحتها على إنارة واستنارة معاً، ترسخان قيمنا الأصيلات، وشيمنا الغاليات، وتشدان من عزائمنا، وتتيحان لنا أن نرقى بعقولنا ومفاهيمنا، بما يحقق التقدم ويضعنا في قلب العصر، لا على هوامشه، ويسهم في بناء عقل جديد، وتفكير جديد، في حجم القضايا التي تواجهنا.

إنكم مدعوون إلى تجاوز العاديّ في المقبل من أيامكم، وإلى عدم القناعة بالممكن أو السهل، حتى لا تخسروا قدرتكم على مواجهة الحياة، بمزيد من الجهد، وعدم الاستسلام للأقرب أو الأسهل، في عجلة الأيام التي ستطرح عليكم تحدياتها..

وألا تعتبروا أنكم بلغتم النهاية في تخرجكم، فالكتاب ينبغي أن يظل رفيقكم، وأن تستمروا في البحث عما يزيد في إغناء المدارك، وتوسيع الثقافة، وعمّا يُرحب من أفق الخيال، ويستثير الرغبة في الاطلاع. التوقف نهاية، والجمود يعود بالإنسان إلى وراء، ولا سبيل إلى التقدم والارتقاء إلا بالمتابعة..

جامعتكم ستظل مفتوحة الأبواب لكم، تحتضنكم وتدعمكم، والدراسات العليا فيها، بعد التخرج، هي اليوم في موقع الطموح، ولكنها ستتحقق في غد غير بعيد.

إننا في استشرافنا للآتي، نحدو للمسيرة في مواكب الإبداع، ونتطلع إلى ما ستنجزون، مؤمنين بأن شعلة الفكر ينبغي أن تبقى متوهجة، في حياتنا جميعاً، ولنا ملء الثقة بأنكم ستكونون على المستوى الذي نحلم به جميعاً أيضاً: أهلكم وجامعتكم ووطنكم، على القرب وعلى البعد، علماً ووعياً وفهماً وخلقاً واستقامة، وأؤكد وألح، استقامة هي جوهر الجوهر في إنسانية الإنسان.

لنا ملء الثقة بأنكم ستحفظون، في القلب والضمير، الوطن ورسالته كما يحفظها أبناء الوطن جميعاً..

تذكروا أننا، في سورية، ننطلق، في كل المجالات، من المنطلق القومي، نضالياً - سياسياً، واجتماعياً وثقافياً، ونتمسك بقوة لا تلين بقوميتنا العربية، ونحرص على اللغة العربية حرصنا على سواد العيون، بسبب من أن القومية واللغة هما قوام وجودنا ومصيرنا، ونحن ندفع عن هذا الوجود والمصير دفعاً عزيزاً عنيداً، صموداً وتضحية وفداء.

تذكروا أن التاريخ كان مجداً بنا، وعزاً لنا، وصفحة مشرقة لمآثرنا..

تذكروا أن سورية، وطنكم، قوية بعروبتها، وبحقها، وبعدالة قضيتها، وبسياستها الوطنية والقومية السديدة، وأنها تعتز بمواقف رئيسها وقائدها الشجاعة عربياً ودولياً، وبوحدتها الصلبة داخلياً، وتعمل لمواجهة الظروف الدولية خارجياً، وعلى سد الثغرات والنواقص في عملها الداخلي، وتصويب الأخطاء، وإزالة التقصير من عملها التنموي، وهي تصدر، في ذلك، عن أنبل التطلعات الإنسانية، إلى غدٍ مشرق، يستتب فيه العدل، وتعلو راية السلام والحق.

* * *

يطيب لي أن أوجه شكري، في الختام، إلى الجامعة التي ضمت أبناءكم، وحملت راية الفكر والعلم، أساتذةً وممولين وعاملين وداعمين، وأن أشيد بما قام به المهندسون والبناؤون، خلال فترة زمنية خيالية، من إعداد للأبنية المطلوبة، وتوفير للمستلزمات،

وسأوجه شكراً خاصاً إلى إنسان حوّل، بتصميمه وكفاءته وإخلاصه، دير عطية إلى لؤلؤة في القلمون، إلى مدينة رائعة، بما تحتويه من منشآت، وبما حققت من جمالية فنية، في شوارعها وبيوتها ومؤسساتها الثقافية والخيرية، أن أشكرك أيها السيد الفاضل محمد دعبول - أبو سليم - وأشيد بدورك الهام، إضافة، في تأسيس جامعة القلمون، كما أشكر أبناء دير عطية الكرام، على التزامهم بالعمل البناء، في كل هذه المشاريع المهمة.

أخيراً، أيها الأبناء الأعزاء الذين نودعهم اليوم، دون أن نقول وداعاً، بل إلى لقاء..

إن احتفاءنا اليوم، بتخرجكم، يأتي على بساط المودة والتكريم، وفي موكب العلم وإشراقة المعرفة، ولقد أطلت لكنني أود، في كلماتي الأخيرة، أن أعبر عن حجم الفرحة بتخريج أوائل المتخرجين، أنتم، وأن أشد على أيديكم، مهنئة، وأنا أتطلع إلى ما ستحققون في المقبل من الأيام..

ليكن الله حافظكم، والتوفيق حليفكم، وستبقى كل حكايات المعزّة في الذاكرة الحية لجامعتكم..

حدود السياسة تتداخل مع الثقافة(*)

الكتاب والمفكرون

الأصدقاء الأعزاء

أرحب بكم رجال فكر وثقافة وسياسة، وأجد في لقائنا هذا فرصة ثمينة، تتيح لنا أن نتدارس الوضع العربي بعامة، وهمنا المشترك المرتبط بالمصير العربي، والضرورة الملحة لتجديد الفكر القومي، كخيار أساسٍ في تحقيق نقلة واعية تنويرية تثويرية، عبر هذا التجديد، في ظل مستجدات كبيرة، ومتغيرات لم يكن بعضها في حسباننا، وكان من شأنها أن تضع أمتنا في دائرة الخطر، بعد أن وضعت العروبة والإسلام في قفص الاتهام، وطالت كل من ينتمي إليهما، في أرجاء العالم.

* * *

جمال عبد الناصر، الزعيم العربي الكبير، قال يوم الانفصال الحزين، بين سورية ومصر: «أريد أن يعرف الشعب العربي، في

(*) كلمة افتتاح مؤتمر «تجديد الفكر القومي والمصير العربي»، دمشق - ٢٠٠٨.

مصر، أنه ليس هناك وقت يدعونا إلى التمسك بعروبتنا أكثر من هذا الوقت».

واليوم، نستعيد هذه الكلمة، وشمل الأمة العربية شتيت، والحد الأدنى من التضامن لا يتحقق، وبعض الأقطار مِزقٌ، تعيث فيها طائفيات متناحرة، أو يستفرد بها العدو قتلاً وتدميراً وانتهاكاً وتقسيماً، والمعركة على أرضنا صارت فعلاً معركة وجود، نكون بعده أو لا نكون.

وفي تقديرنا أن الأمة العربية لم تعرف وضعاً مشابهاً لوضعها الراهن اليوم، بالرغم مما يتوفر لها من أسباب النهوض، إلا في بعض مراحل تاريخها، أعني تلك التي وسمناها أو وصمناها بحق، بمراحل الانحطاط والتخلف والضياع والتراجع والتفكك والانقسامات، والانحلال والصراع البينيّ، والاستسلام التعيس، والجبن الذليل، تحت سياط الخوف وعدم الثقة بالذات، والإحساس المنكسر بالعجز عن أي مجابهة.

واللعبة الأمريكية الإسرائيلية التي تؤدي دوراً رئيساً، في هذا الانهيار المتحقق على أرضنا، تزداد عتواً باتجاه الهيمنة والاستلاب، وبسط النفوذ، والتحكم بمصائر شعبنا، مصادرةً للأرض والحياة، واستغلالاً للثروات، في وضع دولي مختل التوازن، عسكرياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً، منطلقة من استراتيجية ضيقة، تريد بها أن تحسم الصراع العربي الإسرائيلي، في منطقتنا، لصالح إسرائيل في فلسطين، وأن ترسم لها خرائط جديدة تلغي وتحدث وتقسم

وتستلب، وكأنما هـي الجهـة المخولـة بالتـشريع لقـضايا الإنـسانية وتوجهات العالم، وأوضاع الأمـم والـشعوب، ومـن حقهـا إلغـاء المواثيق الدولية التي لا تطـابق منطقهـا، واسـتبدالها بـما يـرون أنـه يستجيب لمصالح بلادهم ورغباتها، في رسم حدود الدول أو تحديد عواصمها، ومن هو إرهابي أو غير إرهابي، ومن لا حق له بالمقاومة مهما كانت مشروعة، ومن ينبغـي أن تـشن الحـرب المـدمرة عليـه، وليس على العالم، بما فيه أوروبا، إلا أن يقبـل ويتعـاون ويتحـالف، وإلا فهو الترهيب حتى بالحرمان من موارد الطاقة لدول كـبرى في آسيا وأوروبا، إن استطاعوا، فالقضية، كما يدّعون، قـضية أمـنهم، وهو غير مهدد بالتأكيد، أما أمن العالم فليس مهماً، في منظورهم، أن ينهار في أربع جهات الأرض.

والمؤسف، وفي ضوء سياسات القوة الأحاديـة المـستفردة، أن دور الأمم المتحدة الذي كان يمكن أن يشكل ضماناً، قـد انكفـأ أو انحسر، مع منظماتها المختلفة، وفي طليعتها مجلس الأمـن والجمعيـة العامة، وأعلن هـذا الانكفـاء أو الانحـسار، بعـد سـقوط الاتحـاد السوفييتي، وانتهاء الحرب الباردة، إلغاء لـدور المـنظمات الدوليـة، وعبثاً بالمواثيق، وبدأنا نشهد عودة إلى أشـكال الاسـتعمار القـديم، بوجهه الاحتلالي ونهبه الاقتصادي، وصرنا نحن من أبرز ضـحاياه في فلسطين على يد الصهاينة، وفي العراق عـلى يـد أمريكـا وقـوات التحالف، وفي أماكن أخرى من وطننا العربي المروَّع ببطشٍ امبريالي نادر المثال.

ثمة إذن تحول تاريخي كبير وخطير، وهو يمس العالم كله، وليس عالمنا العربي فحسب، في غياب توازن القوى، والمفروض أنه لا يعنينا نحن وحدنا، على حجم الأذى الذي يوقعه علينا، بل يعني كوكبنا الأرضي على اختلاف دوله، المتقدم منها والنامي، على حد سواء.

إننا، بالتأكيد، في طليعة المستهدفين، ومن الواضح أننا نواجه خطر هيمنة ذات أنماط فكرية وسلوكية تروّج، وتنجح أحياناً، للعنصرية والتفرقة العرقية والدينية، والعنف والجريمة، وكل إفرازات المجتمع الاستهلاكي، وكل مضار التكتلات المنحازة، المبنية على رؤية تسلطية، بالنسبة للاقتصاد والثقافة والحضارة، وكذلك بالنسبة للانتماء والهوية، ويكفي أن نشير إلى بدعة النظام الشرق أوسطي، الحاضن لإسرائيل، الذي يعملون له، بمسميات بدأت بالشرق أوسطية منذ الثمانينيات، وللأسف تبناها بعض كتابنا البارزين، وهي الآن الشرق الأوسط الكبير، والشرق الأوسط الجديد، مما يشكل خطراً بالغاً على القومية العربية، وجامعتنا العربية، التي يسعون إلى إحلال هذه الشرق أوسطية مكانها، وإلى إلغاء الانتماء والهوية العربيين، وإلى النهب الاقتصادي، من خلال استثمارات مشتركة، واجهتها التعاون، وهدفها الحقيقي، بعد أن فُتحت الأبواب لإسرائيل، وانتهت المقاطعة الاقتصادية، هو الهيمنة، والتسيّد الإسرائيلي الأمريكي، وتحقيق التماهي بين ما هو عربي وإسرائيلي، كشكل خطير من أشكال التطبيع.

لقد استطاع مشروع النهضة العربية الذي بدأ يرى النور في نهاية القرن التاسع عشر، ومطالع القرن العشرين، أن يبدل وجه الحياة في تلك المرحلة، وأن يرسم ملامح المشروع القومي الذي انطلق من السعي إلى التحرير والحرية والتوحيد والتثوير وإحياء اللغة العربية وإنماء الثقافة العربية، والثورة على كل ما هو متخلف وعقيم، وشدّ أواصر العروبة، إيماناً بوحدة الأمة لا نقاش فيه أو حوله.. ثم كان، بعد ذلك، الجمود والانكفاء والتوقف ثم التراجع، إلى أن وجدنا أنفسنا، مع نهايات القرن العشرين ومطالع القرن الحادي والعشرين، نعود إلى مواقعنا، في نقاط البداية، وندعو إلى ما دعونا إليه من قضايا كانت سبيلنا إلى النهضة، مع فارق كبير هو أن التقبل للأفكار المطروحة في البدايات كان كبيراً، وكانت مسلمات، وأن الرفض لبعضها أخذ يتنامى فيما بعد، حين صورها الفكر المعادي على أنها رومانسيات لا يجوز الحديث عنها، كفكرة الوحدة العربية، مثلاً، لأنها تمس استقلال الدولة القطرية، ولم يعد بالإمكان مقاربة هذا الأمر، حتى في أدنى الحدود، إلا في بعض الأوساط الواعية المتنورة.

لقد تغير المسار القومي النهضوي، وبدأت بالظهور والتنامي «مسارات جديدة» هي الآن ما يشكل بعض ملامح الواقع العربي الراهن.

الحاجز النفسي أزيل، في التعامل مع إسرائيل، والمقاطعة الاقتصادية تعثرت ثم رُفعت، وفُتحت الأبواب للقاء مع

الإسرائيليين، وأُنشئت المكاتب، بل السفارات، وانفصلت «مسارات السلام والمفاوضات» التي شكلت سلسلة تنازلات، بعيداً عن أسس العدالة وتثبيت الحقوق، وصارت كل هذه الأمور، عند البعض، ديبلوماسيات ذكية، ولين عريكة، وثقافة تسامح وتقدم، وانسجام مع رغبات المجتمع الدولي، وليست ذلاً تأنق حتى صار غفراناً، قولة البدوي، بل كل ما عدا ذلك عندهم لغة خشبية قديمة، لا تليق بأبناء قرننا هذا، مثل الحديث عن فكر قومي، أو مشروع قومي وحدوي.

لقد تناسى هؤلاء، من أبناء العروبة، أن الخطر الصهيوني هو أكثر الأخطار عمقاً وشراسة وتعقيداً، بسببٍ من أنه عرقي عنصري، يتفرد عن معظم مشاكل العصر بارتكازه على فلسفة عقائدية، ودعائم دينية، ضالة مضللة، تضمن لهم تأييداً أمريكياً وأوروبياً بلا حدود، وتعطيهم إمكان البحث عن المدى الحيوي لمشاريعهم الاقتصادية، إلى جانب توسعهم الاستيطاني، والامتداد عبر الأراضي العربية، تحت مظلة أمريكية غربية.

تاريخ إسرائيل على أرضنا، للذين يريدون أن ينسوا أو يتناسوا، هو تاريخ المجازر الهمجية، ومنذ البدايات، من دير ياسين إلى كفر قاسم إلى الخليل إلى الأقصى إلى قانا إلى جنين وطولكرم، وإلى غزة، مرة ومرة ومرة، وإلى العمليات الأخيرة التي رسمت سياسة استئصال للحياة، بالحصار والتجويع، وتهديداً بمحرقة، ربما كانت النازية الهتلرية تبدو متخلفة أمامها، ولعلها تنفيذ

للسياسة الإسرائيلية التي أعلنها مناحيم بيغن عام ١٩٥٨، حين توجه إلى الجيش الإسرائيلي بهذه الكلمات: «عليكم ألا تأخذكم الرحمة، عندما تظفرون بعدوكم، عليكم ألا ترحموا حتى تدمّروا نهائياً ما يسمى بالثقافة العربية التي سوف نبني على أنقاضها حضارتنا نحن»..

وتبنى الدفاع عنها رئيس للولايات المتحدة وصف فيما بعد بالاعتدال، وقال فيما قال، مطمئناً إسرائيل، غداة توقيع كامب ديفيد: «إن منظمة التحرير الفلسطينية لا مكان لها بعد الآن، وإنها مجرد حركة إرهابية، مثل الحزب النازي، ومنظمة كلوكلوكس كلان».

* * *

إن قضية المصير ليست في معرض الخيارات، مهما تبلبلت المفاهيم وتردّت، واستجررنا إلى أزمات تتلوها أزمات، ومصير الأمة هو الذي ينبغي أن يكون له الأولوية في مساحة اهتماماتنا، ومدار قراراتنا، وفي معارك المصير لا يسمح أبداً بإعطاء أي فرصة للاستفراد بهذا البلد أو ذاك، أو الرضى بسقوط ميثاق الدفاع العربي المشترك الذي كان يمكن أن يشكل الدرع العربي المنيع، ونحن أحوج ما نكون إلى ما يؤكد لشعبنا العربي أن قوتنا تأتي من تماسكنا، وعمق وعينا، وعروبة مواقفنا، وسلامة منطقنا، وحجم إخلاصنا، وانضفار عزائمنا، ووقوفنا صفاً واحداً، مدافعين عن الأرض والحق والقيم، في كل الظروف، بل في أعقدها وأصعبها.

ولأننـا لا نريـد أن ننطلـق مـن الاتكـاء عـلى منطـق التـآمر والمؤامرة، وهما أمر واقع دون شك، ولا أن نحمّـل خـسائرنا، بـل هزائمنا، وتشرذمنا، وانكـسار أحلامنـا، واستـسلام الـبعض منـا، وتقـديمهم التنـازلات بعـد التنـازلات، للظـروف الخارجيـة، والضغوط الخارجية، وحدها.

ولأننا نريد أن نكون على مستوى التحدي، أمناء على حقوقنـا وثوابتنا، لا نفرط بها، وأن نأخذ قضايانا بأيدينا، ونتحكم إلى أبعـد حد ممكن بمصائرنا، وأن نحرر إرادتنا، ونرسم ملامـح مـستقبلنا، فقد كان ملحاً أن نعيد وهج الحياة إلى بنياننا القـومي، بالـسعي إلى خلق بيئة ثقافية للتغيير، عـلى بـساط الفكـر، وإلى رسـم مـسارات الاستنهاض التي تنتقل بنا من حال القلـق والتخـوف والنكـوص والانفعـال الـسلبي، إلى رسـم الاسـتراتيجيات الذكيـة، بأبعادهـا السياسية والاقتصادية والإقليمية والدفاعيـة، التـي تمتلـك إمكـان التطوير والارتقاء، وبناء مستقبل أجيالنا العربية، في إطار مشروعنا القومي العقلاني المدروس، وتنهي ما أراد الأعداء أن يوهمونـا بـه، ويقنعوا العالم، من صيغ عجزنا الفطري، أو تخلفنا العرقي، كاشفين كل محاولات تزييف الوعي، مؤكدين للعـالم أجمـع أن أي قـضية في أي جزء من وطننا العربي، هي قضية عربية، بمنطق الحق والأخلاق والواقع، تعنينا في وطننا العربي كله، ولا تنازل أو استسلام.

* * *

لقاؤنا اليوم الذي يأتي على اسم تجديد الفكر القومي، والمصير العربي، يأتي بالضرورة على اسم ثوابت الأمة، ويعني، فيما يعنيه، أن إرادة المقاومة والصمود تستعلي، مهما اشتدت المحن، وأن عزائمنا ستبقى منضفرة متجاوزة، لا تقبل الهزيمة أو الانكفاء أو الاستسلام، وأن هذا المؤتمر الذي يضم نخبة من مفكري وكتّاب الوطن العربي، سيشكل خطوة بناءة تتبعها خطوات، تصحح ما انقلب من مفاهيم، وترسم ما ينبغي أن يستجد من رؤى، وتنهي حال التعثر والجمود، وتضعنا بالرأي الجميع على الطريق الصحيح.

الفكر سلاح، ونحن نريده لصالح أمتنا، وأنتم أصحاب القضية، وأنتم المؤتمنون عليها، وقطعاً لن تفرطوا بها.

ولنا ملء الثقة أن يكون مؤتمركم منبراً للفكر المتألق والمتفتح، والمنفتح، بنظرته الشمولية، وبمداليلها البعيدة الأغوار، على فضاءات العصر، بما يسهم في تحقيق النقلة من مراحل الجمود والتخلف، إلى آفاق النهوض والتطور والتقدم،

وأن ثقافة التنوير والتغيير ستستعيد دورها، وستجتاز امتحانها، وتعطي لنا أن نجبه بها كل التحديات، دون أن نسقط في الحصار، والمصادرات الفكرية السياسية التي تغلق الدائرة من حولنا، وأن نبني قناعات واضحة، تخرج بنا من الحدود الضيقة، والإسهامات الضيقة، إلى عمل فكري واسع، ثقافي قومي حقيقي، نكوّن به جبهة للفكر، تعمل على تنمية الوعي، وبناء المفاهيم، وخلق رأي عام عربي مناضل، وتضفر من فكرنا عزماً أقوى من أن

توهنه الصروف والظروف، المحكومة بـإرادات خارجيـة معاديـة.
لقد بقينا رغم الشتات إلى توحدٍ، بفضل ثقافتنا التي صانت وحـدة أمتنا، عبر قرون طويلة، وربطتنا على أرضية من التكوين المـشترك، والمنظومة المعرفية الواحدة، من الأطلسي، إلى المتوسط، إلى الخليج، أداتها لغة واحدة ، تنـزّل بها القـرآن الكـريم، ولم تتبـدل، وكانـت، ولاتزال، تشدّ بعضنا إلى بعض كالبنيان المرصوص، وتتجه بنا نحو كل ما يزيـد الآصرة العربيـة انتـساباً وانـتماء، ولحمـةً هـي العـروة الوثقى في درع العروبـة، وفي تلاحمهـا المـصيري الـذي يتخـذ مـن وحدتنا الثقافية العربية، ولغتها الرائعة هذه، مهاداً وتوكيداً.

إن لقاءنـا هـذا، بمحـاوره الأساسـية، يكتـسب شرعيتـه وضرورته، من الوضع الراهن محلياً وعربياً ودوليـاً، والثقـة كبـيرة بأنـه سـيجلو، بأبحاثـه ومناقـشاته كثـيراً مـن الغمـوض واللـبس والإشكال والخطل، مما يعتور القضايا المطروحة في جدول أعمالنـا، وسيسهم في زيادة اللحمة بين مثقفينا، في وحدة قناعـاتهم، ولـيس أبداً في أحاديتها، وبحرية لا تكـون دونهـا مـصداقية، وفي هـذا مـا يبعث الأمل في الخروج من أزمات الماضي والحـاضر، إلى مـستقبل أكثر إشراقاً، بعيداً عن الإحباط أو اليأس أو اللامبالاة.

إن ما يمكـن أن يقـوم بـه مفكرونـا ومثقفونـا كبـير الـشأن، ودورهم، بكافة فئاتهم، إذا شاؤوا، دور شديد الأهميـة، فهـم حمـاة الوعي، وحفظة القيم، وأرباب الرأي، ومـن الـضرورة بمكـان أن يتواصلوا، ويتحاوروا، ويلتقوا في مساحات النضال، وألا ينسوا أن

الشعب العربي، من محيطه إلى خليجه، مستنفر القلب والعقل والضمير، وأننا جميعاً نود أن نحول أفكارنا إلى وقائع، ووقائعنا إلى تضامن عربي حقيقي هو فعل عربي مشترك، يؤدي إلى فضاءات مفتوحة على مستقبل يحمل معه التحرر والتقدم والنهوض، ويُمكّن من بناء المصير العربي الذي نريد.

ويسألون عن العلاقة بين الثقافة والسياسة، وهل هما شأنان مختلفان؟

والجواب يأتي على لسان مفكر فرنسي كبير يقول: «حدود السياسة تتداخل مع الثقافة ولا سبيل إلى القيام بعملية ترسيم الحدود، بينهما، وعلى المثقف أن يبقى في موقعه، مما يعطيه إمكان تحرك أبعد مدى».

والحقيقة التي لا شك فيها هي أن المعادلة متكاملة، وأن الترابط واقع، ولا سياسة دون فكر، وبقدر ما يتقدم الفكر تستقيم السياسة.

ثمة أسئلة كثيرة، نحن مدعوون إلى التفكير فيها، وظني أننا سنتدارسها، هي وسواها، في مؤتمرات تتلو، مُغتنية ومغنية، تتواصل فيها دعوة نخب من المفكرين والمثقفين العرب، كي نبدأ برسم الخطوط التي تستمد صوابيتها من آرائكم السديدة، وحرصكم على الخروج بأمتنا من مرحلة هي من أصعب المراحل، وأشرسها، وأشدها خطورة بالتأكيد.

أيها الإخوة

أرحب بكم ثانية في دمشق، معقل العروبة، وعاصمة الثقافة العربية التي يعطيها حضوركم أن تكون أبهى وأكثر ألقاً، ويجعلنا معاً أقدر على بناء مستقبل أجيالنا العربية، على امتداد الوطن العربي، وبما يليق بأمة كانت يوماً في جبهة الشمس.

وأحيي، واليد على الضمير، السيد رئيس الجمهورية - رئيس القمة العربية الدكتور بشار الأسد - أحيي فيه ثوابته المبدئية، وإيمانه الواثق بأمته، وحرصه على أن يكون موقفنا جميعاً هو الموقف الموحد الشجاع الحي الصامد، وأن يتعزز ارتباطنا بقضايانا، ويستقوي تضامننا، حين نحن دونه على حدّ الحدّ.

«سورية في قلب العالم العربي» يقول، والعالم العربي في قلبها أيضاً، كان وسيظل، ومعاً سنمضي في الشوط إلى نهايته.

المجد لك يا قائد الوطن (*)

لقد حملت جراحنا، وشددت من عزائمنا، وأحزنتك مواكب شهدائنا الأبطال الميامين، غير أنك بشجاعتك الرائدة، وإرادتك الحديدية التي لا تعرف الجزع أو الإحباط، جعلت من الأسى ينبوعاً لمواصلة النضال، والتصدي لهمجية الذين عبثوا بقيم الحياة وبالأديان، وامتدت أيديهم الكافرة بالمدى ليمارسوا الذبح المحرم، وكان الرجل الجليل، والعالم المناضل، والعارف المختص باللغة التدمرية، والوطني المنتمي، خالد الأسعد من ضحاياها، ليروي دمه الطاهر ترابك يا تدمر..

وشاء السيد الرئيس الذي يجلّ النضال، ويكرّم المناضلين أن يمنحك، يا خالد، وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة، ويرسمك نجماً على راياتنا إلى جانب أحبتنا من الشهداء الأبرار.

* * *

(*) ألقيت هذه الكلمة في تأبين الشهيد خالد الأسعد الذي اغتاله الإرهابيون حين احتلوا تدمر عام ٢٠١٥.

ويا رفاق الشهيد، ويا آله وأبناءه، لا تجزعوا..

ويا خالد الأسعد

أنت تدمر وتدمر أنت..

وكل ذرة رمل في تدمر تشهد على جهودك وما بذلت، تعرفك وتعرفها، وسيظل جرحك الطاهر نازفاً، يرعف في قلوب مواطنيك، ويظل عويل الرمال، في سمع الدُنا، شاهداً على إجرام المجرمين، وعلى براءة النبالة، في محياك.

حجّتك مكتوبة بالدم الموّار بالغضب، على المعتدين الآثمين، وكلماتك في عمق ما تؤديه، وما كتبت، خالدة خلود الحقيقة..

علّقوك، ويا للعار، على الأعمدة التي رفعتها، بالجهد والعرق، وبأبسط الوسائل، إلى أن تمكنت، وبمساعدة الأصدقاء، في البعثة اليابانية، من الحصول على رافعة، سهّلت عليك مواصلة العمل.

خالد الأسعد

ليس بمقدورنا أن ننساك، أو أن ننسى حجم الهمجية والوحشية، في ارتكاب هؤلاء التكفيريين جريمة الذبح على اسم الدين، والدين منهم براء، والله أكبر على ما يرتكبون باسمه من آثام..

خالد الأسعد

أنت لم تمت، أنت تحيا معنا، في ضمائر مواطنيك وفي ذاكرتهم، بين الأحبة الذين رحلوا عنا وما رحلوا، من الشهداء العظام الذين عطّروا أرضنا وسماءنا بكبير التضحيات..

لك تقدير الوطن، وقائد كفاح الوطن الرئيس بشار الأسد، ولك كل الإجلال من علماء الآثار في العالم، ومن رفاقك في العمل الأثري، ومن كل مواطن يعزّ عليه وطنه..

لقد صبرت وصابرت، لم تهن ولم تستسلم، وبقيت صامداً متحملاً صنوف الآلام، فالوطن كان عندك الأغلى، والحياة في سبيله ترخص.. عشت عزيزاً، ورحلت كريماً، مثل الميامين من أبطال جيشنا الباسل، وأبناء شعبنا المناضل..

خالد الأسعد

الخلود لك ولهم، ما بقيت تدمر مملكة الخلود والخالدين.

فلسطين أمس واليوم وغداً (*)

أحييكم باسم السيد الرئيس بشار الأسد، رئيس الجمهورية، الرئيس الرافض للاستسلام والمساومة والحلول المجحفة، والذي يرى في نضالنا المشترك أمثولة وطنية قومية تدخل في سياق التاريخ أمثولة تاريخ، لأنها معركة وجود وتحرير، وانتصار للقضية الفلسطينية ضد الذين يريدون القضاء عليها.

إن قضايا المصير ليست في معرض الخيارات، مهما تردّت المفاهيم، واستجررنا إلى أزمات تتلوها أزمات، ومصير الأمة هو الذي ينبغي أن يكون له الأولوية في مساحة اهتماماتنا، ومدار قراراتنا، وفي معارك المصير لا يسمح أبداً بإعطاء أي فرصة للاستفراد بهذا البلد أو ذاك، أو الرضى بسقوط ميثاق الدفاع العربي المشترك الذي كان يمكن أن يشكل الدرع العربي المنيع، ونحن أحوج ما نكون إلى ما يؤكد لشعبنا العربي أن قوتنا تأتي من تماسكنا،

(*) كان هذا النص جزءاً من كلمة أعددتها لتكون فاتحة المؤتمر الهام الذي بدأنا بالإعداد له تحت عنوان «فلسطين، أمس واليوم وغداً» ثم حالت المؤامرة الكبرى علينا وعلى الأرض العربية دون إنجازه. دمشق مطلع عام ٢٠١١.

وعمق وعينا، وعروبة مواقفنا، وسلامة منطقنا، وحجم إخلاصنا، وانضفار عزائمنـا، ووقوفنـا صـفاً واحـداً، مـدافعين عـن الأرض والحق والقيم، في كل الظروف، بل في أعقدها وأصعبها.

إننا نريد أن نكون على مستوى التحدّي، أمنـاء عـلى حقوقنـا وثوابتنا، وأن نأخذ قـضايانا بأيـدينا، وأن نحـرر إرادتنـا، ونرسـم ملامح مستقبلنا، ونعيد وهـج الحيـاة إلى بنياننـا القـومي، ونرسـم مسارات الاستنهاض التي تنتقل بنا من حال التخلـف والنكـوص إلى رسم الاستراتيجيات الذكيـة بأبعادهـا الـسياسية والاقتـصادية والإقليمية والدفاعية التي تمتلك إمكان التطوير والارتقـاء، وبنـاء مستقبل أجيالنا العربية، في إطار مشروعنا القومي المدروس.

الشعب العربي، من محيطه إلى خليجه، مستفز القلب والعقـل والضمير، ونحن جميعاً نود أن نحوّل أفكارنا إلى وقـائع، ووقائعنـا إلى تضامن عربي حقيقي، يؤدي إلى فضاءات مفتوحة على مـستقبل يحمل معه التحرر والتقـدم والنهـوض، ويمكّـن مـن بنـاء المـصير العربي الذي نريد، ويسعف في الخروج بأمتنا مـن مرحلـة هـي مـن أصعب المراحل، وأشرسها، وأشدها خطورة بالتأكيد.

*   *   *

لقـد صـار أمـراً غريبـاً أن تتحـدث بعـض أقطارنـا وبعـض سياسيينا عن العلاقـات المميـزة مـع الـدول التـي تقهـر شـعوبنا، وتعتدي على أوطاننا، وتنتهـك حقوقنـا وتـدعم عـدونا، وتـسمنا بالإرهاب الذي يمارسه هذا العدو، وبأشد أشكاله همجية وإجراماً،

وترفض تفهّم الفرق الكبير بين هذا الإرهاب الذي يمارس علينا، وبين النضال التحرري الذي نأخذ به.

وتصوّروا أي خطل إجرامي، لا يخجلون من الجهر به، حين يسمون غزة وهي تحترق، وأطفالها وهم يذبحون، وأبناءها وهم عزّل، بالإرهاب، ولا يرون بأساً بنازية المعتدين عليها، المدججين بأحدث أنواع السلاح، مجرمي الحرب، قاتلي الأطفال، وحاملي الموت والدمار، لأنهم في منظورهم، أو كما يدّعون، المدافعون عن أمن مواطنيهم، أعني مغتصبي الأرض والحق والتاريخ.

إن ما يجري في غزة لم يكن أبداً صراعاً بين طرفين متوازيين مختلفين، بل هو اغتصاب، هو عدوان من طرف لا يملك حقاً ولا انتماء ولا تاريخاً ولا أرضاً، على شعب آمن هو نحن، أصحاب الحق والأرض والتاريخ والتراث، وبسلطان قوى الهيمنة وما تملكه من إمكانات حربية وعسكرية، وفقدان لحس العدالة.

كل المناضلين والمخلصين على أرضنا وفي العالم، يهتفون باسم غزة وهي تحت النار، الكل يكبر غزة ونضالها العنيد، والكل يتحدى نازية إسرائيل وموقف أمريكا، وعجز المؤسسات الدولية الضعيفة أو المتواطئة، وهذا في حد ذاته انتصار إنساني، لم يوازه انتصار، منذ أمد بعيد.

إن الفهم الصادق لحقيقة انتمائنا إلى عروبتنا، هو الذي يعطينا أن يكون لنا مشروعنا الصلب الكفاحي، في الدفاع عن أرضنا وحقوقنا وشعبنا وبيوتنا وأهلنا وعقائدنا، وهو الذي ينبغي أن

يكون الناظم لكل عمل نضالي نقوم به ونلتقي عليه، ونجمع حوله المناصرين والمؤيدين، دون أن يرتهننا الوهم المزيّف، أو المخاوف المحيطة، أو الآلام التي نعيشها جراحاً نغّارة، وأمراً واقعاً يهبط علينا كالقدر المحتوم.

ومن المهم أن نلاحظ أن إرادة الكفاح، تعظم، والمقاومة تزداد تجذراً في أرضنا، وثقافتها المناضلة، تُورق وتزهر في نفوس أبنائنا، والرفض للخط الانهزامي يستعلي، ويزداد الوعي بأن الصمود والمجابهة لا يكونان إلا بالاستعداد النفسي لتحمل المسئوليات، وتقبّل الآلام، وبذل الجهود، متابعة للعمل المشترك، المنطلق من فهم، وعمق إدراك، وخطط مرسومة، يمليها إيمان حقيقي بوحدة العرب، مصيراً وقضايا، وضرورة اجتماع كلمتهم، ونبذ خلافاتهم، والعزوف عن تكريس قطرياتهم، ليكونوا على كفاء الأمل، وقدر المسئولية.

وسورية متمسكة دائماً بالثوابت من مبادئنا، وبقوميتنا العربية، وهي تنطلق في كل المجالات من المنطلق القومي نضالياً، واجتماعياً وثقافياً، وتحرص على ثوابت عروبتها حرصها على سواد العين، وعلينا ألا نيأس أبداً من إعادة الوهج إلى هذه الثوابت التي تبشّر ببزوغ فجر للتضامن والوعي والتعاضد والانتصار على كل أشكال الإرهاب الذي تعاني منه سورية في هذه الأيام، مؤمنة بأن الحق هو الذي سيعلو وأن نضالها سيستمر إلى أن يعلو هذا الحق، وقريباً أو بعيداً سيعلو، وتسقط المؤامرات الفاجرة التي تعتدي على

أرضنا وأبنائنا ومؤسساتنا، وتمعن في التدمير، دون وازع من ضمير، وتجور على كل المحرمات باسم الدين.

لقد دفعنا الثمن تضحيات ومعارك وبطولات، وندفعه دماً وكفاحاً ومقاومة بحجم الكون، فالمحنة ألـمّت وطالت مدى..

ليشهد تاريخ النضال، أننا نعايش مآسينا بشجاعة وصبر، ونحزن ولكن لا نجزع، ويظل موقفنا هو الموقف الموحد الشجاع الصامد، بقيادة رئيسنا الذي نحيي فيه ثوابته المبدئية وإيمانه الواثق بأمته، وبكفاح جيشنا المستميت، دفاعاً عن الوطن الغالي، وبصمود شعبنا وروائع تضحياته، على كل شبر من أرضنا.

حلب ! أيتها البهية (*)

أهلاً إلى حضن الوطن

يا أميرة أميرات المدن، ويا بِشارة النصر..

تاريخك يشهد

كيف تجلجل القوافي في فضائك، وينبغ العباقرة ويشمخ المناضلون، أبطالاً مردة.. سيف الدولة وبنو حمدان وأبو فراس ولا أعدد، ممن ازدهى عصرهم بهم في لا نهائية تخومك، حين ملؤوا الدنيا أمجاداً تساوت فيها فروسية السيف وفروسية الكلمة، فكان هذا الإرث الذي نفاخر به ونزدهي..

وليس عجباً أن يكون شعر المتنبي فيك مناجاة للبطولة والشجاعة والمفاداة التي جسدها سيف الدولة في المعارك التي خاضها في وجه المؤامرات التي شارك فيها مع الروم، كما في الراهن، إخوة وجوار مما جعل المتنبي والحسرة تملأ قلبه يقول لسيف الدولة:

(*) نشرت في جريدة تشرين احتفاءً بحلب، يوم تحررت وانتصرت على الإرهاب، في نهاية عام ٢٠١٦.

وسوى الرّوم خلف ظهْرِكَ رومٌ فعلـــى أيّ جانبيــكَ تَميــلُ

وما أشبه اليوم بالأمس البعيـد، فالـصورة واحـدة والمعـارك متماثلة، بطل قائد يقاتل، والأحرار الشرفاء والبواسـل مـن جيـشه يقاتلون معه، والآخرون المتربصون في غيّهم يعمهون:

لــيس إلّاك يــا علــيّ همــام ســيفه دون عرضــه مــسلولُ

مــا الــذي عنــده تُــدار المنايــا كالــذي عنــده تــدار الــشَّمولُ

المعارك عـلى أرضـك، يـا حلـب، كانـت كبـيرة، ومعاناتـك مبهظة، والإجرام الإرهابي يستهدفك كـما يـستهدف الـوطن كلـه، وإن كان حرصه أشد على الاستبداد بك، بحكم المؤامرة وأهـدافها التدميرية والمخططين لها، واعتقـادهم بأنـك يـا حلـب، سـتكونين مفتاح النصر لهم، ولم يتصوروا أن الموت سيموت على أرضك، وأن القتلة الإرهابيين، ومن وراءهم، ستكون الهزائم المذلة قدرهم..

قائد الوطن، الرئيس البشار، كان أكبر من ظنونهم وتوقعاتهم، وقد تعالى على كل تهديد ووعيد، ومضى بنا، في حلب، وفي كل شبرٍ مـن أرضـنا دنّـسوه بـإجرامهم، في مـسيرته الـشجاعة، وحكمتـه الباسلة، إلى منتهى الشوط، إلى الانتصار الرائع الـذي تحقـق، غـير هيّاب أو عابئ بتطاول التآمر والعدوان، وكنت يا حلب من ورائـه مصابرة صابرة أي صبر، متحمّلة كل ألوان العذاب المضني، مؤمنة بأن الأعصاب، في الأوقـات العـصيبة، تحتـاج إلى الانـضفار عـلى

العزيمة، على الإرادة، على البسالة، وعلى كل ما يدفع إلى التحمّل، إلى الصمود، إلى التقحّم الواثق الذي يلوي جبروت الإرهاب، مهما بلغ ..

ولم تكوني، ولم تكن سورية، في الأوقات العصيبة فقط، وإنما في الأوقات التي تسيل فيها دماء المفادين من أبناء جيشنا البطل، وشعبنا العظيم، لتصبغ أرضنا بالأرجواني الطاهر، النازف من أجسام المقاتلين الأشاوس، على جبهات المواجهة، المفادين بأنبل معاني الفداء، أمام جحافل الإرهابيين الزاحفين من شمال ومن جنوب، والصامدين في أرض المعارك، يكتبون بالدم أمثولتهم في ساحات الشهادة، ومواقع الصمود..

وهكذا، وبقيادة الرئيس البشار، وبالبواسل من أبناء جيشنا، والكماة من مواطنينا، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ظلت جبهتنا الموحدة قوة لا تقبل الاختراق، وظل طريق النضال الرحب لنا، وأنت يا حلب ونحن، مصممون على السير فيه، من موقف ثابت راسخ، في قراع أرباب المؤامرة، الذين وقفوا وراء الإرهاب وموّلوا وسلّحوا، فنحن لا نخون وطننا، ولا نتنكر لقضايانا ومعتقداتنا، ولا يروعنا أن نجد أنفسنا في الساح وحدنا..

وندرك، ونحن نرى إلى هذه المؤامرات، وهي تزداد شراسة وتتصاعد، أنها تستهدف توهين قوانا، وشلَّ عزائمنا، وتهديم كل ما هو جميل وعزيز في حياتنا، في غياب أي موقف عربي مناصر.

وكنا نتمنى، ونحن في ميادين المعارك نناقح عن سورية وعن عروبة الأمة، أن تجتمع كلمة العرب حول الصمود الشجاع، ولم يكن في الحسبان أن يكون العديد من الحكام، وقد محضناهم الودّ يوماً، جزءاً من المؤامرة علينا، والعمالة للإرهاب ولأعداء أمتنا، لا يجمعهم موقف قومي، بل ظلوا أشتات أقطار، يدعمون هذا التواطؤ على سورية التي كانت في طليعة المواجهة لكل ملمّةٍ تلمّ بأي قطر عربي.

ولم يسألوا أنفسهم سورية مستهدفة، لماذا؟ أليست هي درع العروبة؟ ولماذا التآمر عليها لو لم تكن كذلك؟

وكان أمراً رائعاً أن ننتصر، وأن تتحرر حلب، وأن تنكسر على أيدينا جدران الخوف، وأن نتجاوز التهديدات البائسة التي كانت سلاح الإرهاب الهمجي والتعصب المرضي والمخططين لهما والداعمين..

ولم يرعنا، أيضاً، تواطؤ عديد من دول العالم علينا، تلك التي تشهد كل يوم أبشع أنواع الجرائم على أرضنا، ثم تغطّ في نوم عميق، وتفرض على إعلامها توجيه التهم إلينا..

لقد قدمت سورية براهينها بأن النصر هو للصامدين الصادقين المؤمنين بالحق وبالأرض، وبالانتماء للوطن ولأنبل قيم الحياة، وليس أبداً للسفاحين والمجرمين والمعتدين على البراءة والدين باسم الدين الذي هو براء منهم، أو لحماتهم الذين يتبنّون إجرامهم.

ولقد أثبت، يا حلب، بصبرك وصمودك، أن الوطن هو الأعلى وهو الأغلى، وهو الجدير بكل ألوان التضحيات..

وأن الفجر سيشرق عاجلاً أو آجلاً، لا فرق، ومهما بلغت ضراوة العدوان، أو كان حجم تضحياتنا في وجه الإعصار الأسود، وزوبعته العاتية، والخيانات البائسة المستعلنة..

* * *

المجد والإعزاز لشهدائنا الأبطال، لجيشنا العظيم، لمقاتلينا البواسل ولجرحانا والمصابين أينما كانوا على الأرض التي روتها دماؤهم..

وللمقاومة الباسلة التي أقدمت بحمية تناصر سورية بمناضلين من ميامين حزب الله، ومن أشداء إيران، ومن الأصدقاء في الاتحاد الروسي،

والإكبار لك، يا رئيسنا، أيها الآخذ بنا في طريق النصر، مهما ادلهمّت الخطوب، ومهما يطل الزمن أو يتطاول. إننا على ثقة كبيرة فيك، وبأنك المفادي في جبه الريح السموم تهب من جنوب أو شمال، والثابت على المبادئ.

قيادتك مطلب ملحٌّ في كفاحنا الوطني، وفي صمودنا وتصدينا، وفي نضالنا العنيد المتواصل من أجل التحرير.

قيادتك تأتي مكللة بكل أوراق الغار التي توشح هامات العظماء، يفولذها المنطق السليم، ويزيدها توهجاً وعنفواناً نبض وجدان يسمو بعشق الوطن، والكفاح من أجل إعلاء شأنه..

إنك الأمل الوضاء والقائد الفذ، ومقولتك الرائعة التي نؤمن بها جميعاً، ويسعى شعبك النبيل معك، وبكـل أطيافـه، لتحقيقهـا، هي أنه لا تفريط بذرّة من تراب الوطن، هذا الذي سقاه شـهداؤنا، أحباؤنا، بالدم سخياً، وافتدوه بالروح، وبكل ما هو غالٍ وثمين..

وأنت يا حلب

إن بعض كبرك من كبر قائدك

وبعض مجدك من مجده

ولن يصغر هذا الكبر

ولن يأفل هذا المجد

❖ ❖ ❖

المحتوى

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٧م